

كتاب الحيوان

تأليف

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

الجزء الأول

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

تقديم مكتبة الجاحظ

عَمَّرَ الله باليقين قلبَكَ، وأفاض عليك مِنَ الخير، وعَقَّدَ بيننا وبينكَ سبباً من الرِّضا، وَحَبَّبَ إلينا كما حَبَّبَ إليك الحقَّ، وأمتعَ عينَكَ وقلْبَكَ، بما سيطالعكَ من عَجَبِ الجاحظ، وما افتنَّ فيه وأبدع؛ وأضفى عليك البشاشة وأسبغَ ظلَّ العافية⁽¹⁾.

1 - بيان الجاحظ :

وبعد، فالجاحظُ إمامٌ فذٌّ من أئمة البيان في العربيَّة، وليس من الإسراف والمغالة أن نعدَّه زعيمَ البيان العربيِّ، نطلق القولَ في ذلك إطلاقاً. هو زعيمُ للبيان العربيِّ في قوَّته وأسرهِ، وفي دقَّتِهِ وصحَّتِهِ، وحلاوته وجماله وفنِّهِ.

كان الجاحظُ زعيماً للبيان العربيِّ، وهو كذلك أحد زعماء المكتبة العربيَّة، التي كانت في الصدر المقدَّم من مكتبات الدنيا، فيما أسدَّتْ للإنسانية والفكر العربيِّ واللِّسان العربيِّ من خير، وما بسطته على ظلام المدينيات المتهافتة من نور.

2 - عصر الجاحظ :

كان الجاحظ في العصر الذهبيِّ للأمة العربية: عصر هارون والمأمون؛ والعلوم والآداب والفنون يومئذٍ تزخر بها معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقُربطبة، وسائر عواصم الإسلام، وكان المعين فياضاً مُترعاً، والعقولُ في نشاط وفورة، والتَّأليفُ والترجمةُ لهما دويُّ النَّحل في كلِّ صُقع. الدِّينُ يدعو إلى العلم والنُّور، والمالُ تلمع وجوهه في عيون أهل الفضل، فيُذكي العزائم، ويبرِّم العقْد. والعلمُ ولودٌ، وصاحبه كلُّما ارتوى منه عادَ به في سبيل الظُّمأ، وحيثما شبع منه رجع به في سبيل الجوع.

3 - التَّأليف في عصر الجاحظ :

عاصر الجاحظُ ثلاثةً ممَّن ضربوا بسهمٍ كبيرٍ في وفارة الإنتاج الفكري والتَّأليف، واستَوَوْا على غايةٍ قصَّر عنها من عداهم:

(1) للجاحظ مذهب في البيان، من سار في أوله دفعه الإعجاب إلى أن يحاول السلوك إلى غايته. وقد أبى علي فضله، إلا أن أجعل صدر تقديمي له في مثل صورة بيانه.

✳ **أحدهم:** أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (110-209)، وكان من أهل البصرة، وُلد وتوفي بها⁽¹⁾. قال صاحب الوفيات: «وتصانيفه، تقارب مائتي مصنف⁽²⁾». وقد سرد منها ابن النديم في فهرسه مائة وخسمة⁽³⁾، وقال فيه الجاحظ: «لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلم منه⁽⁴⁾».

✳ **والثاني:** أبو الحسن علي بن محمد المدائني (135-225) له نحو مائتين وأربعين مصنفًا، على ما أحصيت في فهرس ابن النديم، وقد روى الجاحظ عنه في البيان وفي الحيوان روايات كثيرة.

✳ **وثالث هذه الجماعة:** هشام بن محمد الكلبي الكوفي (000-206) عدت كتبه في الفهرس فالفيتها نحو مائة وتسعة وثلاثين مؤلفًا⁽⁵⁾.

كان للجاحظ في هؤلاء الرُّهط أسوء، وحافز في المسابقة والمنافسة؛ إلى ما وهبه الله من لسنٍ واقتدار، ومن ذكاءٍ خارق ونفاذ، وذاكرة - في العلم - قوية⁽⁶⁾، واستهتار بالمعرفة والتبيين.

حدّث أبو هُثَّان⁽⁷⁾ قال: «لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط، إلا استوفى قراءته، كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين، ويشب⁽⁸⁾ فيها للنظر».

ولللجاحظ في صدر الجزء الأول من الحيوان، نعت للكتب، يقع منه الدليل على ما ملأ الله به صدر هذا الرجل من إيمانٍ بما للعلم والكتاب من شرفٍ وجاه، وما للفتهم والقراءة من مكانٍ عالٍ، ومنزل كريم. والعجب أن تلك الأسفار التي غني بها صاحبنا، لم تبرز به ولم تبادل الوفاء، فَعَدَرْتُ به، «وكان موته بسقوط مجلدات العلم عليه⁽⁹⁾!!».

4 - مؤلفات الجاحظ:

خرج الجاحظ عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفًا في ألوانٍ شتى من المعرفة، رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد، سبط ابن الجوزي⁽¹⁰⁾ المتوفى سنة 654.

(1) جلس إليه الجاحظ كما في البيان (3: 265).

(2) الوفيات (2: 106).

(3) الفهرس 79 مصر، 53 ليبسك.

(4) البيان للجاحظ (1: 347).

(5) 147 مصر، 101 ليبسك. ولم يمكنني تحديد العدد في هذا الموضع والذي قبله لمرونة عبارة ابن النديم.

(6) ذكر الجاحظ، كما في تاريخ بغداد (12: 214) ومعجم الأدباء (6: 56) مرجليوث، أنه نسي كنيته ثلاثة أيام ثم ذهب إلى أهله فقال: بمن أكني؟ فقالوا: بأبي عثمان!! وهكذا طغت ذاكرته في العلم على ذاكرته في غيره.

(7) كان أخباريًا راوية مصنفًا. الفهرست 207 مصر، 144 ليبسك.

(8) في الأصل: «بيت».

(9) شذرات الذهب (2: 122).

(10) مرآة الزمان الورقة 58 من المجلد الثالث من الجزء العاشر (مصورة دار الكتب المصرية). والنص فيها: «أما مصنفاته فثلاثمائة وستون مصنفًا، ووقفت على أكثرها في مشهد الإمام أبي حنيفة».

ذاك أقصى تقدير وصلت إليه كتب الجاحظ، الذي يقول فيه المسعودي⁽¹⁾: «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه». على أن أدنى ما تنزل إليه في التقدير، أن تكون مائة ونيّف وسبعين كتاباً. قال ابن حجر في لسان الميزان⁽²⁾: «وسرد ابن النديم كتبه، وهي مائة ونيّف وسبعون كتاباً». وياقوت في معجم الأدباء⁽³⁾ قد ذكر فهرست كتبه ورسائله، فأثبت منها مائة وثمانية وعشرين مصنفاً. وليس بنا أن نحقق مبلغ عدد هذه الكتب، ولكن ما نريد أن نقول، أن الجاحظ في الرّعيّل الأول من مؤلفي عصره وكتابه.

والآن نَسأل: أين ذهبت هذه الكتب جميعاً، وفي أيّ مطرح طوّح بها الزّمان!! لقد ضرب الدّهْر على كثيرها، فعادت في مثل صنعة الساحر، لمعت حيناً ثم انكفأت. أفنقول: إنّ أعاصير الخلاف المذهبيّ عصفت بها، فلم ضاعت آثار غيرِه من أهل السّنة والجماعة؟!

الحق أن الخمود الذهنيّ وهبوط الهمم، كان لهما معظم الأثر في ضياع هذه النفائس وفقدّها، والحق أن الفوضى السياسيّة التي مُنيت بها الأمّة الإسلاميّة في مسائها الأول، والتي كانت قائمة - في أكثر ما تقوم - على التدمير والتخريب والانتقام - جعلت تهدم في هذا الصّرح الفكري، حتى أتت على كثير من قواعده، ولم تُبق إلا وشلاً من محيط!!

ومهما أحزننا فقد كثير من آثار الجاحظ، فإنّ ممّا يجلب إلينا العزاء، أن تبقى الآيام منها قدراً لا يستهان به ولا بنفاسته، قد سار بعضه بين الأدباء فكان له فضل كبير في تقويم السّنتهم، وتأدّبهم، وحمّت بعضه الآخر خزائن متناثرة في أرجاء المعمورة، ساعمل جهدي على إخراج ما يمكن منها، بعون الله، ما مُدّ لي في الحياة.

5 - ابن النديم والجاحظ:

والعجب أن الناظر في فهرس ابن النديم لا يكاد يرى فيه شيئاً عن الجاحظ، إلا عرضاً واستطراداً، مع أن ابن النديم كان من أساطين الوراقة، وأبرع مختصّ بفن الكتب والمكتبات.

لقد عجبت، ووجدت شيخ العروبة وفقيدها «أحمد زكي باشا» قد سبقني بهذا في أثناء تحقيقه لكتاب التاج، وكشف السرّ عن ذلك، بما أقام من دليل قاطع، أن النسخة المطبوعة من الفهرس مبتورة ناقصة⁽⁴⁾. وقد أسلفت قريباً⁽⁵⁾ نصّاً من لسان الميزان، يؤيد ما ذهب إليه شيخ العروبة.

(2) لسان الميزان (4: 357).

(4) مقدمة التاج 43-44.

(1) في مروج الذهب 4: 135.

(3) معجم الأدباء (6: 75-78) مرجليوث.

(5) انظر السطر الثالث من هذه الصفحة.

6 - منحى الجاحظ فى التأليف :

صنع الجاحظ هذه الكتب جميعاً . ولم يكن همُّه همَّ غيره من المؤلفين ، فى الجمع والرِّواية والحفظ ، وإنَّما كان وُكده أن يبتكر وأن يُطرف ، وأن يخلُق للنَّاس بديعاً ، يمسح على جميعها بالدُّعابة والهزل ، ويُشيع الفكاهة فى أثناء الكلام . فجمع بذلك قلوب القارئى إليه ، واستولى منهم بذلك على شتى ميولهم إلى ما يكتب ، فصَبَّوا إليه وأغرموا به غراماً ! وطرق الجاحظ فى كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرَّب إلى العامة⁽¹⁾ وحرَّص أشدَّ الحرَّص على استرضائهم . ولم ينسَ فى ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة فى المعارف العالية ، والسياسات الرفيعة .

7 - قيمة كتب الجاحظ :

قال أبو حيَّان⁽²⁾ : « ومن عجيب الحديث فى كتبه ، ما حدَّثنا به عليُّ بن عيسى النحويُّ الشيخ الصالح ، قال : سمعتُ ابن الأخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان فى أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ، ليكون ذلك كالفهرست . ومرَّ بي فى جملتها : الفرق بين النبي والمنتبي ، وكتاب دلائل النبوة ، وقد ذكرهما هكذا على التفرقة ، وأعاد ذكر الفرق فى الجزء الرابع⁽³⁾ لشيءٍ دعاه إليه فأحببتُ أن أرى الكتابين ، ولم أقدرُ على واحدٍ منهما . وهو كتاب دلائل النبوة ، وربما لُقِّب بالفرق خطأ . فهَمَّني ذلك وساءني ، فى سوء ظفري به . فلَمَّا شَخَّصت من مصرَ ودخلتُ مكَّة - حرسها الله تعالى - حاجاً ، أقمتُ منادياً بعرفاتٍ ينادي - والناسُ حضورٌ من الآفاقِ على اختلاف بلدانهم وتنازع أوطانهم ، وتباينُ قبائلهم وأجناسهم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن مهبِّ الشمال إلى مهبِّ الجنوب ، وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر - : رحم الله من دلَّنا على كتاب الفرق بين النبي والمنتبي لأبي عثمان الجاحظ ، على أي وجه كان !

قال : فطاف المنادي فى ترابيع عرفات وعاد بالخبيبة وقال : حجَّت الناس مِنى ولم يعرفوا هذا الكتاب ، ولا اعترفوا به !

قال ابن الأخشاد : وإنما أردت بهذا أن أُبلغ نفسي عذرَها .

قال ياقوت : « وحسبك بها فضيلةً لأبي عثمان ، أن يكون مثلُ ابن الأخشاد - وهو من هو ، فى معرفة علوم الحكمة ، وهو رأسٌ عظيم من رءوس المعتزلة - يُستهام بكتب الجاحظ حتى ينادي عليها بعرفات البيت الحرام . وهذا الكتاب موجودٌ فى أيدي النَّاس اليوم لا تكاد تخلو خزائنه منه . ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخةٍ أو أكثر . »

(1) قال الجاحظ فى البيان 1 : 137 : « وإذا سمعتموني أذكر العوام فإنني لست أعني الفلاحين والحشوة ، والصناع والباعة ، ولست أعني الأكراذ فى الجبال ، وسكان الجزائر فى البحار ، ولست أعني من الأمم مثل البير والطيلسان ، ومثل موقان وجيلان ، ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب ، وفارس ، والهند ، والروم ، والباقيون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا » . فهذا ما يعنى الجاحظ بهذه الكلمة .

(2) انظر معجم الأدباء (6 : 72-73) مرجليوث . (3) الحيوان (4 : 224) .

والمسعودي، وهو ممن يُعدُّ في خصوم الجاحظ، يقول في مروج الذهب⁽¹⁾ في نعت كتب الجاحظ: «وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور⁽²⁾، تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنَّه نظَّمها أحسن نظم، ورصَّفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوَّف ملل القارئ، وسامة السامع، خرج من جدِّ إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة. وله كُتُب حسان، منها كتاب البيان والتبيين، وهو أشرفها؛ لأنه جمع فيه بين المثنور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبلغ الخطب؛ ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين والبخلاء. وسائر كتبه في نهاية الكمال، ما لم يقصد منها إلى نصب، ولا (صوابها أو) إلى دفع حق». وهذا حديث آخر، تعرف به مكانة كتب الجاحظ، وما أدركت من شأو وغاية.

قال أبو القاسم السيرافي⁽³⁾: «حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد، فجرى ذكرُ الجاحظ، فغضَّ منه بعضُ الحاضرين، وأزرى به، وسكت الوزيرُ عنه. فلما خرج الرجلُ قلت له: سكتَ أيُّها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله، مع عادتكَ في الردِّ على أمثاله! فقال: لم أجِد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله. ولو واقفته وبيَّنتُ له، لنظر في كتبه وصار بذلك (إنساناً) يا أبا القاسم. فكتب الجاحظ تعلِّم العقلَ أولاً، والأدبَ ثانياً!! ولم أستصلحه لذلك». والخليفة المأمون العباسي، كان من قراء الجاحظ، ومن المقدِّرين لعلمه وفضله في كتبه.

قال الجاحظ - وهو يسرد طائفة من بلاغات المأمون⁽⁴⁾: «ولما قرأ المأمون كتيبي في الإمامة، فوجدها على ما أمر به، وصرتُ إليه - وكان قد أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها. قال لي: قد كان بعضُ من يرتضى عقله، ونصدَّق خبره، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلت: قد تُربى الصِّفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصِّفة، فلما فليتها أربى الفلى على العيان كما أربى العيان على الصِّفة!!».

8 - دِيعُ كُتُبِ الْجَاحِظِ :

وكانت كتب الجاحظ تذيع وتنتشر، وتطير إلى الآفاق، في حياته، للرغبة الملحة فيها، ولحرص الناس على ما فيها من خير كثير. وإليك صورةٌ تُنبِّئُ عن مبلغ هذا الدِّيع، وتَقْفُكُ على مقداره: روى الخطيب البغدادي في كتابه⁽⁵⁾ عن يحيى بن عليّ، أنه قال: حدثني أبي

(1) مروج الذهب (4: 47).

(2) يريد ما كان عليه من الاعتزال وعداوة الشيعة. وكان المسعودي شيعياً.

(3) الحديث في وفيات الأعيان (1: 389).

(4) البيان (3: 347).

(5) تاريخ بغداد (12: 214). وانظره كذلك في معجم الأدباء (6: 65) مرجليوث.

قال: قلت للجاحظ: إني قرأت في فصل من كتابك المسمّى كتاب البيان والتبيين⁽¹⁾: إن ممّا يستحسن من النّساء اللّحن في الكلام، واستشهدت بيّتي مالك بن أسماء - يعني قوله⁽²⁾:

وَحَدِيثُ أَلْذَّةِ هُوَ مَمَّا يَنْعَتُ النَّاعَتُونَ يُوزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقُ صَائِبٍ وَتَلَحَّنَ أَحْيَا نَأْوَخِرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

قال: هو كذاك. قلت: أفما سمعت بنخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج، حين لحنّت في كلامها، فعاب ذلك عليها فاحتجّت ببيت أخيها، فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر، لتستر معناه وتورّي عنه، وتفهّمه من أرادت بالتعريض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: 30] ولم يرد الخطأ من الكلام. والخطأ لا يستحسن من أحد؟! فوجم الجاحظ ساعة ثم قال: لو سقط إليّ هذا الخبر لما قلت ما تقدم! فقلت له: فأصلحه. فقال: آلاّن وقد سار الكتاب في الآفاق!! هذا لا يصلح!!.

وصورة أخرى⁽³⁾: قيل لأبي هفان وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفان -: لم لا تهجو الجاحظ، وقد ندّد بك، وأخذ بمخنّك؟! فقال: أمثلى يُخدع عن عقله؟! والله لو وّضع رسالته في أرنبة أنفى، لما أمست إلا بالصّين شهرة! على مثل ذلك كانت كتبه تغزو الآفاق، وتطير في الدنيا، إلى أن كُتب لها ما كُتب.

9 - وراقو الجاحظ:

لم يكن بُدّ للجاحظ - وقد منحه الله في القراءة والتأليف، اقتداراً نادراً وصبراً عجيّباً - من أن يستعين بمن يأنس فيه العون، ليتمكّن من تحقيق مطمح، فكان له وراقون⁽⁴⁾، يكتبون له ويكتبون عنه. عثرت على اسم أحد هؤلاء الوراقين في موضعين: أحدهما أمالي القالي⁽⁵⁾ حيث نجد هذا النص: وقرأت على أبي بكر بن دُرَيْد، ليلى الأخيلية وقال لي: كان الأصمعيّ يرويها لحميد بن ثور الهلالي - قال أبو علي: فكذا وجدته بخط ابن زكريا «وراق الجاحظ» في شعر حميد:

يَأْيَهَا السَّدَمُ الْمَلُوءِي رَأْسَهُ لِيَقُودَ مِنْ أَهْلِ الْحَبَازِ بَرِيماً

والموضع الثاني: معجم الأدباء⁽⁶⁾، حيث ذكر ياقوت كتابي «النساء» و«النعل» وقال: «قال ابن النّديم: ورأيت أنا هذين الكتابين بخط زكرياء بن يحيى، ويكنى أبا يحيى، وراق

(1) انظر البيان (1: 147).

(2) في استملاح اللحن من بعض نسائه.

(3) معجم الأدباء (6: 71) مرجليوث.

(4) ما كان أجدر بكلمة الوراق أن تستعمل في معنى «السكرتير» التي حيرت اللغويين.

(5) أمالي القالي (1: 248).

(6) معجم الأدباء (6: 75) مرجليوث.

«الجاحظ». وقد عرّف ابن النّديم باسم ذلك الوراق فذكر والده وكنيته، على حين ذكره القاليّ غُفلاً، ممّا يرجّح لدينا أنّ يكون الصواب في اسم هذا الورّاق، ما نقل ياقوتٌ عن ابن النّديم. وللجاحظ ورّاق آخر، هو عبد الوهاب بن عيسى بن أبي حيّة الورّاق. وقد ينسب إلى جدّه. روى عن إسحاق بن إسرائيل ويعقوب بن أبي شيبة⁽¹⁾. قال الزبيدي⁽¹⁾ نقلاً عن الحافظ: «وكان ورّاقاً للجاحظ، وعاش إلى رأس الثلاثمائة».

وفي تاريخ بغداد⁽²⁾ أنّه عبد الوهاب بن عيسى بن عبد الوهاب بن أبي حيّة. وكنيته: أبو القاسم. سمع إسحاق بن أبي إسرائيل، ومحمد بن معاوية بن مالح، ويعقوب بن إبراهيم الدّورقي، ومحمد بن شجاع الثّلجي، ويعقوب بن شيبة السدوسي. روى عنه أبو عمرو بن حيويه، والدارقطني. وابن شاهين، وأبو حفص الكنانيّ، وكان صدوقاً في روايته، ويذهب إلى الوقف في القرآن. أخبرنا الأزهرّي، أخبرنا أبو الحسن الدارقطني قال: عبد الوهاب بن عيسى بن أبي حيّة ثقة يُرمى بالوقف. أخبرنا السّمسار أخبرنا الصّقّار، حدثنا ابن قانع، أن أبا القاسم بن أبي حيّة مات في شعبان من سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

(1) تاج العروس 10 : 108 س 3-4 .

(2) تاريخ بغداد 5695 .

تقديم كتاب الحيوان

1 - كتب الحيوان :

سبق اليونانيون أسلافنا العرب، إلى التأليف في علم الحيوان. قال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم الحيوان⁽¹⁾ : « وفيه كتبٌ قديمة وإسلامية : منها كتاب الحيوان لديمقراطيس، ذكر فيه طبائعه ومنافعه. وكتاب الحيوان لأرسططاليس، تسع عشرة مقالة، نقله ابن البطريق من اليوناني إلى العربية. وقد يوجد سريانياً نقلاً قديماً، أجود من العربي. ولأرسطو أيضاً كتاب في نعت الحيوان غير الناطق، وما فيه من المنافع والمضار⁽²⁾. وذكر بعد ذلك كتاب الحيوان للجاحظ، ومختصره لأبي القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر⁽³⁾ المتوفي سنة 806، وللموفق البغددي أيضاً.

ونستطيع أن نقول : إنَّ الجاحظَ أوَّلَ واضعٍ لكتاب عربيٍّ جامع في علم الحيوان. وقد كان قبله وفي عصره محاولاتٌ شتى لطائفة من العلماء، يتحدثون فيها عن الحيوان، نذكر منها :

* **كتب الإبل :** لأبي حاتم السَّجِسْتَانِي (000-248)، وللأصمعي (122-216)، ولأبي عُبَيْدة (110-209)، وللنَّضر بن شَمِيل (122-203)، ولأبي زياد الكلابي⁽³⁾، ولأحمد بن حاتم الباهلي (000-231).

* **كتب الخيل :** لابن قُتَيْبَة (213-276)، وابن الأعرابي (150-231)، وأبي عُبَيْدة، وأبي جعفر محمَّد بن حبيب البغدادي (000-245) وأبي محمَّد بن هشام الشيباني (000-245)، ولأحمد بن حاتم.

* **كتب الغنم والشاء :** لأبي الحسن الأخفش (000-215)، وللنَّضر بن شَمِيل، وللأصمعي.

* **كتب الوحوش :** للأصمعي، ولأبي زيد أستاذ الجاحظ (119-215)، ولأبي حاتم السَّجِسْتَانِي.

* **كتب الطير :** لأبي حاتم السَّجِسْتَانِي، والنَّضر بن شَمِيل، وأحمد بن حاتم الباهلي.

(1) كشف الظنون 1 : 456 .

(2) وسماه روح الحيوان. ابن خلكان 2 : 188 .

(3) اسمه يزيد بن عبد الله بن الحر، أعرابي بدوي. قال دعبيل : قدم بغداد أيام المهدي حين أصابت الناس المجاعة، ونزل قطيعة العباس بن محمد فأقام بها أربعين سنة، وبها مات. وكان شاعراً من بني كلاب. ابن النديم 67 مصر، 44 ليبسك.

* **كتب البازي والحمام والحيات والعقارب** : لأبي عبيدة .

* **كتاب الفرس** : للأصمعي .

* **كتاب النحل والحشرات** : لأبي حاتم السجستاني . وللأصمعي كتاب في النحل والعسل ⁽¹⁾ .

وهذه الكتب لم تؤلَّفَ للقصد العلمي الخالص ، وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولاً ، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألّفت له ، فهي لا تبحث في طبع الحيوان وخصائصه بحثاً ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاده ، وإنما تجعل همّها الأول والثاني هو اللغة ، وقد يكون منها أن تبحث البحث العلمي ، ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول . وأسوق إليك نموذجاً من نصوص تلك الكتب ، لتكشف أماكك صورة ما أسلفت .

فهذا أوّل كتاب الإبل للأصمعي ⁽²⁾ : « قال أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي : أجود وقت يُحمل فيه على النّاقة أن تجمّ سنةً ويحمل عليها . فيقال : قد أضربت الفحل ، وأضربها الفحل . فإذا حمل عليها في كلّ عام فذلك الكشاف . يقال ناقة كُشوفٌ ، وقد أكشَفَ بنو فلان العام فهم مُكشِفون : إذا لقحت إبلهم على هذا الوجه . قال رؤبة :

حربٌ كشافٌ لقحت إعراراً

وإليك نصّاً آخر من خلاله ⁽³⁾ : « ومما يذكر من ألوان الإبل ، يقال بعير أحمر وناقة حمراء ، وإذا بُولغ في نعت حُمرة قيل : كأنه عِرْق أرطاة . ويقال : أجلدُ الإبل وأصبرُها الحُمُر . فإذا خلطَ الحمرة فُئوء فهو كُميت . فإذا خلطَ الحمرة صفرةً قيل : أحمر مدّمي . قال حميد بن ثور :

وصار مدّماها كُميتاً وشبّهت قروح الكلى منها الوجار المهّداً

وهذا آخر كتاب الإبل للأصمعي ⁽⁴⁾ : « أسماء عدد الإبل : الدّود : ما بين الثلاثة إلى العشرة . والصّرمة : القطعة التي ليست بالكثيرة . والصّبّة : فوق ذلك إلى العشرين إلى الثلاثين ، إلى الأربعين .

والعكرة : إلى الخمسين ، إلى الستين إلى السبعين .

والهجمة : المائة وما دناها . والهنبدة : مائة . والعرج : الإبل إذا كثرت فبلغت مائتين قيل عرج . والبرك : إبل القوم جميعاً ، التي تروح عليهم . قال متمم :

ولا شارف حبشاء ريعت فرجعت حنيناً ، فأبكى شجوها البرك أجمعا

(1) اعتمدت في استخراج هذه الكتب على وفيات الأعيان ، وبغية الوعاة ، ونزهة الألباء ، وفهرس ابن النديم ، وكشف الظنون ، ومعجم الأدباء .

(2) ص 66-67 من مجموعة الكنز اللغوي المطبوع في بيروت 1322 .

(3) ص 127 من الكتاب السابق .

(4) ص 157 ، وكتاب الوحوش للأصمعي طبع في فينا سنة 1888 ، والخيّل له في فينا 1895 ، والشاء له في بيروت 1896 .

2 - كتاب الحيوان للجاحظ :

هذه صورة من صور كتب القوم في الحيوان . أمّا الجاحظ فأما ملك كتابه ، ينطقُ بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً ، ولكلّ مملكة من ممالكه ، ولكلّ جنس من أجناسه ، وهو فضلٌ للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممّن كتب في الحيوان . وإن أعوزه بعضُ الترتيب والتهذيب فهو شأنُ كلّ كتابةٍ جديدة ، في أمرٍ متشعبٍ الأطراف ، ممدودٍ النواحي .

3 - مرجع الجاحظ في تأليف الحيوان :

والآن نسأل : ماذا كان مرجع الجاحظ في هذه الموسوعة العظيمة ، وأين أصاب هذا الفيض المتدافع ؟ لقد استفتيت كتاب الحيوان نفسه ، بإدمان قراءته ، وتقليب صفحاته فوضح لي أنّ صاحبه اعتمد في تأليفه على أمور خمسة رئيسة :

*** أولها :** النبوع الذي لا ينضب من القرآن وحديث الرسول ﷺ .

*** والثاني :** وعليه كان أكثر اعتماده : « الشعر العربي » فالشعر العربي وبخاصة البدوي منه ، قد تحدّث عن الحيوان حديثاً طويلاً ، تحدّث عن الأنيس منه ولم يهمل الوحشي ، بل أشرك بين هذا وذاك .

فالعرب تحدّثوا عن الإبل في شعرهم وأطالوا الكلام ، تحدّثوا في نعتها فلم يذروا دقيقة من دقائقها ، وتكلّموا في حملها وتناجها ، ورأى وحنيها ، وحلبها وألبانها ، وألوانها ونجارها ونسبها ، وأصواتها ودعائها ، ورعيها وشربها وسيرها وسراها⁽¹⁾ . وكان لهم في الخيل نعتٌ مفصّل ، وعنايةٌ بمثل ما اعتنوا به في الإبل . ووفوا كذلك لكلاهما وشائهم . ولا تكاد تجد قصيدة معدودة للعرب إلّا وللحيوان الأنيس فيها شأن .

أما الوحشيات - وفلواتهم مواطنٌ غنيّة بها - فلم يُغفلوها ، ونطق شعرهم بالأسد⁽²⁾ ، والنمر ، والذئب⁽³⁾ ، والثعلب ، والضب ، وغيرها .

وذكروا من الطيور النُسور والعقبان والرّخم ، والجداً والقطا والحجل . ولو أردت أن أستقصي سائر ما نعتوا من الحيوان ، في شعرهم وحديثهم وأسمارهم - ما استطعت . ولو استطعتُ لامتدّ القول وفاض .

والجاحظ يرى أنّ العرب - والأعراب منهم خاصة - قد ثَقّفوا معرفة الحيوان ، وبرعوا في ذلك البراعة ، واستوعبوا حاله وعاده . وهو يقول في ذلك⁽⁴⁾ :

(1) مما أقوم به الآن إعداد كتاب يبحث في أثر الإبل في حياة العرب وأدبهم ولغتهم ، أرجو الله العون في إتمامه .

(2) أشهر عربي وصف الأسد هو أبو زيد الطائي . انظر خبره في الأغاني وطبقات ابن سلام ومعجم الأدباء .

(3) كانوا يفخرون أحياناً بإشراكهم الذئب فيما يطعمونه . وممن عرف بذلك الفرزدق . وله خبر مع الذئب في إطعامه لحم شاة له . خمسة دواوين العرب 160 .

(4) الحيوان (3 : 148) .

«وقلّ معنّى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين) إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب».

وقال في الكلام على السباع المشتركة الخلق⁽¹⁾: «وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضبع والسمع والعسبار؛ إذ كانت معروفة عند الأعراب، مشهورة في الأخبار، منوها بها في الأشعار».

وهو يظهر السبب في جودة معرفة الأعراب للحيوان، بقوله⁽²⁾: «وربما، بل كثيراً ما يُبتَلون بالنّاب والمخلب، واللّدغ واللّسع، والعضّ والأكل. فخرجت بهم الحال إلى تعرّف حال الجاني والجارج والقاتل، وحال المجنيّ عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطّلب والهرب، وكيف الدّاء والدّواء؛ لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر. مع ما يتوارثون من المعرفة بالدّاء والدّواء». والكتاب مفصّل بكثير من الشعر العربي، موثّع بعيون ما نظم العرب والأعراب في الحيوان من شعر.

وللجاحظ ثقة تامة في الشعر العربي، فهو يصدره في الردّ على أرسطو، ويحتجّ به عليه. قال بعد أن سرد قول أرسطو في عقوق العقاب⁽³⁾: «هذا قول صاحب المنطق في عقوق العقاب وجفائها لأولادها. فأما أشعار العرب فهي تدلّ على خلاف ذلك، قال دريد بن الصّمة⁽⁴⁾:

وكلّ لجوج في العنان كأنها إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر
لها ناهض في الوكر قد مهّدت له كما مهّدت للبعل حسناء عاقر

والمادة الثالثة من مواد الكتاب، هي (كتاب الحيوان لأرسطو⁽⁵⁾). وقد نقل عنه الجاحظ نصوصاً ليست من الكثرة بمكان، ولكنها من القيمة والنّفاة بمكان عظيم.

وصاحبنا رجلٌ جريء العقل، عنيف الفكر، فهو لا يقبل هذه النصوص بعلاقتها، بل يطرحها على الممتحن، ولا يطأطيء بفكره لها، وإنما يصعد به عالياً ليرى وجه الحق فيها. وقلّما ترك واحداً منها إلّا تكلم فيه، وعرضه على الحجّة.

فمن ذلك ما قال⁽⁶⁾: «وقد ذكر صاحب المنطق أنّه قد أبصر ثوراً وثب بعد أن خصى، فنزا على بقرة فأحبها»، وعقب ذلك بقوله: ولم نجد هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالردّ على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل». ذلك. وقد رأيت في الكلام الذي أسلفْتُ، ردّه عليه بالشعر العربي.

وقال أرسطو في الفيل⁽⁷⁾: «هو أجرد الجلد؛ فلذلك يشتد جزعه من البرد»، فقال

(1) الحيوان (6 : 17).

(2) الحيوان (6 : 18).

(3) الحيوان (7 : 23).

(4) في الأغاني (10 : 45) والمزهر (2 : 238) أنه معقر بن حمار البارقي.

(5) سبق التعريف بهذا الكتاب ص 10.

(6) الحيوان (5 : 339).

(7) الحيوان (7 : 149).

الجاحظ: «فإن كان أجرد الجلد، فما قولهم في أحاديثهم: طلبوا من الملك الفيل الأبيض، والفيل الأبقع، وجاء فلانٌ على الفيل الأسود؟!».

وقال الجاحظ في ردّه على أرسطو⁽¹⁾: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل. وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتاب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء». وأحياناً يعتذر صاحبنا عن أرسطو، بأن المترجمين لكتابه لم يحسنوا الثقل، ولم يتوخوا الدقة والمطابقة. فهو يقول⁽²⁾: «ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه» ويقول⁽³⁾: «فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحرين وأحاديث السماكين، وإلى ما في كتاب رجل - يعني أرسطو - لعله إن وجد هذا المترجم أن يقيمه على المضطبة، ويرأى إلى الناس من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه؛ بسوء ترجمته». وله نحو من هذا الكلام في الرد على صاحب المنطق في مواضع أخرى من كتابه⁽⁴⁾ نكتفي بالإشارة إليها.

والمادة الرابعة من مواد الكتاب، هي تلك المحاولة، وذلك (الكلام الذي ولده المعتزلة). وقد دفع بهم ذاك التيار العارم، إلى مواطن شتى من نواحي الحجاج والجدل. وكأنما خلق الله كل رجل من أهل الاعتزال لساناً دائب التصرف والعمل. فهم إن فرغوا من الكلام في الصفات والخالق، وفي التعديل والتجويز، وفي الوعد والوعيد، فرعوا إلى الكلام في السانحة والباطلة، وفيما يظهر للعين أنه دقيق مهين.

والكتاب معرض طريف لهذه المنازعات الكلامية ولا سيما الجزأين: الأول والثاني منه. فكثيراً ما يمر على بصرك: «قال صاحب الكلب» و: «قال صاحب الديك» و: «قال صاحب الحمام» و... ويبدو أيضاً، أنه كان في عصر الجاحظ نزاع كلامي خاص، في المقايسة بين الكلب والديك، يتقدم الفريق الأول أبو إسحاق إبراهيم النظام، ويتزعم الرهط الآخر معبد⁽⁵⁾.

كما أن بعض الناس كانوا ينظرون إلى هذا النمط وإلى هذا الضرب من الجدل يتداوله اثنان من رؤساء المتكلمين، بعين الاستغراب والاستنكار. وقد ردّ عليهم الجاحظ ردّاً مسهباً، صدره بقوله⁽⁶⁾: «فإن قلت: وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما، والتثوية بذكرهما، شيخان من عليّة المتكلمين ومن الجلة المتقدمين..» ثم هو ينشئ بعد ذلك دفاعاً صادقاً، يستغرق نحو عشر صفحات. وفيه يحاول أن يقول: إن البحث في شأن الحيوان، ضرب من ضروب التعبّد، ولون من ألوان البحوث الدينية، التي تنتهي بصاحبها إلى معرفة عظمة الله، وعظم ما أبدع وبرأ.

(1) الحيوان (1: 142).

(2) الحيوان (2: 31).

(3) الحيوان (6: 12).

(4) انظر منها الحيوان: 3: 288، 4: 87، 5: 364، 6: 10، 7: 79.

(5) انظر الحيوان: 1: 245، وانظر كذلك 2: 88. (6) الحيوان 1: 93-104 ساسي.

وقد بلغ الأمر بأحد كبار المعتزلة، في عنايته بالحيوان والحديث فيه، أن صنع قصيدتين، ذكر فيهما الحيوان وعجائبه، «وقد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد، ونَبّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة⁽¹⁾».

ذلك الرجل هو بشر بن المعتمر، وكان رأساً لفرقة من المعتزلة، سُميت بالبشرية⁽²⁾ وتوفي سنة 210هـ. وقد تصدّى أبو عثمان لشرح القصيدتين في الجزء السادس من الحيوان، وتكلّم فيهما كلاماً طويلاً، استغرق نحو نصف الجزء.

والمادة الخامسة من موادّ الكتاب هي تلك الخبرة الشخصية، وذلك الولوع الذي كان يدفع بصاحبنا إلى السؤال ممّن يتوسّم فيه العلم. وكان الجاحظ بطبعه شعبياً، مع أنّه كان مقرباً نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء⁽³⁾. فهو قد جالس الملاحين مراراً، وسمع من أحاديثهم. فمن ذلك ما يقول⁽⁴⁾: «وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحى الموصل، وأنا هائب له، ورأيت الحديث يدور بينهم..» وهو يتحدث مع صائد العصافير ويقول⁽⁵⁾: «وخبرني من يصيد العصافير..»

وأحياناً يخالط الحوائين، ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى. وفي ذلك يقول⁽⁶⁾: «وشكا إليّ حواء مرة فقال: أفقرني هذا الأسود ومنعني الكسب؛ وذلك أنّ امرأتى جهلت فرمت به في جونة فيها أفاعي ثلاث أو أربع، فابتلعهنّ كلّهن - وأراني حيّة منكراً!». وله نقاش في شأن الفيل مع عبد يدعى «غانماً»⁽⁷⁾. وما حدا به إلى الحديث معه إلا أنه

من ذوي الخصام والجدل كما عرفت.

4 - متى ألف كتاب الحيوان:

قبل لأبي العيّن: ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري، أي شيء كان الجاحظ لا يحسن⁽⁸⁾؟!

نعم، كان الجاحظ أعجوبة الدنيا، تعرف ذلك إذا قرأت كتاب الحيوان ولمست ما يحتاج إليه من جهد، وما يتطلبه من وعي واسع، وانتباه دقيق ثم عرفت بعد ذلك كلّ أن تلك المعلمة الخالدة، صنعها صاحبها وأتم حوكها، وهو في سنّ عالية، مفلوج يقول في شكاية مرضه: «أنا من جانبي الأيسر مفلوج، فلو فُرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن مُنقَرَس، فلو مرّ به الذباب لألّمت!!»⁽⁹⁾.

(1) العبارة للجاحظ نفسه في الحيوان 6 : 180 .

(2) مفاتيح العلوم 19 ومعجم الزركلي 147 .

(3) انظر لذلك تاريخ بغداد 12 : 219 : حيث يقول الجاحظ: «حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري، ويؤاثر (صوابها: يواتر) الخليفة الصلات إلى».

(4) الحيوان 2 : 73 .

(5) الحيوان 2 : 188 .

(6) الحيوان 7 : 70 .

(7) ابن خلكان .

(8) الحيوان 2 : 73 .

(9) الحيوان 6 : 257 وانظر 4 : 250 .

(8) جمع الجواهر للحصري 165 .

قال الحُصْرِيّ⁽¹⁾: «ومن إحدى عجائبه، أنه ألّف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال»، يعني السنّ العالية، والفالج الشديد.

وما بالنّا نذهب بعيداً والجاحظ نفسه يقول⁽²⁾: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أوّل ذلك العلة الشديدة. .» وهنا مشكلة تطلّع علينا من ثانياً نصوص عدّة، فقد قالوا: إنّ الجاحظ فُلج في آخر أيامه⁽³⁾ وقالوا كذلك إنّهُ ألّف كتابه الحيوان باسم محمد بن عبد الملك الزّيات⁽⁴⁾ المتوفى سنة 233، وأنه أهده إليه فأعطاه خمسة آلاف دينار⁽⁵⁾، فهل نقول: إنّ الجاحظ ظلّ مفلوجاً ثنتين وعشرين سنة⁽⁶⁾ في الأقل؟! ذلك ما تنفيه العادة، ويحيله الكثير من الواقع فيما يرى الناس.

ولكنّا نرجع إلى تاريخ علته من المراجع التي بين أيدينا فنجد أن صاحب «سرح العيون⁽⁷⁾» قد عني بذلك، حيث قال: «وكانت سبب علة الجاحظ أنّه حضر مائدة ابن أبي دواد، وفي الطّعام سمكّ ولبن، وكان ابن بَخْتِيشُوع الطّبيب حاضراً، فنهاه عن الجمع بينهما، فقال الجاحظ: إنّ السمك إن كان مضاداً للّبن فإنّي إذا أكلتهما دَفَعَ كلّ منهما ضرر الآخر. وإن كانا متساويين فكأنّي أكلت شيئاً واحداً! فقال ابن بختيشوع: أنا لا أحسن الكلام، ولكن إن شئت أن تُجرب فكلّ. فأكل فأصابه فالج عظيم».

فإذا عرفنا أنّ أحمد بن أبي دواد قد توفى سنة 240⁽⁸⁾ وابْتُلي بالفالج بعد موت عدوّه ابن الزيات بسبعة وأربعين يوماً في سنة ثلاث وثلاثين⁽⁹⁾ إذا عرفنا ذلك أمكنّا أن نقول إنّ مرض الجاحظ كان قبل سنة 233، سنة وفاة ابن الزيات، وأنه استمر مريضاً بالفالج أكثر من اثنتين وعشرين سنة، وأن المعنيّ بقولهم: «آخر أيامه» هو الشطر الأخير من حياته.

وأحبّ أن أشير هنا إلى أنّ الجاحظ ابتدأ في تأليف كتاب الحيوان، قبل أن يبدأ في صُونه الآخر في الذّيع والشهرة: البيان والتبيين. وقد عثرت بنصّ قاطع في البيان⁽¹⁰⁾ يدلّ على ذلك. قال: «كانت العادة في كتاب الحيوان أن أجعل في كلّ مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطّعات الأعراب ونوادر الأشعار؛ لِمَا ذكرت من عَجَبِكَ بذلك. فأحببت أن يكون حظّ هذا الكتاب في ذلك أوفر، إن شاء الله تعالى».

كما أوّد أن أشير أيضاً إلى أنّ الجاحظ كان يسمّى كلّ جزء من أجزاء الحيوان مصحفاً.

(1) في جمع الجواهر 165 .

(2) الحيوان 4 : 117 .

(3) الوفيات وتاريخ بغداد وشذرات الذهب 2 : 122 .

(4) معجم الأدباء 6 : 75 مرجليوث .

(5) معجم الأدباء 6 : 76 مرجليوث .

(6) هي فرق ما بين وفاة ابن الزيات سنة 233 ووفاة الجاحظ سنة 255 في أصحاب الروايات .

(7) سرح العيون ص 136، وانظر مثل هذا النص مضطرباً في عيون الأنباء 1 : 181 .

(8) مروج الذهب 4 : 87 وشذرات الذهب 2 : 93 .

(9) مروج الذهب 4 : 97 .

(10) البيان 3 : 302 .

وفي النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوباً في نهاية كل جزء: «تم المصحف . . من كتاب الحيوان ويليهِ المصحف . .».

5 - جهد الجاحظ في تأليف الحيوان :

هو يحدثنا بذلك فيقول⁽¹⁾ : وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك : العلة الشديدة . والثانية : قلة الأعوان . والثالثة : طول الكتاب . والرابعة : أنني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب العرض والجوهر ، والطرفة والتوليد والمداخلة ، والغرائز والتحاس⁽²⁾ لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً ؛ لأنني كنت لا أفرع فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآي من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور في الكتاب . بهذا شرح صاحبنا جهده في تأليف الكتاب ، وبين ما بذل في تأليفه وجمعه ، من عنت ومشقة .

6 - عدد أجزاء الكتاب :

جری بعضُ الناسخين والطابعين ، على ألا يتقيدوا في النسخ أو الطبع بتقسيم المؤلف لكتابه ، وكنت خشيتُ أن يكون وقع هذا التصرف في كتابنا هذا ، وأدركني الريبُ في ذلك . ولكني وجدتُ من نصوص الكتاب ما يشهد بأن تقسيم المطبوعة الأولى من الحيوان هو نفسه تقسيم الجاحظ . ففي الجزء السابع بالصفحة التاسعة ، نجد هذا النص . «قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء . وهذا الكتاب السابع هو الذي ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا . .»

ونجد في ثانيا الكتاب نصوصاً أخرى تشهد بصحة هذا التقسيم⁽³⁾ . وإن في مطابقة نهايات أجزاء المطبوعة الأولى ، لنهايات أجزاء المخطوطة الشنقيطية المرموز إليها برمز «ش» التي يصرح فيها بختام كل جزء بهذه العبارة : «تم المصحف . . من كتاب الحيوان ويليهِ المصحف . .» إن في ذلك لدليلاً آخر على صحة التقسيم الذي سنتبعه .

7 - قيمة كتاب الحيوان :

لا يعرف فضل هذا الكتاب ، إلا من نظر فيه طويلاً ، وتناول نواحيه بالدرس والتبني . وقد يؤهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب . ولكن الحق أن الكتاب معلمة واسعة ، وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي ، المتشعبة الأطراف . فقد حوى الكتاب طائفةً صالحةً من المعارف الطبيعية⁽⁴⁾ ، والمسائل الفلسفية ، كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد ، وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية .

(1) الحيوان 4 : 117 وانظر ص 118 منه أيضاً .

(2) النحاس هنا بمعنى الطبيعة .

(3) الحيوان 4 : 3 ، 5 : 3 ، 6 : 3-4 ومما يضم إلى ذلك قول ياقوت في معجم الأدباء : «كتاب الحيوان وهو سبعة أجزاء» .

(4) ولعل هذا ما حدا بالمغفور له أحمد تيمور باشا ، أن يضع نسخته الخطية في قسم الطبيعيات من مكتبته .

تحدّث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية، وفي خصائص كثير من البلدان، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر، كما تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها، وكما عرّض لبعض قضايا التاريخ.

وفيه كذلك حديث عن الطب والأمراض: أمراض الحيوان والإنسان وبيان لكثير من المفردات الطبيّة، نباتيها وحيوانيها ومعدنيّتها. تحدّث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب، وأحوالهم وعادهم، ومزاعمهم وعلومهم؛ كما أفاض القول في آي الكتاب العربيّة، وحديث الرسول العربيّ، وكما فضّل بعض مسائل الفقه والدين.

والكتاب كذلك ديوان جمّع الصّفوة المختارة من حرّ الشعر العربي ونادره. وناهيك باختيار أبي عثمان! وإن أردت الأمثال فهو قد جمع لك منها القدر الكبير، أو أحببت الحديث في البيان ونقد الكلام والشعر، وجدت ما تراح إليه نفسك وتطمئن.

أمّا فكاهة الجاحظ فهذه قد نُثرت في الكتاب نثراً، وإنّها لتطالعك بين الفينة والأخرى، متمثّلة فيما يروى من نادرة، أو يحكى من قصّة، وأما المجون فلا عليك أن تمر به لتظهر لك ناحية من النواحي التي غلبت على كثير من متأدبي عصر الجاحظ، التي لم يكن فيها حرج حينئذ ولا خشية. هذه صفة للكتاب مجمّلة، أوجزّتها إيجازاً ولم أرّد تفصيلها، فذلك إنّما يكون في كتاب. على أنّ الفهرس الذي ابتدعته وأسميته «فهرس المعارف» سوف يجلّي للقارئ أشياء وأشياء غير ما ذكرت، وبه يظهر كثير ممّا كمن في جَنّات ذلك الكنز القيّم.

تصحيح الكتاب

1 - قراءة الكتاب :

كان أول عهدي بدراسة هذا الكتاب منذ أربع سنوات مضين ، وكنت أجدني أمضي في الكتاب وأتابع قراءته ، رغم ما كان يحفل به من خطأ وتحريف وتصحيف ، وأنه لم يكن بحال تشجع قارئه على المتابعة ؛ ممّا كان عليه من سوء نظام واستعجام . وكنت أثناء قراءتي أكتب تصحيحات على جوانبه بقدر ما استطاعه جهدي ، كما عنيت بوضع عنوانات وأرقام تربط أجزاء بعضها ببعض .

والذي يقرأ للجاحظ يرى فيه طبيعة التكرار ، وهو يحرص بذلك على تثبيت ما يريد القارئ على وعيه وفهمه ، فالجاحظ معلّم حريص على إفادة تلميذه ؛ ولكن تلميذه لا يجلس بين يديه ، أو يسأله ليتلقّى عنه المعرفة ، بل يؤلف له أستاذ الكتاب جامعاً ، ويدّعه يُفيد ممّا يقرأ ويتفهّم . وللجاحظ كلام في هذا المعنى بالجزء الأول من الحيوان ⁽¹⁾ . ولقد نفعني هذا التكرار في مقارنة النصوص وتصحيحها .

2 - البدء في تحقيقه :

وعُدّت لقراءة الحيوان في الصّيف الماضي ، فطلب إليّ حضرات ناشري هذا الكتاب أن أقوم بإعداده للطبع . فبسطني لهذا الأمر ما كنت قد أثبت من تصحيحات ، ووجدت أن من الضروري أن أنتفع بالنسخ الخطيّة والمصورة المودعة دار الكتب المصرية ، حتى يخرج الكتاب للنّاس أقرب ما يكون إلى السّلامة .

شرعتُ في مقارنة النّصوص بالنّسخ . فهالني الأمر واستعظمت التّبعة التي أُلقيت على عاتقي ؛ للتّخالف الشّدِيد ما بين النسخة والأخرى في صور الألفاظ ، وفي الزيادة والنقص ، والإعجام والإهمال . وحاولت أن أنكص وأرتدّ عن الميدان الذي هابه قبلي رجلٌ ورجل .

لولا أن شدّ من عزمي تشجيع حضرة الأخ الجليل ، فخر أهل الحديث في مصر غير مدافع ، «الأستاذ الكبير الشيخ أحمد محمد شاكر» ، فقد قرّب حفظه الله - إليّ الأمر ، واستنهضني ، وبسط لي من عونه الأدبيّ ، ما هوّن عليّ ، ما كنت أعدّه في المحال .

وإني لأسجل له هنا شكراً صادقاً، واعترافاً بما أسدى وأرشد، وما أعان وعضد. فجزاه الله خير ما يجزى به عالمٌ فاضل!

3 - مراجع التحقيق :

ولجأت بعد مقابلة النسخ إلى الانتفاع بالكتب الأخرى، فكنت أجد بها تصحيحاتٍ عجيبةً لتحريفات عجيبة وقعت في الكتاب. ووجدت في البيان والتبيين تصحيحات كثيرة للشعر والنصوص، وفي كتب ابن قتيبة: «عيون الأخبار» و«المعارف» و«تأويل مختلف الحديث» تحقیقات جمة للأخبار والأعلام، وما قيل في الحيوان⁽¹⁾، ولعل السر في ذلك أن الجاحظ كان قد أجاز ابن قتيبة برواية بعض كتبه⁽²⁾، وأنه كان معاصراً له⁽³⁾. ولست أعظم سائر الكتب، التي أفردت لها ثبناً، حقها من الاشتراك في إقالة عشرة هذا الكتاب الجليل.

4 - تنظيم الكتاب :

كان لابد لي وأنا أخرج هذا الكتاب أن أعرضه على الناس في ثوب عصرهم، وأن أخرج به من ظلام الماضي إلى نور هذا الزمن. فاستقصيت جهدي في أن أرتبه ترتيباً حديثاً لا يخل بوضعه الأول، ولا يعتدي على حق مؤلفه. فلم أبتدع فيه إلا الضبط والترقيم، بعد عرض كلماته على المعجمات.

وثانية أني فصلت أثناءه بعنوانات تميز مسائله، وتظهرها أعلاماً لطريقه المهيح الممتد، ولم أشأ أن أجعلها معوجة اللهجة مسائرة لما طرأ على لغة هذا الزمن من أساليب الأعاجم، بل قرّبتها تقريباً من لغة الجاحظ نفسه؛ واقتبستها اقتباساً من تضاعيف كلامه؛ ليكون بذلك التساوق والتناسب. وقد ميّزت هذه العنوانات الإضافية بأقواس خاصة، وتركت الأصيل منها مجردة من الأقواس. فهذا فصل ما بين هذه وتلك. ولما كان من أسلوب تصحيح هذا الكتاب، أن يعارض بعضه ببعض، وأن يقارن بين نصوصه المتشابهة - وذلك يقتضي الإشارة إلى صفحات من أجزاء قد تتلو الجزء الذي يطبع، فقد رأيت أن أثبت على جوانب طبعتنا هذه، أرقام صفحات الطبعة الأولى. كما أن لذلك مزية ثانية، هي تمكين القارئ من الانتفاع بكل الإشارات، التي يشار بها في الكتب المختلفة إلى مواضع خاصة من هذا الكتاب.

5 - أسقاط الكتاب :

وقد وضعت أسقاط الكتاب بين إشارات الزيادة: []، ونهت في كل منها على مصدر

(1) في عيون الأخبار : 2 : 62 - 104 كلام في الحيوان نجد مثله في أجزاء متفرقة من كتاب الحيوان، وسيمر عليك ذلك في حواشي الكتاب.

(2) انظر عيون الأخبار 3: 199، 216، 249 حيث صرح ابن قتيبة بإجازة الجاحظ له.

(3) ولد ابن قتيبة سنة 213، وتوفي سنة 286.

التكميل، أما ما ورد من هذه الإشارات مهماً من التنبيه فهو ما كان من أجود نسخة من نسخ الكتاب: وهي مصورة «كوبريلي» المرموز إليها برمز «ل» وقد انفردت هذه النسخة بإثبات سقط كبير وقع في جميع النسخ⁽¹⁾.

6 - النسخ المعتمدة في هذه المطبوعة:

هذه المطبوعة الحديثة من كتاب الحيوان نتاج ما بين المطبوعة الأولى وعدة نسخ مختلفة، بعضها مخطوط، وبعضها مصور.

1- فأول تلك النسخ، هي المصورة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم 4285، وأصلها في مكتبة كوبريلي، وهذه النسخة جيدة مقروءة، وعلى صدرها تاريخ يرجع إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة. والموجود منها أربع مجلدات هي: الأول والثالث والخامس والسابع. وقد رمزت إليها في التحقيق بالرمز «ل».

2- وثانيها النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم 9ش وهي نسخة كاملة في مجلدين، مكتوبة بخطوط مختلفة، وهي في جودتها تتلو سابقتها. وقد رمزت إليها بالرمز «ش».

3- وثالثها النسخة الخطية التي تحمل رقم 56، في دار الكتب المصرية، وتبتدئ بأول الكتاب وتنتهي بالصفحة الثمانين من الجزء الثاني من النسخة المطبوعة، وكتب في صدرها: «مشتري من قومسيون حصر الأملاك بالضبطية في 23 يونية سنة 883» وقد رمزت إليها بالرمز م.

4- ورابعها النسخة المخطوطة المحفوظة برقم 10 ش بدار الكتب المصرية. خطها محمد جاد القماش الأشموني سنة ألف وثلثمائة وخمسة. وهي في بدئها وانتهائها مثل سابقتها وقد رمزت إليها برمز «10ش».

5- وخامسها النسخة التيمورية، برقم 45 طبيعيات، كتب على صدرها: «مشتري من تركة المرحوم عبد الحميد بك دقيق مصر كان سنة 1280 وصار في ملك سعادتلو أفندي حسن باشا سري يكن زاده دامت معاليه واستقامت مساعيه، طالعه كاتبه الفقير علي الليثي خادم الإمام، وفيه ما فيه فليتأمل قاريه» وفي نهايتها: «برسم كتبية العبد الحقير موسى بن جرجس ابن أبي نوفل الطرابلسي الكاتب اشتراه من الشاكر الشاعر في سنة 1157 هجرية، ثم انتقل بالشراء الشرعي إلى ملك حضرة الأستاذ الشيخ على الليثي». وهذه النسخة مثل سابقتها في البدء والانتها. وهذه لم أرمز إليها، بل صرحت باسمها.

6- والسادسة النسخة المطبوعة في المطبعة الحميدية، ثم مطبعة التقدم من سنة 1323 إلى سنة 1325، وقد قام بطبعها الوراق المعروف المرحوم «محمد ساسي». وهي في سبعة أجزاء. ولم يمكنني الاهتداء إلى معرفة الأصول التي طبعت عنها. ولكن يظهر مما أثبت

(1) انظر لذلك الجزء الأول من الحيوان 88-91.

في أسفل صفحاتها من تعليقات أنها طبعت من عدة نسخ خطية؛ فقد ورد في أسفل (5:2) عبارة: «كما في النسخ التي بأيدينا» وقد رمزت إلى هذه النسخة بالرمز «ط».

7- مخطوطة مكتبة امبروزيانا رقم R,F,D 140. وهي تحتوي على 87 ورقة وبها تاريخ تملك يرجع إلى سنة 1024 وقد قام أوسكار لوفجرين وكارل جون لايوم بجامعة أوسلا سنة 1946 بنشر 24 صفحة، من هذه الصفحات. ووقعت إلى نسخة من ذلك المنشور المصوّر. وراجعت عليه ما يقابله من نصوص.

7- تيسير الانتفاع بالكتاب:

لقد عنيت جمهرة المستشرقين عناية خاصة بوضع الفهارس لما ينشرون من كتب العرب، وابتدعوا ذلك ابتداءً، فلهم فضل السبق.

ولا ريب أن الفهارس للكتب العربية، ولا سيّما القديم منها، هي بمكان الحيا للأرض الطيبة، به تؤتي نفعها وثمرتها، وبخاصّة في هذا العصر، الذي أصبح الوقت فيه نهياً مقسماً بين مطالب المدنية وتعقيدات الحضارة، فلا يبقى لراغب العلم فيه والثقافة، إلا اليسير من زمنه، ليفرغ فيه لما نصب نفسه له. فأصبح بذلك في حاجة ملحة إلى ما يمكنه من تحصيل الكثير في اليسير من الزمن، وإلى ما يذلّله الاضطلاع بالبحث الطويل الدقيق في الوجيز من الوقت. لذلك ولما تضمنه هذا الكتاب من غزارة خير، ووفارة فضل، أنشأت طائفة من الفهارس لجملته الكتاب، هي كما ترى:

1- فهرس تفصيلي لأجناس الحيوان. 2- فهرس لأعلام الحيوان.

3- فهرس لأعلام الناس. 4- فهرس للقبائل والطوائف ونحوها.

5- فهرس للبلدان والأماكن ونحوها. 6- فهرس للأمثال.

7- فهرس للشعر. 8- فهرس للأرجاز.

9- فهرس للغة. 10- فهرس للكتاب.

11- فهرس لأيام العرب. 12- فهرس للمعارف العامة.

وقد أفردت لها مجلداً كبيراً، يلحق بالكتاب في نهايته إن شاء الله - وآثرت ذلك ابتعاداً عن التكرار والإعادة.

والفهرس الأخير منها، وهو فهرس المعارف، قد قسمته على أجزاء الكتاب، فجعلت لكل جزء نصيباً منه، كي يتمكن القارئ من متابعة الانتفاع بالكتاب إلى أن يتم نشره، ثم أضف أطرافه فأجعل منها، فهرساً واحداً.

وسيجد القارئ في نهاية كل جزء، فهرس خاصة به، جعلتها على نمط طريف، مقتبساً ثانيها وثالثها ورابعها، من عناوانات الكتاب: أصيلها والإضافي منها.

وبعد، فأقولها صريحةً بيّنة: أن ليس يوجد في عصرنا هذا من يستطيع أن يخرج هذا الكتاب الذي أخرجته، مبرراً من العيب، سليماً من التحريف؛ فهذا عصر قد انقطعت دونه الرواية، وأوصد أمامه بعض أبواب العلم، واختفى عن الناس فيه كثيرٌ من أعلام الثقافة العربية في عصرها الأول.

أقول: ليس يُوجد الفرد، وأقول: ليست توجد الجماعة. ولست هنا بسبيل التمثيل بفرد أو جماعة، فذلك يعرفه من نظر فيما يُحیی الناشر من أثر الأسلاف. وأما أنا فلستُ بمكان من يدعي العصمة، أو يخال السلامة، فليس يكون ذلك إلا لمن ذهب عن نفسه، وتعلق بالباطل.

ولكنني يعجبني أنني بذلتُ فيه غاية الجهد، وأني التزمتُ جانبَ الأمانة، فلم أُسقط حرفاً ولم أزد حرفاً، إلا استأذنت القارئ، ولا أبدلت حرفاً بآخر إلا نبّهت القارئ إلى ما صنعت.

وجعلت من دأبي في الشرح والتحقيق أن أشير إلى المصادر دالاً على مواضع النصوص منها، بذكر أرقامها؛ ليطمئن القارئ، وليكون شريكاً في النظر والتأمل. وعسى أن أكون قد أصبت في عملي هذا بعض التوفيق، وظهرتُ على كثير من الحق. ومن الله أستمدّ العون في هذا العمل، الذي أستهم به في بعث الآثار الفكرية، الخالدة على الدهر، وفي خدمة هذه اللغة الكريمة القوية. وأدعو الله جاهداً، أن أكون أبداً في طريق الإخلاص، وعلى نهج الحق والإنصاف.

عبد السلام محمد هارون

منشئة البكري في يوم الإثنين

10 من رجب سنة 1357

تقديم الطبعة الثانية

لم أكن أتوقع عند ظهور الطبعة الأولى أن عملي هذا سيلقى تقديرًا، فقد كنت أهونَ على نفسي في مقام العلم وجلاله، أن يسوقني هذا العمل إلى أن أُعْتَرَّ أو أُخْدَع عن قدرتي كما يغترّ بعض الناس أو يُخدع. ومن نعمة الله عليّ - وله الفضل - أنني وقد علتُ بي السنُّ لا أزال، كما كنت في صدر الشباب، أسخر ممن يضعون أنفسهم فوق أقدارهم، ولا أزال أشعر بصدقٍ بما يشعر به طالب العلم من حاجةٍ إلى الاستزادة، ومن الرجوع إلى الحق حينما يلمع نوره، ومن الاعتراف بالفضل لمن أفاد علماً أو علّم حرفاً.

وقد دأبت منذ ظهور الجزء الأول من الطبعة الأولى - وذلك نحو من سبعة وعشرين عاماً - أن أراجع بين الفينة والأخرى نصوص الكتاب وما يظهر من أجزائه، وأعنى بتنقيحه وإصلاح ما يبدو فيه من هنات. وأتاحت لي فرصة إخراجي وتحقيقي لكثير من كتب التراث العربي أن تظهر في أثناء ذلك تصحيحات وتعليقات كنت أدونها على جوانب نسختي، انتظاراً لليوم الذي أتمكن فيه من إعادة طبع هذه المعلمة الضخمة.

وكنت قد اعتمدت في إخراج النشرة الأولى على ست مخطوطات بيّنت خمساً منها في تقديم النشرة الأولى^(١)، أما السادسة فهي النسخة المحفوظة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم (484 أباطة). وقد كنت عارضت بها ابتداء من الجزء الرابع ورمزت لها بالرمز (هـ) كما أشرت إلى ذلك في ملحقات الجزء الرابع من النشرة الأولى بالصفحة 522، وهي نسخة حديثة في ثلاث مجلدات بقلم النسخ بخط محمد بن عبد الله الزمراني سنة 1311، وقد انتفعت بما فيها من تصحيحات توافق كثيراً مما أجده في نسخة الشنقيطي مع خلاف يسير جداً. وذلك ابتداء من الجزء الرابع إلى نهاية الكتاب.

وكنت أتمنى أن أتمكن من إتمام معارضة هذه النسخة ابتداء من الجزء الأول إلى الثالث، ولكن لم أجد ذلك في الإمكان لصعوبة تصوير المخطوطات في هذه الفترة من إخراج الطبعة الثانية، ولأنني لا أؤمن بأن يكل المحقق إلى غيره معارضة المخطوطات، وكنت فيما قبلُ أنتقل بنفسني إلى مواضع المخطوطات لمعارضتها.

(١) ص 21 .

ومنذ ثماني سنوات عثرت على نسخة سابعة، هي 24 صفحة مصورة عن مخطوطة من الحيوان محفوظة في مكتبة الأمبروزيانا، بميلانو في إيطاليا برقم R,F,D 140 وقام بنشر هذه الصفحات مصورة كل من الأستاذين: أوسكار لوفجرين وكارل جون لابوم في نشریات جامعة أبسالا سنة 1946 فعارضت بتلك الصفحات المصورة ما يقابلها من الجزأين الأول والثاني من هذا الحيوان وكانت معارضة غير كاملة لأنني كنت أتوقع أن أتمكن من العثور على صورة المخطوطة كاملة فيما بعد. وقد ظهرت آثار تلك المعارضة في بعض صفحات هذه النشرة من الجزء الأول⁽¹⁾.

ولم أعلم بأن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية قد اجتلب صورة تلك المخطوطة كاملة إلا بعد الفراغ من طبع هذا الجزء، فرجعت إلى تلك المصورة التي وجدت أنها تشمل 88 لوحاً وهي مختلة الترتيب اختلالاً بيناً، وحاولت أن أعيدها سيرتها الأولى، وبعد لآى شديد واستعانة عريضة بالفهارس الفنية التي وضعتها لكتاب الحيوان استطعت ترتيبها والاستفادة منها استفادة كاملة في المعارضة. وقد أذن لي معهد المخطوطات في إجراء ذلك الترتيب العلمي فأصلحت وضع النسخة بعد أن بينت على كل جزء من أجزاء الألواح ما كان عليه قبل الترتيب وما صار إليه بعد الترتيب.

والمصورة كما ذكرت في 88 لوحاً تمثل 87 ورقة من أصلها المخطوط اختلطت فيها أوراق من الجزء الأول بأوراق من الجزء الثاني، وتاريخ تملكها سنة 1204 وتجليدها سنة 1025 وقد كتبت بخط قديم يرجع إلى القرن السابع الهجري، وهي دقيقة الضبط وإن كان بها بعض التحريف والنقص، وبالصفحة 17 سطرًا ما عدا الصفحات التي تظهر فيها بعض صور الإنسان والحيوان والنبات الذي يرد له ذكر في الكتاب، ومنها صور بعض علاقات الجنس. وتبدو في تلك الصور جميعاً سمة الفن الفارسي. وقد أجريت معارضة لهذه النسخة فيما يخص هذا الجزء الأول وأثبتتها مع دراسة وتحقيق في أواخر هذا الجزء الأول. أما معارضة ما عثرت عليه من نصوص الجزء الثاني فقد احتل مكانه الطبيعي بين نصوص وحواشي ذلك الجزء وقد رمزت لها بالرمز «مب».

وإليك بيانين:

أحدهما للوضع الذي كانت عليه النسخة المصورة قبل ترتيبها، وهو الترتيب القائم الآن بمخطوطة الأمبروزيانا في مكتبتها.

والآخر للوضع الصحيح الذي مكنتني البحث من أن أظهره فأردّ به النسخة إلى نصابها.

(1) انظر ص 111، 113، 118، 121، 143.

1

الترتيب الذي عليه مخطوطة الأمبروزيانا

رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات	رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات
1 - قطعة من الجزء الأول			
1 ب	2 : 222	12 أ	9 : 201
2 أ	1 : 223	12 ب	1 : 203
2 ب	6 : 224	13 أ	4 : 204
3 أ	12 : 225	13 ب	8 : 205
3 ب	3 : 227	14 أ	13 : 206
4 أ	6 : 228	14 ب	3 : 208
4 ب	11 : 229	15 أ	7 : 209
5 أ	6 : 230	15 ب	10 : 201
5 ب	11 : 231	16 أ	7 : 191
6 أ	10 : 232	16 ب	16 : 189
6 ب	17 : 233	17 أ	7 / 191
7 أ	3 : 235	17 ب	4 / 167
7 ب	2 : 236	18 أ	3 / 168
8 أ	10 : 193	18 ب	5 / 169
8 ب	12 : 192	19 أ	11 / 170
9 أ	10 : 193	19 ب	2 / 172
9 ب	12 : 194	20 أ	15 / 172
10 أ	4 : 195	20 ب	4 / 172
10 ب	9 : 196	21 أ	15 / 172
11 أ	3 : 197	21 ب	2 / 174
11 ب	6 : 198	22 أ	7 / 175
	3 : 199	22 ب	1 / 176
	7 : 200		8 / 175
	4 : 199		2 / 176
	7 : 200		7 / 177
			13 / 177
			6 / 179
			13 / 180
			6 / 179
			13 / 180

رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات	رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات	رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات
أ 23	7 /182	ب 36	7 /121	أ 23	4 /122
ب 23	3 /173	أ 37	4 /122	ب 23	10 /123
أ 24	2 /184	ب 37	8 /126	أ 24	10 /127
ب 24	16 /184	أ 38	8 /127	ب 24	10 /128
أ 25	7 /186	ب 38	10 /123	أ 25	2 /125
ب 25	10 /187	أ 39	2 /1258	ب 25	8 /126
أ 26	8 /188	ب 39	10 /128	أ 26	13 /129
ب 26	14 /142	أ 40	13 /129	ب 26	4 /131
أ 27	4 /143	ب 40	4 /131	أ 27	3 /132
ب 27	4 /144	أ 41	3 /132	ب 27	2 /133
أ 28	12 /145	ب 41	2 /135	أ 28	13 /135
ب 28	2 /147	أ 42	14 /135	ب 28	14 /136
أ 29	8 /148	ب 42	1 /139	أ 29	9 /139
ب 29	4 /149	أ 43	10 /139	ب 29	4 /141
أ 30	12 /149	ب 43	15 /136	أ 30	19 /137
ب 30	2 /151	أ 44	19 /137	ب 30	17 /138
أ 31	9 /152	ب 44	3 /141	أ 31	7 /142
ب 31	1 /154	أ 45	7 /142	ب 31	13 /142
أ 32	7 /155	ب 45	14 /76	أ 32	19 /77
ب 32	2 /157	أ 46	19 /77	ب 32	3 /79
أ 33	8 /158	ب 46	10 /82	أ 33	6 /84
ب 33	16 /159	أ 47	8 /84	ب 33	11 /85
أ 34	4 /161	ب 47	12 /85	أ 34	3 /87
ب 34	9 /162	أ 48	3 /87	ب 34	7 /88
أ 35	16 /163	أ 48	3 /87	أ 35	7 /88
ب 35	17 /164	أ 49	10 /93	ب 35	11 /94
أ 36	18 /165	ب 49	12 /94	أ 36	12 /95
	3 /167				

ما يقابله من الصفحات		رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات		رقم اللوح
12 / 50	13 / 49	ب 63	7 / 97	13 / 95	أ 50
2 / 51	12 / 50	أ 64	2 / 100	3 / 99	ب 50
7 / 53	16 / 52	ب 64	4 / 101	2 / 100	أ 51
10 / 55	7 / 53	أ 65	2 - قطعة من الجزء الثاني		
1 / 62	1 / 59	ب 65			
4 / 66	62 / 1	أ 66	11 / 112	9 / 111	ب 51
4 / 69	5 / 66	ب 66	11 / 114	2 / 113	أ 52
10 / 71	4 / 69	أ 67	16 / 115	11 / 114	ب 52
3 - قطعة من الجزء الأول			8 / 117	16 / 115	أ 53
			3 / 119	8 / 117	ب 53
4 / 51	14 / 49	ب 67	13 / 120	3 / 119	أ 54
6 / 52	4 / 51	أ 68	10 / 122	13 / 120	ب 54
10 / 53	6 / 52	ب 68	12 / 124	10 / 122	أ 55
5 / 55	11 / 53	أ 69	10 / 126	12 / 124	ب 55
10 / 56	5 / 55	ب 69	1 / 129	12 / 126	أ 56
13 / 57	11 / 56	أ 70	8 / 130	1 / 129	ب 56
5 / 59	13 / 57	ب 70	4 / 132	8 / 130	أ 57
14 / 60	6 / 59	أ 71	8 / 134	4 / 132	ب 57
2 / 62	15 / 60	ب 71	1 / 136	8 / 134	أ 58
5 / 63	2 / 62	أ 72	6 / 137	1 / 136	ب 58
10 / 46	5 / 63	ب 72	12 / 138	7 / 137	أ 59
13 / 66	10 / 65	ب 73	11 / 140	12 / 138	ب 59
2 / 68	1 / 67	أ 74	7 / 142	11 / 140	أ 60
3 / 70	3 / 68	ب 74	5 / 144	7 / 142	ب 60
5 / 71	3 / 70	أ 75	10 / 145	5 / 144	أ 61
13 / 72	5 / 71	ب 75	4 / 37	2 / 35	ب 61
7 / 74	13 / 72	أ 76	10 / 39	4 / 37	أ 62
14 / 75	8 / 74	ب 76	3 / 42	11 / 39	ب 62

ما يقابله من الصفحات		رقم اللوح	ما يقابله من الصفحات		رقم اللوح
1 /40	13 /38	أ 83	14 /76	14 /7	أ 77
5 /41	1 /40	ب 83	3 /25	14 /23	ب 77
8 /42	15 /40	أ 84	13 /26	3 /25	أ 78
12 /43	8 /42	ب 84	8 /28	13 /26	ب 78
14 /44	12 /43	أ 85	1 /30	8 /28	أ 79
18 /45	14 /44	ب 85	7 /31	1 /30	ب 79
5 /47	19 /45	أ 86	14 /34	6 /38	أ 80
10 /48	5 /47	ب 86	7 /36	1 /35	ب 80
13 /49	10 /48	أ 87	15 /32	7 /31	أ 81
8 /22	14 /20	ب 87	6 /34	1 /33	ب 81
13 /23	9 /22	أ 88	8 /37	7 /36	أ 82
			13 /38	10 /37	ب 82

2

الترتيب الصحيح لنسخة الأمبروزيانا

صفحات المطبوعة	رقم اللوح	رقم اللوح	صفحات المطبوعة	الجزء الأول	رقم اللوح
10 /48	5 /47	ب 86			
13 /49	10 /48	أ 87	8 /22	14 /20	ب 87
4 /51	14 /49	ب 67	13 /23	9 /22	أ 88
6 /52	4 /51	أ 68	3 /25	14 /23	ب 77
4 /51	14 /49	ب 68	13 /26	3 /25	أ 78
5 /55	11 /53	أ 69	8 /28	13 /26	ب 78
10 /56	5 /55	ب 69	1 /30	8 /28	أ 79
13 /57	11 /56	أ 70	7 /31	1 /30	ب 79
5 /59	13 /57	ب 70	15 /32	7 /31	أ 81
14 /60	6 /59	أ 71	6 /34	1 /33	ب 81
2 /62	15 /60	ب 71	14 /34	6 /34	أ 80
5 /63	2 /62	أ 72	7 /36	1 /35	ب 80
10 /64	5 /63	ب 72	13 /38	10 /37	أ 82
9 /65	10 /64	أ 73	13 /38	10 /27	ب 82
13 /66	10 /65	ب 73	1 /40	13 /38	أ 83
9 /65	10 /64	أ 74	5 /41	1 /40	ب 83 ⁽¹⁾
2 /68	1 /67	ب 74	8 /42	15 /40	أ 84
5 /71	3 /70	أ 75	12 /43	8 /42	ب 84
13 /72	5 /71	ب 75	14 /44	12 /43	أ 85
7 /74	13 /72	أ 76	18 /45	14 /44	ب 85
14 /75	8 /74	ب 76	5 /47	19 /45	أ 86

(1) هذا نتيجة لاضطراب نصوص النسختين.

رقم اللوح	صفحات المطبوعة	رقم اللوح	صفحات المطبوعة
77 أ	14 /75	42 ب	15 /139
45 ب	14 /76	43 أ	15 /136
46 أ	19 /77	44 ب	19 /137
46 ب	10 /82	45 أ	7 /142
47 أ	8 /84	26 ب	14 /142
47 ب	12 /85	27 أ	4 /144
48 أ	3 /87	27 ب	4 /143
48 ب	6 /92	28 أ	12 /145
49 أ	10 /93	28 ب	2 /147
49 ب	12 /94	29 أ	7 /148
50 أ	13 /95	29 ب	4 /149
50 ب	3 /99	30 أ	12 /149
51 أ	2 /100	30 ب	2 /151
36 ب	7 /121	31 أ	9 /152
37 أ	8 /126	31 ب	1 /154
38 ب	8 /127	32 أ	7 /155
39 أ	2 /125	32 ب	2 /157
37 ب	8 /126	33 أ	7 /158
38 أ	8 /127	33 ب	16 /159
39 ب	10 /128	34 أ	4 /161
40 أ	13 /129	34 ب	9 /162
40 ب	4 /131	35 أ	17 /164
41 أ	3 /132	35 ب	17 /164
41 ب	2 /135	36 أ	18 /165
42 أ	14 /135	16 ب	3 /167
43 ب	15 /136	17 أ	4 /168
44 أ	19 /137	17 ب	5 /169
	17 /138		

رقم اللوح	صفحات المطبوعة	رقم اللوح	صفحات المطبوعة
أ 18	11 /170	ب 11	7 /200
ب 18	4 /172	أ 12	9 /201
أ 19	15 /172	ب 12	1 /203
ب 19	2 /174	ب 13	4 /204
أ 20	8 /175	أ 14	7 /208
ب 20	8 /175	ب 14	3 /208
أ 21	7 /177	أ 15	7 /209
ب 21	13 /177	ب 1	2 /222
أ 22	6 /179	أ 2	1 /223
ب 22	13 /180	ب 2	6 /224
أ 23	7 /182	أ 3	12 /225
ب 23	3 /183	ب 3	3 /227
أ 24	2 /184	أ 4	6 /228
ب 24	16 /184	ب 4	2 /229
أ 25	7 /186	أ 5	7 /230
ب 25	10 /187	ب 5	11 /231
أ 26	8 /188	أ 6	10 /232
ب 15	16 /189	ب 6	17 /233
أ 16	7 /191	أ 7	3 /235
ب 7	12 /192	الجزء الثاني	
أ 8	10 /193	ب 61	2 /235
ب 8	12 /194	أ 62	4 /37
أ 9	4 /195	ب 62	11 /39
ب 9	9 /196	أ 63	2 /43
أ 10	3 /197	ب 63	13 /49
ب 10	7 /198	أ 64	16 /52
أ 11	4 /199	ب 64	16 /52

رقم اللوح	صفحات المطبوعة	رقم اللوح	صفحات المطبوعة	رقم اللوح	صفحات المطبوعة
65 أ	7 / 53	10 / 55	55 ب	10 / 122	12 / 124
65 ب	1 / 59	1 / 62	56 أ	12 / 126	1 / 129
66 أ	2 / 62	4 / 66	56 ب	1 / 129	8 / 130
66 ب	5 / 66	4 / 69	57 أ	8 / 130	4 / 132
51 ب	4 / 69	10 / 71	57 ب	4 / 132	8 / 134
52 أ	2 / 113	11 / 114	58 أ	8 / 184	1 / 136
52 ب	11 / 114	16 / 115	58 ب	4 / 132	8 / 134
53 أ	16 / 115	8 / 117	59 أ	7 / 137	12 / 138
53 ب	8 / 117	3 / 119	59 ب	12 / 138	11 / 140
54 أ	3 / 119	13 / 120	60	11 / 140	7 / 142
54 ب	13 / 120	10 / 122	60 ب	7 / 142	5 / 144
55 أ	10 / 122	12 / 124	61 أ	5 / 144	10 / 145

وقد عنيت في هذه النشرة بإضافة تحقیقات وتعلیقات وتخریجات لم تكن من قبل، كما أبدلت أرقام الإشارة إلى صفحات الحيوان بأرقام نشرتي الأولى التي حرصت في هذه النشرة الثانية أن أحتفظ بنظامها وعددها كي لا تختل الفهارس، بعد أن كنت أشير في الحواشي إلى أرقام صفحات مطبوعة الساسي.

وكذلك أبدلت أرقام البيان والتبيين بأرقام نشرتي الثانية له، وصنعت مثل ذلك في بعض الكتب التي تعددت طباعتها لأعيدها إلى أرقام موحدة. وحذفت الفهارس التي كنت ألحقها بكل جزء لأنني استنفدتها فيما بعد في صنع الفهارس الفنية العامة ولم أستبق إلا فهرس الأبواب لكل جزء. وأما بعد، فإنني أحمد الله أن أمكنني من تحقيق أمنية طال عليها العهد، وأحمده كذلك لما أعان ووفق، فإنه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

عبد السلام محمد هارون

مصر الجديدة في 20 من ربيع الثاني سنة 1385
17 من أغسطس سنة 1965

كتاب الحيوان

تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

الجزء الأول

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

جَنَّبَكَ اللَّهُ الشُّبْهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ نَسَبًا، وَبَيْنَ الصَّدَقِ سَبَبًا، وَحَبَّبَ إِلَيْكَ التَّثَبُّتَ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنْصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ⁽¹⁾، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ، وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ، وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقَلَّةِ.

ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أَصُوبَ في أمرك، وأدَلَّ عَلَى مقدار وزنك، وعلى الحال التي وضعتُ نفسك فيها، ووسَّمتُ عرضك بها، ورضيتها لدينك حَظًّا⁽²⁾، ولمروءتك شِكْلًا؛ [فقد انتهى إِلَيَّ مِيلُكَ عَلَى أَبِي إِسْحَاقَ، وَحَمَلُكَ عَلَيْهِ، وَطَعْنُكَ عَلَى مَغْبَدٍ، وَتَنَقُّصُكَ لَهُ فِي الَّذِي كَانَ جَرَى بَيْنَهُمَا فِي مَسَاوِي الدِيَكِ وَمَحَاسِينِهِ، وَفِي ذِكْرِ مَنَافِعِ الْكَلْبِ وَمُضَارَّهِ، وَالَّذِي خَرَجَا إِلَيْهِ مِنْ اسْتِقْصَاءِ ذَلِكَ وَجُمُعِهِ، وَمَنْ تَتَّبِعُهُ وَنَظْمِهِ، وَمَنْ الْمَوَازَنَةَ بَيْنَهُمَا، وَالْحُكْمَ فِيهِمَا. ثُمَّ عِبْتَنِي بِكِتَابِ حَيْلِ اللَّصُوصِ، وَكِتَابِ غِشِّ الصَّنَاعَاتِ، وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ الْمُلْحِ وَالطَّرْفِ، وَمَا حَرَّ مِنَ النُّوَادِرِ وَبَرْدِ، وَمَا عَادَ بَارِدُهُ⁽³⁾ حَارًّا لَفَرَطِ بَرْدِهِ حَتَّى أَمْتَعَ بِأَكْثَرِ مِنْ إِمْتَاعِ الْحَارِّ، وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ احْتِجَاجَاتِ الْبُخْلَاءِ، وَمَنَاقِصَتِهِمْ لِلسُّمَحَاءِ، وَالْقَوْلِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّدَقِ⁽⁴⁾] إِذَا كَانَ ضَارًّا فِي الْعَاجِلِ، وَالْكَذِبِ إِذَا كَانَ نَافِعًا فِي الْآجِلِ، وَلِمَ جُعِلَ الصَّدَقُ أَبَدًا مَحْمُودًا، وَالْكَذِبُ أَبَدًا مَذْمُومًا، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْغَيِّرَةِ وَإِضَاعَةِ الْحُرْمَةِ، وَبَيْنَ الْإِفْرَاطِ فِي الْحَمِيَّةِ وَالْأَنْفَةِ، وَبَيْنَ التَّقْصِيرِ فِي حِفْظِ حَقِّ الْحَرَمَةِ، وَقَلَّةِ الْاِكْتِرَافِ لِسُوءِ⁽⁵⁾ الْقَالَةِ؛ وَهَلِ الْغَيِّرَةُ اِكْتِسَابُ وَعَادَةٌ، أَمْ بَعْضُ مَا يَعْضُضُ مِنْ جِهَةِ الدِّيَانَةِ، وَلِبَعْضِ التَّزْيِيدِ فِيهِ وَالتَّحْسِنِ بِهِ، أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي طِبَاعِ الْحَرِيَّةِ، وَحَقِيقَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ، مَا كَانَتْ الْعُقُولُ سَلِيمَةً، وَالْآفَاتُ مَنَفِيَّةً⁽⁶⁾ وَالْأَخْلَاطُ مَعْتَدَلَةً.

وعبْتَنِي بِكِتَابِ الصُّرَحَاءِ وَالْمُهْجَنَاءِ، وَمُفَاخَرَةِ السُّودَانِ وَالْحَمَرَانِ، وَمَوَازَنَةِ مَا بَيْنَ حَقِّ

(1) في ط: «البر واليقين». وما أثبتته في ل، 10 ش وهو الصواب.

(2) كذا في ل، 10 ش وهو الصحيح ما في ط: «ورضيته لعرضك حظًا».

(3) في ل: «وعاد باردها» وما هنا عن م.

(4) سقطت هذه العبارة من جميع النسخ الخطية أيضًا ما عدا ل و م.

(5) في ط: «يسوء» وتصحيحه من ل. قال في القاموس: «ما أكرث له: ما أبالي به» وقال الزبيدي: الأصل فيه ألا

يستعمل إلا في النفي وشذ، استعماله في الإثبات.

(6) هذا ما في ل. وفي ط: «منيفة» وبذلك يفسد المعنى.

الخئولة والعمومة؛ وعبّني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعنان، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أيّ موضع يغلب ويفضّلن، وفي أيّ موضع يكنّ المغلوبات والمفضولات، ونصيب أيّهما في الولد أوفر، وفي أيّ موضع يكون حَفْهَنَ أوجب، وأيّ عمل هو بهنّ أليق، وأيّ صناعة هنّ فيها أبلغ.

وعبّني بكتاب القحطانية و[كتاب] العدنانية في الردّ على القحطانية، وزعمت أنّي تجاوزت فيه حدّ الحميّة إلى حدّ العصبية، وأنّي لم أصل^(١) إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص^(٢) القحطانية، وعبّني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنّي بحسّت الموالي حقّهم، كما أنّي أعطيت العرب ما ليس لهم. وعبّني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القول في فرق ما بين العرب والعجم، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعاد من الخطّ، وحمل الناس المؤن.

وعبّني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العِلّة^(٣) مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عبّاد البُدّة^(٤) والتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصناف المنجورة، أشدّ الديّانين إلفاً لما دانوا به^(٥)، وشغفاً بما تعبّدوا له^(٦)، وأظهرهم جدّاً، وأشدّهم على من خالفهم ضغنًا، وبما دانوا ضنّاً^(٧)، وما الفرق بين البُدّ والوثن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُّمية والجُنة، ولم صوّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صوّر عظمائهم ورجال دعوتهم، ولم تأنّقوا في التصوير، وتجوّدوا^(٨) في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوليّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النحل، ومن أيّ شكل كانت خُدع تلك السدنة، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة.

وعبّني بكتاب المعادن، والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفلزّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرّع الانقلاب إلى بعضها، ويبطئ عن بعضها؛ وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ، وبعضها يصبغ وينصبغ، وما القول في الإكسير والتلطيف.

(١) في ل: «أصر» ومؤداهما واحد.

(٢) في ط: «بتنقص» والمثبت هنا في ل. وفي القاموس «وهو يتنقصه: يقع فيه ويذمه».

(٣) في ط: «العلسة» وتصحيحه من ل.

(٤) في ط: «عبادة البُدّة» وهو تصحيف صوابه ما في ل. والبُدّة: جمع بد - بضم الباء - وهو الصنم، معرب «بت»، وجمعه بددة وأبداد.

(٥) في ل: «أشدّ الناس إلفاً لما دانوا به».

(٦) في ط: «وشغفاً لما» وصوابه ما أثبتته عن ل. يقال شغف بالشئ إذا علق قلبه به.

(٧) في ل: «صباية وعجبا».

(٨) في ط: «تجروءا» بالراء. وصوابه ما في ل. وتجوّد: فعل الجيد.

وعبّتي بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجن، وكيف القول في معرفة الهدد واستطاعة العفريت⁽¹⁾، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب، وما ذلك العلم⁽²⁾، وما تأويل قولهم: كان [عنده اسم الله الأعظم].

وعبّتي بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القول في الأرزاق والإنفاقات [وكيف أسباب الثمير والترقيح⁽³⁾]، وكيف يجتلب⁽⁴⁾ التجار الحرفاء، وكيف الاحتيا لالدائع، [وكيف التسبب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن؛ وكيف ذكرنا غش الصناعات والتجارات، وكيف التسبب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما مؤهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله. وعبّتي برسائلي] وبكل ما كتبت [به] إلى إخواني وخطائي، من مزح وجد، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال ميسمه باقياً، ومديح لا يزال أثره نامياً؛ ومن ملح تضحك، ومواعظ تُبكي. وعبّتي برسائل الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهارها لها في أتم حلية. وزعمت أنني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه، إلى حد السرف والإفراط فيه. وزعمت أن مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة⁽⁵⁾، وأن مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية⁽⁶⁾. وزعمت أن في أصل القضية والذي جرّت عليه العادة، أن كل كبير فأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل جُمع [من] قليل، وأنشدت قول الراجز⁽⁷⁾:

قد يلحق الصغير بالجليل وإئما القزم من الأفيل
وسحق النخل من الفسيل
وأنشدت قول الشاعر⁽⁸⁾:

رب كبير هاجه صغير وفي البحور تغرق البحور
وقلت: وقال يزيد بن الحكم⁽⁹⁾:

فاعلم بُني فائه فاعلم بُني فائه
مما يهيج له العظيم

(1) في ط: «وكيف القول في استيلاء العفريت على سليمان وفي الهدد»، وهو كلام مشوه محرف وضعت بدله ما في ل. ومعرفة الهدد هي التي يشير إليها القرآن الكريم بآية «وجنتك من سبأ نبأ يقين». وأما استطاعة العفريت فهو ما في قوله تعالى: «قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ لَجْنٍ أَنَا وَإِيكَ يَهْ قِيلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ» [النمل: 39]. يعني عرش بلقيس.

(2) في ط: «وما الذي هو ذلك العلم» وهو تحريف صوابه في ل.

(3) ترقيح المال: إصلاحه والقيام عليه. (4) في ط: «تجرد» وصوابه في ل.

(5) في ط: «خطبة مقالة الرافضة» وتصحيحه من ل. (6) في ط: «خطبة مقالة الغالية» وصوابه ما في ل.

(7) أنشد الجاحظ هذا الرجز في المحاسن والأضداد 44. (8) البيت في المحاسن والأضداد ص 44.

(9) يزيد هذا، شاعر إسلامي عاصر جريراً والفرزدق، مر الفرزدق به يوماً فقال: من هذا الذي ينشد شعراً كأنه من أشعارنا؟ فقالوا: يزيد بن الحكم، فقال: نعم أشهد أن عمتي ولدته! والبيتان من أبيات له اختارها أبو تمام في الحماسة 2: 45 وهو يخاطب بهذه الأبيات ولده بدرًا.

وقلت: وقال الآخر:

صار جِداً ما مزحت به ربَّ جِدِّ سَاقِه اللَّعْبُ
وأنشدت قول الآخر⁽¹⁾:

ما تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ تُقْضَى الْأُمُورُ وَرَهْطُ وَرْدَةٍ غُيْبٍ⁽²⁾
قد يبعثُ الأَمْرَ الكبيرَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبَّبُ
وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْدٍ يَكْرِبُ:

جَدَعْتُم بَعْدَ اللَّهِ أَنْفَ⁽³⁾ قَوْمِهِ بني مازن أن سَبَّ راعي المَحْرَمِ⁽⁴⁾
وقال الآخر⁽⁵⁾:

أَيَّةُ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ وَأَيُّ جِدِّ بَلَغَ الْمَازِحُ
وتقول [العرب]: «العَصَا من العُصْيَةِ، ولا تلد الحَيَّةُ إِلَّا حَيَّةً»⁽⁶⁾.

وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبهة وعبت [كتابي] في القول في أصول الفتن والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه. وعبت معارضتي للزيدية وتفضيلي⁽⁷⁾ الاعتزال على كلِّ نَحْلَةٍ، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصاري واليهود⁽⁸⁾ ثمَّ عبت جملة كتبي في المعرفة والتمست تهجينها بكلِّ حيلة، وصعَّرت من شأنها، وحطَّطت من قدرها، واعترضت على ناسخها والمتنفعين بها، فعبت كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتاب أصحاب الإلهام، وكتاب الحجَّة في تثبيت النبوة، وكتاب الأخبار، ثمَّ عبت إنكاري بصيرة غنام المرتدِّ، وبصيرة كلِّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغُمَرِ⁽⁹⁾، وبين استبصار المحقِّ، وعبت كتاب الردِّ على الجَهْمِيَّة في الإدراك، وفي قولهم في الجَهالات⁽¹⁰⁾. وكتاب الفرق ما بين النبي

(1) في ط: «قول الآخر وهو قول عنترة»، وعبارة «وهو قول عنترة» دخيلة على الكتاب بدليل أنها في ل مثبتة بخط مخالف. كما أن البيتين لطرفة بن العبد مثبتان في ديوانه طبع 1919 ص 37، والشعر والشعراء 27، وخزانة الأدب 1: 417، ومعاهد التنصيص 1: 123.

(2) وردة: هي أمه، وكان أبو طرفة قد مات وهو غلام، فلما اقتسم أعمامه المال ظلموا أمه. ما تنظرون: أي تنتظرون.

(3) في ط: «أناف» وأثبت ما في ل، ش، 10 ش. وأنف يجمع على أنوف وأنف وأناف.

(4) في ط، ل، ش، 10 ش: «المخزم» بالخاء، وتصحيحه من الخزانة بضبط البغدادي 3: 77، والبيت من أبيات ستة رواها البغدادي وذكر لها قصة طويلة طريفة.

(5) هو أبو نواس الحسن بن هانئ كما في البيان والتبيين 3: 198.

(6) في ط: «حيية» ويغلب أن يكون تصحيف طبع. (7) في ط: «تفضيل» والوجه ما في ل.

(8) في ط: «النصراني واليهودي» وأثبت ما في ل.

(9) هذا ما في ل، ش، 10 ش. وفي ط «القمر» وهو تحريف. والغمر: الجاهل الذي لم يجرب الأمور.

(10) ما عدل: «الجهات» تحريف. وانظر 2: 80 و4: 167.

والمتنبى . والفرق ما بين الحيل والمخاريق ⁽¹⁾ ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباهرة ⁽²⁾ . ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه ، والاعتراض ⁽³⁾ على لفظه ، والتحقيق لمعانيه ، فزريت على نحتيه وسبكه ، كما زريت على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي إليه نزعنا ، والغاية التي إليها قصدنا ⁽⁴⁾ . على أنه كتاب معناه أنه من اسمه ، وحقيقته أنق من لفظه ، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامي ، كما يحتاج إليه العالم الخاصي ⁽⁵⁾ ، ويحتاج إليه الرّيش كما يحتاج إليه الحاذق : أما الرّيش فليتعلّم والدربة ، وللتدريب والرياضة ، وللتمرين وتمكين العادة ؛ إذ كان جليله يتقدم دقيقه ، وإذ كانت مقدّماته مرتبة وطبقات معانيه منزلة . وأما الحاذق فلكفاية المؤنة ؛ لأن كلّ من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كده ، مع تعرضه لمطاعن البعّة ، ولا اعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهايزة ، وتحكيمة فيه المتأولين والحسدة . ومتى ظفر بمثله صاحب علم ، أو هجم عليه طالب فقه ، وهو وادع رافه ، ونشيط جام ، ومؤلفه متعب مكدود ، فقد كفي مؤنة جمعه وخزنه ، وطلبه وتبّعه ، وأغناه ذلك من طول التفكير ، واستنفاد العمر وفلّ الحدّ ، وأدرك أقصى حاجته وهو مجتمع القوة . وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هجومه عليه من التوفيق ، وظفره به باباً من التسديد .

وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، وتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً ، وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرّف الفلسفة ، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة ، وإحساس الغريزة ، ويشتهي الفتيان كما تشتهي الشيوخ ، ويشتهي الفاتك كما يشتهي الناسك ، ويشتهي اللاعب ذو اللّهو كما يشتهي المجد ⁽⁶⁾ ذو الحرّم ، ويشتهي الغفل كما يشتهي الأريب ، ويشتهي الغبي كما يشتهي الفطن .

وعبّني بحكاية قول العثمانيّة ⁽⁷⁾ والضّرارية ، وأنت تسمعي ⁽⁸⁾ أقول في أوّل كتابي : وقالت العثمانية والضّرارية ، كما سمعني أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت عليّ بالنصب لحكايتي [قول العثمانية] ، فهلاً حكمت عليّ بالتشيع لحكايتي [قول الرافضة] !! وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة !! وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصّفرية ، كما حكينا قول الأزارقة والزيدية ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجية ، وكل اسم سواها وإنما هو فرع ونتيجة ، واشتقاق منها ، ومحمول عليها . وألاً كنّا عندك من الخارجية ، كما صرنا عندك من الضّرارية والناصبية .

(1) في ط : «المخارق» .

(2) في ل : «القاهرة» وفي ط «البصرة» وصوابهما ما في ش ، 10 ش .

(3) في ط : «والاغتماض» .

(4) في ل : «أجرينا» .

(5) هذا ما في ل . وفي ط : «كما يحتاج إليه الخاص» . (6) في ل : «الجدي» نسبة إلى الجد ضد الهزل .

(7) في ط : «بحكاية سر قول العثمانية» ، وكلمة «سر» هذه لا وجود لها في جميع النسخ المخطوطة .

(8) كذا في ل . وفي ط : «كما سمعني» .

فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى أعراض الناس من الخارجية⁽¹⁾، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع، وأتمم [وأحكم]، وأجود [صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهنت حق أوليائك، بقدر ما قويت باطل أعدائك!! ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحاً].

وعبّني بكتاب العباسية، فهلاً عبّني بحكاية مقالة من أبي وجوب الإمامة، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن ترك الناس سدى بلا قيم أرد عليهم، وهماً بلا راع أربح لهم، وأجدد أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل، وغنيمة الآجل، وأن تركهم نشر لا نظام لهم، أبعد من المفاسد، وأجمع لهم على المراشد!! بل ليس ذلك بك، ولكنه بهرك ما سمعت، وملاً صدرك الذي قرأت، وأبعلك وأبطرك، فلم تتجه للحجة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية⁽²⁾، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد. رأيت أن سب الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ في شفاء سقمك؛ ورأيت أن إرسال اللسان أحضر لذة، وأبعد من النصب، ومن إطالة الفكرة، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة.

ولو كنت فطنت لعجزك، [و⁽³⁾] وصلت نقصك بتمام غيرك، واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك، وحيس على تقويم أشباهك كان ذلك أزين في العاجل، وأحق بالمشوبة في الآجل، وكنت إن أخطأتك الغنيمة لم تخطك السلامة، وقد سلّم عليك المخالف بقدر ما ابتلي [به] منك الموافق. وعلى أنه لم يبتل منك إلا بقدر ما ألزمته من مؤنة تثقيفك، والتشاغل بتقويمك. وهل كنت في ذلك إلا كما قال العربي: «هل يضُر السحاب نبُح الكلاب».

والأ كما قال الشاعر:

هل يضُرُّ البحر أمسى زائراً أن رمى فيه غلام بحجر⁽⁴⁾
وهل حالنا في ذلك إلا كما قال الشاعر⁽⁵⁾:

ما ضرَّ تغلب وائل أهجوتها أم بُلَّت حيث تنأطح البحران
وكما قال حسَّان بن ثابت⁽⁶⁾:

ما أبالي أنب بالحرز نيس أم لحاني بظهر غيب لئيم
وما أشك أنك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطية لك، ووجهت حملنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زُفر بن الحارث لبعض من لم ير حق الصفح، فجعل العفو سبباً إلى سوء القول:

(1) في ل: «فكيف رضيت بأن تكون الشيعة إلى أعراض الناس أسرع من المارقة».

(2) في ط: «وهي لك معوضة، ولم تعرف المقابل وهي لا بادية».

(3) زيادة ضرورية لاستقامة الكلام. (4) البيت رواه الجاحظ في البيان 3: 248، والرواية هناك «ما يضير».

(5) هو الفرزدق ديوانه 882 والبيان 3: 248 والخزانة 2: 501.

(6) ديوانه 378.

فإن عدتَ واللَّه الذي فوقَ عَرْشِهِ مَنَحْتُكَ مَسْنُونٌ ⁽¹⁾ الْغِرَارِينَ أَرْقَا
فإن دواءَ الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى وأن يُغْمَسَ الْعَرِيضُ حَتَّى يَغْرَقَا ⁽²⁾
وقال الأول :

وَضَغَائِنِ دَاوَيْتُهَا بِضَغَائِنِ حَتَّى شَفَيْتُ وَبِالْحُقُودِ حُقُودَا
وقال الآخر :

وما نَفَى عَنْكَ قَوْمًا أَنْتَ خَائِفُهُمْ كَمِثْلٍ وَقَمِكَ جُهَالًا بِجُهَالِ ⁽³⁾
فَأَقْعَسَ إِذَا حَدَبُوا وَاحْدَبَ إِذَا قَعَسُوا وَوَاظِنِ الشَّرَّ مَثَقَالًا بِمَثَقَالِ
فإنَّ وإن لم يكن عندنا سِنَانُ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ ، ولا معارضة هؤلاء الشَّرِّ بِالشَّرِّ ، والجهل بالجهل ، والحق بالحق ، فإن عندي ما قال المسعودي ⁽⁴⁾ :

فَمَسَّا تَرَابَ الْأَرْضِ مِنْهُ خُلِقْتُمَا وفيه المعادُ والمصيرُ إِلَى الْحِشْرِ
وَلَا تَأْنِفَا أَنْ تَرْجِعَا فَتَسَلَّمَا فَمَا كَسَى الْأَفْوَاهُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ ⁽⁵⁾
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى ⁽⁶⁾ فَيَكُمَا غَيْرَ وَاحِدٍ عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي السَّرِّ
فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَّهُ عِنْدَكُمَا ضَحِكْتُ لَهُ كَيْمَا يَلْجُ وَيَسْتَشِيرِي ⁽⁷⁾
وقال التَّمْرِ بْنِ تَوَلَّبَ :

جَزَى اللَّهُ عَنِّي جَمْرَةَ ابْنَةِ نُوْفَلٍ جَزَاءَ مُغِلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبِ ⁽⁸⁾

(1) في ط : « مصقول » . و غرار السيف أي حده لا يوصف بالصقل ، وإنما يوصف بالحدة . فالوجه (مسنون) كما في ل وكما في البيان 4 : 56 .

(2) فإن من الجهل أن تضرب الطلى وأن تلمس العريض حتى يغرقا هكذا ورد البيت في ط وهو تحريف أصلحته من ل ومن البيان للجاحظ . والطللى : الأعناق أو أصولها ، جمع طلية أو طلاة ، بضم الطاء في كل منهما . والعريض كسكيت : الذي يتعرض للناس بالشر .
(3) جاء البيت في ط على هذه الصورة :

وما تعي عنك قوماً أنت خائفهم كمثل رقمك جهالاً بجهال
وصححناه من البيان 3 : 334 ومن ل ، ش والروض الأنف 1 : 170 ومجالس ثعلب 491 ، والوقم : القهر والإذلال والكبح .

(4) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . وهذه الأبيات من عشرة أبيات رواها المرتضى في أماليه 2 : 60 ، 61 وذكر قصة لها ، انظر لها أيضاً جمع الجواهر ص 3 .

(5) في الأمالي : « فما حشى الأقوام » وفي جمع الجواهر : « فما حشى الإنسان » . وفي ل ، ش « ولا تعجبا أن ترجعا » . يخاطب عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عمرو بن عثمان كما في المحبر 297 .

(6) في ط : « أولى » ، وصوابه ما في ل ، ش ، 10 ش والأمالي . وفسرها المرتضى بقوله : معناه لو شئت اغتابكما عندي غير واحد .

(7) في ط « يلح » بالحاء ، وأثبت ما هو في أمالي المرتضى ول ، 10 س والبيان .

(8) كذا في ل ، 10 ش . وغل وأغل بمعنى خان . . وفي ط : « مقل » وتحريفه ظاهر . وفي ش : « مخل » . وجمرة بالجمع اسم زوجته ، كما في الأغاني 19 : 158 .

بما خَبَرْتُ عَنِّي الوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا عَلَيَّ وقد أُولِيْتُهَا فِي النَوَائِبِ
يقول: أَخْرَجْتُ خَبَرَهَا، فَخَرَجَ [إِلَى⁽¹⁾] مِنْ أَحَبُّ أَنْ يَعَابَ عِنْدَهَا.

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ نَعَارِضَكَ لَعَارِضُنَاكَ فِي الْقَوْلِ بِمَا هُوَ أَقْبَحُ أَثَرًا وَأَبْقَى وَسْمًا، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَعْدَلُ شَاهِدًا. وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَرَكَ الْمَعَارِضَةَ فَقَدْ صَفَحَ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَارِضٍ فَقَدْ انْتَصَرَ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ قَوْلًا، إِنَّ فِهْمَتَهُ فَقَدْ كَفَيْتَنَا مَثُونَةَ الْمَعَارِضَةِ، وَكَفَيْتَ نَفْسَكَ لِرُومِ الْعَارِ، وَهُوَ قَوْلُهُ⁽²⁾:

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْهَبُ ذَمِّي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَاهِلِ
فَاخْشَ سَكُوتِي إِذْ أَنَا مَنْصَتٌ فَيْكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ⁽³⁾
فَالسَّامِعُ الذَّمَّ شَرِيكَ لَهُ وَمُطْعِمُ الْمَأْكُولِ كَالْأَكْلِ
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْهَدِرِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَهْجُجْ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ حَرْبُ أَخِي التَّجَرِبَةِ الْعَاقِلِ
فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّجَتْهُ هَجَّتْ بِهِ ذَا خَبَلٍ خَابِلِ
تُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَاتِهِ عَلَيْكَ غَبُّ الضَّرَرِ الْآجِلِ
وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الْعَفْوَ يُفْسِدُ مِنَ اللَّئِيمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْعَفْوَ عِنْدَ لَبِيبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ وَبَعْضُهُ لِسَفِيهِ الْقَوْمِ تَدْرِيبُ

فَإِنْ كُنَّا⁽⁴⁾ أَسَانَا فِي هَذَا التَّقْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ، فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ فِينَا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَا بِأَدَبِ الرِّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الْفِطَنِ الصَّحِيحَةِ، وَإِلَى مَا تَوَجَّهَ الْمَقَائِيسُ الْمَطْرُودَةُ، وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ، وَالْأَشْعَارُ السَّائِرَةُ، أَوْلَى بِالْإِسَاءَةِ وَأَحَقُّ بِاللَّائِمَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: 7]. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَجْنِ يَمِينَكَ عَلَى شِمَالِكَ».

وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَدَبُ رَسُولِهِ ﷺ، وَالَّذِي أَنْزَلَ بِهِ الْكِتَابَ وَدَلَّ عَلَيْهِ مِنْ حُجَجِ الْعُقُولِ. فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي الْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ [رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ]، وَأَمَّا قَوْلُ الشُّعْرَاءِ، وَذُمُّ الْخُطَبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبٍ غَيْرِهِ، وَمَا ضَرَبُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ، كَقَوْلِ النَّابِغَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شِعْرِهِ:

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكَتَهُ كَذِي الْعُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

- (1) زيادة يقتضيها السياق. والمعنى أنها أظهرت سر الحب، فذاع حتى وصل إلى الوشاة الذين يمتنى هو أن يعابوا عندها.
- (2) نسب إلى العتابي في الأغاني 12: 10 ولباب الآداب 360 ورسالة فصل ما بين العداوة والحسد. ونسب إلى كعب بن زهير في الخزنة 4: 12.
- (3) كذا في الخزنة وجمع الجواهر 3: وشرح بانت سعاد 3 والشريشي 2: 150، وفي ل، ش «فاخش سكوتي آذنا منصتا». وأذنا: مصغيا.
- (4) في ط: «فاناكنا» وتصحيحه من ل، ش، 10 ش.

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرَّ كَوُوا السليمَ ليدفعه عن السقيم ، فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبرئوا السقيم . وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم فبلَغَت الألف ، فقَتُوا عَيْنَ الفحل ، فإن زادت الإبلُ على الألف فقَتُوا العينَ الأخرى ، وذلك المفقَأُ والمُعَمَّى اللذان سمعتُ في أشعارهم . قال الفرزدق :

غلبتك بالمفقئ والمعنى وبيت المُحتبي والخافقات⁽¹⁾
[وكانوا يزعمون أن المفقَأ يطرد عنها العين والسواف⁽²⁾ والغارة ، فقال الأول :
فقات لها عينَ الفَحيل عِيافةً وفيهن رَعلاءُ المساميع والحامي⁽³⁾
الرعاء : التي تشقُّ أذنها وتترك مدلاةً ، لكرمها.]

وكانوا يقولون في موضع الكَفَّارة والأُمْنِيَّة ، كقول الرجل : إذا بلغتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنمي ، ذُبَحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة . والعتيرة من نُسكِ الرَجِيَّة والجمع عتائر - والعتائر من الظباء - فإذا بلغتْ إبْلُ أحدهم أو غنمه ذلك العدد ، استعمل التأويل وقال : إنَّما قلتُ إنِّي أذبحُ كذا وكذا شاة ، والظباء شاء كما أنَّ الغنم شاء ، فيجعل ذلك القربان شاء كلَّه ممَّا يصيد من الظباء ، فلذلك يقول الحارثُ بن جِلزَةَ الشكرِي :

عَنَّا باطلاً وظُلماً كما تُعْتَرُ عَنْ حَجَرَةِ الرَّبِيزِ الظُّبَاءِ
بعد أن قال :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةٍ أَنْ يَغُفَّ نَمَ غَازِبُهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ
وكانوا إذا أوردُوا البقرَ فلم تشرب ، إمَّا لكَدَرِ الماء ، أو لقلَّةِ العطش ، ضربوا الثورَ ليقْتَحِمَ الماء ، لأنَّ البقرَ تَتَّبِعُهُ كما تَتَّبِعُ الشَّوْلُ الفحل ، وكما تتبع أثْنُ الوحشِ الحِمَار . فقال في ذلك عَوْفُ بنِ الحَرَجِ⁽⁴⁾ :

(1) هذا البيت دخيل على الكتاب ، ويبعد من مثل الجاحظ أن يفكر في الاستشهاد به في هذا الموضع إذ لا علاقة له به ، وإنما يشير الفرزدق بكلمة «المفقئ» إلى قصيدته التي يقول فيها مهاجياً لجريز :

ولست وإن فقات عينك واجدا أبا لك إن عد المساعي كدارم
وبكلمة «المعنى» إلى قوله :

وإنك إذ تسعى لتدرك دارما لأنت المعنى يا جريز المكلف
و«بيت المحتبي» إشارة إلى قوله :

بيتاً زراة محتب بفنائنه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
و«الخافقات» يريد قوله :

وأبن تقضي المالكان أمورها بحق وأبن الخافقات اللوامع
انظر ابن سلام 392 - 330 والنقائض 768 ليدن ولسان العرب (عنى) .

وقد ورد البيت مصحفاً على الوجه الآتي :

غلبتك (بالمفقأ والمعمي) وبيت (المجتبي) والخافقات

(2) السواف : الموتان يقع في الإبل ، يقال بالفتح وبالضم .

(3) البيت في البيان 3 : 54 ، والفحيل : المنجب في ضرابه ، وعني بالعيافة التناؤل .

(4) في ط : «عوض بن اجزع» ، وهو على الصواب الذي أثبتّه ، في ل ، ش ، 10 ش .

تَمَنَّتْ طَيِّئٌ جَهْلًا وَجُبْنًا وقد خَالَيْتُهُمْ فَأَبَوْا خِلَائِي (1)
هَجَوْنِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى كَضَرَبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّمَاءِ
وقال في ذلك أَنَسُ بْنُ مُدْرِكٍ فِي قَتْلِهِ سُلَيْكَ بْنِ السُّلَكَةِ :

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَغْقَلُهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقْرُ (2)
أَنْفَتُ لِلْمَرَّةِ إِذْ نَبِكَتْ حَلِيلَتُهُ وَأَنْ يُشَدَّ عَلَى وَجْعَائِهَا الثَّفَرُ (3)
وقال الْهَيْبَانُ الْفَهْمِيُّ (4) :

كَمَا ضَرَبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ
ولَمَّا كَانَ الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ ، وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إِنْثِ النَّحْلِ لِلْيَعْسُوبِ ، سَمَّاهُ بِاسْمِ أَمِيرِ
النَّحْلِ . وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ الْجَنَّ هِيَ الَّتِي تُصَدُّ الثَّيْرَانِ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُمْسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ
حَتَّى تَهْلِكَ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْأَعَشَى :

فَإِنِّي وَمَا كَلَفْتُمُونِي - وَرَبِّكُمْ - لِأَعْلَمُ مَنْ أَمْسَى أَعْقًى وَأَحُوبًا (5)
لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِّي يُضْرَبُ ظَهْرَهُ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ مَشْرَبًا
وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءَ بَاقِرٌ وَمَا إِنْ تَعَافَ الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا (6)
كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهَا عَافَتِ الْمَاءَ ، فَكَأَنَّهُا إِنَّمَا عَافَتِ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ .
وقال يَحْيَى بْنُ مَنْصُورِ الدُّهْلِيِّ فِي ذَلِكَ :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِّي يُضْرَبُ وَجْهَهُ وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجِنُّ ظَالِمَةً
وقال نَهْشَلُ بْنُ حَرَّيٍّ (7) :

أَتُتْرَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيٍّ وَتَغْرَمُ دَارِمٌ وَهُمْ بَرَاءُ
كَدَابِ الثَّوْرِ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءَ (8)
وَكَيْفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى سُهِيلًا وَبَيْنَهُمَا الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ
وقال أَبُو نُؤَيْرَةَ بْنُ الْحَصِينِ ، حِينَ أَخَذَهُ الْحَكَمُ بْنُ أَيُّوبَ بِذَنْبِ الْعَطْرَقِ (9) :

(1) خَالَيْتُهُمْ : تَرَكَتَهُمْ . (2) عَافَتِ : امْتَنَعَتْ عَنِ شَرْبِ الْمَاءِ .

(3) الْوَجْعَاءُ : الْأَسْتِ . وَالثَّفَرُ بِالتَّحْرِيكِ : السَّيْرُ فِي مَوْخِرِ السَّرَجِ .

(4) فِي الْأَصْلِ : «الْهَيْبَانُ» . وَانْظُرِ الْإِصَابَةَ ج 2 ص 9 وَالْقَامُوسَ «هَيْب» . وَفِي ط ، ش : «الْفَقْمِي» صَوَابُهُ فِي ل .

(5) فِي ط ، ش ، 10 : «أَحْرَبًا» بِالرَّاءِ . وَمَا أُثْبِتَهُ عَنْ ل . . يُقَالُ حَابٌ بِكَذَا : أَثْمٌ ، وَالْمَصْدَرُ الْحَوْبُ بِفَتْحِ الْحَاءِ

وَتَضُم . وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النِّسَاءُ : 2] .

(6) بَاقِرٌ : اسْمُ جَمْعٍ لِلْبَقْرِ . وَمِثْلُهُ بَقِيرٌ وَبِقُورٌ وَبَاقُورٌ وَبَاقُورَةٌ .

(7) لَهُ تَرْجُمَةٌ فِي خَزَانَةِ الْبَغْدَادِيِّ 1 : 284 بُولَاق .

(8) فِي الْأَصْلِ : «الْبَرَارِي» ، صَوَابُهُ مِنْ حِمَاسَةِ الْبَحْتَرِيِّ 353 .

(9) فِي ط «الْعَطْرَفُ» بِالْفَاءِ ، وَصَوَابُهُ فِي ل ، ش ، 10 : ش .

أَبَا يُوسُفَ لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ طَاعَتِي وَنُصْحِي إِذَنْ مَا بَعْتَنِي بِالْمَحْلَقِ⁽¹⁾
 وَلَا سَاقَ سَرَّاقِ الْعِرَافَةِ صَالِحٍ⁽²⁾ بَنِي وَلَا كَلَّفْتُ ذَنْبَ الْعَطْرِ
 وَقَالَ خِدَاشُ⁽³⁾ بَن زُهَيْرٍ حِينَ أَخَذَ بِدِمَاءِ بَنِي مُحَارِبٍ⁽⁴⁾ :
 أَكَلَفُ قَتَلِي مَعْشَرَ لَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا دَارُهُمْ دَارِي وَلَا نَصْرُهُمْ نَصْرِي
 أَكَلَفُ قَتَلِي الْعَيْصِ عَيْصِ شَوَاحِطٍ وَذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ تُثَفِّ لَهُ قِدْرِي⁽⁵⁾
 وَقَالَ الْآخَرُ :

إِذَا عَرَكْتَ عَجَلُ بَنَّا ذَنْبَ طِيئٍ عَرَكْنَا بَتِيمَ اللَّاتِ ذَنْبَ بَنِي عَجَلٍ
 وَلَمَّا وَجَدَ الْيَهُودِيُّ أَخَا حَنْبُضَ⁽⁶⁾ الضَّبَابِيَّ فِي مَنْزِلِهِ فَخَصَّاهُ فَمَاتَ ، وَأَخَذَ حَنْبُضُ بَنِي
 عَبْسٍ بِجَنَائَةِ الْيَهُودِيِّ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ : أَتَأْخُذُنَا بِذَنْبِ غَيْرِنَا ، وَتَسْأَلُنَا الْعَقْلَ وَالْقَاتِلُ يَهُودِيٍّ
 مِنْ أَهْلِ تِيْمَاءَ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ أَنْ لَوْ قَتَلْتَهُ الرِّيحُ ، لَوَدِدْتُمْوهُ ! فَقَالَ قَيْسُ لِبَنِي عَبْسٍ : الْمَوْتُ فِي
 بَنِي ذُبْيَانَ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ فِي بَنِي عَامِرٍ ! ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :
 أَكَلَفُ ذَا الْخَصِيَيْنِ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَإِنْ كُنْتُ مَظْلُومًا وَإِنْ كُنْتُ شَاطِنًا⁽⁷⁾
 خَصَّاهُ امْرُؤٌ مِنْ آلِ تِيْمَاءَ طَائِرٍ وَلَا يَعْدُمُ الْإِنْسِيَّ وَالْجَنْجُنُ كَائِنًا⁽⁸⁾
 فَهَلَّا بَنِي ذُبْيَانَ - أَمَّا هَابِلٌ - رَهَنْتُ بِفَيْفِ الرِّيحِ إِنْ كُنْتُ رَاهِنًا⁽⁹⁾
 إِذَا قُلْتُ قَدْ أَفْلْتُ مِنْ شَرِّ حَنْبُضٍ أَتَانِي بِأُخْرَى شَرَّهُ مُتَبَاطِنًا
 فَقَدْ جَعَلْتُ أَكْبَادُنَا تَجْتَوِيكُمْ كَمَا تَجْتَوِي سُوقَ الْعِضَاءِ الْكَرَازِنَا⁽¹⁰⁾

(1) ما عدل ، 10ش «إذن هاديتني» . تحريف . وانظر الخزانة 3: 215 ، وفي الخزانة : «والمحلق الضبي ولاه الحكم بن أبوب سفوان» .

(2) في ط : «سراف العرافة» وتصحيحه من ل ، شن ، 10ش .

(3) في ط : «خراش» وما هنا عن ل . وخدش شاعر جاهلي ، من أشراف بني عامر .

(4) في ط : «بذنب ابن محارب» وتصحيحه من ل وكما يتضح من الشعر .

(5) في ط : «عيص شواهد» وهو تحريف ما في ل ، ش ، 10ش . وفيها كذلك «لم يكلف له» وصوابه ما في ل ، ش ،

10س . وثقئ القدر : وضع لها الأثافي وانظر معجم البكري 815 وجمهرة أشعار العرب 109 .

(6) ما عدل ل «أبا حنبض» ، صوابه في ل والميداني 2 : 59 .

(7) شاطنا : بعيداً نائياً .

(8) في ل : «من آل يثماء طابن» وفيها «طابنا» موضع «كائناً» .

(9) في الأصل : «بهيف الريح» تحريف . وانظر خبر يوم فيف الريح في الأغاني 15 : 70 وأمثال الميداني 2 : 358

والكامل لابن الأثير 1 : 387 .

(10) الكرزن وقد يكسر والكرزين : الفأس الكبير .

(قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته)

ولما قَتَلَ لُقْمَانُ بَنُ عادِ ابنتَه - وهي صُحْرُ أَخْتِ لُقَيْمٍ - قال حين قَتَلَهَا: أَلَسْتُ امْرَأَةً! وذلك أَنَّهُ قد كان تزوج عِدَّةَ نساء، كُلَّهُنَّ خُتْنُهُ في أَنْفُسِهِنَّ، فَلَمَّا قَتَلَ أَخْرَاهُنَّ ونَزَلَ مِنَ الْجَبَلِ، كان أوَّلَ مَنْ تَلَقَّاهُ صُحْرُ ابنته، فوثَبَ عليها فقتلها، وقال: وأنت أيضاً امرأة! وكان قد ابْتُلِيَ بأنَّ أَخْتَه كانت مُحْمَقَةً⁽¹⁾ وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لُقْمَانَ: هذه ليلة طُهْرِي وهي ليلتك، فدعيني أنام في مَضْجَعِكَ، فإنَّ لُقْمَانَ رجلاً مُنْجِبَ، فعسى أن يقع عليَّ فَأُنْجِبَ. فوقع على أَخْتِهِ فَحَمَلَتْ بِلُقَيْمٍ. فهو قول التَّمْرِ بن تَوَلَبَ⁽²⁾:

لُقَيْمُ بْنُ لُقْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ فَكَانَ ابْنُ أَخْتٍ لَهُ وَابْنُهَا
لِيَالِي حَمَقٍ فَاسْتَحْصَنْتُ عَلَيْهِ فَعُرَّبَهَا مُظْلِمًا⁽³⁾
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكِمٌ فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا مُحْكِمًا⁽⁴⁾

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنته صُحْرًا، فقال خُفَّافُ ابْنِ نُدْبَةَ في ذلك: وَعِيَّاشُ يُدِبُ لِي الْمَنَايَا وَمَا أَذْنِبْتُ إِلَّا ذَنْبَ صُحْرٍ⁽⁵⁾ وقال في ذلك ابن أَدِينَةَ⁽⁶⁾:

أَتَجَمَّعَ تَهَيَّامًا بَلِيلَى إِذَا نَأَتْ وَهَجْرَانَهَا ظُلْمًا كَمَا ظَلِمَتْ صُحْرُ
وقال الحارثُ بن عُبَاد:

قَرَّبًا مَرَبُطَ النِّعَامَةِ مِنِّي لَقِحتُ حَرْبَ وَائِلٍ عَنْ حِيَالٍ⁽⁷⁾
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّـهُ هُـ وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي
وقال الشاعر، وأظنه ابن المقفَّع:

فَلَا تَلُمِ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ فَرَبَّ مَلُومٍ وَلَمْ يُذْنِبِ

(1) المحمقة والمحمق أيضًا: المرأة تلد الحمقى. قال السيوطي في شرح شواهد المغني 67 وكانت تحت رجل أحمق.

(2) شاعر مخضرم أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، ووفد إلى النبي ﷺ وكتب له كتابًا، وروى عنه حديثًا، وكان أحد أجواد العرب المذكورين وفرسانهم.

(3) في ط «فعربه». وغربها: خدع بها. ومظلمًا: في الظلام.

(4) المحكم: المنجب الذي يلد حكيماً، ويقابله المحمق: الذي يلد أحمق.

(5) في ثمار القلوب 245 «وعباس يمهد لي المنايا» وفي ل «وعياش يدب إلي». وأدبها: جعلها تدب.

(6) هو عُرْوَةُ بن أَدِينَةَ، وأدِينَةُ لقب لأبيه، واسم أبيه يحيى شاعر مقدم من أهل المدينة ويعد في الفقهاء والمحدثين أيضًا، ولكن غلب عليه الشعر، وله ترجمة مستفيضة في الأغاني 21: 105-111.

(7) النعامة: فرس الحارث. وعن حِيَالٍ: أي بعد انقطاع عن الحمل. والمعنى أنه قد جد الجد.

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ وَكَمْ لَائِمٌ قَدْ لَامَ وَهُوَ مُلِيمٌ ⁽¹⁾
(حديث سنمَّار)

وقال بعض العرب، في قتل بعض الملوك ⁽²⁾ ليسنمَّار الرومي؛ فإنه لما علا الخَوَزْنَق ورأى بُنياناً لم ير مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبنى مثل ذلك البنيان لرجل آخر من الملوك، رمى به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبي ⁽³⁾ في شيء كان بينه وبين بعض الملوك :

جَزَانِي جَزَاءَ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ سِنَمَّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
سَوَى رَضِهِ الْبُنْيَانِ سَبْعِينَ حِجَّةً يُعَلَّى عَلَيْهِ بِالْقَرَامِيدِ وَالسَّكْبِ ⁽⁴⁾
فَلَمَّا رَأَى الْبُنْيَانِ تَمَّ سُحُوقُهُ وَأَضَّ كَمِثْلِ الطُّودِ ذِي الْبَاذِخِ الصَّعْبِ ⁽⁵⁾
وظَنَّ سِنَمَّارَ بِهِ كُلَّ حَبْوَةٍ وَفَارَ لَدَيْهِ بِالْمَوَدَّةِ وَالْقُرْبِ ⁽⁶⁾
فَقَالَ : اقْدِفُوا بِالْعُلُجِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ فَذَاكَ لِعَمْرِ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْخُطْبِ

وجاء المسلمون، يروى خَلْفَ عَنْ سَلَفٍ، وَتَابِعُ عَنْ سَابِقٍ، وَآخِرُ عَنْ أَوَّلٍ، أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي عَيْبِ قَوْلِ زِيَادٍ ⁽⁷⁾ : «لَا خُذَنَّ الْوَلِيَّ بِالْوَلِيِّ، وَالسَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَالْجَارَ بِالْجَارِ»، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي لَعْنِ شَاعِرِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ :

إِذَا أَخَذَ الْبَرِيءُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ تَجَنَّبَ مَا يُحَاذِرُهُ السَّقِيمُ

قَالَ : وَقِيلَ لِعَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ : إِنَّ فَلَانًا لَمَّا قَدَّمَ رَجُلًا لِيُضْرَبَ عُنْقُهُ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ مَجْنُونٌ ! فَقَالَ : لَوْلَا أَنَّ الْمَجْنُونَ يَلِدُ عَاقِلًا لَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ . قَالَ : فَقَالَ عَمْرٍو : مَا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ إِلَّا بِالْحَقِّ !

وَلَمَّا قَالَتِ التَّغْلَبِيَّةُ لِلْجَحَّافِ، فِي وَقْعَةِ الْبِشْرِ ⁽⁸⁾ : فَضَّ اللَّهُ فَاكَ وَأَعْمَاكَ، وَأَطَالَ سَهَادَكَ، وَأَقْلَّ رُقَادَكَ، فَوَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتَ إِلَّا نِسَاءً أَعَالِيَهُنَّ تُدِي، وَأَسَافِلُهُنَّ دُمِّي !! فَقَالَ لِمَنْ

(1) كذا، وحفظي أن الشعر الأول عجز، صدره كما في الميداني 2: 126 :

تَأْنٍ وَلَا تَعْجَلْ بِلُومِكَ صَاحِبَا

(2) قال الهيثم بن عدي : إنه النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي . وقال ابن الكلبي : هو بهرام جور بن يزدجرد .

(3) في ثمار القلوب ص 109 أنه شراحيل الكلبي . وفي أمالي ابن الشجري 1: 102 أنه عبد العزى بن امرئ القيس .

(4) القراميد : مفردة قرمد كجعفر وهو الأجر . والسكب : النحاس أو الرصاص ، ويحرك وفي ثمار القلوب «عشرين حجة» وفي معجم البلدان «ستين حجة» .

(5) في معجم البلدان «كمثل الطود والشامخ الصعب» .

(6) في ل : «حبرة» بمعنى السرور .

(7) هو ابن أبيه . والكلام في خطبته البتراء المعروفة . انظر البيان 2: 63 .

(8) في ط : «البسر» وهو تصحيف ، والبشر : جبل يمتد من الشام إلى الفرات . وانظر المعجم والأغاني 19: 130 .

حَوَّلَهُ: لَوْ لَا أَنَّ تِلْدَ هَذِهِ مِثْلَهَا لَخَلِيتُ سَبِيلَهَا! فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَسَنَ فَقَالَ: أَمَّا الْجَحَافُ فَجَذُوءٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قَالَ: وَذَمَّ رَجُلٌ عِنْدَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ الْكَمَاءَ بِالسَّمَنِ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَحْنَفِ: «رُبَّ مَذْمُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»⁽¹⁾. فِيهِذِهِ السَّيْرَةُ سَرَتَ فِينَا. وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ⁽²⁾:

وإنَّ امرأاً أَمْسَى وَأَضْبَحَ سَالِماً مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ
(عناية العلماء بالملح والفكاهات)

وَقُلْتُ: وَمَا بِالْأَهْلِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ، وَأَصْحَابِ الْفِكْرِ وَالْعَبْرِ، وَأَرْيَابِ النَّحْلِ، وَالْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْبَصْرِ بِمَخَارِجِ الْمَلَلِ، وَوَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَعْوَانِ الْخُلَفَاءِ، يَكْتُبُونَ كِتَابَ الظُّرَفَاءِ وَالْمُلْكَاءِ، وَكُتِبَ الْفُرَاغُ وَالْخُلَعَاءُ، وَكُتِبَ الْمَلَاهِي وَالْفُكَاهَاتِ، وَكُتِبَ أَصْحَابُ الْخُصُومَاتِ، وَكُتِبَ أَصْحَابُ الْمِرَاءِ، وَكُتِبَ أَصْحَابُ الْعَصَبِيَّةِ وَحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ!! أَلَا يُهْمُ لَا يَحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا يُوَازِنُونَ بَيْنَ مَا عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ، وَلَا يَخَافُونَ تَصَفُّحَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا لَائِمَةَ الْأَرْيَاءِ⁽³⁾، وَشَنَفَ الْأَكْثَفَاءِ، وَمَشْنَأَهُ⁽⁴⁾ الْجُلَسَاءِ؟! فَهَلَّا أَمْسَكَتَ - يَرْحَمُكَ اللَّهُ - عَنْ عَيْبِهَا وَالطُّعْنِ عَلَيْهَا، وَعَنْ الْمَشُورَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَعَنْ تَخْوِيفِ مَا فِي⁽⁵⁾ سَوَاءِ الْعَاقِبَةِ، إِلَى أَنْ تَبْلُغَ حَالَ الْعُلَمَاءِ، وَمَرَاتِبَ الْأَكْثَفَاءِ؟! فَأَمَّا كِتَابُنَا هَذَا، فَسَنَذْكُرُ جُمْلَةَ الْمَذَاهِبِ⁽⁶⁾ فِيهِ، وَسَنَأْتِي [بَعْدَ ذَلِكَ] عَلَى التَّفْسِيرِ، وَلَعَلَّ رَأْيِكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَحَوَّلَ، وَقَوْلُكَ أَنْ يَتَبَدَّلَ، فَتُثْبِتَ أَوْ تَكُونَ قَدْ أَخَذْتَ مِنَ التَّوَقُّفِ بِنَصِيبٍ، [إِنْ شَاءَ اللَّهُ].

(أقسام الكائنات)

وَأَقُولُ: إِنَّ الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَجْسَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ: مُتَّفَقٌ، وَمُخْتَلَفٌ، وَمُتَضَادٌّ؛ وَكُلُّهَا فِي جُمْلَةِ الْقَوْلِ جَمَادٌ وَنَامٌ. وَكَانَ حَقِيقَةُ الْقَوْلِ فِي الْأَجْسَامِ مِنْ هَذِهِ الْقِسْمَةِ، أَنْ يُقَالَ: نَامٌ وَغَيْرُ نَامٍ. وَلَوْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ وَضَعُوا لِكُلِّ مَا لَيْسَ بِنَامٍ اسْمًا، كَمَا وَضَعُوا لِلنَّامِيِّ اسْمًا، لَأَتَّبَعْنَا أَثَرَهُمْ؛ وَإِنَّمَا نَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ انْتَهَوْا. وَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ دَلَالَةُ قَوْلِهِمْ جَمَادٌ، كَذَلَالَةِ قَوْلِهِمْ: مَوَاتٌ. وَقَدْ يَفْتَرِقَانِ فِي مَوَاضِعَ بَعْضَ الْاِفْتِرَاقِ. وَإِذَا أَخْرَجْتَ⁽⁷⁾ مِنَ الْعَالَمِ الْأَفْلَاكَ وَالْبُرُوجَ وَالنَّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَجَدْتَهَا غَيْرَ نَامِيَّةٍ، وَلَمْ تَجِدْهُمْ يَسْمُونُ شَيْئًا مِنْهَا بِجَمَادٍ وَلَا مَوَاتٍ، وَلَيْسَ لِأَنَّهَا تَتَحَرَّكُ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهَا لَمْ تُسَمَّ مَوَاتًا وَلَا جَمَادًا.

(1) الخبر في البيان والتبيين 2: 344، 374.

(2) هو سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

(3) كذا في ل. وفي ط «ولائمة الأدباء».

(4) في ط: «شناة» وصوابه شناة. وأثبت ما في 10 ش وأما في ل فهي «مساءة». والشنف بالتحريك وكذا المشناة بمعنى، هو البغض.

(5) في ل: «ما فيه».

(6) في ط: «خرجت».

(7) في ط: «المذاهب» والوجه ما أثبتته من ل، ش.

وناسٌ يجعلونها مدبرة غير مدبرة، ويجعلونها مسخرة غير مسخرة⁽¹⁾، ويجعلونها أحياء من الحيوان؛ إذ كان الحيوان إنمّا يحيا بإحيائها له، وبمّا تُعطيه وتُعيّره. وإنما هذا منهم رأي، والأُمم في هذا كلّ على خلافهم، ونحن في هذا الموضع إنمّا نعبّر عن لُغتنا، وليس في لُغتنا إلا ما ذكرنا. والناس يسمّون الأرض جماداً، وربّما يجعلونها مواتاً إذا كانت لم تُنبث قديماً، وهي موات الأرض، وذلك كقولهم: مَنْ أحيّا أرضاً مواتاً فهي له.

وهم لا يجعلون الماء والنار والهواء، جماداً ولا مواتاً، ولا يسمّونها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى الثّماء والحسّ. والأرض هي أحد الأركان الأربعة، التي هي الماء والأرض والهواء والنار، والاسمان لا يتعاوَران عندهم إلا الأرض.

(تقسيم النامي)

ثمّ النامي على قسمين: حيوان ونبات، والحيوان على أربعة أقسام: شيءٌ يمشي، وشيءٌ يطير، وشيءٌ يسبح، وشيءٌ ينساح⁽²⁾. إلا أنّ كلّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً. والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات. على أنّ الحشرات راجعةٌ في المعنى إلى مشاكلةٍ طباع البهائم والسباع. إلا أنّنا في هذا كلّ نتبع الأسماء القائمة⁽³⁾ المعروفة، البائئات بأنفسها، المتميّزات عند سامعيها، من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان، وإنمّا نُفرد ما أفردوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا⁽⁴⁾.

(تقسيم الطير)

والطير كلّ سَبْع وبهيمة وهَمَج. والسباع من الطير على صَرَيَيْن: فمنها العتائق والأحرار والجوارح، ومنها البغاث⁽⁵⁾ وهو كلّ ما عظم من الطير: سباعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقّفة، كالنّسور والرّخم والغربان، وما أشبهها من لثام السباع. ثمّ الحشّاش، وهو ما لطّف جرّمه وصعُر شخصه، وكان عديم السلاح [ولا يكون⁽⁶⁾] كالزُّرَق⁽⁷⁾ واليؤيؤ⁽⁸⁾ والبادنجار⁽⁹⁾.

(1) ما عدل وش: «مدبرة ناس غير مدبرة ويجعلونها مسخرة وغير مسخرة». وما هنا صوابه.

(2) ينساح: يمشي على بطنه.

(3) في ط: «الفارقة».

(4) في ط: «وإنما يفرد ما أفرده ويجمع ما جمعوا».

(5) في القاموس، البغاث مثلثة: طائر أغبر جمعه كغزلان، وشرار الطير.

(6) كلمة يفتقر إليها الكلام.

(7) الزرق: طائر يصاد به، بين البازي والباشق، وفيه ختل وخيث.

(8) اليؤيؤ: من جوارح الطير يشبه الباشق.

(9) كذا في ط وش و10 ش. وفي ل «الباذنجان». وأراها محرفة عن «الباشق». انظر الحيوان 2: 107.

فأما الهمج فليس من الطير، ولكنه مما يطير. والهمج فيما يطير، كالحشرات فيما يمشي. والحيات من الحشرات، وأي سبع أدخل في معنى السبعية من الأفاعي والثعابين؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانت من ذوات الأنياب وأكالة اللحوم وأعداء الإنس وجميع البهائم، ولذلك تأكلها الأوعال⁽¹⁾ والخنازير والقنأذ والعقبان⁽²⁾ والشاهمرك⁽³⁾ والسنانير، وغير ذلك من البهائم والسباع. فمن جعل الحيات سباعاً، وسماها بذلك عند بعض القول والسبب فقد أصاب، ومن جعل ذلك لها كالاسم الذي هو العلامة كالكلب والذئب والأسد فقد أخطأ.

ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما أشبهها، وشيء يكون سلاحه المناقير كالشور والرخم والغربان، وإنما جعلناها سباعاً لأنها أكالة لحوم. ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكرائي وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الأسنان كالتيوم والوطواط وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة، ومنه ما يكون سلاحه السلح⁽⁴⁾ كالحباري⁽⁵⁾ والثعلب أيضاً كذلك.

والسبع من الطير: ما أكل اللحم خالصاً، والبهيمة: ما أكلت الحب خالصاً. وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركب والطبع المشترك، كلام سنأتي عليه في موضعه إن شاء الله تعالى.

والمشترك عندهم كالعصفور؛ فإنه ليس بذي مخالب معقف ولا منسر⁽⁶⁾ وهو يلقط الحب، وهو مع هذا يصيد النمل⁽⁷⁾ إذا طار، ويصيد الجراد، ويأكل اللحم، ولا يرق فراخه كما ترق الحمام، بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها. وأشباه العصفير من المشترك كثير، وسنذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير؛ قد يطير الجعلان والجحل واليعاسيب والذباب والزنابير والجراد والنمل والفراش والبعوض والأرضة والنحل وغير ذلك، ولا يسمى بالطير. وقد يقال ذلك لها عند [بعض] الذكر والسبب. وقد يسمى الدجاج طيراً ولا يسمى بذلك الجراد، والجراد أطير⁽⁸⁾، والمثل المضروب به أشهر، والملائكة تطير، ولها أجنحة وليست من الطير. وجعفر بن أبي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، وليس جعفر من الطير.

(1) في ط «الأوعال» وتصحيحه من ل ومن الحيوان للجاحظ 2: 31، 6: 34.

(2) في ط «الغربان».

(3) الشاهمرك: الفتى من الدجاج قبل أن يبيض بأيام قلائل، وهو معرب شاه مرغ، ومعناه ملك الطير. الديميري.

(4) السلح والسلاح كغراب: النجو.

(5) في ط «كالحباري» والصواب «كالحباري» كما في ل. وهي من الطيور التي سلاحها سلاحها.

(6) المنسر كمجلس ومنبر: منقار الطير الجارح.

(7) في ط «النمل» والصواب «النمل» كما في ل فإن النحل طائر بطبعه، وأما النمل فيعرض له الطيران حين الكبر، قال أبو العتاهية:

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

(8) في ط «طير» والصواب ما في ل. وأطير: أشد طيرنا.

واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجناح، وليس بالريش والقوادم⁽¹⁾ والأباهر⁽²⁾ والخوافي⁽³⁾، يسمّى طائراً، ولا بعدهم يسقط ذلك عنه. ألا ترى أنّ الخفّاش والوطواط من الطير، وإن كانا أمرطين ليس لهما ريش ولا زغب ولا شكير ولا قصب⁽⁴⁾ وهما مشهوران بالحمل والولادة، وبالرضاع، وبظهور حجم الأذان، وبكثرة الأسنان. والنعامة ذات ريش ومنقار ويبيض وجناحين، وليست من الطير.

وليس أيضاً كلّ عائم سمكة، وإن كان مناسباً للسّمك في كثير من معانيه. ألا ترى أنّ في الماء كلب الماء، وعنز الماء، وخنزير الماء؛ وفيه الرق⁽⁵⁾ والسلخفاة، وفيه الضفدع وفيه السرطان، والبيّنبي⁽⁶⁾، والتمساح والدّخس والدّلفين واللّخْم والبنبك⁽⁷⁾، وغير ذلك من الأصناف. والكوسج والد اللّخم، وليس للكوسج أب يُعرف. وعامة ذّا يعيش في الماء، ويبت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطّ، ويبيض بيضاً له صفرة، وقبض وغرقى، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

(تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم)

ثمّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يصنع صمّاً قطّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لما لم يتكلّم قطّ، فيحملون ما يرغو، ويثغو، وينهق، ويضهل، ويشحج، ويخور، ويبنعم، ويعوي، وينبح، ويَزْفُو، ويَضْعُو، ويهدر، ويصفر، ويصوّصي، ويَقْوُقي، ويَنعَب، ويَزَار، ويَنزِب⁽⁸⁾، ويكش، ويعج⁽⁹⁾، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض. ولذلك أشباه،

(1) القوادم والقدامى - كحبارى - أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح. الواحدة قادمة.

(2) الأبهر: الجانب الأقصر من الريش، جمعه أباهر.

(3) الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

(4) الزغب: الريش القصير. والشكير: صغار الريش بين كبارها. والقصب: ضرب من صغار الريش.

(5) قال الدميري: بكسر الراء وبالقفاف: ضرب من دواب الماء يشبه التمساح. والرق أيضاً: العظيم من السلاحف، وجمعه رقوق.

(6) ورد هذا الاسم محرفاً في جميع النسخ فهو في ط «التبتل» وفي ل «البنيل» وفي س «الثبتل» وصوابه في الدميري قال: «على وزن فيعل سمك بحري معروف عند أهل البحر». وانظر معجم المعلوم 251.

(7) في الأصل: «البلبل» والصواب ما كتبه عن القاموس وعن معجم المعلوم 225 قال الفيروز بادي «والبنبك، كقنفذ وجندل: دابة كالدلفين، أو سمك يقطع الرجل نصفين فيبلعه».

(8) في ط «يترب» وفي ل «ينبر» وهو تحريف ما أثبت.

(9) الرغاء للإبل، والثغاء للشاء، والنهيق للحمير، والصهيل للخيول، والشحيج للبعال، والخوار للثيران، والبغام للظباء، والعواء للذئاب، والنباح للكلاب، والزقاء للديكة، والضغاء للسنانير، والهدير للفحول، والصفير للسنور، والصوصاء للجرأ، والقوقاة للدجاج، والنعيب للغربان والبوم، والزئير للأسد، والنزيب للظباء أو ذكورها خاصة، والكشيش للأفاعي تحدّثه بجلودها. والعجيج: الصياح، وأحسب هذه الكلمة «يفح» والفحيج صوت الأفاعي تحدّثه بأفواهها.

كالذكور والإناث إذا اجتمعوا، وكالعير التي تُسمَّى لطيمة، وكالظعن؛ فإن هذه الأشياء إذا وجد بعضها إلى بعض، أو أخذ بعضها من بعض، سُمِّيت بأئبه النوعين ذكراً، وبأقواهما. والفصيح هو الإنسان، والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه. ولعمري إنا نفهم⁽¹⁾ عن الفرس والحمار والكلب والسنور والبعير، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوده⁽²⁾، كما نفهم إرادة الصبي في مهده ونعلم⁽³⁾ - وهو من جليل العلم - أن بكاءه يدل على خلاف ما يدل عليه ضججه. وحممة الفرس عند رؤية المخلاة⁽⁴⁾، على خلاف ما يدل عليه حممته عند رؤية الحجر، ودعاء الهرة الهرّ خلاف دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسان فصيح، وإن عبّر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية، وليس العربي أسوأ فهماً لطمطمة الرومي [من الرومي] لبيان لسان العربي. فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنما يعنون أنه لا يتكلم بالعربية، وأن العرب لا تفهم عنه. وقال كثير:

فبورك ما أعطى ابن ليلي بنية وصامت ما أعطى ابن ليلي وناطقه

ويقال «جاء بما صأى»⁽⁵⁾ وصمت. فالصامت مثل الذهب والفضة، وقوله صأى يعني الحيوان كله، ومعناه نطق وسكت؛ فالصامت في كل شيء سوى الحيوان. ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفاً من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال⁽⁶⁾، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مستدلاً. ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسموا ذلك بياناً.

(1) كذا على الصواب ل. وفي ط «إن التعميم».

(2) في الأصول «وقصوره» بالراء ولم يظهر معناه، فكتبت مكانه «قصوده» جمع قصد.

(3) في ط: «ونفهمه». وانظر البيان 1: 162.

(4) في ط «الفحل» وليس بالوجه. والوجه ما في ل، وورد في ط زيادة «من» قبل «حممة» وإثباتها يفسد التركيب.

(5) في ط «صأى» بالضاد، وهو تصحيف صوابه ما في ل، ش.

(6) في ط «وفي عدم الاستدلال وسموا ذلك بياناً». و«سموا ذلك بياناً» عبارة إضافية لا معنى لها.

(وسائل البيان)

وَجُعِلَ الْبَيَانُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: لَفْظٌ، وَخَطٌّ، وَعَقْدٌ⁽¹⁾، وَإِشَارَةٌ، وَجُعِلَ بَيَانُ الدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَسْتَدِلُّ تَمْكِينُهُ الْمُسْتَدِلُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَاقْتِيادَهُ كُلٌّ مِنْ⁽²⁾ فَكَّرَ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا اسْتُخْزِنَ مِنَ الْبَرَهَانِ، وَحُشِيَ⁽³⁾ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَأُودِعَ مِنْ عَجِيبِ الْحِكْمَةِ. فَلِلْأَجْسَامِ الْخُرُسُ الصَّامِتَةِ، نَاطِقَةٌ مِنْ جِهَةِ الدَّلَالَةِ، وَمُعْرَبَةٌ مِنْ جِهَةِ صَحَّةِ الشَّهَادَةِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي فِيهَا مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ، مَخْبَرٌ لِمَنْ اسْتَخْبَرَهُ، وَنَاطِقٌ لِمَنْ اسْتَطَقَّهُ، كَمَا خَبَّرَ الْهَزَالُ وَكُسُوفُ اللَّوْنِ، عَنْ سُوءِ الْحَالِ، وَكَمَا يَنْطِقُ السَّمْنُ وَحُسْنُ النَّضْرَةِ، عَنْ حَسَنِ الْحَالِ. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ [وهو نصيب]:

فَعَاوُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وَقَالَ آخَرُ:

مَتَى تَكُ فِي عَدُوٍّ أَوْ صَدِيقٍ تُخَبِّرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ
وَقَدْ قَالَ الْعُكْلِيُّ⁽⁴⁾ فِي صِدْقِ شَمِّ الذَّنْبِ وَفِي شِدَّةِ حَسِّهِ وَاسْتِرْوَا حَهُ:
يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِ مَقْرَاعِ الصِّفَا الْمَوْقِعِ⁽⁵⁾
وَقَالَ عَنْتَرَةٌ، وَهُوَ يَصِفُ نَعِيبَ غُرَابٍ:

حَرَقَ الْجَنَاحَ كَأَنَّ لَحْيِي رَأْسَهُ جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلَعٌ⁽⁶⁾
وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ عَيْسَى بْنِ أَبَانَ فِي قِصَصِهِ⁽⁷⁾: سَلَ الْأَرْضَ، فَقُلْتُ: مَنْ شَقَّ أَنْهَارَكَ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ، وَجَنَى ثِمَارَكَ؛ فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا، أَجَابْتُكَ اعْتِبَارًا.
فَمَوْضُوعُ الْجِسْمِ وَنَضْبَتُهُ، دَلِيلٌ عَلَى مَا فِيهِ وَدَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، وَمَنْبَهَةٌ⁽⁸⁾ عَلَيْهِ. فَالْجَمَادُ الْأَبْكُمُ الْآخَرُسُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، قَدْ شَارَكَ فِي الْبَيَانِ الْإِنْسَانَ الْحَيَّ النَّاطِقَ. فَمَنْ جَعَلَ أَقْسَامَ

(1) تحدث الجاحظ عن العقد في البيان 1: 27، 76، وقال: إنه الحساب دون اللفظ والخط، وقد علق الجاحظ عليه أهمية كبرى إذ يقول «وفي عدم اللفظ وفساد الخط، والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع». فيظهر أن ذلك الضرب من الحساب كان شائعاً في عصره. ووجدت للبغدادي كلاماً في (العقد) 3: 141 بولاق، قال «واعلم أن العقود والعقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد، وقد ورد منه في الحديث: وعقد عقد تسعين. وقد ألفوا فيه كتباً وأراجيز». وانظر الخزانة.

(2) في ط «واقتياده فكل» وأصلحت العبارة من ل. (3) في ط «وحتى» وهو تصحيف ظاهر توجيهه في ل.

(4) هو أبو الرديني العكلي، كما في البيان 1: 82، وانظر اللسان (مخر).

(5) قال الجاحظ في البيان: المقرع: الفأس التي يكسر بها الصخر. والموقع: المحدد.

(6) في ط «خرق» بالخاء وهو تصحيف، صوابه في ل وفي البيان. قال الجاحظ في البيان 1: 82: «الخرق: الأسود، شبه لحية بالجلمين لأن الغراب يخبر بالغرابة والفرقة، ويقطع كما يقطع الجلطان». وقد ذكر ابن رشيق هذا البيت في العمدة 1: 202 وجعله من التشبيهات العقم، التي لم يسبق أصحابها إليها ولا تعدى أحد بعدهم عليها.

(7) انظر البيان 1: 81. (8) في ط «ومهيمنة» والوجه ما في ل.

البيان خمسة، فقد ذهب أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللغة، وشاهدٌ في العقل. فهذا أحدُ قِسَمَي الحكمة، وأحدُ مَعْنَيَيْ^(١) ما استخزنها^(٢) الله تعالى من الودِعة.

(ما يعجز عنه الإنسان مما قدر عليه الحيوان)

والقسمة الأخرى ما أودَعَ صدورُ صنوفِ سائرِ الحيوان، مِنْ ضُرُوبِ^(٣) المعارف، وفَطَرها عليه من غريب^(٤) الهدايات، وسَخَّرَ حناجرَها لَهُ من ضروبِ النِّعمِ الموزونة، والأصواتِ الملحَّنة، والمخارجِ الشَّجِيَّة، والأعاني المطربة؛ فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثُمَّ الَّذِي سَهَّلَ لها من الرفقِ العجيبِ في الصنعة، مما دلَّله الله تعالى لمناكيرها وأكفَّها، وكيف فَتَحَ لها من بابِ المعرفةِ على قدرِ ما هَيَّأَ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيراً منها مِنَ الحسِّ اللطيفِ، والصنعةِ البديعة، من غيرِ تأديبٍ وتثقيفٍ، ومن غيرِ تقويمٍ وتلقينٍ، ومن غيرِ تدريبٍ وتمارين، فَبَلَّغَتْ بِعَفْوِها وبمقدارِ قوِي فِطرتها، من البديهةِ والارتجال، ومن الابتداءِ والاقتضاب، ما لا يُقدَّرُ عليه حُذائقُ رجالِ الرأي، وفلاسفَةُ علماءِ البشر، بَيَدٍ ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك من الناسِ أكملُهُم خِصالاً وأتمُّهُم خِلالاً، لا مِنْ جهةِ الاقتضابِ والارتجال، ولا مِنْ جهةِ التعسُّفِ والاقتدار، ولا مِنْ جهةِ التقدُّمِ فيه، والتأني فيه، والتأني له. والترتيبُ لمقدِّماته، وتمكينُ الأسبابِ المُعِينَةِ عليه. فصارَ جهْدُ^(٥) الإنسانِ الثاقِبِ الحسِّ، الجامعِ القوَى، المتصرِّفِ في الوجوه، المقدِّمِ في الأمور، يَعْجِزُ عن عَفْوِ كَثِيرٍ منها: وهو ينظرُ إلى ضروبِ ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوتُ، وكما أعطيت السُّرْفَةُ، وكما علَّم النحل، بل^(٦) وعُرِفَ التَّنَوُّطُ مِنْ بديعِ المعرفة، ومن غريبِ الصنعة، في غيرِ ذلك مِنْ أصنافِ الخلق. ثم لم يوجب لهم^(٧) العَجْزَ في أَنْفُسِهِمْ في أكثرِ ذلك، إلا بما قوِي عليه الهَمَجُ والخشاشُ وصِغارُ الحشرات، ثم جعل الإنسانَ ذا العقلِ والتمكينِ^(٨)، والاستطاعةِ والتصريفِ، وذا التكلُّفِ والتجربةِ، وذا التأنيِ والمنافسةِ، وصاحبَ الفهمِ والمسابقةِ^(٩)، والمتبصِّرِ شأنَ العاقبة، متى أحسنَ شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونه في الغُمُوضِ عليه أسهلَّ، وجعل سائرَ الحيوانِ، وإن كان يحسنُ أحدها ما لا يحسنُ أحدُ الناسِ متى أحسنَ شيئاً عجبياً، لم يمكنه أن يحسنَ ما هو أقربُ منه في الظنِّ، وأسهلُ منه في الرأي، بل لا يحسنُ ما هو أقربُ منه في الحقيقة. فلا الإنسانُ جَعَلَ نفسه كذلك، ولا شيءٌ من الحيوانِ اختارَ ذلك، فأحسنَتْ هذه الأجناسُ بلا تعلُّمٍ، ما يمتنعُ على الإنسانِ وإن تعلَّم، فصارَ لا يحاوله؛ إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسُدُّها؛ إذ لا يؤمِّلُ النَّحَاقَ بها. ثُمَّ جعل تعالى وعزَّ، هاتينِ الحكمتينِ بإزاءِ عُيُونِ

(١) في الأصل «معنى» والصواب التثنية.

(٢) في ط «ضرب» وصوابه في ل.

(٣) في ط «جملة» وصوابه في ل.

(٤) في ط، ل «يوجد» موضع «يوجب لهم» وما أثبتته هو الوجه.

(٥) في ط «ليعلم الإنسان أن ذا العقل والتمكين» ووجهه ما في ل تتم المقارنة بقوله بعد: «وجعل سائر الحيوان . . إلخ».

(٦) في الأصل «السابقة» وكتب ما هو أشبه بالكلام.

(٧) في الأصل «استخزنهما» والضمير راجع إلى «الحكمة».

(٨) في ط «غريب» وهو تصحيف ظاهر.

(٩) هذا الحرف ليس في ل.

الناظرين، وتُجَاهَ أَسْمَاعِ الْمُعْتَبِرِينَ، ثُمَّ حَتَّى عَلَى التَّفَكِيرِ وَالْإِعْتِبَارِ، وَعَلَى الْإِتْعَازِ وَالْإِزْدِجَارِ، وَعَلَى التَّعَرُّفِ وَالتَّيَبُّنِ، وَعَلَى التَّوَقُّفِ وَالتَّذَكُّرِ، فَجَعَلَهَا مَذْكُرَةً مِنْبَهُةً، وَجَعَلَ الْفَطْرَ تُنْشِئُ⁽¹⁾ الْخَوَاطِرَ، وَتَجُولُ بِأَهْلِهَا فِي الْمَذَاهِبِ. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

(مزج الهزل بالجد في الكتاب)

وهذا كتابٌ موعظةٌ وتعريفٌ وتفقهٌ وتنبيهٌ. وأراك قد عيّته قبل أن تقفَ على حدوده، وتتفكرَ في فصوله، وتعتبرَ⁽²⁾ آخره بأوله، ومصادره بموارده، وقد غلّطك فيه بعضٌ ما رأيتَ [في أثنائه] من مزج لم تعرف معناه، ومن بطالةٍ لم تطلّع على غورها؛ ولم تدرِ لم اجتلبت، ولا لأيّ علّةٍ تُكَلِّفُ، وأيّ شيءٍ أُرِيْعُ بها، ولأيّ جدٍّ احتُمِلَ ذلك الهزل، ولأيّ رياضةٍ تُجَسِّمُ تلك البطالة؛ ولم تدرِ أَنَّ المزاحَ جدٌّ إذ اجتلب ليكون علّةً للجدِّ، وأنَّ البطالةَ وقارٌ ورزاق، إذا تُكَلِّفُ لتلك العاقبة. ولمّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاج إليه، حتّى يتعلّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يتوصّل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يحتاج إليه يُحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حَمَلْنَا جميع من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجدِّ، وثقل المثونة، وجليّة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرّد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطول من الكدِّ، والكثرة من السّامة. وما أكثر مَنْ يُقَاد إلى حظّه بالسواجير⁽³⁾، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

(نعت الكتاب)

ثم لم أركَ رَضِيَتْ بِالطَّعْنِ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ لِي بَعِيْنُهُ، حَتَّى تَجَاوَزْتَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ عَيْتَ وَضَعَ الْكِتَابِ كَيْفَمَا دَارَتْ بِهَا الْحَالُ، وَكَيْفَ تَصَرَّفْتَ⁽⁴⁾ بِهَا الْوَجْهَ. وَقَدْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ عَيْبِكَ الْبَعْضَ بِلَا عِلْمٍ، حَتَّى عَيْتَ الْكُلَّ بِلَا عِلْمٍ، ثُمَّ تَجَاوَزْتَ ذَلِكَ إِلَى التَّشْنِيعِ، ثُمَّ تَجَاوَزْتَ ذَلِكَ إِلَى نَصَبِ الْحَرْبِ فَعَيْتَ الْكِتَابَ؛ وَنَعِمَ الذَّخِرُ وَالْعَقْدَةُ⁽⁵⁾ هُوَ، وَنَعِمَ الْجَلِيسُ وَالْعُدَّةُ، وَنَعِمَ النُّشْرَةُ وَالنَّزْهَةُ، وَنَعِمَ الْمَشْتَغَلُ وَالْحَرْفَةُ، وَنَعِمَ الْأُنَيْسُ لِسَاعَةِ الْوَحْدَةِ، وَنَعِمَ الْمَعْرِفَةُ بِبِلَادِ الْغَرِيَّةِ، وَنَعِمَ الْقَرِينُ وَالْدَخِيلُ، وَنَعِمَ الْوَزِيرُ وَالنَّزِيلُ. وَالْكِتَابُ وَعَاءٌ مُلِئٌ عِلْمًا، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفًا، وَإِنَاءٌ شُجِنَ مُرَاحًا وَجِدًا؛ إِنْ شِئْتَ كَانَ أَبْيَنَ مِنْ سَحْبَانٍ وَائِلٍ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ، وَإِنْ شِئْتَ ضَحِكْتُ مِنْ نَوَادِرِهِ، وَإِنْ شِئْتَ عَجِبْتُ مِنْ غَرَائِبِ فَرَائِدِهِ، وَإِنْ

(1) هذا ما في ل. وفي ط «وجعل الفكر ينشئ». (2) في الأصل «تتفكر» والوجه: «تعتبر».

(3) الساجور: خشبة تعلق في عنق الكلب. وسجره: شده به كسوجه. وانظر البيان 3: 50.

(4) في الأصل: «تصرف». (5) العقدة، بضم العين: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.

شَتَّ أَلْهَيْتُكَ طَرَائِفُهُ، وَإِنْ شَتَّتَ أَشْجَنُكَ مَوَاعِظُهُ. وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظِ مُلْهِ، وَبِزَاجِرِ مُغْرِ، وَبِنَاسِكِ فَايْكَ، وَبِنَاطِقِ أَخْرَسَ، وَبِبَارِدِ حَارَ. وَفِي الْبَارِدِ الْحَارِّ يَقُولُ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ⁽¹⁾:

قُلْ لَزُهَيْرٍ إِذَا انْتَحَى وَشَدَا أَقْلِيلُ أَوْ أَكْثَرُ فَأَنْتَ مِهْذَارُ⁽²⁾
سَخُنْتُ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودَةِ حَرَّ تَنَّى صِرْتُ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ⁽³⁾
لَا يَعْجَبُ السَّامِعُونَ مِنْ صِفَتِي كَذَلِكَ الثَّلَجُ بَارِدٌ حَارُ⁽⁴⁾

وَمَنْ لَكَ بِطَبِيبٍ⁽⁵⁾ أَعْرَابِيٍّ، وَمَنْ لَكَ بِرُومِيٍّ هِنْدِيٍّ، وَبِفَارَسِيٍّ⁽⁶⁾ يُونَانِيٍّ، وَبَقْدِيمٍ مُوَلَّدٍ، وَبِمَيْتٍ مَمْتَعٍ⁽⁷⁾، وَمَنْ لَكَ بِشَيْءٍ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ، وَالنَّاقِصَ وَالْوَافِرَ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ، وَالشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ، وَالرَّفِيعَ وَالْوَضِيعَ، وَالْعَتَّ وَالسَّمِينَ، وَالشَّكْلَ وَخِلَافَهُ، وَالْجِنْسَ وَضَدَّهُ.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحْمَلُ فِي رُذْنٍ⁽⁸⁾، وَرَوْضَةً تُقْلُ⁽⁹⁾ فِي حِجْرٍ، وَنَاطِقاً يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتَى، وَيُتَرْجَمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ!! وَمَنْ لَكَ بِمَوْسٍ لَا يَنَامُ إِلَّا بِنَوْمِكَ، وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا تَهْوَى؛ أَمِنْ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَكْتُمُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَأَحْفَظُ لِلْوَدِيعَةِ مِنْ أَرْبَابِ الْوَدِيعَةِ، وَأَحْفَظُ لِمَا اسْتَحْفَظُ مِنَ الْأَدْمِيِّينَ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرَبِينَ⁽¹⁰⁾، بَلْ مِنَ الصَّبِيَّانِ قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْإِسْتِغَالِ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَمْيِيزِ الْأَشْخَاصِ، حِينَ الْعِنَايَةُ تَامَّةٌ لَمْ تَنْقُصْ، وَالْأَذْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تَنْقَسِمْ، وَالْإِرَادَةُ وَافِرَةٌ لَمْ تَتَشَعَّبْ، وَالطَّيْنَةُ لَيِّنَةٌ، فَهِيَ أَقْبَلُ مَا تَكُونُ لِلطَّبَائِعِ، وَالْقَضِيبُ رَطْبٌ، فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوقِ، حِينَ هَذِهِ الْخِصَالُ لَمْ يَخْلُقْ جَدِيدُهَا، وَلَمْ يُوهَنْ عَزَبُهَا، وَلَمْ تَتَفَرَّقْ قُوَاهَا، وَكَانَتْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ⁽¹¹⁾:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا
وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّيِّبِ⁽¹²⁾:

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَشِبُّ صَبِيُّهُمْ بَيْنَ الْقَوَابِلِ بِالْعَدَاوَةِ يُنْشَعُ⁽¹³⁾

(1) الأبيات في الديوان 181 وعيون الأخبار كذلك 2: 7 والعقد 6: 75.

(2) في ط: «إذا انتحى لشدا» وتصحيحه من ل والديوان، وعيون الأخبار. وفي ط «مهدار» بالدال.

(3) في أخبار أبي نواس لابن منظور 14: «هذا شيء أخذ أبو نواس من مذاهب حكماء الهند، فإنهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط في البرودة انقلب حارًا، وقالوا: إن الصندل يحك منه اليسير فيبرد، فإذا أكثر منه سخن».

(4) خفف راء (حار) لضرورة الوزن.

(5) في ط «بطيب» وأصلحته من ل ومن المحاسن 4. (6) في ط «بفارس» وصوابه في ل والمحاسن 4.

(7) في ط «ممتنع» وفي المحاسن: «ونجيب ممتع».

(8) الرذن: أصل الكم. . ويظهر أنهم يستعملونه كذلك في الكم نفسه.

(9) في ط: «تقلب»، والوجه «تقل» لتتلاءم مع «يحمل» إذ هما بمعنى. وفي المحاسن «تنقل».

(10) في ط «المتعربين» وإنما يتعرب الأعاجم. وهو تحريف صوابه في ل.

(11) هو مجنون بني عامر كما في بيان الجاحظ 2: 42.

(12) البيت ساقط من ل. وفي ط «نميرة بن الطيب» والتصحيح من س.

(13) نشع الصبي وأنشعه: أوجره. والنشوع: الوجور.

ومن كلامهم: التعلّم في الصَّغَر كالنقش في الحجر. وقد قال جرّان العود^(١):

[تُرْكَن برجلة الروحاء حتّى
كُوخِي في الحجارة أو وُشوم
وقال آخر، وهو صالح بن عبد القدوس:

وإنّ مَنْ أدبته في الصَّبِي
كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتّى تراه مُورِقاً ناضراً
بعد الذي قد كان في يُبسِه^(٢)
وقال آخر:

يَقُومُ مِنْ مِيلِ الغُلامِ المؤدّب
ولا يَنْفَعُ التّأديبُ والرّأسُ أشيب
وقال آخر:

وَتَلُومُ عَرْسِكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ
وَمِنَ العَناءِ رِياضَةُ الهَرَمِ
وقد قال ذو الرُّمّة^(٣) لعيسى بن عمر^(٤): اكتب شعري؛ فالكتاب أحبُّ إليّ من الحفظ.
لأنّ الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم
يُنشدها الناس، والكتاب لا يُنسى ولا يُبدّل كلاماً بكلام.

وعبّت الكتاب، ولا أعلم جاراً أبرّ، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً
أخضع، ولا صاحباً أظهر كفايةً، ولا أقلّ جنّايةً، ولا أقلّ إملاً وإبراماً، ولا أحفل أخلاقاً،
ولا أقلّ خلافاً وإجراماً، ولا أقلّ غيبةً، ولا أبعد من عَضِيهه^(٥)، ولا أكثر أعجوبةً وتصرفاً،
ولا أقلّ تصلّفاً وتكلّفاً، ولا أبعد من مرءٍ، ولا أترك لشعَب، ولا أزهد في جدالٍ، ولا أكفّ
عن قتالٍ، من كتاب. ولا أعلم قريناً أحسن موافاةً، ولا أعجل مكافاةً، ولا أحضر معونةً،
ولا أخفّ مئونةً، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أجمع أمراً، ولا أطيّب ثمرةً، ولا أقرب
مُجتنىً، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كلِّ إِبّانٍ، من كتاب. ولا أعلم نتاجاً في حدّاته سنّه
وقُرب ميلاده، ورُخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التداوير العجيبة والعلوم الغريبة،

(١) شاعر نمري اسمه عامر بن الحارث، لقب بذلك لقوله يخاطب امرأته:

خذا حذرًا يا جارتني فلإنني رأيت جرّان العود قد كاد يصلح

وله ديوان طبعته دار الكتب.

(٢) المحفوظ «من يبسه». (٣) في ط «ذو الرومة» وواضح تحريفه.

(٤) عيسى بن عمر الثقفي، أبو عمر، مولى خالد بن الوليد، نزل في ثقيف فنسب إليهم، إمام في النحو والعربية، أخذ عن أبي
عمر وعبد الله بن أبي إسحق، وروى عن الحسن البصري والعجاج ورؤبة، وعنه الأصمعي، ويقال إن له نيفاً وسبعين
مصنفاً ذهبت كلها، وكان يتقعر في كلامه. حكى عنه الجوهري في الصحاح وغيره، أنه سقط عن حمار فاجتمع إليه
الناس فقال: «مالي أراكم تكأتم عليّ كتأكنكم على ذي جنة؟! افرنقوا عني». واتهمه عمر بن هبيرة بوديعة، فضربه
نحو ألف سوط، فجعل يقول: «والله إن كانت إلا أثياباً في أسفاط قبضها عشاروك!». وانظر بغية الوعاة 270.

(٥) العضية: الكذب والإفك والبهتان.

ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكيم الرفيعة، والمذاهب القويمة^(١)، والتجارب الحكيمة، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمع لك الكتاب. قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 3-4] فَوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنَّ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، كما وصف نفسه بالكرم، واعتدَّ بذلك في نعمة العظام، وفي أياديه الجسام. وقد قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعْمَةَ فِي بَيَانِ اللِّسَانِ، كان بفضل النِّعْمَةِ في بَيَانِ القَلَمِ أَعْرَفَ. ثُمَّ جَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ قَرَأْنَا، ثُمَّ جَعَلَهُ فِي أَوَّلِ التَّنْزِيلِ وَمُسْتَفْتَحَ الْكِتَابِ.

(كون الاجتماع ضرورياً)

ثُمَّ اَعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ حَاجَةَ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ، صِفَةُ لَازِمَةٌ فِي طِبَائِعِهِمْ، وَخَلْقَةٌ قَائِمَةٌ فِي جَوَاهِرِهِمْ، وَثَابِتَةٌ لَا تُزِيلُهُمْ، وَمُحِيطَةٌ بِجَمَاعَتِهِمْ، وَمَشْتَمَلَةٌ عَلَى أَدْنَاهُمْ وَأَقْصَاهُمْ، وَحَاجَتُهُمْ إِلَى مَا غَاب عَنْهُمْ - مِمَّا يُعِيشُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ، وَيُمْسِكُ بِأَرْمَاقِهِمْ، وَيُصْلِحُ بِهِمْ، وَيَجْمَعُ شَمْلَهُمْ، وَإِلَى التَّعَاوُنِ فِي دَرْكِ ذَلِكَ، وَالتَّوَازُرِ عَلَيْهِ - كَحَاجَتِهِمْ إِلَى التَّعَاوُنِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَضُرُّهُمْ، وَالتَّوَازُرِ عَلَى مَا يَحْتَاجُونَ مِنَ الِارْتِفَاقِ بِأُمُورِهِمُ الَّتِي لَمْ تَغِبْ عَنْهُمْ، فَحَاجَةُ الْغَائِبِ مَوْصُولَةٌ بِحَاجَةِ الشَّاهِدِ، لِحَاجَتِهِمُ الْأَدْنَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَقْصَى، وَاحْتِيَاجِ الْأَقْصَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَدْنَى، مَعَانٍ مُتَضَمِّنَةٌ، وَأَسْبَابٌ مُتَّصِلَةٌ، وَحِبَالٌ مُنْعَقِدَةٌ. وَجَعَلَ حَاجَتَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، كَحَاجَةِ [مَنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَى أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، وَحَاجَةِ [مَنْ يَكُونُ بَعْدَنَا إِلَى أَخْبَارِنَا؛ وَلِذَلِكَ تَقَدَّمَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْبَشَارَاتُ بِالرُّسُلِ، وَلَمْ يَسْخَرْ لَهُمْ جَمِيعُ خَلْقِهِ، إِلَّا وَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الِارْتِفَاقِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ. وَجَعَلَ الْحَاجَةَ حَاجَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا قِيَامٌ وَقُوتٌ، وَالْأُخْرَى لَذَّةٌ وَإِمْتِنَاعٌ وَازْدِيَادٌ فِي الْآلَةِ، وَفِي كُلِّ مَا أَجْذَلَ النُّفُوسَ، وَجَمَعَ لَهُمُ الْعِتَادَ^(٢). وَذَلِكَ الْمَقْدَارُ مِنْ جَمِيعِ الصَّنَفَيْنِ وَفَقْدُ لِكثَرَةِ حَاجَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ اتِّسَاعِ مَعْرِفَتِهِمْ وَبُعْدِ غَوْرِهِمْ، وَعَلَى قَدْرِ احْتِمَالِ^(٣) طَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ وَفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. ثُمَّ لَمْ يَقْطَعْ الزِّيَادَةُ إِلَّا لِعَجْزِ خَلْقِهِمْ عَنْ احْتِمَالِهَا، وَلَمْ يَجْزْ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَجْزِ، إِلَّا بَعْدَمَ الْأَعْيَانِ، إِذْ كَانَ^(٤) الْعَجْزُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ، وَنَعْتًا مِنْ نُعُوتِ الْعَبِيدِ.

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدًا يَسْتَطِيعُ بَلُوغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ^(٥) دُونَ الْإِسْتِعَانَةِ بِبَعْضٍ مِنْ سَخَّرَ لَهُ، فَأَدْنَاهُمْ مَسْخَرٌ لِأَقْصَاهُمْ، وَأَجْلُهُمْ مَيَّسَرٌ لِأَدْقِهِمْ. وَعَلَى ذَلِكَ أَحْوَجَ الْمُلُوكُ إِلَى السُّوقَةِ فِي بَابٍ، وَأَحْوَجَ السُّوقَةُ إِلَى الْمُلُوكِ فِي بَابٍ، وَكَذَلِكَ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَالْعَبْدُ وَسَيِّدُهُ. ثُمَّ

(١) فِي الْأَصْلِ «الْقَدِيمَةُ» بِالْدَالِ.

(٢) فِي ط: «الْمَعْتَادُ» وَصَوَابُهُ فِي ل.

(٣) فِي ط: «اعْتِمَارٌ» وَتَصْحِيحُهُ مِنْ ل.

(٤) فِي ط: «إِذَا» وَهُوَ تَحْرِيفٌ يَقَعُ كَثِيرًا فِي مَوَاضِعَ تَشْبِهِ هَذَا.

(٥) فِي ط: «بِنَفْسِهِ» وَالْوَجْهَ مَا أُثْبِتَ عَنْ ل.

جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ حَوْلًا، وَفِي يَدِهِ مُدَلَّلًا مُيَسَّرًا⁽¹⁾ إِمَّا بِالِاحْتِيَالِ لَهُ وَالتَّلَطُّفِ فِي إِرَاعَتِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ، وَإِمَّا بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ، وَالْفَتْكِ بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يَأْتِيَهُ سَهْوًا وَرَهْوًا. عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ لَا حَاجَتُهُ إِلَيْهَا، لَمَا احْتَالَ لَهَا، وَلَا صَالَ عَلَيْهَا. إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ تَفْتَرِقُ فِي الْجِنْسِ وَالْجِهَةِ وَالْجِبِلَّةِ، وَفِي الْحِظِّ وَالتَّقْدِيرِ. ثُمَّ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَالنَّظَرِ فِي أُمُورِهَا، وَالِاعْتِبَارِ بِمَا يَرَى، وَوَصَلَ بَيْنَ عُقُولِهِمْ وَبَيَّنَّ مَعْرِفَةَ تِلْكَ الْحَكْمِ الشَّرِيفَةِ، وَتِلْكَ الْحَاجَاتِ اللَّازِمَةِ، بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَبِالتَّنْقِيبِ⁽²⁾ وَالتَّنْقِيرِ، وَالتَّثْبِتِ⁽³⁾ وَالتَّوَقُّفِ؛ وَوَصَلَ مَعَارِفَهُمْ بِمَوَاقِعِ حَاجَاتِهِمْ إِلَيْهَا، وَتَشَاعَرَهُمْ بِمَوَاضِعِ الْحَكْمِ فِيهَا بِالْبَيَانِ عَنْهَا.

(البيان ضروري للاجتماع)

وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرفةً لمواضع سدِّ الخلَّةِ ورفعِ الشبهة، ومداواةِ الحيرة، ولأنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنِ النَّاسِ أَفْهَمُ مِنْهُمْ عَنِ الْأَشْبَاحِ الْمَائِلَةِ، وَالْأَجْسَامِ الْجَامِدَةِ، وَالْأَجْرَامِ السَّاكِنَةِ، الَّتِي لَا يُتَعَرَّفُ مَا فِيهَا مِنْ دَقَائِقِ الْحِكْمَةِ وَكُنُوزِ الْآدَابِ، وَيَنَابِيعِ الْعِلْمِ، إِلَّا بِالْعَقْلِ الثَّاقِبِ اللَّطِيفِ، وَبِالنَّظَرِ التَّامِّ الْوَاقِعِ، وَبِالْأَدَاةِ الْكَامِلَةِ، وَبِالْأَسْبَابِ الْوَافِرَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ الْفِكْرِ، وَالِاحْتِرَاسِ مِنْ وُجُوهِ الْخُدَعِ، وَالتَّحْفُظِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى؛ وَلِأَنَّ الشُّكْلَ أَفْهَمُ عَنِ شِكْلِهِ، وَأَسْكَنُ إِلَيْهِ وَأَصَبُّ بِهِ. وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي أَجْنَاسِ الْبَهَائِمِ، وَضُرُوبِ السَّبَاعِ. وَالصَّبِيُّ عَنِ الصَّبِيِّ أَفْهَمُ لَهُ، وَلَهُ أَلْفُ وَإِلَيْهِ أَنْزَعُ، وَكَذَلِكَ الْعَالِمُ وَالْعَالَمُ، وَالْجَاهِلُ وَالْجَاهِلُ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9] لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِنْسَانِ أَفْهَمُ، وَطَبَاعَهُ بِطَبَاعِهِ آتَسُ؛ وَعَلَى قَدْرِ ذَلِكَ يَكُونُ مَوْقِعُ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ.

ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لَهُمْ مِنَ الْبَيَانِ بِصِنْفٍ وَاحِدٍ، بَلْ جَمَعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْرُقْ، وَكَثَّرَ وَلَمْ يَقْلِلْ، وَأَظْهَرَ وَلَمْ يُخْفِ، وَجَعَلَ آلَةَ الْبَيَانِ الَّتِي بِهَا يَتَعَارَفُونَ مَعَانِيَهُمْ، وَالتَّرْجُمَانُ الَّذِي إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ؛ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ؛ وَفِي خَصْلَةٍ خَامِسَةٍ؛ وَإِنْ نَقَصْتَ عَنْ بُلُوغِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فِي جِهَاتِهَا، فَقَدْ تَبَدَّلَ بِجِنْسِهَا الَّذِي وُضِعَتْ لَهُ وَصُرِفَتْ إِلَيْهِ، وَهَذِهِ الْخِصَالُ هِيَ: اللَّفْظُ، وَالْخَطُّ، وَالْإِشَارَةُ، وَالْعَقْدُ؛ وَالْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ مَا أَوْجَدَ مِنْ صَحَّةِ الدَّلَالَةِ، وَصَدَقَ الشَّهَادَةُ وَوُضُوحُ الْبَرَهَانِ، فِي الْأَجْرَامِ الْجَامِدَةِ وَالصَّامِتَةِ، وَالسَّاكِنَةِ الَّتِي لَا تَتَبَيَّنُ⁽⁴⁾ وَلَا تَحْسُ، وَلَا تَفْهَمُ وَلَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِدَاخِلٍ يَدْخُلُ عَلَيْهَا، أَوْ عِنْدَ مُمَسِّكِ خَلْيِ عَنْهَا، بَعْدَ [أَنَّ] كَانَ تَقْيِيدَهُ لَهَا.

ثُمَّ قَسَمَ الْأَقْسَامَ وَرَتَّبَ الْمَحْسُوسَاتِ، وَحَصَّلَ الْمَوْجُودَاتِ، فَجَعَلَ اللَّفْظَ لِلْسَّامِعِ،

(1) فِي ط: «مَذْ، إِلَّا مُيَسَّرًا» وَالْوَجْهُ مَا فِي ل.

(2) كَذَا فِي ل: وَهُوَ الصَّوَابُ. وَفِي ط: «وَالْتَّنْقِبُ».

(3) كَذَا فِي ل وَهُوَ الْوَجْهُ. وَالَّذِي فِي ط: «وَالْتَّثْبِثُ».

(4) فِي ل: «لَا تَنْبَيِّنُ»، أَيْ تَنْطِقُ. وَالتَّبَيِّنُ هُنَا مَعْنَاهُ التَّفْهِيمُ.

وجعل الإشارة للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العَقْد، إلّا بما فضّل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس. وجعل الخطّ دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، ممّا قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام والذائق نصيباً.

(خطوط الهند)

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط، ولبطلت⁽¹⁾ معرفة التضاعيف، ولعَدِموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات⁽²⁾، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه⁽³⁾ إلّا بعد [أن] تغلّظ المئونة، وتنتقِض المئنة، ولصاروا في حال معجزة وحسور، وإلى حال مضیعة وكلال حدّ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أربح لهم، وأردّ عليهم، أن يُصرف ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا.

(نفع الحساب)

ونفع الحساب معلوم، والخلة في موضع فقده معروفة. قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1-4]. ثم قال: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: 5]. وبالبيان عرّف الناس القرآن. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: 5] فأجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن. ويحسبان منازل القمر، عرفنا حالات المدّ والجزر، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور⁽⁴⁾، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار.

(فضل الكتابة)

ولولا الكتب المدوّنة والأخبار المخلّدة، والحكم المخطوطة التي تحصّن الحساب وغير الحساب، لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان التسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفرغ إلى موضع استذكار. ولو تمّ ذلك لحُرِمنا أكثر النفع؛ إذ كنّا قد علمنا أنّ مقدار حفظ الناس لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغني فيه غناء⁽⁵⁾ محموداً. ولو كُلف عامة من يطلب العلم ويصطنع الكتاب، ألا يزال

(1) في ط: «ولبطلت».

(2) رسمت هذه الكلمات بإثبات ألفات بعد واواتها في ط: ورسمت في ل بحذفها.

(3) في ط: «ولو أدركوا ذلك لما أدركوه» وهو تحريف أصلحته من ل.

(4) انظر الحيوان 25: 7.

(5) في ط: «غنا» وصوابه المد كما في ل.

حافظاً لفهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكلف شططاً، ولشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به، وفهمك لمعاني كلام الناس، ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجرداً، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومُعالمك والمعاون لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمتاً ونداء خالصاً، ولا يكون ذلك إلا وهو بعيد من المفاهمة، وعُطل من الدلالة. فجعل اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً، والكتاب للنزاح من الحاجات. فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رَفَعُ الحواجِبِ، وكسُرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاء وتحريك الأعناق، وقَبْضُ جلدة الوجه؛ وأبعدُها أن تلوي بثوبٍ على مقطع جبل، تُجَاهَ عَيْنِ الناظر، ثم ينقطع عملُها ويدرس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعد كل شيء فضل عن انتهاء مدى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوط والكتب. فأَيُّ نفع أعظم، وأَيُّ مِرْفَقٍ أعون من الخط، والحال فيه كما ذكرنا!! وليس للعقد حظُّ الإشارة في بُعد الغاية.

(فضل القلم)

فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1] فأقسم بالقلم كما أقسم بما يُخطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشقُّ غباره ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف [بعد] غايته. لكن لما أن كانت حاجات الناس بالحضرة⁽¹⁾ أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة واکدة، وراهنّة ثابتة، وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمراً يكون في الغيبة وعند النائية، إلا ما خُصّت به الدواوين؛ فإن لسان القلم هناك أبسط، وأثره أعم، فلذلك قدّموا اللسان على القلم. فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد⁽²⁾ والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها.

(فضل اليد)

فمن ذلك حظُّها وقسطُها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، ثم حظُّها⁽³⁾ في التصوير، ثم حظُّها في الصناعات، ثم حظُّها في العقد، ثم حظُّها في الدفع عن النفس، ثم حظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضؤ والامتناسح⁽⁴⁾، ثم انتقاد الدنانير والدراهم ولبس الثياب، وفي الدفع عن النفس، وأصناف الرمي، وأصناف الضرب، وأصناف الطعن، ثم التفر بالعود وتحريك الوتر؛ ولولا ذلك لبطل الضرب كله أو عامته. وكيف لا

(1) الحضر بالتحريك والحضرة والحاضرة والحضارة بالكسر ويفتح: خلاف البادية.

(2) في ل: «إنما يوفي منافع اليد».

(3) هذه الكلمة ومكرراتها هي في ط: «خطها» وهو تصحيف أصلح من ل.

(4) في ط: «والتمسح».

يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطُّبْل والدُّفِّ، وتحريكُ الصَّفَاقَتَيْنِ⁽¹⁾، وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس. ولو لم يكن في اليد إلا إمساكُ العنان والزَّمام والخطام، لكان من أعظم الحظوظ. وقد اضطرَّبوا في الحُكْم بين العَقْد والإشارة، ولولا أنَّ مغزانا في هذا الكتاب سوى هذا الباب، لقد كان هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفه إخواننا وخطاؤنا. فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلا بعد الفراغ ممَّا هو أولى بنا منه، إذ كنت لم تنازعني، ولم تعبْ كتبي، من طريقِ فضل⁽²⁾ ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإِنَّمَا قَصَدْنَا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

(فضل الكتاب)

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين⁽³⁾، وحساب الدواوين مع خفة نقليه، وصغر حجمه؛ صامتٌ ما أسكته، وبلغ ما استنطقته. ومن لك بمسامر لا يبتدك في حال شُغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه. ومن لك بزائر إن شئت جعل زيارته غيباً، ووروده خمساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك مكاناً بعضك.

والقلمُ مكتفٍ بنفسه، لا يحتاج إلى ما عند غيره؛ ولا بدَّ لبيان اللسان من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارة لَمَا فهموا عنك⁽⁴⁾ خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصَّ الخاصِّ قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ [الخاص] باللفظ عمَّا أداه، كما اكتفى عامُّ العام والطبقات التي بينه وبين أخصَّ الخاص.

والكتابُ هو المجلس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يَمْلُك، والمستميج الذي لا يَسْتَرِيئُك⁽⁵⁾، والجارُّ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالَمَكْر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب. والكتابُ هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحد طباعك، وبسط لسانك، وجوَّد بَنانك، وفخم ألفاظك، وبجح⁽⁶⁾ نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوامِّ وصدافة الملوك، وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم، ومن الجلوس بين يدي مَنْ أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم منه عرفاً، ومع السلامة من مجالسة البُعْضاء ومقارنة الأغبياء. والكتابُ هو الذي يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا

(1) الظاهر أنها آلة موسيقية تشبه تلك التي يستعملها أصحاب الموسيقى النحاسية: قرصين نحاسيين يضرب أحدهما بالآخر.

(2) كذا. ولعلها «فصل».

(3) في ط: «عن» وتصحيحه من ل.

(4) المستميج: طالب العرف. واشترائه: استبطأه، وفي ط: «يشترك». وفي ل: «يستزيدك» وهما تحريف ما أثبت.

(5) البجح محرقة: الفرح، وبجح به كفرح، وبجحته تبجيحاً فتبجح: أي أفرحته وفرح.

يعتَلُّ بنوم، ولا يعتَرِيه كَلَالُ السهر. وهو المعلمُ الذي إن افتقرت إليه لم يُخْفِرْك، وإن قطعت عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُرِلَتْ لم يدعْ طاعتك، وإن هبَّتْ ريحُ أَعَادِيكَ لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسبب أو معتصماً بأذنى حبل، كان لك فيه غنى من غيره، ولم تَضْطَرْك [معه] وحشة الوحدة إلى جليس السوء. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلّا منعُه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارّة بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض فيما لا يعينك⁽¹⁾، ومن ملابسة صغار الناس، وحضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمة، وإحراز الأصل، مع استفادة الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلّا أنّه يشغلك عن سُخف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلّ ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة. وقد علمنا أنّ أفضل ما يقطع به الفُراغ نهارهم، وأصحاب الفُكاهات ساعات ليلهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثر في ازدياد تجربة ولا عقل ولا مروءة، ولا في صون عرض، ولا في إصلاح دين، ولا في تثير مال، ولا في ربّ صنيعَة⁽²⁾ ولا في ابتداء إنعام.

(أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب)

وقال أبو عبيدة، قال المهلبُ لبنيه في وصيّته: يا بنيّ لا تقوموا في الأسواق إلّا على زَرَادٍ أو وَرَأقٍ⁽³⁾.

وحَدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال: ذهبَ المكارمُ إلّا من الكتب.

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي⁽⁴⁾ يقول: عَبَرَت أربعين عاماً ما قُلْتُ ولا بِتُ [ولا اتكأت] إلّا والكتابُ موضوعٌ على صدري⁽⁵⁾.

وقال ابن الجهم: إذا غَشِيَنِي النعاس في غير وقت نوم - وبئس الشيء النومُ الفاضلُ⁽⁶⁾ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحِكم، فأجدُّ اهتزازي للفوائد،

(1) بدل هذه الجملة في ط «ومن عادة الحرص».

(2) رب الصنيعة: تعهدها.

(3) الزراد: صانع الدروع. والمهلب يوصي بنيه باستكمال أسباب الفروسية والعلم.

(4) في ط: «أب الحسن اللؤلؤي» والصواب ما أثبتته. والحسن هذا هو ابن زياد اللؤلؤي الكوفي، قاض فقيه من أصحاب أبي حنيفة، أخذ عنه وسمع منه، وكان عالماً بمذهبه بالرأي. وله عدة كتب في الفقه. عن معجم الأعلام للزركلي. . وقد روى الجاحظ في البيان 2: 330، 3: 378 أن الحسن اللؤلؤي كان في بعض الليالي بالرقعة يحدث المأمون، والمأمون يومئذ أمير، إذ نعس المأمون، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ ففتح المأمون عينه وقال: سوقي والله! خذ يا غلام بيده!!

(5) إشارة إلى التزامه القراءة وعدم هجرها إلّا وقت النعاس، وغبرت: مكثت. وقال يقيل: نام وقت الظهيرة.

(6) في ط: «الفاضل» والصواب ما في ل.

والأريحية^(١) التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبين^(٢) أشدّ إيقاظاً من نهيق الحمير وهدّة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنّت الكتاب واستجدّته، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه - فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظرُكم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق، كثير العدد - فقد تمّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي^(٣) كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته. فقال ابن الجهم: لكنّي ما رغبني فيه إلا الذي زهدك فيه؛ وما قرأت قطّ كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت.

وقال العتبي ذات يوم لابن الجهم: ألا تتعجّب من فلان!! نَظَرَ في كتاب الإقليدس مع جارية سلمويه^(٤) في يوم واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يُحكّم مقالة واحدة، على أنّه حرٌّ مُخَيَّر، وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظنّ أنّه لم يفهم منه شيئاً واحداً، وأراك تزعم أنّه قد فرغ من مقالة!! قال العتبي: وكيف ظننت به هذا الظنّ، وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال: لأنّي سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، [قال^(٥)]: إنّما رغبني^(٦) في العلم أنّي ظننت أنّي أنفق عليه قليلاً وأكتسب كثيراً، فأما إذ صرْتُ أنفق الكثير، وليس في يدي إلا المواعيد، فإنّي لا أريد العلم بشيء!!

(السماع والكتابة)

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بُدّ من أن تكون كتبه أكثر من سماعه؛ ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يُختلف [إليه^(٧)]، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألذّ عنده من

(١) في الأصل «الأريحة» والوجه ما أثبت.

(٢) كذا. ولعلها «التبين».

(٣) في ل: «القيني» وهو تصحيف ما في ط. وقد اشتهر بهذا اللقب ثلاثة رجال أحدهم محمد بن عبد الجبار العتبي أبو نصر، مؤرخ من الأموي القرطبي الأندلسي وكان قاضياً وتوفي سنة 254هـ. وثانيهم محمد بن عبد الجبار العتبي أبو نصر، مؤرخ من الكتاب الشعراء، أصله من الري ونشأ في خراسان ثم استوطن نيسابور وانتهت إليه رئاسة الإنشاء في خراسان والعراق وتوفي سنة 427هـ. وثالثهم هذا الذي يعنيه الجاحظ وهو محمد بن عبد الله بن بني عتبة بن أبي سفيان. أديب كثير الأخبار، له شعر حسن من أهل البصرة ووفاته فيها. وله تصانيف حسان منها «أشعار النساء اللاتي أحبين ثم أبغضن» و«الأخلاق» و«الخيال». قال ابن النديم 176: «كان العتبي وأبوه سيدين أدبيين فصيحين» وانظر حواشي البيان 2: 182.

(٤) هو سلمويه بن بنان طبيب فاضل، خدم المعتصم واختص به حتى إن المعتصم لما مات سلمويه قال «سألحق به، لأنه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي» وكان سلمويه قد اكتسب من خدمة الخلفاء سياسة اقترنت بعقله، فحدث له منها حسن الرأي والنظر في العواقب لنفسه ولغيره ممن يستنصحه، وتوفي سنة 225 انظر القفطي 141 وابن أبي أصيبعة 1: 164 والزركلي 1: 380.

(٥) حرف يستقيم به الكلام.

(٦) في الأصل «رغبتي».

(٧) ليست بالأصل، وزدتها ليظهر المعنى. والمراد أن يختلف إليه تلاميذه.

الإنفاق من مال عدوّه، ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب، ألدّ عنده من إنفاق عُشاق القيان، والمستهترين بالبيان⁽¹⁾، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيعاً. وليس ينتفع بإنفاقه، حتّى يؤثر اتّخاذ الكتب إثارة الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتّى يؤمّل في العلم ما يؤمّل الأعرابي في فرسه.

(حرص الزنادقة على تحسين كتبهم)

وقال إبراهيم بن السديّ مرة: ودّدت أنّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة⁽²⁾ بالورق النقيّ الأبيض، وعلى تخير⁽³⁾ الحبر الأسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ، فأبني لم أرَ كورق كتبهم ورقاً. ولا كالخطوط التي فيها خطأ. وإذا غرمتُ مالا عظيماً - مع حبي للمال وبُغض الغرم - كان سخاء النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامة من سُكر الآفات قلت لإبراهيم: إنّ إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصاري على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة، وكتب مقاييس وسُنن [و] تبين وتبيين⁽⁴⁾، أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرّف الناس أبواب الصناعات، أو سُبُل التكسّب والتجارات، أو كتب ارتفاعات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب - وإن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يُبعد من مأثم - لكانوا ممّن قد يجوز أن يُظنّ بهم تعظيم البيان، والرغبة في التبيين⁽⁵⁾، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة، [و] على طريق تعظيم الملة، فإنما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصاري على صُلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البُدّة، ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم مُعرضاً، وكتب الحكمة لهم مبدولة، والطرق إليها سهلة معروفة. فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياناتهم، كما يزخرّف النصاري بيوت عباداتهم! ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعية إلى العبادة، وباعثة على الخُشوع، لبلّغوا في ذلك بعفّوهم، ما لا تبلّغه النصاري بغاية الجُهد.

(مسجد دمشق)

وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشق، حين استجاز هذا السبيل ملكٌ من ملوكها، ومَن رآها فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنّ الروم لا تسخو أنفسهم به، فلمّا قام عمرُ بن عبد العزيز، جَلَّله بالجلال،

(1) المستهتر: المولع بالشيء المنهمك فيه. وفي ط: «ألدّ عنده من عشق القيان، إنفاق المستهترين بالبيان»، وهي عبارة مضطربة أبدلتها بما في ل لتصح.

(2) في ط: «حرصى على المقالات» وصوابه ما في ل. وحريص إنما يجمع على حراص كرمّان، وحراص، بكسر الحاء، وحراء.

(3) في ط: «تحلل» والتصحيح من ل.

(4) في الأصل «تبيين وتبيين» وصححته بما ترى.

(5) في ط: «التبيين».

وَعَطَّاهُ بِالْكَرَابِيسِ^(١)، وَطَبَخَ سِلَاسِلَ الْقَنَادِيلِ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهَا ذَلِكَ التَّلَالُؤُ وَالْبَرِيقُ؛ وَذَهَبَ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ الصَّنِيعَ مَجَانِبٌ لِسُنَّةِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْحُسْنَ الرَّائِعَ وَالْمَحَاسِنَ الدَّقَاقَ، مَذْهَلَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَمَشْغَلَةٌ دُونَ الْخُشُوعِ، وَأَنَّ الْبَالَّ لَا يَكُونُ مَجْتَمِعاً وَهَنَكَ شَيْءٌ يَفَرِّقُهُ وَيَعْتَرِضُ عَلَيْهِ.

(صفة كتب الزنادقة)

والذي يدلُّ على ما قلنا، أَنَّهُ لَيْسَ فِي كِتَابِهِمْ مِثْلُ سَائِرِ، وَلَا خَبَرٌ طَرِيفٌ، وَلَا صَنْعَةٌ أَدَبٌ، وَلَا حِكْمَةٌ غَرِيبَةٌ، وَلَا فِلَسْفَةٌ، وَلَا مَسْأَلَةٌ كَلَامِيَّةٌ، وَلَا تَعْرِيفٌ صِنَاعَةٌ، وَلَا اسْتِخْرَاجٌ آلَةٌ، وَلَا تَعْلِيمٌ فَلَاحَةٌ، وَلَا تَدْبِيرٌ^(٢) حَرْبٍ، وَلَا مَقَارَعَةٌ^(٣) عَنْ دِينٍ، وَلَا مَنَاضِلَةٌ عَنْ نِخْلَةٍ، وَجُلُّ مَا فِيهَا ذِكْرُ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَتَنَاقُحُ الشَّيَاطِينِ، وَتَسَافُذُ الْعَفَارِيتِ، وَذِكْرُ الصَّنَدِيدِ، وَالتَّهْوِيلُ بِعُمُودِ السِّنْخِ^(٤)، وَالْإِخْبَارُ عَنْ شَقْلُونٍ، وَعَنْ الْهَامَةِ [وَالْهَامَةِ]. وَ[كُلُّهُ] هَذَرٌ وَعِيٌّ وَخُرَافَةٌ، وَسُخْرِيَّةٌ وَتَكْذُوبٌ، لَا تَرَى فِيهِ مَوْعِظَةً حَسَنَةً، وَلَا حَدِيثاً مُوْنِقاً، وَلَا تَدْبِيرَ مَعَاشٍ، وَلَا سِيَاسَةَ عَامَةٍ، وَلَا تَرْتِيبَ خَاصَّةٍ^(٥)، فَأَيُّ كِتَابٍ أَجْهَلُ، وَأَيُّ تَدْبِيرٍ أَفْسَدُ مِنْ كِتَابٍ يُوَجِّبُ عَلَى النَّاسِ الْإِطَاعَةَ، وَالْبُخُوعَ^(٦) بِالْدِّيَانَةِ، [لَا^(٧)] عَلَى جِهَةِ الْإِسْتَبْصَارِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلَيْسَ فِيهِ صِلَاحٌ مَعَاشٍ وَلَا تَصْحِيحٌ دِينٍ؟! وَالنَّاسُ لَا يَحْبُونُ إِلَّا دِيناً أَوْ دِيناً: فَأَمَّا الدِّينُ فِإِقَامَةُ سَوْقِهَا [وَإِحْضَارُ نَفْعِهَا]. وَأَمَّا الدِّينُ فَأَقْلُ مَا يُطْمَعُ فِي اسْتِجَابَةِ الْعَامَةِ [وَالْإِسْتِمَالَةِ الْخَاصَّةِ]، أَنَّهُ يَصُورُ فِي صُورَةٍ مَغْلُطَةٍ، وَبِمَوَّةٍ تَمُويَةِ الدِّينَارِ الْبَهْرَجِ، وَالدَّرْهَمِ [الزَّائِفِ] الَّذِي لَا يَغْلُطُ فِيهِ الْكَثِيرُ، وَيَعْرِفُ حَقِيقَتَهُ الْقَلِيلُ^(٨). فَلَيْسَ إِنْفَاقُهُمْ عَلَيْهَا مِنْ حَيْثُ ظَنَنْتَ. وَكُلُّ دِينٍ يَكُونُ أَظْهَرَ [اِخْتِلَافاً وَأَكْثَرَ] فُسَاداً، يَحْتَاجُ مِنَ التَّرْقِيعِ وَالتَّمْوِيهِ^(٩)، وَمِنَ الْإِحْتِشَادِ لَهُ وَالتَّغْلِيطِ^(١٠) فِيهِ إِلَى أَكْثَرِ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ النُّصْرَانِيَّةَ أَشَدُّ انْتِشَاراً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ تَعْبِداً، فَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ يَكُونُ تَزِيدُهُمْ فِي تَوْكِيدِهِ، وَاحْتِفَالِهِمْ فِي إِظْهَارِ تَعْلِيمِهِ.

(فضل التعلم)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كُنْتُ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ عَنْهُ بَعْضاً وَأَدْعُ بَعْضاً، فَقَالَ لِي: أَكْتُبْ كُلَّ مَا تَسْمَعُ، فَإِنْ أَحْسَسَ مَا تَسْمَعُ خَيْرٌ مِنْ مَكَانِهِ أَيْبُضُ^(١١).

(١) الكرباس بالكسر: ثوب من القطن الأبيض، معرب فارسيته بالفتح، غيروا لِرُتَّةِ فَعْلَالٍ، والنسبة كرابيسي، كأنه شبه بالأنصاري.

(٢) فِي ط: «تدبر» والوجه ما في ل.

(٣) ما عدل: «منازعة».

(٤) فِي ط: «الصبح».

(٥) فِي ط: «ولا سياسة عاملة ولا ترتيب خاصة» والعبارة مشوهة أصلحتها من ل.

(٦) فِي ط: «والتخرج».

(٧) زيادة يقتضيها الكلام.

(٨) فِي ط: «وَبِمَوَّةٍ تَمُويَةِ (الدنيا والبهرج) والدهرم الذي (لا) يغلط فيه الكثير ويعرف (حقيقة) القليل». ووجه العبارة من ل، بعد أن حذف (لا).

(٩) فِي ط: «احتاج من الترفيع والتمويه» وتصحيحه من ل.

(١٠) ما عدل: «والتغليط» بالطاء المهملة.

(١١) هذا ما في ل. ويطابقه ما في المحاسن والمساوي 9:1 وانظر الحيوان 5:168، وفي سائر النسخ «فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض» لكن في ط: «من مكان».

وقال الخليل بن أحمد: تكثر من العلم لتعرف، وتقل منه لتحفظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر. وأنشد قول ابن يسير⁽¹⁾:

أما لو أعى كل ما أسمع	وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمع	ت ل قليل هو العالم المضق ⁽²⁾
ولكن نفسي إلى كل نو	ع من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمع	ت ولا أنا من جمعه أشبع
وأحضر بالعبي في مجلسي	وعلمي في الكتب مستودع
فمن يك في علمه هكذا	يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً	فجمعك للكتب لا ينفع

(التخصص بضروب من العلم)

وقال أبو إسحاق: كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها. إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحول الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشد وتفتق، وترهف وتشفي. ومن أراد أن يعلم كل شيء، فينبغي لأهله أن يداووه! فإن ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه!! فمن كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدّر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلا نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

(جمع الكتب)

وحديثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدرسه⁽³⁾ كتاب إلا وله ثلاث نسخ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه، فرأيتُه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد، إلا اعتقدت أنه أفضل منه وأقل.

(1) هو محمد بن يسير الرياشي، يقال إنه مولى لبني رياش الذين منهم العباس بن الفرج الرياشي الأخباري الأديب. وكان شاعراً ظريفاً من شعراء المحدثين، متقللاً، لم يفارق البصرة، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعا، ولا تجاوز بلده. وكان ماجناً هجاء خبيثاً، وكان من بخلاء الناس. . انظر الأغاني 12: 24-136، والشعر نسبه الجاحظ في المحاسن ص 8 إلى الأصمعي ولكنه هنا يؤكد بتعقيبه الشعر - أنه لابن يسير، وهو بدون نسبة في المحاسن والمساوي 9: 1.

(2) في الأصول «خبر ما قد جمعت» والصواب ما أثبتته.

(3) في ل: «مدرسه» وهو تحريف صوابه في ط. والمدارس: جمع مدرس كمنبر، وهو الكتاب. وأما المدراس فهو الموضع الذي يقرأ فيه القرآن، ومنه قالوا: مدراس اليهود. فالوجه ما أثبتته عن ط.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا يوماً: إن في دار فلان ناساً قد اجتمعوا على سوء، وهم جلوس على خميرة لهم⁽¹⁾، وعندهم طنبور، فتسورنا عليهم⁽²⁾ في جماعة من رجال الحي، فإذا فتى جالس في وسط الدار، وأصحابه حوله، وإذا هم بيض اللحي، وإذا هو يقرأ عليهم دفترًا فيه شعر. فقال الذي سعى بهم: السوء في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتم عليها! فقلت: والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ، وفي يده دفتر علم، ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء!! وأنشد رجل يونس النحوي:

استودع العلم قرطاساً فضيعه فبئس مستودع العلم القراطييس

قال، فقال يونس: قاتله الله، ما أشد ضنائه بالعلم، وأحسن صيائه له، إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك بمكان الروح، وضع مالك بمكان البدن!!

وقيل لابن داحه - وأخرج كتاب أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفية، ودفتين طائفتين⁽³⁾، بخط عجيب - فقليل له: لقد أضيع من تجود بشعر⁽⁴⁾ أبي الشمقمق! فقال: لا جرم والله!! إن العلم ليُعطيكم على حساب ما تعطونه، ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي، أو أجعله محفوظاً على ناظري، لفعلت. ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته، فرأيت السماطين والرجال مُثولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيت فرشته وبزته؛ ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل، ولا أهيأ ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السودد الحكمة.

وقال ابن داحه: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، لا يجالس الناس، وينزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرؤه. فسئل عن ذلك، وعن نزوله المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمتع⁽⁵⁾ من كتاب، ولا أسلم من الوحدة. فقليل له: قد جاء في الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل [وأصلحها للعاقل]!

(ضروب من الخطوط)

وضروب من الخطوط بعد ذلك، تدل على قدر منفعة الخط. قال الله تبارك وتعالى:

﴿ كِرَامًا كَنِينًا ﴾ [الأنفطار: 11]، وقال الله عز وجل: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * رَّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾

(1) في ط: «على خيرة» وما هنا عن ل وس. فإن ضبطت بضم الخاء كان معناها الخمر (بعد تصغيرها) وإن ضبطت بفتح الخاء كان المراد بها الحصيرة الصغيرة من السعف. ولكل وجه. وانظر ثمار القلوب 47 والأغاني 7: 175.

(2) في ل: «فدمرنا عليهم». صواب هذه «فدمرنا» بالبدال المهملة، أي دخلنا بغير إذن. انظر اللسان (دمر) وما سيأتي في ص 210.

(3) في ط: «طائفتين» والصواب ما في ل، نسبة إلى الطائف.

(4) في ل: «لشعر» باللام بدل الباء.

(5) كذا في ط: وفي المحاسن ص 4 «ولا آس» فلعل صحة ما هنا «أمتع» من الإمتاع.

[عبس: 13-15]، وقال: ﴿فَلَمَّا مَنَّ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِمِيزَةٍ﴾ [الانشقاق: 7]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: 10]، وقال: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14].

ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخل ذلك الحفظ نسياناً، ولكئنه تعالى وعزاً، علم أن كتاب المحفوظ ونسخه، أوكد وأبلغ في الإنذار والتحذير، وأهيب في الصدور. وخط آخر، وهو خط الحازي والعراف⁽¹⁾ والزاجر، وكان فيهم حليس⁽²⁾ الخطاط الأسدي، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم:

فأنتم عضاريط الحميس إذا غرؤا غناؤكم تلك الأخطيط في الثرب⁽³⁾
وخطوط آخر، تكون مستراحاً للأسير والمهموم والمفكر، كما يعتري المفكر من قرع السن، والغضبان من تصفيق اليد وتجحيط العين. وقال تائب شراً:

لتقرعن علي السن من ندم إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي
وفي خط الحزين في الأرض يقول ذو الرمة⁽⁴⁾:

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الدار مولع⁽⁵⁾
أخط وأمحو الخط ثم أعيدته بكفي والغربان في الدار وقع
وذكر النابغة صنيع النساء، وفزعهن إلى ذلك، إذا سبين واغتربن وفكرن، فقال:

ويخططن بالعيدان في كل منزل ويخبأن رمان الثدي النواهد
وقد يفزع إلى ذلك الحجل والمتعلل، كما يفزع إليه المهموم وهو قول القاسم بن أمية بن أبي الصلت:

لا ينقرون الأرض عند سؤالهم لتلمس العلات بالعيدان⁽⁶⁾
بل يبسطون وجوههم فتري لها عند اللقاء كأحسن الألوان

(1) في ط: «الحادي والقراف» وتحقيقه من ل. والحازي: صاحب الكهانة في العرب. والعراف: الكاهن أو الطبيب. قال عروة بن حزام:

جعلت لعراف البمامة حكمه وعراف حجر إن هما شفياني

(2) كذا في ش: ورسائل الجاحظ طبع الساسي ص 130، وورد في ل برسم «حلبس» وفي ط برسم «جلس».

(3) العضاريط: جمع عضرط كقنفذ، وعضارط كعلايط، وعضروط كعصفور، قال في القاموس: «هو الخادم على طعام بطنه، والأجير، واللثيم». والشعر لأبي نواس في ديوانه 150 يهجو به تميمًا وأسدًا.

(4) قال الثعالب في الثمار 214 «ابنا عيان ضرب من الزجر، وهو أن يخط الناظر في أمر بأصبعه، ثم بأصبع أخرى ويقول: ابنا عيان! أسرع البيان! ثم يخبر بما يرى. وهو مشتق من قولك: أرياني ما أريد عياناً. وهذا معنى قول ذي الرمة:

عشية مالي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الدار مولع

وانظر العقد 6: 149

(5) في الثمار كما كتبت «بلقط» بالقاف بدل الفاء، وفي الأصل: «بلفض» وانظر تفسير الجاحظ الآتي.

(6) في ط: «ينكتون»، وهو تصحيف، وفي س «ينكتون»، وفي ل وكذلك عيون الأخبار 3: 152 ومعجم المرزباني 332 «لا ينقرون» كما أثبت. وانظر مجالس ثعلب 173 والعمدة 2: 236 ولباب الأدب 257.

وقال الحارث بن الكندي، وذكر رجلاً سأله حاجة فاعتراه العيبُ بأسنانه، فقال:
وَأَضَ بَكَفِّهِ يَحْتَكُ ضِرْساً يُرِينَا أَنَّهُ وَجَعٌ بِضِرْسِ
وربما اعترى هؤلاء عدُ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى، ولم يكونوا في موضع
تراب، وهو قول امرئ القيس:

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِداً أَعْدُ الْحَصَى مَا تَنْقُضِي حَسْرَاتِي
وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

نَهَرًا جَارِيًا وَبَيْتًا عَلِيًّا يَعْتَرِي الْمَعْتَفِينَ فَضْلُ نَدَاكَ
فِي تَرَاخٍ مِنَ الْمَكَارِمِ جَزُلٍ لَمْ تَعْلَلْهُمْ بِلَقْطِ حَصَاكَ⁽¹⁾
وقال الآخر، وهو يصف امرأة قُتِلَ زوجها، فهي محزونة تَلْقُطُ الحصى:

وَبِضَاءٍ مَكْسَالٍ كَأَنَّ وَشَاحَهَا عَلَى أُمِّ أَحْوَى الْمُقْلَتَيْنِ خَذُولِ⁽²⁾
عَقَلْتُ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا عَدَدَ الْحَصَى مَعَ الصُّبْحِ، أَوْ فِي جُنْحِ كُلِّ أَصِيلٍ
يقول: لم أعطها عقلاً عن زوجها، ولم أورثها إلا الهم الذي دعاها إلى لقط الحصى.
يخبر أنه لمنعته، لا يوصل منه إلى عقل ولا قود.

(أقوال الشعراء في الخط)

ومما قالوا في الخط، ما أنشدنا هشام بن محمد بن السائب الكلبى قال: قال المقتع
الكندي في قصيدة له، مدح فيها الوليد بن يزيد:

كَالْخَطِّ فِي كُتُبِ الْغِلَامِ أَجَادَهُ⁽³⁾ بِمَدَادِهِ، وَأَسَدَّ مِنْ أَقْلَامِهِ⁽⁴⁾
قَلَمٌ كَخُرُطُومِ الْحَمَامَةِ مَائِلٌ مُسْتَحْفِظٌ لِلْعِلْمِ مِنْ عَلَامِهِ
بِسِمِّ الْحُرُوفِ إِذَا يَشَاءُ بَنَاءَهَا لِبَيَانِهَا بِالنَّقْطِ مِنْ أَرْسَامِهِ
مِنْ صُوفَةٍ نَفَثَ الْمَدَادُ سُخَامَهُ حَتَّى تَغْيَرَ لَوْنُهَا بِسُخَامِهِ
يَحْفَى فَيَقْصَمُ مِنْ شَعِيرَةِ أَنْفِهِ⁽⁵⁾ كَقَلَامَةِ الْأَظْفُورِ مِنْ قَلَامِهِ

(1) «تراخ» لعلها «براح» كسحاب، وأصل معناه الفسيح من الأرض. و«تعللهم» هي في ط: «تعلقهم» وليس بشيء. وفي ل: «تعلل لهم» وهو خطأ كتابي.

(2) في ط: «المقتلين» وهو تصحيف عجيب. وأحوى المقتلتين يعني به الظبي. والخذول من وصف أمه، وهي التي خذلت أصحابها فانفردت عنهم قائمة على ولدها، فهي فزعة ولهة على خشفها، وهي تمد عنقها وترتاع، وذلك أحسن لها.

(3) في ط: «كتف» وفي ل: «كف» والوجه ما كتبه من ش.

(4) في ط: «بمراده» وهو تصحيف ظاهر.

(5) في ط: «يخفى» وإنما هو «يحفى» بالحاء كما في ل، أي يرق سنه، فيتعثر في الكتابة. وهو مأخوذ من حفا القدم والخف والحافر.

سُقِي المِدادَ، فزاد في تَلَامِهِ
نطق اللسان به على استعجام
تبيان ما يَتَلَوْنَ من تَرَجَامِهِ
ما إن يَبُوحُ به على استكتامِهِ
ميم معلقةً بأَسفلِ لَامِهِ

وبأنفه شَقُّ تِلَاءَمٍ فاستَوَى
مُسْتَعِجٌ وهو الفصيحُ بكلِّ ما⁽¹⁾
وله تراجمةٌ باللسنة لهم
ما خَطَّ من شيء به كتابه
وهجاؤه قاف ولام بعدها
ثم قال :

وجه المقتنع من وراء لِثَامِهِ
فالعينُ تُنكره من أَذْهِمَامِهِ
سُرحُ اليدين ومن بُويزِلِ عامِهِ
وكذاك ذاكَ بِرَحْلِهِ، وزِمَامِهِ
لبنُ اللَّقُوحِ فعادَ مِلءٌ حِزَامِهِ⁽³⁾
وكذاك ذاكَ بِسَرْجِهِ، ولِجَامِهِ
كالسيفِ أُرْهِفْ حَدَّهُ بِحُسامِهِ
وله الخِلافةُ بعد موتِ هِشَامِهِ

قالت لجارتها الغزِيلُ إذ رأت
قد كان أبيضَ فاعتراه أَذْمَةٌ
كم من بُويزِلِ عامِها مَهْرِيَّة
وَهَبَ الوليدُ بِرَحْلِها وزِمَامِها⁽²⁾
وقويرح عَتِدَ أَعْدَ لِنِيَّةِ
وهَبَ الوليدُ بِسَرْجِها ولِجَامِها
أهدى المقتنع للوليدِ قَصِيدَةً
وله المأثرُ في قريشٍ كُلِّها

وقال الحسن بن جماعة الجَذَامِيُّ⁽⁴⁾ في الخط :

إليك بِسِرِّي بَاتَ يُرْقِلُ عَالِمٌ
أصمُّ الصدى مُحَرَّورُفُ السِّنِّ طائع⁽⁵⁾

(1) في ط : «متعجم» وأثبت ما في ل ؛ لأنه الوجه . واستعجم : سكت ، ومن قول النابغة :

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

(2) في ط : «وزماعها» والصواب ما كتبت من ل .

(3) النَّثْيُ بالكسر : الشحم . القويرح : مصغر قارح ، وهو من ذي الحافر ، بمنزلة البازل من الإبل . العتد محركة وككتف : المعد للجري ، أو الشديد التام الخلق . اللقوح : الناقة قد لقحت . . وكان العرب يسقون كرائم الخيل ألبان الإبل . قال الأعرج المعنى (الحماسة 1: 130) :

تلوم وما أدري علام توجع
وما تستوي والورد ساعة تفزع
نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع
هنالك يجزيني بما كنت أصنع

أرى أم سهل ما تزال تفجع
تلوم على أن أمنح الورد لقحة
إذا هي قامت حاسراً مشمعة
وقمت إليه باللجام ميسراً

وقال قبيصة بن النضراني الجرمي (الحماسة 1: 246) :

أأن حلبت لقحة للورد
ونظري في عطفه الألد

هاجرتي يا بنت آل سعد
جهلت من عنانه الممتد

(4) كذا في ل وش . . وقد ورد «جماعة» بالخاء في ط .

(5) في ط : «إليك سري» وتصحيحه من س . الصدى : جسد الأدمى بعد موته . فهو بذلك يعني أن القلم عجيب في وعيه للسر مع صممه . والصدى كذلك : رجع الصوت ، فكأن القلم ينطق في القرطاس ، دون أن يبين صدى صوته .

بَصِيرٌ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا لَهُ
كَأَنَّ ضَمِيرَ الْقَلْبِ بَاحٌ بِسِرِّهِ
لَهُ رِيْقَةٌ مِنْ غَيْرِ فَرِثٍ تَمُدُّهُ
وَلَا مِنْ ضُلُوعٍ صَفَّقَتْهَا الْأَضَالِعُ^(١)

وقال الطائي، يمدح محمد بن عبد الملك الزيات :

وَمَا بَرَحْتَ صُوراً إِلَيْكَ نَوَازِعاً
لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشِبَابِهِ
لَكَ الْخَلَوَاتُ اللَّاءُ لَوْلَا نَجِيَّتُهَا
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
لَهُ رِيْقَةٌ طُلٌّ وَلَكِنَّ وَقَعَهَا
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقَتْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
إِذَا مَا امْتَطَى الْخُمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ
أَطَاعَتُهُ أَطْرَافُ الْقَنَا وَتَقَوَّصَتْ
إِذَا اسْتَغْزَرَ الذَّهْنَ الْجَلِيَّ وَأَقْبَلَتْ
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ
رَأَيْتَ جَلِيلاً شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ
أَرَى ابْنَ أَبِي مَرُوانَ أَمَّا لِقَاؤُهُ

وقد ذكر البُحْثَرِيُّ في كلمة له، بعض كهول العسكر^(٢)، ومن أنبل أبناء كتابهم^(٣)

الجلَّة، فقال :

وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ
بَرَقَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى فِي كَتَبِهِ

(١) في ل وش : «ضمنتها». وفي البيت تحريف كما ترى .

(٢) في ط : «بشابه» موضع بشابته، وهو تحريف صوابه في ل والديوان .

(٣) في ط : «لولا تجيئها لما اختلفت» وتصحيحه من ل والديوان .

(٤) في ط : «إذا استشعر الذهن المجلي» وأثبت ما في ل .

(٥) في ط : «وقد رمزته الخنصران وشدت» وهو تحريف ما أثبت من ل والديوان .

(٦) في ط : «نضي» وصوابه من الديوان و«ل» .

(٧) هو الحسن بن وهب، وليت شعري لم لم يصرح الجاحظ باسمه، مع أن الجاحظ له رسالة إلى الحسن بن وهب، في مدح النبيذ وصفة أصحابه، ذكر صدرها منها عبيد الله بن حسان، في كتابه «الفصول المختارة» انظر هامش الكامل 1: 97، والبيت المذكور من قصيدة في ديوان البحري 67 مطلعها :

من سائل لمعذل عن خطبه أو صافح لمقصر عن ذنبه

(٨) في ط : «أنبل ابنا كتابهم» وتصحيحه من «ل» .

(الكتابات القديمة)

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخُلقة مُرَكَّبَةً في البُنيان؛ فربما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمرٍ جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نفعُها، أو إحياء شرفٍ يريدون تخليد ذكره، [أو تطويل مدته]، كما كتبوا على قُبّة غُمْدَان⁽¹⁾، وعلى باب القَيْرُوان⁽²⁾، وعلى باب سَمَرْقَنْد⁽³⁾، وعلى عمود مأرب⁽⁴⁾، وعلى ركن المشقَر⁽⁵⁾، وعلى الأبلق الفرد⁽⁶⁾، وعلى باب الرها⁽⁷⁾؛ يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعاد المواضع من الدُّثور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

(فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالقات)

وأقول: لولا الخطوطُ لبَطَلَتِ العهودُ والشروطُ والسَّجَلَاتُ والصَّكَّاءُ، وكلُّ إقطاع، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جِوارٍ وحلف. ولتَعْظِمْ ذلك، والثَّقةُ به والاستناد إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ذَكَرَ الحَلْفِ والهُدْنَةِ؛ تعظيماً للأمر، وتبعيدياً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن جِلْزَةَ، في شأنِ بكرٍ وتغلب⁽⁸⁾:

واذْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا فُـ لَدَّمْ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفْلَاءُ
حَذَرَ الْجَوْرِ والتَّعَدِّي، وهل يَنْـ قُضِ ما في الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ!

والمهاريق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب؛ ولا يقال للكتب مهاريقُ حتَّى تكونَ كتبَ دين، أو كتبَ عهودٍ، وميثاقٍ، وأمان.

(1) غمدان: قصر بين صنعاء وطبوة، واختلف في اسم بانيه، وله صفة عجيبة في معجم البلدان.

(2) هي المدينة المعروفة في إفريقية، مصرت في الإسلام في أيام معاوية.

(3) بلدة عظيمة في التركستان، والأصمعي يروي أنه كتب على بابها بالحميرية، انظر المعجم.

(4) مأرب: بين صنعاء وحضر موت من بلاد اليمن.

(5) المشقر: حصن كان بالبحرين. وفي «ط»: «الركن المشقر»، وأصلحته من «ل» والمحاسن 3.

(6) قال ياقوت: هو حصن السموءل بن عدياء اليهودي، مشرف على تيماء، بين الحجاز والشام، على رابية من تراب، فيه آثار أبنية من لبن، لا تدل على ما يحكي عنها من العظمة والحصانة، وهو خراب.

(7) مدينة بالجزيرة.

(8) البيتان من معلقة الحارث المشهورة، التي مطلعها:

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَاوِ يَمْلُ مِنْهُ الثَّوَاءُ

وقد رواهما الجاحظ في البيان 3:7 وقال في البيت الثاني: «الخون: الخيانة. ويروى: الجور».

(الرقوم والخطوط)

وليس بين الرقوم والخطوط فرق، ولولا الرقوم لهلك أصحاب البزّ والعُزول، وأصحاب الساج وعامة المتاجر، وليس بين الوسوم⁽¹⁾ التي تكون على الحافر كله والخفّ كله والظلف كله، وبين الرقوم فرق، ولا بين العقود والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق، وكلها خطوط، وكلها كتاب، أو في معنى الخط والكتاب، ولا بين الحروف المجموعة والمصوّرة من الصوت المقطّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السواد في القرطاس فرق.

واللسان: يصنع في جوبة⁽²⁾ الفم وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه، وفي لهاته، وباطن أسنانه، مثل ما يصنع القلم في المداد والليقة والهواء والقرطاس، وكلها صورّ وعلامات وخلق موائل، ودلالات، فيعرف منها ما كان في تلك الصور لكثرة ترددها على الأسماع⁽³⁾، ويعرف منها ما كان مصوراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدّلوا بالضحك على السرور، وبالبكاء على الألم. وعلى مثل ذلك عرفوا معاني الصوت، وضروب صور الإشارات، وصور جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقبه، والكلب اسمه، وعلى مثل ذلك فهم الصبيّ الزجر والإغراء، ووعي المجنون الوعيد والتهديد⁽⁴⁾، وبمثل ذلك اشتدّ خضر الدابة مع رفع الصوت، حتّى إذا رأى سائسه حمحم، وإذا رأى الحمام القيّم عليه انحطّ للقطّ الحبّ، قبل أن يلقّي له ما يلقطه، ولولا الوسوم⁽⁵⁾ ونقوش الخواتم، لدخل على الأموال الخلل الكثير، وعلى خزائن الناس الضرر الشديد.

(الخط والحضارة)

وليس في الأرض أمة بها طرّق⁽⁶⁾ أو لها مسكة، ولا جيل لهم قبض وبسط، إلّا ولهم خطّ. فأما أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والديانة والعبادة، فهناك الكتاب المتقن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم والسمون⁽⁷⁾ كيف كان، قال [ذلك] الهيثم [ابن عدي]، وابن الكلبي.

(1) في الأصل «الرسوم» بالراء وإنما هي «الوسوم» جمع وسم.

(2) ما عدل: «جوية».

(3) كذا في «ل». ووردت محرفة في «ط» برسم «الأسماء».

(4) في «ل»: «وودع المخنوق الوعيد والتهديد» وفي ط: «ودع المجنون الوعيد والتهديد» أما كلمة «المخنوق». فواضحة التحريف وكذلك «ودع». وكتبت «وعي» موضع «ردع» لتناسب مع «فهم» في الفقرة السابقة.

(5) الأصل «الرسوم» وصوابه «الوسوم».

(6) الطرق بالكسر: معناه هنا القوة.

(7) بدله في «ط»، «ش»: «كذا» ويبدو أنه من النسخ. وانظر رسائل الجاحظ 138 ساسي.

(تخليد الأمم لمآثرها)

[قال]: فكلُّ أمةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرِها، وتحصينِ مناقبِها، على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من الأشكال.

(تخليد العرب لمآثرها)

وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها. بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أنَّ الشعرَ يُفيدُ فضيلةَ البيان، على الشاعرِ الراغب، والمادح، وفضيلةَ المأثرة، على السيّدِ المرغوبِ إليه، والممدوحِ به. وذهبت العجمُ على أن تقيّدَ مآثرَها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداد⁽¹⁾، وبنى أزدشير بيضاءِ إصطخر. وبيضاء المدائن، والحضر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس. قال: ثمَّ إنَّ العربَ أحبَّت أن تشاركَ العجمَ في البناء، وتنفردَ بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبةَ نَجْران⁽²⁾، وقصرَ مارد، وقصرَ مأرب، وقصرَ شعوب⁽³⁾ والأبلى الفرد؛ و[فيه وفي⁽⁴⁾] مارد، قالوا: «تمرّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلى» وغيرَ ذلك من البُنيان. قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيعَ شريفَ البُنيان، كما لا تبيعُ شريفَ الأسماء، إلّا لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمّامات والقباب الخضر، والشُرَف على حيطان الدار، وكالعقد على الدّهليز وما أشبه ذلك، فقال بعض من حضر «كُتِبَ الحكماء وما دَوَّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات، والآداب والأرفاق⁽⁵⁾، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيّةٌ ومن لا بقيّةَ له، أبقي ذكراً وأرفعَ قدراً وأكثرَ رذّاً، لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحداث، لمن أحبَّ الذكر الجميل».

(طمس الملوك والأمراء آثار من سبقهم)

والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحجارة وحيطان المَدَر؛ لأنَّ من شأن الملوك أن يطمِسوا على آثارٍ من قبلهم، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هَدَمُوا بذلك السببَ [أكثر] المدنِ وأكثرَ

(1) كذا في «ط». ومكانه في «ل»: «كرد بنداذ».

(2) كعبة نجران: بيعة بناها بنو عبد المَدان بن الديان الحارثي، على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاةً للكعبة، وكان فيها أساقفة معتمون، وهم الذين جاءوا إلى النبي ﷺ ودعاهم إلى المبالهة. انظر ياقوت.

(3) شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع. كذا قال ياقوت.

(4) زيادة ضرورية لاستقامة الكلام، وصاحب هذا القول هو الزباء، فيما روى ياقوت في رسم «مارد» قال في مارد:

«حصن بدومة الجندل، وفيه وفي الأبلى قالت الزباء، وقد غزتهما، فامتنعا عليها: تمرّد مارد وعزَّ الأبلى..

فصارت مثلاً لكل عزيز ممتنع.

(5) الأرفاق: جمع رفق بالكسر، وهو ما يستعان به.

الحصون، كذلك كانوا أيامَ العَجَمَ وأيامَ الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام؛ كما هدم عُثْمَانُ صومعةَ عُمدان، وكما هدم الآطام⁽¹⁾ التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادُ كلَّ قصر ومصنع كان لابن عامر⁽²⁾، وكما هدم أصحابنا بناءَ مدن الشامات⁽³⁾ لبني مروان.

(تاريخ الشعر العربي)

وأما الشعرَ فحديثُ الميلاد، صغيرُ السنِّ، أوَّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّلَ الطريقَ إليه: امرؤُ القيس بن حُجْر، ومُهَلِّهْل بن ربيعة. وكُتِبَ أرسطاطاليس، ومعلِّمه أفلاطون، ثم بطلِّيموس، وديمقراطس⁽⁴⁾، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبلَ الدهور⁽⁵⁾، والأحقاب قبلَ الأحقاب. ويدلُّ على حداثة الشعر، قولُ امرئ القيس بن حُجْر:

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَنًا ضِيَعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ عَدَرُوا⁽⁶⁾
أَدَّوْا إِلَى جَارِهِمْ خَفَارَتَهُ وَلَمْ يَضِعْ بِالْمَغِيبِ مَنْ نَصَرُوا⁽⁷⁾
لَا حَمِيرِيٍّ وَفَى وَلَا عُدَسٌ وَلَا اسْتَغِيرَ يَحْكُمُهَا الثُّفَرُ⁽⁸⁾
لَكِنْ عُوَيْرٌ وَفَى بِذِمَّتِهِ لَا قِصَرَ عَابَهُ وَلَا عَوْرُ⁽⁹⁾

فانظُرْ، كم كان عمرُ زُرارة! وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي ﷺ؟! فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له - إلى أن جاء اللُّهُ بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام⁽¹⁰⁾.

قال: وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا

(1) الآطام: جمع أطم بضمة وبضميتين وهو القصر، أو الحصن المبني بالحجارة، أو كل بيت مربع مسطح.
(2) هو عبد الله بن عامر بن كرز بن حبيب بن ربيعة، أمير فاتح، ولد بمكة وولي البصرة في أيام عثمان رضي الله عنه. وافتتح سجستان صلحا ومدنا كثيرة في الشرق. وكان شجاعا سخيا، وصولا لقومه، رحيما محبا للعرمان. وتوفي سنة 59هـ. ولما بلغ نبأ وفاته معاوية، قال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، بمن نفاخر ونباهي؟ وانظر الجهشباري 148

(3) الشامات: فسرهما ابن عبد ربه في العقد 6: 251-252 بأنها خمس: فلسطين ومدينتها بيت المقدس، والأردن ومدينتها طبرية، والغوطة ومدينتها دمشق، وحمص، وقنسرين ومدينتها حلب.

(4) في «ط»: «ذي بقراط»، وما أثبتته في «ل». . وانظر القفطي «حرف الدال المهملة ثم حرف الدال المعجمة».

(5) في الأصل: «وقبل الدهور».

(6) جاءت (حسنا) بالنون في الأصل، ويظهر أنه تصحيح ما في الديوان 159، والمراد به المعروف والجميل. والدخل، كما قال أبو بكر: الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه.

(7) الخفارة: الذمة والعهد، والحاء مثلثة.

(8) حميري وعدس: رجلا من بني حنظلة.

(9) أبو بكر شارح الديوان: كان عوير قد أجار هندًا بنت حجر أخت امرئ القيس فوفى لها حتى أتى بها نجران، فمدحه بوفاء الذمة، ونزهه من كل عيب يشين غيره.

(10) انظر لتوضيح هذا ما أثبت في الاستدراكات.

يُسْتَطَاعُ أَنْ يَتَرَجَّم، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ النُّقْلُ؛ وَمَتَى حَوَّلَ تَقَطَّعَ نَظْمُهُ وَبَطَلَ وَزْنُهُ، وَذَهَبَ حُسْنُهُ وَسَقَطَ مَوْضِعُ التَّعَجُّبِ، [لَا] كَالْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ. وَالْكَلَامُ الْمُنْثَوْرُ الْمَبْتَدَأُ عَلَى ذَلِكَ أَحْسَنُ وَأَوْقَعُ مِنَ الْمُنْثَوْرِ [الَّذِي تَحَوَّلَ مِنْ] مُوزُونِ الشَّعْرِ.

قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كل ما أقام لهم المعاش وبوّب لهم أبواب الفطن، وعرفهم وجوه المرافق؛ حديثهم قديمهم، وأسودهم كأحمرهم، وبعيدهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملة لهم.

(صعوبة ترجمة الشعر العربي)

وقد نُقِلَتْ كُتُبُ الْهِنْدِ، وَتُرْجِمَتْ حُكْمُ الْيُونَانِيَّةِ، وَحُوِّلَتْ آدَابُ الْفَرَسِ؛ فبَعْضُهَا أَزْدَادٌ حُسْنًا، وَبَعْضُهَا مَا انْتَقَصَ شَيْئًا، وَلَوْ حُوِّلَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ، لَبْطَلَ ذَلِكَ الْمَعْجَزُ الَّذِي هُوَ الْوِزْنُ؛ مَعَ أَنَّهُمْ لَوْ حَوَّلُوهَا لَمْ يَجِدُوا فِي مَعَانِيهَا شَيْئًا لَمْ تَذْكُرْهُ الْعَجْمُ فِي كُتُبِهِمْ، الَّتِي وَضَعَتْ لِمَعَاشِهِمْ وَفَطَنَهُمْ وَحَكَمَهُمْ. وَقَدْ نُقِلَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ مِنْ أُمَّةٍ إِلَى أُمَّةٍ، وَمِنْ قَرْنٍ إِلَى قَرْنٍ، وَمِنْ لِسَانٍ إِلَى لِسَانٍ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَيْنَا، وَكُنَّا آخِرَ مَنْ وَرِثَهَا وَنَظَرَ فِيهَا. فَقَدْ صَحَّ أَنَّ الْكُتُبَ أَبْلَغُ فِي تَقْيِيدِ الْمَآثِرِ، مِنَ الْبُنْيَانِ وَالشَّعْرِ.

(قيمة الترجمة)

ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له: إِنَّ التَّرْجُمَانَ لَا يُوَدِّي أَبَدًا مَا قَالَ الْحَكِيمُ، عَلَى خَصَائِصِ مَعَانِيهِ، وَحَقَائِقِ مَذَاهِبِهِ، وَدَقَائِقِ اخْتِصَارَاتِهِ، وَخَفِيَّاتِ حُدُودِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُوَفِّيَهَا حَقُوقَهَا، وَيُوَدِّيَ الْأَمَانَةَ فِيهَا، وَيَقُومَ بِمَا يُلْزَمُ الْوَكِيلَ وَيَجِبُ عَلَى الْجَرِيِّ⁽¹⁾، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَتَسْلِيمِ مَعَانِيهَا، وَالْإِخْبَارِ عَنْهَا عَلَى حَقِّهَا وَصَدَقِهَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الْعِلْمِ بِمَعَانِيهَا، وَاسْتِعْمَالِ تَصَارِيفِ الْفَاضِلِهَا، وَتَأْوِيلَاتِ مَخَارِجِهَا، مِثْلَ مُؤَلَّفِ الْكِتَابِ وَوَضَاعِهِ، فَمَتَى كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ابْنُ الْبَطْرِيقِ، وَابْنُ نَاعِمَةَ، وَابْنُ قَرَّةَ، وَابْنُ فَهْرِيزِ، وَثَيْفِيلِ⁽²⁾، وَابْنُ وَهْيَلِي، وَابْنُ الْمُقَفَّعِ، مِثْلَ أَرِسْطَاطَلِسِ؟! وَمَتَى كَانَ خَالِدُ⁽³⁾ مِثْلَ أَفْلَاطُونِ؟!

(1) فِي الْأَصْلِ «الْمَجْرِي» وَإِنَّمَا هُوَ «الْجَرِي» وَهُوَ فِي مَعْنَى الْوَكِيلِ، كَمَا فِي الْقَامُوسِ.

(2) ابْنُ فَهْرِيزِ هُوَ حَبِيبٌ، أَوْ عَبْدُ يَشُوعَ بْنِ فَهْرِيزِ. ابْنُ النَّدِيمِ 24، 248، 249 وَأَمَّا ثَيْفِيلُ: فَهُوَ ثَيْفِيلُ بْنُ تَوْمًا أَحَدَ الْمُتَرْجِمِينَ لِأَرِسْطُو. مَجْلَةُ الثَّقَافَةِ الْعَدَدُ 28.

(3) هُوَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، وَلِيَ الْخِلَافَةَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ. . وَقَدْ قَامَ بِأَوَّلِ نَقْلِ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ الْجَا حِظُّ فِي الْبَيَانِ 1: 328: «وَكَانَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ خَطِيبًا شَاعِرًا، وَفَصِيحًا جَامِعًا، وَجِدَ الرَّأْيَ كَثِيرَ الْأَدَبِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَرَجَّمَ كُتُبَ النُّجُومِ وَالطَّبِّ وَالْكِيمْيَاءِ». تَوَفَى خَالِدُ سَنَ 85 هـ.

(شرائط الترجمان)

ولابد للترجمان من أن يكون بيّانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وبينغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواءً وغاية. ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعرض عليها. وكيف يكون تمكّن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكّنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استقرعت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات. وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل، كان أشد على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد ألبتة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء.

(ترجمة كتب الدين)

هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله - عز وجل - بما يجوز عليه ممّا لا يجوز عليه، حتى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه، ويكون ذلك متضمناً بما يجوز على الله تعالى، ممّا لا يجوز، وبما يجوز على الناس ممّا لا يجوز، وحتى يعلم مستقر العام والخاص، والمقابلات التي تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية؛ وحتى يعرف من الخبر ما يخضه الخبر الذي هو أثر، ممّا يخضه الخبر الذي هو قرآن. وما يخضه العقل ممّا تخضه العادة أو الحال الرادة له عن العموم؛ وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً، وما لا يجوز أن يسمى بصدق ولا كذب؛ وحتى يعرف اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أي معنى ينقلب ذلك الاسم؛ وكذلك معرفة المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل المحال؛ وهل يسمى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المحال أم الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفظع⁽¹⁾، والكذب أشنع؛ وحتى يعرف المثل والبديع، والوحي والكناية، وفصل ما بين الخطأ والهذر، والمقصود والمبسوط والاختصار؛ وحتى يعرف أبنية الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، والذي ذكرنا قليلاً من كثير. ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين. والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذ كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال. وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود

(1) في الأصل: «أفطع».

الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ وقد علمنا أنَّ المقدمات لابدَّ أن تكون اضطرارية، ولا بدَّ أن تكون مرتبةً، وكالخط الممدود^(١). وابنُ البطريق وابنُ قرّة^(٢) لا يفهمان هذا موصوفاً منزلاً، ومرتباً مفصلاً، من معلّم رفيق، ومن حاذق طبّ؛ فكيف بكتابٍ قد تداولته اللغات واختلاف الأقاليم، وأجناسُ خطوطِ الملل والأمم؟!

ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربية، ثم كان العربيُّ مقصراً عن مقدار بلاغة اليوناني، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يجد اليونانيُّ الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته في لسان العربية بُدّاً من الاعتفار والتجاوز، ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين؛ وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ، ثم ينسخُ له من تلك النسخة مَنْ يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثم لا ينقص منه، ثم يعارض بذلك مَنْ يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط الذي لا يجده في نسخته.

(مشقة تصحيح الكتب)

ولربّما أراد مؤلّف الكتاب أن يصلح تصحيحاً، أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات^(٣) من حرّ اللفظ وشريف المعاني؛ أيسر عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردّه إلى موضعه من اتصال الكلام؛ فكيف يُطبق ذلك المعارض المستأجر، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب! وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين: قد أصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحاً. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسانٍ آخر، فيسير فيه الوراقُ الثاني سيرة الوراق الأول؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأغراض المفسدة^(٤)، حتّى يصير غلطاً صرفاً، وكذباً مضمناً، فما ظنكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتاب متقادِم الميلاد، دُهرِي الصنعة!

(بين أنصار الكتب وأنصار الشعر)

قالوا: فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفّ؟

قال الآخر: إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزلتم، أليس معلوماً أنَّ شيئاً هذه بقيّته وفضلته وسؤره وضبابته، وهذا مظهرُ حاله على شدة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفساد وتداولِ النقص، حريٌّ بالتعظيم، وتحقيقُ التفضيل على البنيان^(٥)، والتقديم على شعرٍ

(١) في ط: «كالخط المندور» وقد كتبت بدله ما في ل.

(٢) في الأصل: «وأبو قرّة».

(٣) في ط: «أنشأ عشر ورقات» وتصحيحه من «ل».

(٤) في «ط»: «الأغراض المفسدة» وتوجيهه من «ل».

(٥) في «ط»: «على البنيان» وإنما هو «البنيان» كما يفهم من سياق الكلام، وكما في «ل».

إن هو حَوْلُ تَهَاوَتْ، ونفعه مقصورٌ على أهله، وهو يُعَدُّ من الأدب المقصور، وليس بالمبسوط؛ ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقة بيّنة⁽¹⁾، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات⁽²⁾ في هذه الكتبِ دونَ الأشعار، وهانها كتبٌ هي بيّنًا وبينكم، مثل كتاب أقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي⁽³⁾، ممّا تولاه الحجاج⁽⁴⁾، وكتبٌ كثيرةٌ لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيّرة⁽⁵⁾، فالباقى كافٍ شافٍ، والغائب منها كان تكميلًا لتسلُّطِ الطبائع الكاملة. فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول⁽⁶⁾.

وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطب، والمنطق، والهندسة، ومعرفة اللُّحون، والفلاحة، والتجارة، وأبواب الأصباغ، والعطر، والأطعمة، والآلات. وهم أتوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الاصطربانات، والقرسطونات⁽⁷⁾ وآلات معرفة الساعات، وصناعة الزجاج والفُسيفساء⁽⁸⁾، والأسرنج⁽⁹⁾ والزنجفور⁽¹⁰⁾ واللازورد⁽¹¹⁾ والأشربة، والأنبجيات⁽¹²⁾، والأيارجات⁽¹³⁾ ولكم المينا، والنشادر والشَّبه⁽¹⁴⁾ وتعليق الحيطان

(1) في «ط»: «وليست بحقيقته بيّنة» وصوابه في «ل».

(2) في «ط»: «فهي جودات» وأصلحت تشويه العبارة من «ل».

(3) في «ط»: «المجسطي» بالشين، وإنما هو «المجسطي» كتاب بطليموس، وقد قام بترجمته كثير من النقلة قالوا: وصحح المأمون كثيرًا من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية، فكان أرساد علمائه أول أرساد في الإسلام، وسموا مجموع أرسادهم «الرصد المأموني».

(4) هو الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي، كما في إخبار العلماء للقفطي 46-47.

(5) في الأصل: «ومفسرة». (6) في ط: «بناء القول» وصحته في «ل».

(7) هذا اللفظ وجدته في رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك (هامش الكامل 1: 262) قال: «وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات. . الخ ووجدته في كتاب التبريع والتدوير له أيضًا ص 138 طبع الساسي قال: «وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ووزن جميعه ثلاثون رطلًا زاد ذلك أو نقص» ويفهم من قرنه بكلمة «القبان» وهي الميزان ومن وصفه في العبارة الثانية، أنه ضرب من الموازين، وهو الذي يسميه العامة عندنا في مصر «القباني». وانظر النزهة المبهجة لداود 1: 15.

(8) الفسيفساء: ألوان من الخرز تركب في حيطان البيوت من داخل.

(9) قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم 149: الأسرنج: أسرب يحرق، ويشب عليه النار حتى يحمر.

(10) رسمت هذه الكلمة في القاموس وفي مفاتيح العلوم برسم «الزنجفر» جاء في الأول: صبغ معروف. . وجاء في الثاني: أنه يتخذ من الزئبق والكبريت، يجمعان في قوارير، ويوقد عليها، فيصير زنجفرًا. قال الخوارزمي: والوزن أن تأخذ واحدًا من زئبق، وواحدًا من كبريت.

(11) الخوارزمي 148: هو حجر فيه عيون براقة يتخذ منها خرز.

(12) الأنبيجات: جمع أنبج، قال الخليل: حمل شجرة بالهند، يربب بالعسل على خلفة الخوخ، محرف الرأس، في جوفه نواة كنواة الخوخ. وقال الخوارزمي في مفاتيح العلوم 104: فمن هنا تسمى الأنبيجات، وهي التي ربيت بالعسل من الأترج والإهليلج، ونحو ذلك. اهـ وهي في ط «الأنبيجات» بالثاء وهو تصحيف.

(13) في الأصل «الافشارجات» وإنما هي «الأيارجات» قال في القاموس: والأيارجة بالكسر وفتح الراء، معجون مسهل معروف، جمعه أيارج معرب إياره، وتفسيره الدواء الإلهي. وانظر مفاتيح العلوم للخوارزمي 104 س 4.

(14) في ط: «الشب» وتصحيحه من ل. والشبه والشبهان محركتين: النحاس الأصفر. هذا قول الفيروزبادي. وانظر التفسير الآتي.

والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم. ولهم صبُّ الزرّج، واستخراج الشَّاسْتِج⁽¹⁾، وتعليق الخيش، واتّخاذ الجمّازات⁽²⁾، وعمل الحَرَاقَات⁽³⁾، واستخراج شراب الداذي⁽⁴⁾ وعمل الدبابات⁽⁵⁾.

(ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل)

وكان الحجاجُ أوّل مَنْ أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمّرة غير المخرّزة، والمدهونة والمسطّحة، وغير ذوات الجؤجؤ؛ وكان أوّل مَنْ عمل المحامل، ولذا قال بعضُ رُجّاز الأكرياء⁽⁶⁾:

أَوَّلَ خَلْقٍ عَمِلَ الْمَحَامِلَا أَخْرَاهُ رَبِّي عَاجِلًا وَأَجَلًا
وقال آخر:

شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهَنْ بِيضُ مَحَامِلُ لِقْدَهَا نَقِيضُ⁽⁷⁾
وقال آخر⁽⁸⁾:

شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهَنْ بِيضُ مَحَامِلُ فِيهَا رِجَالُ قَبْضُ
لو يتكون سنة لم يغرضوا

وقال القوم: لولا ما عرّفوكم من أبواب الحُمْلانات⁽⁹⁾ لم تعرفوا صنعة الشَّبّه، ولولا غُضارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغُضار. على أَنَّ الذي عَمِلْتُمْ⁽¹⁰⁾ ظاهرٌ فيه التوليد، منقوصُ المنفعة عن تمام الصِّيني، وعلى أَنَّ الشَّبّه لم تستخرجوه، وإنّما ذلك من الأمور التي وقعت اتفاقاً، لسقوط الناطف⁽¹¹⁾، من يد الأجير في الصُّفَر الذائب، فخيّفتكم إفساده، فلمّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَمِلْتُمْ⁽¹²⁾ في الزيادة والنقصان، وكذلك جميع ما تهياً لكم، ولستم تخرجون في ذلك من أحدٍ أمرين: إمّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلك تهياً لكم من طريق الاتفاق!!

(1) في ط: «النستاستج» وهو تحريف ما في ل. قال في القاموس «والنشا وقد يمد: النشاستج معرب حذف شطره» والنشا معروف.

(2) سيفسرها الجاحظ قريباً.

(3) الحراقات: سفن فيها مرامي نيران، يرمى بها العدو.

(4) قال الفيروزبادي: الداذي: شراب للفساق.

(5) في ل «الزرياب» وهو الذهب أو ماؤه معرب. وأما الدبابات فجمع دبابة، قالوا: إنها آلة تتخذ للحرب، فتدفع في أصل الحصن فيتقبونه وهم في جوفها.

(6) مثل هذا الكلام في البيان 2: 303.

(7) الرجز وسابقه في البيان 2: 304.

(8) هو رجل من فقيم، كما في اللسان (فرض).

(9) في القاموس: الحملان في اصطلاح الصاغة: ما يحمل على الدراهم من الغش.

(10) في ط: «علمتم» وهو تحريف.

(11) الناطف: ضرب من الحلوى. انظر حواشي 3: 201.

(12) في ط: «علمتم».

(الجمازات)

وقد علمتم أنَّ أوَّلَ شَأْنِ الْجَمَازَاتِ، أَنَّ أُمَّ جَعْفَرٍ أَمَرَتْ الرَّحَّالِينَ أَنْ يَزِيدُوا فِي سِيرِ النَجِيبة⁽¹⁾ التي كانت عليها، وخافت فوتَ الرشيد، فلما حُرِّكَتْ مَشَتْ ضَرْوباً مِنْ المَشْيِ، وصنوفاً مِنْ السَّيْرِ⁽²⁾، فَجَمَزَتْ فِي خِلَالِ ذَلِكَ، وَوَافَقَتْ امْرَأَةً تَحْسِنُ الْاِخْتِيَارَ، وَتَفْهَمُ الْأُمُورَ، فَوَجَدَتْ لِذَلِكَ الْجَمَزِ رَاحَةً، وَمَعَ الرَّاحَةِ لَذَّةٌ، فَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يَسِيرُوا بِهَا فِي تِلْكَ السَّيْرَةِ، فَمَا زَالُوا يَقْرَبُونَ وَيَبْعُدُونَ، وَيَخْطِئُونَ وَيَصِيبُونَ، وَهِيَ فِي كُلِّ ذَلِكَ تَصُوبُّهُمْ وَتَخْطِئُهُمْ عَلَى قَدَرِ مَا عَرَفَتْ، حَتَّى شَدَّوْا مِنْ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مَا شَدَّوْا، ثُمَّ إِنَّهَا فَرَّغَتْهُمْ لِإِتِمَامِ ذَلِكَ حَتَّى تَمَّ وَاسْتَوَى وَكَذَلِكَ لَا يَخْلُو جَمِيعُ أَمْرِكُمْ، مِنْ أَنْ يَكُونَ اتِّفَاقاً، أَوْ اتِّبَاعاً أَثَرٌ.

(الترغيب في اصطناع الكتاب)

ثُمَّ رَجَعَ بِنَا الْقَوْلِ إِلَى التَّرْغِيبِ فِي اصْطِنَاعِ الْكِتَابِ، وَالِاحْتِجَاجِ عَلَى مَنْ زَرَى⁽³⁾ عَلَى وَاضِعِ الْكِتَابِ، فَأَقُولُ: إِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَغَاوِي النَّاسِ وَمَرَاشِدِهِمْ، وَمُضَارَّهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، أَنْ يُحْتَمَلَ ثِقُلُ مَثُونَتِهِمْ فِي تَقْوِيمِهِمْ، وَأَنْ يُتَوَخَّى إِرْشَادُهُمْ وَإِنْ جَهِلُوا فَضْلَ مَا يُسَدِّى إِلَيْهِمْ؛ فَلَنْ يُصَانَ الْعِلْمُ بِمِثْلِ بَذْلِهِ، وَلَنْ تُسْتَبْقَى النِّعْمَةُ فِيهِ بِمِثْلِ نَشْرِهِ، عَلَى أَنَّ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ أَبْلَغُ فِي إِرْشَادِهِمْ مِنْ تَلَاقِيهِمْ؛ إِذْ كَانَ مَعَ التَّلَاقِ يَشْتَدُّ التَّصَنُّعُ، وَيَكْثُرُ التَّظَالُّمُ، وَتُفْرَطُ الْعَصَبِيَّةُ، وَتَقْوَى الْحَمِيَّةُ؛ وَعِنْدَ الْمَوَاجَهَةِ وَالْمُقَابَلَةِ، يَشْتَدُّ حُبُّ الْغَلْبَةِ، وَشَهْوَةُ الْمَبَاهَاةِ وَالرِّيَاسَةِ، مَعَ الاسْتِحْيَاءِ مِنَ الرَّجُوعِ، وَالْأَنْفَةِ مِنَ الْخُضُوعِ؛ وَعَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ تَحْدُثُ الضَّغَائِنُ، وَيُظْهَرُ التَّبَايُنُ، وَإِذَا كَانَتْ الْقُلُوبُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ وَعَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ، امْتَنَعَتْ مِنَ التَّعَرُّفِ، وَعَمِيَتْ عَنْ مَوَاضِعِ الدَّلَالَةِ، وَلَيْسَتْ فِي الْكِتَابِ عِلَّةٌ تَمْنَعُ مِنْ دَرْكِ الْبُعْثَةِ، وَإِصَابَةِ الْحِجَّةِ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَحِّدَ بِدَرْسِهَا⁽⁴⁾، وَالْمُنْفَرِدَ بِفَهْمِ مَعَانِيهَا، لَا يَبَاهِي نَفْسَهُ وَلَا يَغَالِبُ عَقْلَهُ، وَقَدْ عَدِمَ مَنْ لَهُ يُبَاهِي وَمِنْ أَجْلِهِ يَغَالِبُ.

(الكتاب قد يفضل صاحبه)

وَالْكِتَابُ قَدْ يَفْضَلُ صَاحِبَهُ، وَيَتَقَدَّمُ مُؤَلَّفَهُ، وَيَرْجِّحُ قَلَمَهُ عَلَى لِسَانِهِ بِأُمُورٍ: مِنْهَا أَنَّ الْكِتَابَ يُقْرَأُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيُظْهَرُ مَا فِيهِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَيُوجَدُ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ، عَلَى تَفَاوُتِ مَا بَيْنَ الْأَعْصَارِ، وَتَبَاعُدِ مَا بَيْنَ الْأَمْصَارِ؛ وَذَلِكَ أَمْرٌ يَسْتَحِيلُ فِي وَاضِعِ الْكِتَابِ، وَالْمَنَازَعِ⁽⁵⁾ فِي

(1) فِي ل: «البختية» . (2) فِي ل: «وضروباً من المرفوع» .

(3) أَثْبَتَ مَا فِي ل، وَهِيَ فِي ط: «ذرى» مصحفة . . وزرى عليه كآزرى: عابه، والأول أكثر .

(4) فِي ط: «بدرسها» و«يفهم» والوجه ما كتبت من ل .

(5) فِي ط: «والمنازع» .

المسألة والجواب . ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان⁽¹⁾ مجلس صاحبه، ومبلغ صوتيه . وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره . . ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخدلت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كلّ مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم، لقد خُسّ⁽²⁾ حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة . ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا، لقلّت المعرفة، وسقطت الهمة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخطر فاسداً؛ ولكلّ الحدّ وتبلّد العقل .

(أفضل الكتب)

وأكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعاً، كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كلّ حكمة، وتعريف كلّ سيئة وحسنة . وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف، والمهارق⁽³⁾ والمصاحف . وقال الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْرَمُهُمْ﴾ [البقرة: 177] . وقال: ﴿مَّا فَرْطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 138] . ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب .

(مواصلة السير في خدمة العلم)

وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا . على أنّا وقد وجدنا من العبرة أكثر ممّا وجدوا، كما أنّ من بعدنا يجد من العبرة أكثر ممّا وجدنا . فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمتنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيّة⁽⁴⁾، وهبّت ريح العلماء، وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم؟!

وليس يجد الإنسان في كل حين إنساناً يدربه، ومقوماً يتقّفه . والصبر على إفهام الرّيب شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشدّ منه، والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمول ذكره، وأيام حداثة سنّه!! ولولا جياذ الكتب وحسنها، ومبيّنها ومختصرها، لمّا تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبّ الأدب، وأنفتحت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الحشو، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة، ومن الجهل وسوء الحال، ما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره، إلّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تسودوا» .

(1) في ط: «لا يجوزان» .

(2) في ط: «لما حسن» والعبارتان صحيحتان، ولعلّ أفضلهما ما أثبتته من ل .

(3) في ط: «المحار» وهو تحريف صوابه في ل .

(4) في ل: «حوى نجم التقيّة» وفي ط «حوى نجم التقيد» وقد أصلحت العبارتين بما ترى وخوى النجم: اختفى وذهب، وأصله من خوت الدار: تهدمت . والتقيّة: الحذر والخوف .

(كتب أبي حنيفة)

وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعدُّ فقيهاً، ولا يجعل قاضياً، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمرَّ باباه فتظنُّ أنه من بعض العمال⁽¹⁾، وبالحرّ⁽²⁾ ألا يمرَّ عليه من الأيام إلا اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان.

(وجوب العناية بتقحيح المؤلفات)

وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالمٌ بالأمور، وكلهم متفرضٌ له؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير؛ فإنَّ لابتداء الكتاب فتنةً وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعة وهذأت الحركة، وتراجعت الأخطا، وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه⁽³⁾ في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهم معنى قول الشاعر⁽⁴⁾:

إنَّ الحديث تغرُّ القوم خلوته حتَّى يلج بهم عي وإكثارُ

ويقف عند قولهم في المثل: «كلُّ مجرٍ في الخلاء يسر»⁽⁵⁾ فيخاف أن يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

(تداعي المعاني في التأليف)

وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة؟! لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار. وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة! والحفظ مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

(1) في ل: «باب بعض العمال» والعبارتان سليمتان.

(2) رسمت هذه الكلمة بالياء المشددة في المطبوعة وهو خطأ. وإنما هي «الحرا» بالألف. قال صاحب القاموس «والحرا: الخلق ومنه بالحر أن يكون ذاك، وإنه لحري بكذا وحري كغني وحر، والأولى لا تتنى ولا تجمع».

(3) في الأصل: «طبعه».

(4) هو ابن هرمة كما في رسالة الوكلاء للجاحظ 171 ساسي والبيت كذلك في البيان 1: 203 وأدب الكتاب الصولي 157، وقد رواه الصولي برواية أخرى فانظره.

(5) جاء في البيان 1: 203 «وفي المثل المضروب كل مجرٍ في الخلاء مسر، ولم يقولوا مسرور. وكل صواب». والوجه في المثل «يسر» كما هو هنا وكما في الميداني 2: 73 وانظر أصل المثل فيه.

(مقايضة بين الولد والكتاب)

واعلم أنَّ العاقل إن لم يكن بالمتَّع، فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من ولده، أنَّ يحسنَ في عينه منه المقبَّح في عين غيره، فليعلم أنَّ لفظه أقربُ نسباً منه من ابنه، وحركته أَمْسُ بهِ رَحْماً من ولده؛ لأنَّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت⁽¹⁾، ومن نفسه كانت؛ وإنَّما الولدُ كالمخطئة يتمخطها، والثَّخامة يقدفها، ولا سواءَ إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتَّى كانت منك. ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته.

(ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب)

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتَّى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السُّفلة والحشو⁽²⁾، ويحطه من غريب الأعراب ووخشي الكلام، وليس له أن يهدبه جدّاً، وينقحه ويصفيه ويروقه، حتَّى لا ينطق إلا بلبُّ اللبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وأسقط زوائده⁽³⁾، حتَّى عاد خالصاً لا شوب فيه؛ فإنَّه إن فعل ذلك، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مِراراً وتكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها. ألا ترى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب، لما فهموا أكثره، وفي كتاب أقليدس كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُنِّي، ولو سمعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعود اللفظ المنطقي⁽⁴⁾ الذي استخرج من جميع الكلام.

(قول صحار العبدي في الإيجاز، ونقده)

قال معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، لصحار العبدي⁽⁵⁾ : ما الإيجاز؟ قال : أنَّ تجيب فلا تبطى، وتقول فلا تخطى. قال معاوية : أو كذلك تقول!! قال صحار : أقلني يا أمير المؤمنين! لا تخطى ولا تبطى.

(1) في ط : «وبدأته من عين جوهره فصلت». وإصلاح العبارة وإتمامها من ل.

(2) في ط : «الحشوة» وكلاهما صحيح ومعناها: صغار الناس وأسقاطهم.

(3) في ل : «وتعرف زوائده».

(4) في ط : «وتعود للفظ المنطقي» وهو تحريف.

(5) هو صحار بن عياش - وقيل ابن عباس - بن شراحيل بن منقذ العبدي من بني عبد القيس، خطيب مفوه كان من شيعة عثمان رضي الله عنه، له صحبة وأخبار حسنة، وكان نسابة، توفي نحو سن 40 هـ. الإصابة 4036 والاشتقاق

فلو أنَّ سائلاً سألك عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطل، وبحضرتك خالد بن صفوان⁽¹⁾، لما عرّف بالبدية وعند أول وهلة، أنَّ قولك «لا تخطئ» متضمن بالقول، وقولك «لا تبطل» متضمن بالجواب، وهذا حديث كما ترى آثروه ورّضوه، ولو أن قائلًا قال لبعصنا: ما الإيجاز؟ لظننتُ أنه يقول: الاختصار.

(حقيقة الإيجاز)

والإيجاز ليس يُعنى به قلّة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار⁽²⁾ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنّما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردّد وهو يكتفى في الإفهام بشطره⁽³⁾، فما فضل عن المقدار فهو الخطل.

(استغلاق كتب أبي الحسن الأخفش)

وقلت لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدّم بعض العويص وتؤخّر بعض المفهوم؟! قال: أنا رجل لم أضع كتبني هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع⁽⁴⁾ الذي تدعوني إليه، قلت حاجتهم إليّ فيها، وإنّما كانت غاييتي المنة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنّما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكبّ ذهبت، ولكن ما بال إبراهيم النظام، وفلان وفلان، يكتبون الكتب لله بزعمهم، ثم يأخذها مثلي في موافقته⁽⁵⁾، وحسن نظره، وشدة عنايته، ولا يفهم أكثرها؟!

وأقول: لو أنَّ يوسف السمتي، كتب هذه الشروط، أيّام جلس سلمان بن ربيعة⁽⁶⁾ شهرين للقضاء، فلم يتقدّم إليه رجلان، والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفّرة، لكان ذلك خطأ ولغوًا؛ ولو كتب في دهره شروط سلمان، لكان ذلك غرارة ونقصاً، وجهلاً بالسياسة، وبما يصلح في كل دهر.

(1) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهمم التميمي المنقري، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، نشأ بالبصرة، وكان أكثر أهلها مالا، ولم يتزوج، توفي نحو سنة 115هـ.

(2) الطومار والطامور: الصحيفة، جمعه طوامير.

(3) في ط: «ولا لرداده وهو يكتفي من الإفهام بشطره» وعدلت القول من ل.

(4) بدلها في ط: «الموضع» والوجه ما أثبت من ل.

(5) في ط: «موافقته» والوجه ما في ل. والموافقة: الخصومة والجدال.

(6) هو سلمان بن ربيعة بن يزيد الباهلي الصحابي، من القادة القضاة، استقضاء عمر على الكوفة، ثم ولى غزو أرمينية في زمن عثمان رضي الله عنه، وقتل فيها سنة 30هـ.

(مواضع الإسهاب)

ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر أطلوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السَّمَّاطين في مديح الملوك أطلوا، وللاطالة موضع وليس ذلك بخطل، وللاقلال موضع وليس ذلك من عجز. ولولا أنني أتكل على أنك لا تملُّ باب القول في البعير حتَّى تخرج إلى الفيل، وفي الدَّرة⁽¹⁾ حتَّى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتَّى تخرج إلى الحيَّة، وفي الرجل حتَّى تخرج إلى المرأة، وفي الذَّبان والنحل⁽²⁾ حتَّى تخرج إلى الغُربان والعُقبان، وفي الكلْب حتَّى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتَّى تخرج إلى السبع، وفي الظلف حتَّى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتَّى تخرج إلى الخُف، وفي الخف حتَّى تخرج إلى البُرْثن، وفي البُرْثن حتَّى تخرج إلى المِخلَب، وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن جملة الكتاب⁽³⁾، وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يُملُّ، ويُعتدُّ عليّ فيه بالاطالة، لأنَّه وإن كان كتاباً واحداً فإنَّه كتب كثيرة، وكلُّ مُصحفٍ منها فهو أمٌّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطُل عليه الباب الأوَّل حتَّى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجم على الثالث؛ فهو أبداً مستفيدٌ ومستطرف، وبعضه يكون جَماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرج من آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد⁽⁴⁾، ثم لا يترك هذا الباب؛ ولعلَّه أن يكون أثقل، والملا ل إليه أسرع، حتَّى يفضي به إلى مزج وفكاهة، وإلى سُخفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سيرة الحكماء، وآداب العلماء.

(مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم)

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العرب والأعزَّاب، أخرج الكلام مُخرَج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام. فأصوبُ العمل اتِّباع آثار العلماء، والاحتذاء على مثال القدماء، والأخذ بما عليه الجماعة.

(أقوال لبعض الشعراء في الكتب)

قال ابن يسير⁽⁵⁾ في صفة الكتب، في كلمة له:

أقبلتُ أهرُب لا آلو مُباعدةً في الأرض منهم فلم يُخصِنِّي الهربُ

(1) في ط: «الدرة» بالدال وإنما هي «الذرة» بالذال كما في ل. والذر: ضرب من النمل صغار.

(2) كذا في ل. . وفي ط: «وفي الذباب» فقط.

(3) في ط: «فرايت أنه جملة الكتاب».

(4) في الأصل: «شداد» والمقياس ينعت بالسداد لا بالشدة.

(5) تقدمت ترجمته ص 69.

بقصر أوس فما والت خنادقه
 فأئماً موئلاً منها اعتصمت به
 لما رأيت بأني لست معجزهم
 فصرت في البيت مسروراً بهم جذلاً
 فرداً يحدثني الموتى وتنطق لي
 هم مؤنسون وألف غنيث بهم
 لله من جلساء لا جليسهم
 لا بادرات الأذى يخشى رفيقهم
 أبقوا لنا حكماً تبقى منافعها
 فأئماً أدب منهم مددت يدي
 إن شئت من محكم الآثار يرفعها
 أو شئت من عرب علماً بأولهم
 أو شئت من سير الأملاك من عجم
 حتى كأنني قد شاهدت عصرهم
 يا قائلاً قصرت في العلم نهيتهم⁽⁷⁾
 إن الأوائل قد بانوا بعلمهم
 ما مات منا امرؤ أبقى لنا أدباً
 وقال أبو وجزة⁽¹⁰⁾ وهو يصف صحيفة كتب له فيها بسيتين وسقاً:

ولا النواويس فالماخور فالحرب⁽¹⁾
 فمن ورائي حثيثاً منهم الطلب
 فوتاً ولا هرباً، قربت أحتجب
 جاز البراءة لا شكوى ولا شغب⁽²⁾
 عن علم ما غاب عني منهم الكتب
 فليس لي في أنيس غيرهم أرب
 ولا عشيرهم للسوء مرتقب
 ولا يلاقيه منهم منطق ذرب⁽³⁾
 أخرى الليالي على الأيام وانشعوا⁽⁴⁾
 إليه فهو قريب من يدي كتب⁽⁵⁾
 إلى النبي ثقات خيرة نجب
 في الجاهلية أنبتني به العرب⁽⁶⁾
 تنبي وتخير كيف الرأي والأدب
 وقد مضت دونهم من دهرهم حقب
 أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسب
 خلاف قولك قد بانوا وقد ذهبوا⁽⁸⁾
 نكون منه إذا ما مات نكتسب⁽⁹⁾

- (1) يتدئ البيت في «ط» بكلمة: «فقصر» وينتهي بكلمة «والخرب» وقد أبدلتها بما في ل. وقصر أوس، كان بالبصرة، منسوب إلى أوس بن ثعلبة، أحد الولاة الأمويين.
- (2) في الأصول «به جذلاً» والصواب «بهم». وابن يسير هنا قد جعل للكتب ضمير جماعة العقلاء كما في الأبيات الأولى. وأما «جار البراءة» فهي ما صح لي من مقارنة ما في الأصول فهي في ط: «جار البوأة» وفي س: «جار البوأة» وفي ل «حاز البراءة».
- (3) منطق ذرب: كلام حاد مزعج.
- (4) في ط: «والشعب» وصوابه في ل.
- (5) في ط: «كتب» وهو تصحيف ما في ل. وكتب: قريب.
- (6) في ط: «بها العرب» والضمير عائد إلى العلم.
- (7) النهيمة والنهي: العقل. وقد تستعمل النهي جمعاً للنهيمة.
- (8) كذا في ل. وفي ط:

إن الأوائل قد بانوا بمعلمهم
 وهذا البيت مقول القول في البيت السابق، والبيت الآتي رد على قول هذا القائل.

- (9) في ط: «ما مات مثل امرئ» والوجه ما في ل.
- (10) في ط: «أبو وجزة» بالراء وإنما هو بالزاي، واسمه يزيد بن عبيد، من بني سعد بن بكر بن هوازن، أظآر النبي ﷺ، وكان شاعراً مجيداً، وهو أول من شُبَّ بعجوز. كذا قال ابن قتيبة في ترجمته في الشعراء 684، توفي أبو وجزة بالمدينة سنة 130هـ.

رَاحَتْ بِسِتَيْنَ وَسَقَا فِي حَقِيبَتِهَا مَا حُمِلَتْ حِمْلَهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا
مَا إِنْ رَأَيْتَ قُلُوصاً قَبْلَهَا حَمَلَتْ سِتَيْنَ وَسَقَا وَمَا جَابَتْ بِهِ بِلْدَا⁽¹⁾
وقال الراجز :

تَعَلَّمَنْ أَنَّ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ تَبَقَى وَيُفْنِي حَدَثَ الدَّهْرِ الْعَنَمَ⁽²⁾
يقول : كتابك الذي تكتبه عليّ يبقى فتأخذني به ، وتذهب غمّي فيما يذهب .

(نشر الأخبار في العراق)

وممّا يدلّ على نفع الكتاب ، أنّه لولا الكتاب لم يَجْزُ أن يعلم أهل الرِّقَّة والموصل وبغداد وواسط ، ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم ، حتّى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء .

[وذلك مشهور في الحمام الهدى ، إذا جُعِلَتْ بُرْدَا⁽³⁾ ، قال الله جلّ وعزّ - وذكر سليمان وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله - فقال : ﴿ وَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ [النمل : 20] إلى قوله : ﴿ أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي إِسْطَظْنِي مُبِين ﴾ [النمل : 21] فلم يلبث أن قال الهُدْهُدُ : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِين ﴾ [النمل : 22] قال سليمان : ﴿ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا فَالْقَهْ إِلَيْهِمْ ﴾ [النمل : 28] وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها ، من عفريت ، ومن بعض من عنده علم من الكتاب ، فرأى أنّ الكتاب أبهى وأنبل ، وأكرم وأفخم من الرسالة عن ظهر لسان ، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ بَيَّأَتْهَا الْمَلَكُوتُ إِلَيَّ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيم ﴾ [النمل : 29] . فهذا مما يدلّ على قدر اختيار الكتب .

(استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا)

وقد يريد بعض الجِلَّة الكبار ، وبعض الأدباء والحكماء ، أن يدعو بعض من يجري مجراه في سلطان أو أدب ، إلى مأذبة أو ندام⁽⁴⁾ ، أو خروج إلى متنزه ، أو بعض ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته ومعناه ، لأصاب من يحسن الأداء ، ويصدق في الإبلاغ ، فيرى أنّ الكتاب في ذلك أسرى وأنبه وأبلغ .

(1) في ط : « جاءت » وصواب الرواية ما أثبتته من ل ، س ، ومن الكامل 107 ليسبك ، وقد زاد المبرد بيتاً قبل الأول ، وآخر بعد الثاني . . قال المبرد في شرح البيت الأول : « إنما أراد ما يوجب ستين وسقاً ، لا أن الناقة حملت ستين وسقاً » . وحديث الشعر في الكامل ، ويفهم منه أن أبا وجزة امتدح آل الزبير ، فكتبوا إليه بستين وسقاً من تمر وقالوا : هي لك عندنا في كل سنة .

(2) في ط : « تعلمي أن » وصوابه في ل .

(3) جمع بريد . والكلام من مبدأ هذه الفقرة إلى ص 96 ساقط من جميع النسخ ، وأثبتته من ل .

(4) مصدر نادمه ، بمعنى جالسه على الشراب . والندام أيضاً ، جمع للنديم . ولكنه ليس مراداً هنا .

ولو شاء النبي ﷺ، ألا يكتب الكتاب إلى كسرى، وقيصر، والنجاشي، والمقوقس، وإلى ابني الجندى⁽¹⁾، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هودّة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء - لفعل، ولوجد المبلّغ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنه ﷺ، عليم أن الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغ في تعظيم ما حواه الكتاب. ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبّل. وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتّى يخزّمه ويختمه، وربما لم يرض بذلك حتّى يُعنونه ويعظمه. قال الله جلّ وعزّ: ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 36-37] فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدار النفع، والمصلحة في الكتب.

(نظام التورث عند فلاسفة اليونانية)

قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العين، وتورث البنين الدين: وكانت تصل العجز بالكفاية، والمثونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال، إلّا ما يكون عوناً له على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم، وطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وليرى أنّه العدة والعناد، وأنّه أكرم مستفاد.

وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلّا ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدّ من الفضول؛ فإنّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساد، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنّ المال لم يزل تابعاً للحال. وقد لا يتبع الحال المال. وصاحب الفضول بعرض فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع القوة، فما ظنكم بها مع غرارة⁽²⁾ الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وكانوا يقولون: خير ميراث ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجل لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحذوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه. وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة، المشتملة على ينايع العلم، والجامعة لكنوز الأدب. ومعرفة الصناعات. وفوائد الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموداً، والعزّ راسخاً، والأصل فسيحاً⁽³⁾.

(1) الجندى: اسم ملك عمان. وفي الأصل «بني الجندى» والصواب ما أثبتته عن الإصابة 1305 والسيرة 971، وابنا الجندى هما جيفر - بوزن جعفر - وعياد (أبو عباد).

(2) الغرارة: الغفلة وقلة التجريب. وفي الأصل الغزارة وهو تحريف.

(3) كذا.

وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه. وتنفي الخَبْث عنه، وتفيدك العلم، وتصادق بينك وبين الحجة، وتعودك الأخذ بالثقة، وتجلب الحال، وتكسب المال.

(وراثه الكتب)

وراثه الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حق السلطان. وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورث مذكوراً في الحكماء ومنوها باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبة نامية، ما كانت تلك الفوائد قائمة؛ ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من⁽¹⁾ ورثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يغفل ولا يستغل، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة⁽²⁾، ولا إلى سقى، ولا إلى إسجال بإيغار⁽³⁾، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكار⁽⁴⁾، ولا إلى أن تُثار⁽⁵⁾، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خُرج، وسواء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواء دُفِعَ إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلا على دفع السبب، لم يجب عليه إحضار المسبب. فكُتِبَ الآباء، تحييب للأحياء، ومحيي لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب⁽⁶⁾ جامعاً بارعاً، وكانت موارثه كتباً بارعة وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه، ويرى تركه خطأ، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهجا قد وطئ له، وأجدر أن يسري إليه عرق من نجله، وسقى من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب⁽⁷⁾، النظر في الكتب، فلا يأتي عليه من الأيام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة. وإنما تُفسد الكفاية من [له]⁽⁸⁾ تمت آلاته⁽⁹⁾، وتوافت إليه أسبابه. فأما الحدّث الغرير، والمنقوص الفقير، فخير موارثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب.

(1) في الأصل: «متى» والوجه ما أثبت.

(2) الإثارة هنا بمعنى الحرث.

(3) أسجل له الأمر: أطلقه. وأوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج.

(4) الأكار هنا بمعنى الخير من المخابرة (والمخابرة أن يزرع الرجل أرض غيره، على أن يكون له النصف ونحوه مما تغل الأرض).

(5) قد سبق قوله: «لا تحتاج إلى إثارة» فهو تكرر، أو في الكلام تحريف.

(6) في الأصل: «الأديب».

(7) في الأصل: «الكتب».

(8) زیدت هذه الكلمة في الأصل بخط مخالف.

(9) في الأصل: «آلاته» وإنما هي «آلاته» بمعنى أسبابه.

فخير ميراثٍ ورث كتبٌ وعلم، وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرق، ويبصر ولا يُعمى، ويُعطى ولا يأخذ، ويوجد بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق، والركاز^(١) الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك حجة، ولا على الجار فيه مئونة.

(قول ديمقراط في تأليف كتب العلم)

وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكل كتاب علم وضعه أحد من الحكماء. ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه همة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنسب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى (أفوريسموا)، تفسيره كتاب الفصول.

(مقالة في شأن الكلب)

وقولك: وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلة خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلها على استسقاطه، واستسفالها، ومع ضربهم المثل في ذلك كله به، ومع حاله التي يعرف بها، من العجز عن صولة السباع واقتدارها، وعن^(٢) تمنعها وتشرفها، وتوحيشها وقلة إسماعها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيا لِمعايشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة، ولأن الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلق المركب والطبائع الملققة، والأخلاق المجتلبة، كالبعول المتلون في أخلاقه، الكثير العيوب المتولدة عن مزاجه.

وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاق المتفاوتة^(٣)، والعناصر المتباعدة، كالراعي من الحمام، الذي ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورشان، وقوة جناحه وشدة عصبه، وحسن صوته، وشحو^(٤) حلقه. وشكل لحونه، وشدة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب. وفي الراعي أنه مسرول مثقل، وحدث له عظم بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه.

(١) الركاز بمعنى الكنز.

(٢) في الأصل: «ومن».

(٣) في الأصل: «المتفاوتة».

(٤) الشحو: الاتساع. وفي الأصل «وشجى» وليس له وجه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتمَّ لشدتها؛ فمع البغل من الشَّبَق والنَّعْظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من السَّوَس⁽¹⁾، وطلب السَّفاد، ما ليس مع أمِّها. وذلك كلُّه قدح في القوَّة، ونقص في البنية⁽²⁾، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبيههما، ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبيه، وأصبر على الأثقال من أبيه. أو كابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السَّمع، وأكثر عيوباً من العسبار، ومن كلِّ خلق خلق إذا تركب من ضِدِّ، ومن كلِّ شجرة مُطْعَمَةٌ بخلاف. وليس يعتري مثل ذلك الخِلاسي من الدجاج، ولا الورداني⁽³⁾ من الحمام. وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكلِّ رقة عرُضت للحيوان، فعلى قدر جنسه. وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجز والعيب. وزعم الأصمعي، أنه لم يسبق الحلبه فرسٌ أهضم قط.

وقال محمد بن سلام: لم يسبق الحلبه أبلق قط ولا بلقاء⁽⁴⁾. والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية⁽⁵⁾، إنما هي للمصمَّنة من الخضر⁽⁶⁾.

(الشَّيات في الحيوان ضعف ونقص)

وزعموا أنَّ الشَّيات كُلُّها ضعف ونقص - والشَّية: كلُّ لون دخل على لون - وقال الله جلَّ وعز: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيعَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71].

(ابن المذكرة من المؤنث)

وزعم عثمان بن الحكم⁽⁷⁾ أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يطمع في علاجه طبيب، وأنه رأى في دور ثقيف، فتَّى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يومٌ، إلَّا وهم يتحدثون عنه بشيءٍ، يصغر في جنبه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسب إليه! وزعمت أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى، الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لمَّا قُطِع منه ما صار به الذَّكر فحلاً، خرج من حدِّ كمال الذَّكر بفقدان الذَّكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقية الجوهرية.

(1) يقال سوست الدابة سوساً، بمعنى اغتلمت، كما في كتاب البغال للجاحظ ص 320. وفي الأصل: «السَّوَس» تصحيف.

(2) في الأصل: «في للبنية».

(3) الدميري: طائر متولد بين الورشان والحمام، وله غرابة لون.

(4) انظر الحيوان 5: 113.

(6) المصمَّنة: التي لا يخالط لونها لون آخر.

(7) هو عثمان بن الحكم بن صخر الثقفي، له خبران في الأغاني (9: 23، 17: 17).

وَرَعَمَتْ أَنَّهُ يَصِيرُ كَالنَّبِيدِ الَّذِي يَفْسِدُهُ إِفْرَاطُ الْحَرِّ، فَيُخْرِجُهُ مِنْ حَدِّ الْخَلِّ، وَلَا يَدْخُلُهُ فِي حَدِّ النَّبِيدِ. وَقَالَ مُرْدَاسُ بْنُ خَذَامٍ ⁽¹⁾:

سَقَيْنَا عِقَالًا بِالنَّبِيدِ ⁽²⁾ شَرِبَهُ فَمَالَتْ بُلْبُ الْكَاهِلِيِّ عِقَالَ
فَقُلْتُ: اصْطَبِخْهَا يَا عِقَالَ فَإِنَّمَا هِيَ الْخَمْرُ خَيَّلْنَا لَهَا بِخَيَالِ
رَمَيْتُ بِأُمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَلَمْ يَنْتَعَشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ
فَجَعَلَ الْخَمْرُ أُمَّ الْخَلِّ قَدْ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا. وَقَدْ يَتَوَلَّدُ عَنِ الْخَلِّ - إِذَا كَانَ خَمْرًا مَرَّةً - الْخَمْرُ.
وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ ⁽³⁾:

هَلَّا وَأَنْتَ بِمَاءٍ وَجْهِكَ تُشْتَهَى رَوْدَ الشَّبَابِ قَلِيلَ شَعْرِ الْعَارِضِ!
فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لِحْيَةً ذَهَبَتْ بِمِلْحِكَ مِثْلَ كَفِّ الْقَابِضِ
مِثْلَ السَّلَافَةِ عَادَ خَمْرُ عَصِيرِهَا بَعْدَ اللَّذَازَةِ خُلِّ خَمْرٍ حَامِضٍ
وَيَصِيرُ أَيْضًا كَالشَّعْرِ الْوَسْطِ، وَالْغَنَاءِ الْوَسْطِ، وَالنَّادِرَةِ الْفَاتِرَةِ، الَّتِي لَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْحَرِّ
إِلَى الْبَرْدِ فَتَضْحَكُ السَّنُّ، وَلَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَرْدِ إِلَى الْحَرِّ فَتَضْحَكُ السَّنُّ ⁽⁴⁾.

باب ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف ما كان قبل الخصاء

قَالُوا: كُلُّ ذِي رِيحٍ مُنْتَنِةٍ، وَكُلُّ ذِي دَفْرِ وَصُنَانٍ كَرِيهِ الْمَشَمَّةِ ⁽⁵⁾، كَالنَّسْرِ وَمَا أَشْبَهَهُ، فَإِنَّهُ مَتَى خُصِيَ نَقَصَ نَتْنُهُ وَذَهَبَ صُنَانُهُ، غَيْرَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ الْخَصِيَّ يَكُونُ أَنْتَنَ، وَصُنَانُهُ أَحَدًا، وَيَعْمُ أَيْضًا خُبْتُ الْعَرَقِ سَائِرَ جَسَدِهِ، حَتَّى لَتُوجَدَ لِأَجْسَادِهِمْ رَائِحَةٌ لَا تَكُونُ لغيرِهِمْ، فَهَذَا هَذَا. وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ يُخَصِّي فَإِنَّ عَظْمَهُ يَذِقُ، فَإِذَا دَقَّ عَظْمُهُ اسْتَرَخَى لِحْمَهُ، وَتَبَرَّأَ مِنْ عَظْمِهِ، وَعَادَ رَخْصًا رَطْبًا، بَعْدَ أَنْ كَانَ عَصِلاً ⁽⁶⁾ صُلْبًا، وَالْإِنْسَانُ إِذَا خُصِيَ طَالَ عَظْمُهُ وَعَرُضَ، فَخَالَفَ أَيْضًا جَمِيعَ الْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَتَعْرُضُ لِلْخَصِيَّانِ أَيْضًا طُولُ أَقْدَامٍ، وَاعْوِجَاجُ فِي أَصَابِعِ الْيَدِ، وَالتَّوَاءُ فِي أَصَابِعِ

(1) فِي الْأَغَانِي (10: 87) جَذَامٌ. وَفِي ثَمَارِ الْقُلُوبِ 207: «جَزَامٌ» وَانْظُرْ قِصَّةَ الشَّعْرِ فِي الْمَخْصَصِ 13: 189 وَالْمُؤْتَلَفِ وَالْمَخْتَلَفِ 109 وَمَعْجَمُ الْمَرْزَبَانِيِّ 370.

(2) التَّوْيَةُ: مَوْضِعُ الْكَوْفَةِ أَوْ قَرِيبُ مَنِهَا. وَانْظُرْ نِسْبَةَ الْبَيْتِ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ.

(3) سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ، هُوَ أَبُو عُثْمَانَ مَوْلَى بَنِي سَامَةَ بْنِ لُؤْيٍ، شَاعِرٌ مَطْبُوعٌ، أَكْثَرُ شَعْرِهِ فِي الْغَزْلِ وَالتَّشْبِيهِ بِالْمَذْكُورِ، وَكَانَ مِنْ كِتَابِ الْبَرَامِكَةِ، مُتَقَدِّمًا عَنْدهُمْ، قَالُوا: وَكَانَ ذَا فَجُورٍ وَمَجُونٍ، ثُمَّ تَابَ وَأَقْلَعَ، وَكَانَتْ وَفَاتُهُ فِي أَيَّامِ الْمَأْمُونِ. انْظُرِ الْأَغَانِي 21: 69-72 وَفَهْرَسُ ابْنِ النَّدِيمِ 178، 236 مِصْرَ.

(4) هَذِهِ نِهَآيَةُ السَّقْطِ الَّذِي ابْتَدَأَ مِنْ ص 91.

(5) فِي ط: «وَقِيلَ ذِي دَفْرِ وَصُنَانٍ وَكَرِيهِ الْمَشَمَّةِ» وَهُوَ كَلَامٌ مُحَرَّفٌ.

(6) فِي ل: «عَصَلًا» وَالْوَجْهُ مَا كَتَبَتْ مِنْ ط.

الرَّجُل، وذلك مِنْ أَوَّل طعنهم في السنِّ، وتعرض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة^(١) والبضاضة وملاسة الجلد، وصفاء اللون ورفقته، وكثرة الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخدُّد^(٢)، وإلى الهُزال، وسوء الحال. فهذا الباب يعرض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة^(٣)، مِنْ أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوف تلمع في لونه^(٤)، وكأنَّه مِرْآة صينيَّة، وكأنَّه وذيلة مجلَّوة، وكأنَّه جُمَارَة رَطْبَة، وكأنَّه قضيبُ فِصَّةٍ قد مَسَّه ذهب، وكأنَّ في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْثَاتٍ^(٥) سيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خَصْبٍ، وفي عيش رَغْدٍ، وفي فراغ بالٍ، وقَلَّةِ نَصَبٍ.

(من طرائف عبد الأعلى القاصِّ)

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصِّ، قوله في الخصي، وكان لغلبة السلامة عليه يُتَوَهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ذكر الفقير مرة في قصصه فقال: الفقير مرقته سُلْفَة. ورداؤه عِلْقَة، وجَرَدَتِه فِلْقَة، وسمكته شِلْقَة^(٦)، [وإزاره خرقة].

قالوا: ثم ذكر الخصيَّ فقال: إذا قُطِعَت خُصِيَّتُه، قَوِيَتْ شَهْوَتُه وَسُخُنَتْ مَعِدَتُه، وَلَانَتْ جِلْدَتُه، وانجردت شُعْرَتُه، وَاتَّسَعَتْ فُفْحَتُه، وَكَثُرَتْ دَمَعَتُه!! وقالوا، الخصيُّ لا يَصْلَعُ كما لا تَصْلَعُ المرأة، وإذا قطع العضو الذي كان به فحلاً تاماً، أخرجته ذلك من أَكْثَرِ معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجته من ذلك الكمال، صَيَّرَ كالبغل الذي ليس هو حماراً، ولا فرساً، وتصيِّرَ طباعه مقسومةً على طباع الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُصْ له الخلق ولم يَصْفُ، حتَّى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وربما خرجت النتيجة وما يولده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البغلِ عمرَ أبويه، وكذلك ما عدنا في صدر هذا الكلام^(٧).

(١) في ل: «والانقلاب من حد الرطوبة».

(٢) في الأصل: «التحدد» وإنما هو «التخدد» بمعنى التقبض.

(٣) في ط: «ويعرض أيضاً لبنات الأكرة» وتصحيحه من ل.

(٤) في مفاخرة الجوارى والغلمان: «تلمع في وجهه».

(٥) النسأة بالضم والنسيئة بمعنى النظرة - بكسر الظاء - وتصغر النسأة وتجمع، فتكون نسيئات، والمراد بها الوقت القليل.

(٦) (السلف): ما يتعلل به قبل الغداء. ويسمى العامة اليوم «تصيرة». . وأما (العلاقة) فهو قميص بلا كمين، أو ثوب يجاب ولا يخاط جانباه، تلبسه الجارية وهو إلى الحجرة. . وأما (الفلقة) فبمعنى النصف. والجردقة: الرغيف، معرب كرده. . وأما (الشلقة) بالكسر أو بفتح الأول وكسر الثاني فهي واحدة الشلق: ضرب من صغار السمك.

(٧) في ط: «الكتاب» وهو تحريف.

(طلب النسل)

وقالوا^(١) : وللإنسان قوَى معروفةٌ المقدارِ، وشهواتٌ مصروفةٌ في وجوه حاجاتِ النفوسِ، مقسومةٌ عليها، لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالِها، ما كانت النفوسُ قائمةً طبائعها ومزاجاتها وحاجاتها، وبابُ المنكحِ من أكبرِها، وأقواها، وأعمّها. ويدخل في باب المنكحِ ما في طبائعهم من طلبِ الولدِ، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنصرة، وللحاجة إلى العدد والقوّة، ولذلك استلّطت العربُ الرجالَ، وأغضت^(٢) على نسب المولود على فراش [أبيه]^(٣)، وقد أحاط علمُه بأنّه من الزوج الأوّل. قال الأشهبُ بن رُميلة^(٤) :

قال الأقاربُ لا تغرُركَ كثرُتنا وأغن نفسَكَ عنّا أيها الرجلُ
علّ بنيّ يشدُّ اللّه كثرَتهُم والنَّبْعُ يَنْبُتُ قُضباناً فيكتهل^(٥)
وقال الآخر^(٦) :

إنّ بنيّ صبيّة صيفيُّون أفلاحَ مَنْ كان له ربّعيُّون
يشكو كما ترى صغرَ البنين، وضعفَ الأسر^(٧).

وما أكثر ما يطلب الرجل الولدَ نفاسةً بماله على بني عمّه، ولإشفاقه من أن تليه القضاة وترتع فيه الأمناء، فيصير ملكاً للأولياء، ويقضي به القاضي الذّمّام ويصطنع به الرجال. وربما همّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكّر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلب الثواب^(٨) في مباهاة المشركين، والزيادة في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنصرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع الله تعالى بني آدم عليه، من حبّ الذريّة وكثرة النسل، كما طبع الله تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في همّه ونصبه، وفي جُبْنِه وبخله، وقد قال النبي ﷺ : «الولدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ» فيحتمل في

(١) في ط : «قال» والوجه ما في ل.

(٢) أغضى على الشيء : سكت. وفي ط : «وأغضبت» والوجه ما كتبت من ل.

(٣) في الأصل : «على فراشه» وبذلك لا يكون للضمير في كلمة (علمه) الآتية مرجع وعلى الأصل أيضًا لا نجد للضمير (فراشه) مرجعًا مناسبًا.

(٤) وقيل الشعر لنهشل بن حري كما في البيان، والبيتان فيه 3 : 96 .

(٥) في البيان : «أعظمهم» بدل «كثرتهم». وفي ط : «النَّبْعُ بالغين، والصواب ما أثبت من ل والبيان. والنَّبْعُ : شجر تعمل منه القسي والسهام.

(٦) هو أكثم بن صيفي، كما في نوادر أبي زيد 87 قال أبو زيد «يقال أصاف الرجل إذا ترك النساء شابًا لم يتزوج، ثم تزوج بعد ما أسن، ويقال لولده صيفيون. . والربعيون : الذين ولدوا وآباؤهم شباب فهم رجال». و«إن» هي في ط «عسى» وتصحيحه من ل : والنوادر.

(٧) في ط : «السن».

(٨) في ط : «الصواب» وهو تحريف ظاهر.

الولد المؤمن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصد له، وليس في ذلك أكثر من طلب الطباع، ونزوع النفس إلى ذلك. وذكر أبو الأخرز الجماني غير العانة⁽¹⁾ بخلاف ما عليه أصحاب الزواج من الحيوان، فقال عند ذكره سفاذه:

لا مُبتغي الذرء ولا بالعازل⁽²⁾

لأنَّ الإنسان من بين الحيوان المُزَاج، إذا كره الولد عزل، والمزاج من أصناف الحيوانات إنما غايتها طلبُ الذرء⁽³⁾ والولد. لذلك سُخِّرَتْ، وله هيئت، لِمَا أراد الله تعالى من إتمام حوائج الإنسان. والحمار لا يطلب الولد، فيكون إفراغه في الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولد عزل كما يعزل الإنسان، غير أنَّ غايته قضاء الشهوة فقط، ليس يخطر⁽⁴⁾ على باله أنَّ ذلك الماء يُخلَق منه شيء.

[وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: «ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار»].

وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمهم وتصنعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلا التنمُّص⁽⁵⁾ والتطبيب والتطوُّس⁽⁶⁾ [والتعرُّس⁽⁷⁾] والتخضُّب، والذي يُعدُّ لها من الطيب والصَّبغ، والحلي، والكساء، والفُرُش، والآنية، لكان في ذلك ما كفى. ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها، وخوف العار من جنائتها والجنابة عليها، لكان في ذلك المؤنة العظيمة، والمشقة الشديدة.

(قول في الغرائز وبيان سبب شره الخصي)

فإذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذة والألم، فباضطراب أن تعلم أنَّ تلك القوى لم تبطل من التركيب، ولم تعدمها الخلقة، وإنما سُدَّ دونها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودة من عمل، لأنَّ عمل كلِّ جوهر لا يُعَدَم إلا بعدم ذاته، فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضت⁽⁸⁾ من وجه، ولا سيما إذا جمَّت ونازعت، ولا بُدَّ إذا زحرت وغُزِرَتْ، وطغت⁽⁹⁾ وطمت، من أن تفيض أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح باب له موقع كموقع المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما

(1) في ط: «وذكر أبو الأخرز الحمام غير العانة» وهو مثل من أمثلة التحريف الشنيع.

(2) في ط: «لا مبتغي الذر ولا بالعازل. وفي ل: «الذرء ولا العازل» والوجه ما أثبت.

(3) في ط: «الذر». (4) في الأصل: «يذكر».

(5) النمص: نتف الشعر. والتنمص: التزين بذلك الأسلوب.

(6) التطوُّس: التزين. . وبدل «التطوُّس» في ط: «التطرز» وليس بشيء.

(7) التعرس: التحجب. (8) كذا على الصواب في ط. . وفي ل: «غاضت».

(9) في ط: «طفت» وتصحيحه من ل.

يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوة التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان أبلغ في حكمه، وأبعد غايةً في سبيله، ولذلك صار الخصى أكل من أخيه لأمه وأبيه، وعلى قدر الاستمرار يكون هضمه، وعلى قدر حاجة طبعه [وحرارة نفسه و⁽¹⁾] الحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمرار، لأن الشهوة من أمتن⁽²⁾ أبواب الاستمرار، والحركة من أعظم [أبواب] الحرارة.

(تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام)

ودوام الأكل في الإناث أعظم منه في الذكور، وكذلك الحِجْرُ دون الفرس، وكذلك الرمكة دون البرذون، وكذلك النعجة⁽³⁾ دون الكبش، وكذلك النساء في البيوت دون الرجال. وما أشك أن الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة، ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتربي عليه مقطوعاً غير منظوم، وهي بدوام ذلك منها، يكون حاصل طعامها أكثر. وهن يناسبن الصبيان في هذا الوجه، لأن طبع الصبي سريع الهضم، سريع الكلب، قصير مدة الأكل، قليل مقدار الطعام، فللمرأة كثرة معاودتها، ثم تبين بكثرة مقدار المأكول. فيصير للخصي نصيبان: نصيبه من شبه النساء، ثم اجتماع قوى شهوته في باب واحد، أعني شهوة المنكح التي تحولت، وشهوة المطعم.

قال، وقيل لبعض الأعراب: أي شيء آكل؟ قال: برذونة رغوثة⁽⁴⁾.

ولشدة نهم الإناث، صارت اللبوة أشد عراًماً وأنزق، إذا طلبت الإنسان لتأكله، وكذلك⁽⁵⁾ صارت إناث الأجناس الصائدة [أصيد]، كالإناث من الكلاب [والبُزاة] وما أشبه ذلك، وأحرص ما تكون عند ارتضاع جرائها [من أطباؤها]، حتى صار ذلك منها سبباً للحرص والنهم في ذلك.

(صوت الخصي)

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت، حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبه أنه خصي، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابن عمه، أو بعض أترابه من فحولته جنسه، وهذا المعنى يعرض لخصيان الصقالب أكثر مما يعرض للخراسانية، وللإسودان من السند والحُشَّان. وما أقل من تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلا وله بيضة أو عرق، فليس يحتاج في صحة تمييز ذلك، ولا في دقة⁽⁶⁾ الحس فيه، إلى حذق بقيافة، بل تجدد ذلك شائعاً في طباع السفلة والغثراء⁽⁷⁾، وفي أجناس الصبيان والنساء.

(1) في ط: «على قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة» وأصلحت الكلام من ل.

(2) في الأصل: «أنتن» وهو تحريف ما كتبت.

(3) في ط: «الرمكة» والوجه ما أثبت من ل.

(4) رغوثة: مرضعة. والخبر في البيان 212:3.

(5) في الأصل: «ولذلك».

(6) في ط: «رقة» وما كتبت من ل أشبهه بكلام الجاحظ.

(7) كذا في ط، وهو الصواب. وفي ل: «العترة». وفي القاموس: «الغثرة محركة، والغثراء، والغثر بالضم، والغثيرة: سفلة الناس».

(شَعْر الخَصِي)

ومتى خُصِي قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ، وإذا خُصِي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه، تساقط كله إلا شَعْرَ العانة، فإنه وإن نَقَص من غَلظهِ ومقدارِ عدده فإنَّ الباقي كثير . ولا يعرِضُ ذلك لشعر الرأس، فإنَّ شَعْرَ الرأس والحاجبين وأشْفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن . وقد زعم ناسٌ أنَّ حَكَمَ شَعْرِ الرأس خلافُ حكم أشْفار العينين، وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شَعْر النساء، والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادثِ الأصول، الزائد في النبات . ألا ترى أن المرأة لا تصلعُ، فناسبها [الخصي] من هذا الوجه، فإنَّ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرع، لا من جهة النَّزَع والجَلَج، [والجَلَه] والصَّلَع^(١) وكذلك النساء في جميع ذلك . والمرأة ربَّما كان في قُصَّاصٍ مقادير شَعْرِ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزَع ولا جَلَج، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السن . وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتَهى حُدود قُصَّاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتَهى قُصَّاصها، وليس شعرها كلما دنا من موضع الملاسة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلُّ، ولكنه يُنْبِت في مقدار ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً . والمرأة ربَّما كانت سبلاء، وتكون لها شَعْرَات رقيقة زَغَبِيَّة كالعذار موصولاً بأصداعها، ولا يعرض ذلك للخصي إلا من علة في الخصاء، ولا يرى أبداً بعد مقطَع من صُدغِيه شيء من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه .

(ذوات اللحي والشوارب)

وقد توجد المرأة ذات لحية، وقد رأيت ذلك، وأكثر ما رأيتَه في عجائز الدهاقين، وكذلك العُجَب والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً، وهي ليست في رأى العين بخُنْثى، بل [نَجدها] أنثى تامَّة، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى، حتى يظهر في غير ذلك المكان . [ولا تعرض اللحي للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض]، وليس يعرض ذلك للخصي .

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنَّه كان لابنةٍ من بناتِ مُحَمَّد بن راشد الخُثَّاق، لحيَّة، وافرة، وأنها دخلت مع نساءٍ متنقِّباتٍ إلى بعض الأعراس لترى العرس وجَلْوَةَ العُرُوس، ففطنت لها امرأة فصاحت : رجلٌ والله! وأحال^(٢) الخدم والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشفَ عن فُرْجها، فنزَعن عنها^(٣) وقد كادت تموت .

(١) النزَع : انحسار الشعر من جانبي الجبهة . والجَلَج : انحساره عن جانبي الرأس . والجَلَه والصَّلَع : انحسار شعر مقدم الرأس .

(٢) في ل : « فأقبل » .

(٣) في ل : « فكففن » .

ويفضل أيضاً الخصى المرأة في الانجراد والزعر، بأن تجد المرأة زبَاء الذراعين والساقين، وتجد ركب^(١) المرأة في الشعر كأنه عانة الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك. ولا يعرض للخصي ما يعرض للديك إذا خصى: أن يذبل غضروف عُرْفِه ولحيته. والخصاء ينقص من شدة الأسر، وينقص^(٢) مبرم القوى، ويُرخي معاقِد العصب، ويقرب من الهرم والبلوى.

(مشي الخصى)

ويعرض للخصي أن يشتد وقع رجله على أرض السطح، حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم أخيه الفحل [الذي هو أعل^(٣) منه] لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده لصاحبه. وكأن العضو الذي كان يشد توتير النساء^(٤)، ومعاقد الوركين^(٥) ومعاليق العصب، لَمَا بطل وذُهب الذي كان يمسكه ويرفعه، فيخف لذلك وقع رجله، صار كالذي لا يتماسك ولا يحمل بعضه بعضاً.

(أثر الخصاء في الذكاء)

ويعرض له أن أخوين صقليين من أم وأب، لو كان أحدهما توأم أخيه، أنه متى خُصي أحدهما خرج الخصى منهما أجود خدمة، وأظن لأبواب المعاطاة والمناولة، وهو لها أنقن وبها أليق، وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيُخص بذلك كله، ويبقى أخوه على غثارة^(٦) فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة^(٧) الصقلية، وعلى سوء فهم العجمية.

ويد الإنسان لا تكون [أبدأ] إلا خرقاء، ولا تصير صناعاً ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها، واللسان لا يكون أبداً، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به، منقلة له، واضعة له في مواضع حقوقه، وعلى أماكن حظوظه، وهو علّة له في الأماكن العميقة، ومصرفة له في المواضع المختلفة.

فأول ما صنع الخصاء بالصقلي تركية عقله، وإرهاف حده، وشخذ طبعه، وتحريك نفسه، فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته، وقوته على قدر ما هيجه^(٨).

فأما نساء الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقل خلقهم إلى الفطنة الثاقبة، وإلى الحركة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيل. وعلى حسب

(١) الركب بالتحريك: العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره.

(٢) في ط: «وينقص» بالصاد، وصوابه في ل. (٣) أعل منه: أضخم منه.

(٤) في ط: «وكان العضو الذي به يشتد يشد توتير النساء» وفي ل: «وكان العضو الذي كان يشد توتير عرق النساء» وقد أصلحت العبارة بما ترى. ولا يقال عرق «النساء» وإنما هو «النساء» بدون إضافة. قال الزجاج: لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه.

(٥) في ط: «ومعاليق الوركين» وليس بشيء.

(٦) في ط: «غشاوة» وفي ل: «غثارة» بالعين ولعل صوابهما ما أثبت. والأغثر: الأحمق الجاهل.

(٧) في ط: «بلاهته» وأبدلتها بما في ل؛ ليتم تساوق الكلام.

(٨) في ط: «مامجه» وأثبت ما في ل.

الجهل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحذق. وهذا جملة القول في نسائهم، وعلى أنَّهنَّ لا حظوظَ لهنَّ عند الخلوة، ولا نفاذَ لهنَّ في صناعة؛ إذ كنَّ قد مُنِعنَ فهمَ المعاطاة ومعرفة المناولة.

والخصيان مع جودة آلاتهم ووفارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة. وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحداً منهم قط نفاذ في صناعة تُنسب إلى بعض المشقة، وتضاف إلى شيء من الحكمة، ممَّا يُعرف ببُعْد الروية، والغوص بإدامة الفكرة، إلا ما ذكرُوا من نفاذ ثقف⁽¹⁾ في التحريك للأوتار، فإنه كان في ذلك مقدماً، وبه مذكوراً. إلا أنَّ الخصيَّ من صباه، يُحسن صناعة الدُّبوق⁽²⁾، ويُجيد دُعَاء الحمام الطوري⁽³⁾، وما شئت من صغار الصناعات.

وقد زعم البصريُّون أنَّ حديجاً⁽⁴⁾ الخصيَّ، خادمَ مُثْنَى بن زُهَيْر، كان يُجاري⁽⁵⁾، مُثْنَى في البصر بالحمام، وفي صحَّة الفراسة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة. وسنذكر حاله في باب القول في الحمام إن شاء الله تعالى. هذا قولهم فيمن خُصي من الصقالبة. وملوكنا لعقول خصيان خراسانَ أحمد، وهم قليل، ولذلك لم نأت من أمرهم بشيء مشهور، وأمر مذكور.

(خصيان السند)

وأما السُّند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخصيان إلا النَّفَر الذين كان خصاهم موسى بن كعب، وقد رأيت أنا بعضهم، وزعم لي أنَّه خُصي أربعة هو أحدهم، ورأيتُ الخِصاء، قد جذبته إلى حبِّ الحمام، وعمل التَّكك⁽⁶⁾، والهراش بالديوك، وهذا شيء لم يُجر منه على عرق، وإنما قاده إليه قطع ذلك العضو.

(خصيان الحبشة والنوبة والسودان)

فأما الخصيان من الحبشان والنوبة وأصناف السودان، فإنَّ الخِصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوتهم، لأنَّ الحبشيَّ متى خُصي سقطت نفسه، وثقلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بدَّ أن يعرض له فساد، لأنه متى استقصى جبابه لم يتماسك بوله⁽⁷⁾، وسلس مخرجه، واسترخى

(1) كذا في ل وفي ط : «دامة» وفي ش .

(2) الدبوق، هنا: جمع دبق بالكسر، وهو الدابوق والدابوقاء: غراء يصاد به الطير. والدبوق كتَنور قال في القاموس: لعبة معروفة. . وليست مرادة في هذا الكلام.

(3) في ط : «الضواري» وفي ل : «الصور» وصوابهما «الطوري» وهو الوحشي .

(4) في ط : «حديجاً» بالخاء. وقد كتبت ما في ل وش .

(5) في ط : «يجري» .

(6) التكة: رباط السراويل والجمع تكك، ويبدو لي أنها معربة، كما صرح بذلك الخفاجي في شفاء الغليل، ولم يتعرض صاحب القاموس لذلك.

(7) في ط : «ولم يتماسك بوله» والوجه حذف الواو كما في ل .

الممسك له، فإن هم لم يستقصوا جبابه، فإنما يُدخل الرجل منزله من له نصف ذلك العضو⁽¹⁾، وعلى أنك لا تجد منهم خَصِيًّا أبداً، إلاَّ وسُرَّتِه بُجْرَةً، ونفخة⁽²⁾ شنيعة، وذلك عيبٌ شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبْحِه في العين، وشُنْعته في الذَّكْر. وكلُّ ما قُبِح في العين فهو مؤلم، وكل ما شُنِع في النفس فهو مؤذٍ. وما أَكْثَرَ ما تجد فيهم الأُلْطَع⁽³⁾! وذلك فاش في باطن شفاههم. ومتى كانت الشفاه هُذْلاً، وكانت المشافِرُ منقلبة، كانت أظهر للَطْع، وهو ضرب من البرص، والبياض الذي يعرض لَعَرَامِيل الخيل وخُصَّاهَا⁽⁴⁾، ضربٌ أيضاً من البرص، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفة قضيب المختون، إمَّا لَطَبَعَ الحديد، وإمَّا لقرب⁽⁵⁾ عهده بالإحداد وسفْيِ الماء، إلاَّ أنَّ ذلك لا يعدو مكانه.

وكلما عَظُمَت الحشفة انبَسَطَ ذلك البياض على قدر الزيادة فيها، وإنَّما ذلك كالبياض الذي يعرض من حَرَق النار وتشبيطها⁽⁶⁾، وكذلك يعرض للصقالية من التَّعَالُج بالكي. وربَّما اشتدَّ بياضه حتى يفحش ويُرديه⁽⁷⁾، إلاَّ أنَّه لا يفشو ولا ينتشر، إلاَّ بقدر ما ينسط مكانه، ويتحوَّل صاحبه رجلاً، بعد أن كان صبيًّا⁽⁸⁾، وليس كالذي يعرض من البلغم ومن البرص. وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضه لا يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه، ولا يذهب إلاَّ بأنَّ يذهب به نبي⁽⁹⁾، فيكون ذلك علامةً له. ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبرص⁽¹⁰⁾، ولكن الذي هوَّ أمره الذي ترون من كثرة بُرء الناس منه. ثمَّ الخصاء يكونُ على ضروب، ويكون في ضروب، فمن ذلك ما يعرض بعد الكبر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خَصَى بعضُ عباهلة اليمن⁽¹¹⁾ علقمة بن سهل الخَصِي.

(علقمة الفحل وعلقمة الخصي)

وإنما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل، حين وقع على هذا اسم الخصي، وكان عبداً

- (1) في الكلام نقص وتحريف ولعل صواب العبارة: «فأما من لم يستقص جبابه فقلما يدخل الرجل منزله منهم... إلخ».
- (2) في ط: «وبخة» وليس بشيء. وقد أبدلتها بما في ل. والبحرة: العقدة في البطن والوجه والعنق.
- (3) اللطع: بياض في باطن الشفة. وأكثر ما يعتري ذلك السودان.
- (4) في ط: «وخصاؤها» وليست مرادة. وما هنا جمع خصية.
- (5) في ط وش: «لقدم» وهو خطأ صوابه في ل. ويؤيده ما كتبه الجاحظ في الحيوان 7: 15: «ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالإحداد» وطبع الحديد: رداءته.
- (6) في ط: «وتشبيطه».
- (7) هو تسهيل «يردئه» أي يجعله رديئاً ويفسده.
- (8) كذا. ولعل صوابه «رجلاً» بكسر الجيم من الرحلة بضم الرائ: بياض في إحدى رجلي الدابة. أما «صبيًّا» فلعلها «مصمناً». والمصمت: الذي لا يخالط لونه لون آخر.
- (9) في ط: «شيء» وقد أبدلته بما في ل. وكان عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله.
- (10) في ط: «ما يكون ملحقاً بالبرص».
- (11) عباهلة اليمن: أفياهم.

صالحاً، وهو كان جَنَّبَ الجدِيل⁽¹⁾ وداعراً، الفحلين الكريمين، إلى عمان، وكان من نازليها، وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامةِ بنِ مَظْعُونٍ في شربِ الخمر، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَتَقْبَلُ شهادةَ الخصيِّ؟ قال: أما شهادتك فأقبل. وهو علقمةُ بن سَهْلٍ بنِ عمارَة، فلَمَّا سَمَّوهُ الخصيَّ، قالوا لعلقمةُ بن عبدة: الفحل. وعلقمةُ الخصيُّ الذي يقول:

فلن يَعدَمَ الباقون قَبراً لَجَثَّتِي⁽²⁾ ولن يَعدَمَ الميراثَ مِنِّي المواليا
حِراسٌ على ما كنت أجمعُ قَبْلَهُمُ هَنِيئاً لَهُم جَمْعِي وما كنتُ واليا
وَدُلَيْتُ فِي زُوراءَ ثُمَّتْ أَعْنَقُوا لَشَأْنِهِمْ قَدْ أَفْرَدُونِي وَشَانِيا
فأصبح مالي من طريفٍ وتاليدٍ لغيري، وكانَ المالُ بالأمسِ ماليا

وكما عَرَضَ لِلدَّلَالِ وَنَوْمَةِ الضُّحَى، مِنْ خِصَاءِ عُثْمَانَ بْنِ حِيَّانَ [المَرِّي] والي المدينة لهما، بكتابِ هشام بن عبد الملك⁽³⁾.

(أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك)

فَمِنْ بَنِي مَرْوانَ مَنْ يَدَّعي أَنَّ عَامِلَ المَدِينَةِ صَحَّفَ، لِأَنَّهُ رَأى فِي الكِتَابِ: «أَحْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المَخْتَنِّينَ» فَقَرَأَهَا: «أَخْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المَخْتَنِّينَ». وَذَكَرَ الهَيْثَمُ عَنِ الكَاتِبِ الَّذِي تَوَلَّى قِرَاءَةَ ذَلِكَ الكِتَابِ، أَنَّهُ قالَ: وَكَيْفَ يَقُولُونَ ذَلِكَ وَلَقَدْ كَانَتِ الخَاءُ مَعْجَمَةً بِنَقْطَةٍ، كَأَنَّهَا سُهَيْلٌ [أو تَمْرَةٌ صِيحَانِيَّةٌ⁽⁴⁾]؟! فَقَالَ اليَقْطَرِيُّ⁽⁵⁾: مَا وَجَّهَهُ كِتَابُ هِشَامٍ فِي إِحْصَاءِ عَدَدِ المَخْتَنِّينَ؟ وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ، وَمَا كَانَ الكِتَابُ إِلَّا بِالْخَاءِ المَعْجَمَةِ دُونَ الخَاءِ المَهْمَلَةِ. وَذَكَرَ عَنِ مَشايِخَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ أَنَّهُمْ حَكَّوْا عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قالَا: الْآنَ صِرْنَا نِسَاءً بِالْحَقِّ!! كَأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ إِلَيْهِمَا لِاخْتَارَا أَنْ يَكُونَا امْرَأَتَيْنِ! قالَ: وَذَكَرَ أَنَّهُمَا خَرَجَا بِالْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الْخِصَاءِ وَالتَّخْنِيثِ، مِنْ فُتُورِ الْكَلَامِ وَلَيْنِ الْمَفَاصِلِ وَالْعِظَامِ، وَمِنْ التَّفَكُّكِ وَالتَّثْنِيِّ، إِلَى مَقْدَارِ لَمْ يَرَوْا أَحَدًا بَلَّغَهُ، لَا مِنْ مَخْتَنَّاتِ النِّسَاءِ، وَلَا مِنْ مَوْثَنِيِّ الرِّجَالِ.

(1) في ط: «الجزيل» وصوابه «الجديل» كما في ل والقاموس، قال: فحل للنعمان بن المنذر. . وأما داعر فهو فحل منجب. . وجنب البعير: قاده إلى جنبه.

(2) تختلف الروايات اختلافاً كثيراً في هذا الشطر. انظر الخزانة 2: 176-180 وذيل أمال القالي 135 والعقد 3: 357 حيث توجد قصيدة هذه الأبيات، منسوبة إلى مالك بن الربيع.

(3) عند الجهشيارى 54 أنه كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم.

(4) الصيحاني: ضرب من التمر أسود صلب الممضغة. وسمى صيحانياً لأن صيحان اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت تمرًا فنسب إلى صيحان. وفي قطعة الأبروزيانا: «كأنها تمرة» فقط.

(5) في ط، ل، ش، والأمبروزيانا «البقطري» بالباء، وقد كتب بالياء في مواضع متعددة من الحيوان والبيان.

(أبو همام السنوط)

وكما عَرَضَ لأبيض همام السنوط⁽¹⁾ مِنْ امتلاخ اللحم مذاكيره وخصييه⁽²⁾ ، أصابه ذلك في البحر في بعض المغازي⁽³⁾ ، فسقطت لحيته ، ولقّب بالسنوط ، وَخَرَجَ لذلك نهماً وشرهاً .

وقال ذات يوم : لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب ، وبعضه لا يحمل إلا التمر ، وبعضه لا يحمل إلا المجزّع⁽⁴⁾ ، وبعضه لا يحمل إلا البسر ، وبعضه لا يحمل إلا الخلال ، وكنا متى تناولنا من الشُمراخ بُسرةً ، خلقَ الله مكانها بُسرتين ، لَمَا كان بذلك بأس ! ثم قال : أستغفرُ الله ! لو كنتُ تمنيتُ أن يكونَ بدل نواة التمر زُبدة كان أصوب !! ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين ، حتى ربما امتلخهما طيب ، وربما قطع إحداهما ، وربما سقطتا جميعاً من تلقاء أنفسهما .

(نسل منزوع البيضة اليسرى)

والعوام يزعمون أن الولد إنما يكون من البيضة اليسرى⁽⁵⁾ ، وقد زعم ناس من أهل سليمان ابن علي ومواليهم ، أن ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزلي ، إنما وُلِدَ له بعد أن نُزِعَت بيضته اليسرى ، لأمر كان عرض له . والخصي الطيان ، الذي كان في مسجد ابن رغبان⁽⁶⁾ ، وُلِدَ له غلام ، وكان ليس له إلا البيضة اليمنى ، فجاء أشبه به من الذباب بالذباب والغراب بالغراب ، ولو أبصره أجهل خلق الله تعالى بفراصة ، وأبعدهم من قِيافة ، ومن مخالطة النخاسين ، أو من مجالسة الأعراب ، لعلم أنه سلالته وخلصته ، لا يحتاج فيه إلى مجزّر المدلجي⁽⁷⁾ ، ولا إلى ابن كرز الخزاعي⁽⁸⁾ .

(1) ذكره الجاحظ في البخلاء 176 وجاء محرقاً بالمسوط . والسنوط بالفتح والتخفيف : من لا لحية له أصلاً ، أو الخفيف العارضين .

(2) في ط : « من امتلاخ لحم مذاكيره وخصييه » وهو تحريف صوابه في ل . وجاء في القاموس : اللحم بالضم : سمك بحري . وقد ضبط في معجم المعلوف ص 225 بالفتح سهواً ، قال : وهو يعرف بالقرش في سواحل البحر الأحمر .

(3) في ل : « أصابه ذلك في البحر سمكة في بعض المغازي » .

(4) في ط ، ش : « المجزّع » و « ل » : « المنصف » وصواب الأول « المجزّع » وهو البسر أرطب إلى نصفه .

(5) لهذا كلام في البيان 1 : 330 .

(6) في ط : « ابن رغبان » بالزاي وأبدلته بما في « ل » ، وما في معجم البلدان ، وقال ابن قتيبة في المعارف 366 : « ابن رغبان الذي ينسب إليه المسجد ببغداد ، هو مولى حبيب بن مسلمة . . وكان حبيب عظيم القدر ، يلي الولايات زمن عثمان رضي الله عنه ومعاوية » .

(7) في ط : « محرز » وإنما هو « مجزّر » كما في ل ، والقاموس والإصابة ، وهو صحابي له ذكر في الصحيحين . . وكان الرجل قائفاً .

(8) في ل : « كرز » .

(خصاء الروم)

ومن أهل الملل من يَخْصِي ابنَهَ وَيَقْفُه على بيت العبادة، ويجعله سادناً، كَصَنِيعِ الرُّومِ، إلا أنهم لا يُحدثون في القضيْب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأثنين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إِبْهَالَ نسائهم ورواهبهم⁽¹⁾ فقط!! فأما قضاء الوَطَر وبلوغ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلُغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل، كأنهم يزعمون أنه يستقضي جميع ما عندها ويستجلبه، لفرط قوَّته على المطاولة.

(الروم أول من ابتدع الخصاء)

وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدعون من الرأفة والرحمة، ورقَّة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالخصاء مثلاً! وحسبك بصنيع الخاصي قسوة! ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخَصِيان، من طَلَب الطوائل وتذكَّر الأحقاد، ما لم يظنُّوه عندهم، ولا خافوه من قِبَلهم، فلا هم ينزعون، ولا الخَصِيان يَنكَلون، لأنَّ الرِّمَيةَ فيهم فاشية، وإن كان الخَصِي أسواراً بلغ منهم⁽²⁾، وإن كان جمع مع الرِّمَية الثَّروَة، واتخذ بطرسوس، وأذنه، الضَّياع واصطنع الرجال، واتخذ العُقْد المِغْلَة⁽³⁾ فمضرة كل واحدٍ منهم عليهم، تفي بمضرة قائدٍ ضخم. ولم ترَ عداوةً قطُّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فرط الرغبة في النساء، وعلى شهوة شديدة للمباضعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمة مع طلب المثوبة، وحسن الأحداث.

(خصاء الصابئة)

فأما الصابئون، فإنَّ العابد منهم ربَّما خصى نفسه، فهو في هذا الموضع قد تقدم الرومي، فيما أظهر من حُسْن النية، وانتحل من الديانة والعبادة، بخصاء الولد التام⁽⁴⁾، وبإدخاله النقص على التَّسَلِّ، كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويسمر عندهم، لِذَلي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطُرف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمع قطُّ بأغزل منه، وإن كان يصدِّق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه.

(1) في ط: «ودواهبهم» وتصحيحه من ل. والرواهب: جمع راهبة.

(2) ط: «وإن كان الخصي أسود أبلغ منهم» وتصحيحه من ل. والأسوار بالضم وبالكسر: قائد الفرس والجيد الرمي بالسهم.

(3) في ط: «واتخذ العقد والعبيد المغلة». والعقد: جمع عقدة، وهي الضيعة.

(4) في ط: «بخصلة الولد التام».

(حديث أبي المبارك الصابي)

حدَّثني محمد بن عباد قال: سمعته يقول - وجرى ذكرُ النساءِ ومحلَّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أدلَّ على تمام الفحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقته ومعناه وطبعه، إذ كان قد جُعِلَ رجلاً ولم يُجعل امرأة - قال ابن عباد، فقال لنا: أَلستم تعلمون إنِّي قد أربَّيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهُنُ الكِبَر، ونفاذُ الذَّكْرِ⁽¹⁾، وموتُ الشهوة، وانقطاعُ ينبوعِ النطفة، قد أَمات حنينه إلى النساءِ وتفكيره في الغزل؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون مَنْ عوَّد نفسه تركهنَّ مُدداً، وتخلَّى عنهم سنينَ ودهراً⁽²⁾، أن تكون العادة وتَمَرُّنُ الطبيعة، وتوطئُ النفس، قد حطَّ من ثقلِ منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتم أنَّ العادة [التي] هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعضِ عمدٍ هَجَرَ لَمَاسَةِ النساءِ⁽³⁾، قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ مَنْ لم يذُقْ طَعْمَ الخُلوةِ بهنَّ ولم يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمِعْ حديثهنَّ وخلاِبتهنَّ للقلوب، واستمالتهنَّ للأهواء، ولم يَرِهِنَّ منكشفاتِ عارياتٍ، إذا تقدَّم له ذلك مع طولِ التَّرك، ألا يكون بقيَ معه من دواعيهن شيء؟! قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ لِمَنْ قد علم أنه محبوبٌ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسوم، أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد والسُّلوة، وإلى موتِ الخواطر. قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكونَ من دعاة الزُّهد في الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ التُّسَّاكِ بهنَّ، واتخاذِ الأنبياءِ لهنَّ، إلى أن خَصَى نفسه، ولم يُكرِّهه عليه أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سبَّاه ساب، أن يكون مقدَّراً ذلك الزهد هو المقدار الذي يُميت الذَّكْرَ لهنَّ، ويُسرِّي عنه ألمَ فقدِ وجودهنَّ⁽⁴⁾، وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئ العزم⁽⁵⁾ ويختارَ الإرادة التي يصير بها⁽⁶⁾ إلى قطع ذلك العضو الجامع لكبار اللذات، وإلى ما فيه من الألم، ومع ما فيه من الخطر، وإلى ما فيه من المثلثة والتَّقْصُص الداخلي على الخِلقة، أن تكون الوسواس في هذا الباب لا تعرُّوه، والدواعي لا تقرُّوه⁽⁷⁾، قال: قلنا: صدقت. قال: وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسه عن السَّكَنِ وعن الولد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح، أن يكون قد نَسَى هذا الباب، إن كان قد مرَّ منه على ذُكر. هذا وأنتم تعلمون أنَّي سَمَلْتُ عيني يومَ خَصَّيت نفسي. فقد نسيْتُ كيفية الصُّورِ وكيف تَرُوع، وجَهِلتُ المراد منها، وكيف تُراد، أفما كان⁽⁸⁾ [مَنْ كان كذلك] حَرِيّاً أن تكون نفسه ساهيةً لا هيةً

(1) الذكر هنا في معنى التذكُّر.

(2) في ل: «زهداً» بدل «مدداً» وفي ط «منهن» موضع «عنهن».

(3) في ل: «عمر» موضع «عمد» و«هجراني» موضع «هجر».

(4) في ل: ويستوي عندهن فقدهن ووجودهن. (5) في ط: «وينبغي لمن كان في مكانه ألا ينسى العزم».

(6) في ط: «يصيب بها». (7) قراه بقروه: قصده. وفي الأصل: «تطروه».

(8) في ط: «فما كان ذلك» وتصحيحه من ل.

مشغولةً بالباب الذي احتمل له هذه المكاره؟! قال: قلنا: صدقت. قال: أو لو لم أكن هَرَمًا^(١)، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ، وكانت الآلة قائمةً أليس في^(٢) أني لم أذُق حيواناً منذ ثمانين سنة ولم تمتلِ عُروقي^(٣) من الشرابِ مخافةً الزيادة في الشهوة، والنقصانِ من العزم - أليس^(٤) في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسكن الحركة إن هاجت؟! قال: قلنا: صدقت. قال: فإنني بعد جميع ما وصفت لكم، لأسمع نعمة المرأة فأظن مرةً أن كيدي قد ذابت، وأظن مرةً أنها قد انصدعت، وأظن مرةً أن عقلي قد اختلس، وربما اضطرب فؤادي عند ضحك إحداهن، حتى أظن أنه قد خرج من فمي، فكيف ألوم عليهن غيري؟!

فإن كان - حفظك الله تعالى - قد صدق على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستين سنة أو سبعين سنة؟! وما ظنك به قبل الخصاء بساعة؟! وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان، أن يحتجز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهن والشهوة لهن هذا المقدار! الله تعالى أرحم بخلقه، وأعدل على عباده، من أن يكلفهم هجران شيء، قد وصله بقلوبهم هذا الوصل، وأكد هذا التأكيد. وقد خصى نفسه من الصابئين رجالاً، قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم، وفي الذي ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى.

(استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء)

وقد ذكر أن عثمان بن مظعون، استأذن النبي ﷺ في السياحة فقال: «سياحة أمّتي الجماعة». واستأذنه في الخصاء فقال: «خصاء أمّتي الصوم، والصوم وجاء». فهذا خصاء الديانة.

(خصاء الجلب وقسوته)

فأما من خصى الجلب^(٥) على جهة التجارة، فإنه يجبّ القضيبي، ويمتلخ الأنثيين، إلا إن تقلصت إحداهما من فرط الفرع^(٦)، فتصير إلى موضع لا يمكن ردها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلم لا يفي به ظلم، وظلم يُربى على كل ظلم^(٧)، لأنه عند ذلك لا يحفل بفوت المتقلص^(٨)، ويقطع ما ظهر له؛ فإن برئ محبوب القضيبي أو ذا بيضة واحدة، فقد تركه لا امرأة ولا رجلاً ولا خصياً، وهو حينئذ ممن تخرج لحيته، وممن لا يدعه الناس في دورهم ومواضع الخصوص من

(١) في الأصل: «أول ليس لو لم أكن هَرَمًا».

(٢) في الأصل: «ألا».

(٣) في ط: «تمتل» وما أثبتته من ل.

(٤) في الأصل: «لكان».

(٥) الجلب: ما جلب من خيل وغيرها.

(٦) ط: «الفرع» والصواب ما في ل.

(٧) ل: «وظلم يربى على الظلم الأول وعلى كل ظلم».

(٨) ط: «بموت المتقلص» وصوابه في ل.

بيوتهم، فلا يكون مع الخصيان مقرباً ومكرماً، وخَصِيبَ العِيش منعماً، ولا هو إذا رُمي به في الفحول، كان له ما للفحول من لَذَّة غُشيان النساء، ومن لَذَّة النسل والتمتع بشم الأولاد؛ فلم يَزَلْ عندَ الفحولِ مستضعفاً محتقراً، وعندَ الخصيانِ مجرّحاً مطرّحاً⁽¹⁾، فهو أسوأ حالاً من السِّدِّمِ المعنَى⁽²⁾ فلا أعلم قتله - إذا كان القتلُ قِتْلَةً صريحة⁽³⁾ مريحة - إلاّ أصغرَ عند الله تعالى، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب. والله تعالى بالمرصاد.

(خصاء البهائم)

وأما خصاء البهائم، فمنه الوجاء، وهو أن يشدَّ عَصْبُ مجامع الخُصية من أصل القضيب، حتّى إذا نَدَرَت البيضة، وَجَحَظَت الخُصية، وجأها حتى يَرْضُها، فهي عند ذلك تذبل وتنخسف، وتذوي وتستدق، حتى تذهب قواها، وتنسد المجاري إليها، ويسري ذلك الفساد إلى موضع تربية النُطفة، فيمنعها من أن تكثر أو تعذب أو تخثر. ومنها ما يكون بالشدِّ والعصب، وشدّة التحزيق، والعقد بالخيط الشديد الوتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عمل فيه وحز، أو أكل ومنعه من أن يجري إليه الغذاء، فلا يلبث أن ينقطع ويسقط. ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين.

(خصاء الناس)

فأما خصاء الناس، فإنّ للخاصي حديدة مرهقة مُحَمّاة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة. قال أبو زيد: [يقال] خَصَّيت الدابة أَخَصَّيها خِصاءً، ووجأتها أجؤها وجاءً. ويقال: برئت إليك من الخِصاء أو الوجاء، ولا يقال ذلك إلاّ لما كان قريب العهد لم يبرأ منه، فإذا برئ لم يُقَلْ له⁽⁴⁾، وأما الخِصاء فهو أن يسَلَّ الخُصيتين، والوجاء أن توجأ العروق والخُصيتان على حالهما. والمعصوب من التيوس الذي تُعَصَّب خُصيتاه حتى تسقطا. والواحد من الخصيان خَصِيٌّ ومَخْصِيٌّ. ويقال ملست الخُصيتين أَمْلَسُهُما مَلْساً، ومَتْنَتُهُما أَمْتَنُهُما مَتْنًا، وذلك أن تشقَّ عنهما الصَّفَن فتسلَّهُما بعروقهما. والصَّفَن: جلدة الخُصيتين.

(1) ل: «مجرّحاً مطرّحاً».

(2) اللسان: السدم: الذي يرغب عن فحلته، فيحال بينه وبين ألفه، ويقيد إذا هاج، فيرعى حوالي الدار، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه. قال الوليد بن عقبة:

قطعت الدهر كالسدم المعنى تهدر في دمشق وما تريم

(3) ل: «سريحة».

(4) في الأصل: «لم يقله» وهو خطأ في الرسم أوجه تكرار اللام، والوجه ما كتبت.

(خصاء البهائم والديكة)

والخصاء في أحداث البهائم، وفي الغنم خاصة، يدع اللحم رخصاً وندياً عذبا؛ فإن خصاه بعد الكبر، لم يقو خصاؤه - بعد استحكام القوة - على قلب طباعه. وأجود الخصاء ما كان في الصغر، وهو يسمى بالفارسية ثربخت⁽¹⁾ يعنى بذلك أنه خصي رطباً. والخصي من فحولها أحمل للشحم، لعدم الهيج والتعظ، وخروج قواه مع ماء الفحلة⁽²⁾. وكثرة السفاد تورث الضعف والهزال في جميع الحيوان. وقد ذكر لمعاوية كثرة الجماع فقال: ما استهتر به أحد إلا رأيت ذلك في منته⁽³⁾. والديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويحمل الشحم.

(خصاء العرب لفحولة الإبل)

وكانت العرب تخصي فحولة الإبل لئلا يأكل بعضها بعضاً، وتستبقي ما كان أجود ضرباً، وأكثر نسلأ، وكل ما كان مثنأ⁽⁴⁾ وكان شاباً ولم يكن مذكراً، وهم يسمون الإذكار المحق الخفي⁽⁵⁾، وما كان منها عيائاً طباقاً، فمنها ما يجعل السدم المعنى. وإذا كان الفحل لا يتخذ للضراب، شدوا ثيله شداً شديداً، وتركوه يهدر ويُقَبِّب في الهجمة، ولا يصل إليهن وإن أردنه، فإذا طلبن الفحل جيء لهن بفحل قعسري⁽⁶⁾ ويقولون: «لَقُوَّة لَأَقْت قَبِيساً!». والقَبِيس من الجمال: السريع الإلقاح، والقوة: السريعة القبول لماء الفحل.

وشكت امرأة زوجها، وأخبرت عن جهله بإتيان النساء، وعييه وعجزه، وأنه إذا سقط عليها أطبق صدره - والنساء يكرهن وفوق صدور الرجال على صدورهن - فقالت: زوّجي عيائاً طباقاً، وكل داء له داء!! وقال الشاعر:

طَبَاقَاءَ لَمْ يَشْهَدْ خُصُوماً وَلَمْ يَفُذْ رِكَاباً إِلَى أَكْوَارِهَا حِينَ تَعَكْفُ⁽⁷⁾

(1) ط: «بريخت».

(2) ط: «عما يجامع الفحلة» وهو تحريف.

(3) ط: «متنه». والمنة: القوة. والخبر في البيان 2: 81، وكتاب البغال 304.

(4) ط: «ماسا» وهو تحريف صوابه في ل.

(5) ط: «وهم يسمون المذكر المحق الخفي» وهو تحريف ما في ل.

(6) القعسري: الضخم الشديد. وفي الأمبروزيانا: «نحي وجيء لهن بفحل قبيس».

(7) ط: «لم يكن» و«حين تعلف» وفي ل والإمبروزيانا «لم ينخ» و«حين تعكف» وأصلحت البيت كما ترى من ل

والبيان 1: 110.

(خصاء العرب للخيل)

وكانوا يَخْصُون الخيل لشبيهه بذلك⁽¹⁾، ولعلَّة⁽²⁾ سهيلها ليلة البَيَات، وإذا أكمَنوا الكُمَناء أو كانوا هُرَابًا.

(القول في كلمة خنذيد)

ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيد⁽³⁾ في الخيل هو الخصيُّ، وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَّاف بن نَدْبَة: وخنذايذ خصيَّةً وفُحولاً⁽⁴⁾.

وقال بشرُّ بن أبي حَازم:

وخنذيدٌ تَرَى الغُرْمُولَ مِنْهُ كَطِيِّ البُرْدِ يطويه التَّجَارُ⁽⁵⁾

وليس هذا أرادَ بشرُّ، وإنَّما أرادَ زمانَ الغزو، والحالَ التي يعتري الخيلَ فيها هذا المعنى، كما قال جد الأَحيمِر⁽⁶⁾:

لا لا أَعْلَقُ ولا أَحُوسُ ب ولا أُغَيِّرُ على مُضَرٍ
لكنَّما غَزَوِي إذا ضَجَّ المَطِيَّ من الدَّبَرِ

وإنَّما فخر بالغزو في ذلك الزمان. وأما الخنذيد فهو الكريم التام، وربَّما وصفوا به الرجل. وقال كثير:

على كل خنذيد الضُّحَى متمطرٌ وخَيْفَانَةٌ قد هذَّبَ الجري آلها⁽⁷⁾

وقال القطامي:

[على] كلَّ خنذيد السَّراة مُقْلَصٍ تخنَّتَ مِنْهُ لحمُه المتكاوِسُ⁽⁸⁾

ومن الدليل على أنَّهم ربما جعلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيداً، قولُ بعضِ القيسيين⁽⁹⁾، مِنْ قيسِ بنِ ثعلبة:

(1) ط: «للتشبه بذلك».

(2) ل: «ولقلة».

(3) يتكرر في ط رسم هذه الكلمة ومشابهاتها برسم «خنزير» و«خنزير» وهو تصحيف أصلحته من ل، ومن اللسان، ومن البيان 2: 11-12 وأدب الكاتب 163 والاعتضاب 362 وصحاح الجوهري.

(4) البيت منسوب في البيان 2: 11 إلى البرجمي، وهو في اللسان خفاف بن عبد قيس بن البراجم، وفي الصحاح خفاف بن قيس، فيكون غير خفاف بن ندبة، إذ أن ابن ندبة من بني الشريد، وهو ابن عم الخنساء، وليس بنو الشريد من البراجم. وصدر البيت المذكور هو كما في اللسان: *وبراذين كأبيات وأتانا*.

(5) البيت في البيان 2: 11.

(6) في الأصل «جد الأَحيمِر» وتصحيحه من بيان الجاحظ 3: 200 والأحيمر السعدي شاعر كان من لصوص العرب مثل عبيد بن أيوب العنبري. وله ترجمة في الشعراء لابن قتيبة. وأما جده فهو الحارث بن يزيد كما في البيان.

(7) المتمطر: السريع. وهي في الأصل «متمطرًا» وليس بشيء. وآلها: شخصها.

(8) الزيادة من ل.

(9) ط: «القيسين» وهو تحريف. والبيت في البيان 2: 12 منسوباً إلى العبيسي، فصوابه القيسي.

دَعَوْتُ بَنِي سَعْدٍ إِلَى فِشْمَرْتِ خَنَازِيذُ مِنْ سَعْدٍ طَوَالَ السَّوَاعِدِ
(عبد الله بن الحارث وعبد الملك بن مروان)

وقال عبد الله بن الحارث، وكتب بها إلى عبد الملك بن مروان، حين فارق مُصْعَباً:
بِأَيِّ بَلَاءٍ أُمَ بَأْيَةَ عِلَّةٍ يُقَدِّمُ قَبْلِي مُسْلِمٌ وَالْمَهْلَبُ
وَيُدْعَى ابْنُ مَنْجُوفٍ أُمَامِي كَأَنَّهُ خَصِيٌّ دَنَا لِلْمَاءِ مِنْ غَيْرِ مَشْرَبٍ⁽¹⁾
فقلت ليونس: أقوى! فقال: الإقواء أحسن من هذا! قال: فلما أخذته قيس نصبوه،
فجعلوا يرؤونه بالنبل ويقولون: أذات مغازل⁽²⁾ ترى؟! [يريدون بيت ابن الحر]⁽³⁾:

أَلَمْ تَرِ قَيْسًا - قَيْسَ عِيْلَانَ - بَرَقَتْ لِحَاهَا وَبَاعَتْ نَبْلَهَا بِالْمَغَازِلِ
فلما أتى مُصْعَبُ برأسه، قال لسويد: يأبا المنهال! كيف ترى؟ قال: أيها الأمير! هو
والله الذي أتى الماء من غير مشرب. وقال أعشى همدان:
وَأَبُو بَرِيذَةَ الَّذِي حُدَّتْهُ فِينَا أَذْلُ مِنَ الْخَصِيِّ الدَّيْزِجِ⁽⁴⁾
وتعرض للخصي سرعة الدمعة، وذلك من عادة طبائع الصبيان ثم النساء، فإنه ليس بعد
الصبيان أغزر دمعة من النساء، وكفاك بالشيخ الهرمين.

(أخلاق الخصي)

ويعرض للخصي العبث واللعب بالطير، وما أشبه ذلك من أخلاق النساء، وهو من
أخلاق الصبيان أيضاً. ويعرض له الشره عند الطعام، والبخل عليه، والشح العام في كل
شيء، وذلك من أخلاق الصبيان [ثم النساء]⁽⁵⁾. وقال الشاعر:

كَأَنَّ أَبَا رُومَانَ قَيْسًا إِذَا غَدَا خَصِيٌّ بَرَاذِينَ يُقَادِرُهُ يَصُ
لَهُ مَعْدَةٌ لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ ضَعْفَهَا وَحَنْجَرَةً بِالدُّورِقِينَ قَمُوصُ
ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء. ويعرض
له حب النميمة، وضيق الصدر بما أودع من السر، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء،

(1) ط: «ويدعى ابن منجوت» والصواب «ابن منجوف» واسمه سويد، وله أخبار في البيان والأغاني.

(2) ط: «منازل» بالنون.

(3) هو عبيد الله بن الحر الجعفي، قائد من قواد العرب، كان من أصحاب عثمان رضي الله عنه، وبعد مقتله انحاز إلى معاوية، وشهد صفين. وكان له منازعات مع مصعب بن الزبير، ولما خاف من الأسر، ألقى بنفسه في الفرات، فمات غريقاً سنة 68هـ.

(4) ط: «الريذج» والصواب ما أثبت من ل. والديزج: قال ابن قتيبة في أدب الكاتب 105: «الأخضر هو في كلام العجم الديزج». وقال الإسكافي في مبادئ اللغة 123: «والأخضر الأطخم المسمى بالفارسية الديزج».

(5) التكملة من نسخة الأمبروزيانا.

ويعرض له دون أخيه لأُمّه وأبيه، ودون ابن عمّه وجميع رَهطه، البَصْرُ بالرفْع والوَضْع، والكنسِ والرَّش، والطَّرْح والبَسْط، والصبرُ على الخدمة، وذلك يعرض للنساء. ويعرض له الصبرُ على الركوب، والقوّة على كثرة الركض حتّى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج. ومتى دَفَع إليه مَولاه دابّته ودخل إلى الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعود مريضاً، لم يترك أن يُجرى تلك الدابّة ذاهباً وجائياً، إلى رجوع مَولاه إليه. ويعرض له حبُّ الرمي بالنشّاب، لِذِي يدور في نفسه من حبّ غزو الرُّوم. ويعرض له حبُّ أن تملكه الملوك، على ألاّ تقيم له إلاّ القوت، ويكون ذلك أحبّ إليه من أن تملكه السُّوقه، وإن ألحقته بعيش الملوك!!

ومن العجب أنّهم مع خروجهم من شَطْر طبائع الرجال، إلى طبائع النساء، لا يعرض لهم التخنيث. وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفكّكاً، ومؤنثاً يسيل سَيْلاً، ورأيت عدّة مجانيّن مخنّثين، ورأيت ذلك في الزنج الأثقاح. وقد خبرني من رأى كُرديّاً مخنثاً، ولم أرَ خَصِيّاً قط مخنثاً⁽¹⁾، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانع منه. ولو كان الأمر في ذلك إلى ظاهر الرأي، لَقَدْ كان ينبغي لهم أن يكون ذلك فيهم عامّاً⁽²⁾! ومما يزيدني في التعجب من هذا الباب، كثرة ما يعرض لهم من الحَلّاق⁽³⁾، مع قلة ما يعرض لهم من التخنيث، مع مفارقتهم لشَطْر معاني الرجال إلى شبه النساء.

ويزعم كثير من الشيوخ المعمّرين؛ وأهل التجربة المميّزين، أنّهم اختبروا أعمارَ ضُروبِ الناس، فوجدوا طول⁽⁴⁾ الأعمارِ في الخَصِيان أعمّ منه في مثل أعدادهم⁽⁵⁾ من جميع أجناس الرجال، وأنّهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتهم وبنِي أعمامهم الذي لم يُخصّصوا، فوجدوا طول العُمُر في الخَصِيان أعمّ؛ ولم يجدوا في عموم طوال العمر فيهم واحداً نادراً؛ كفلانٍ وفلانٍ من الفحول. وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارهم علةً إلاّ عدم النكاح، وقلة استفراغ التُّطف لقوى أصلاهم.

قالوا: وكذلك لم نجد فيما عايش الناس في دُورهم، من الخيل والإبل، والحمير، والبقر، والغنم، والكلاب، والدجاج، والحمام، والديكة، والعصافير؛ أطول أعماراً من البغال. وكذلك قالوا: وجدنا أقلّها أعماراً العصافير. وليس ذلك إلاّ لكثرة سفادِ العصافير وقلة سفادِ البغال. وجعل هؤلاء القومُ. زيادةَ عمر البغلِ على عمر أبيه دليلاً على أنّ قول الناس: لا يعيش أحدٌ فوق عمر أبيه خطأ. وأولئك إنما عنوا الناس دون جميع الحيوان.

(1) هذه الجملة ساقطة من ل.

(2) في الأصل: «ولكن كان الأمر . . . ولقد . . . إلخ» وقد قومت العبارة بما ترى.

(3) الحلاق، كغراب: أن يفسد متاعه، فينعكس ميله الجنسي.

(4) ط: «أطول» وتصحيحه من ل، وانظر مفاخرة الجوّاري والغلمان 124.

(5) الأعداد: جمع عد بمعنى الند وزنته، فالأعداد: الأنداد.

(التاج المركب)

وقالوا: قد وجدنا غُرمولَ البغل أطولَ من غرمول الحمار والفرس والبرذون؛ وهؤلاء أعمامُهُ وأخواله؛ فقد وجدنا بعض التَّاجِ المركَّب، وبعضُ الفروع المستخرجة، أعظمَ من الأصل؛ ووجدنا الحمام الرَّاعبي⁽¹⁾ أعظمَ من الوَرَّشان الذي هو أبوه، ومن الحمامة التي هي أمُّه؛ ولم نجدَه أخذَ من عمر الوَرَّشان شيئاً؛ وخرج صَوْتُه من تقدير أصواتهما؛ كما خرج شَحِيجُ البُغْل من نهيق الحمار وصهيل الفرس. وخرج الرَّاعبي مُسرولاً؛ ولم يكن ذلك في أبويه؛ وخرج مُثَقلاً سيء الهداية. وللورشان هداية، وإن كان دون الحمام؛ وجاء أعظمُ جُثَّة من أبويه؛ ومقدارُ النَّفس من ابتداء هَدْيِهِ إلى منقطعه؛ أضعافُ مقدارِ هديل أبويه.

وفوالجُ البُخْتِ إذا ضربت في إناث البُخْت؛ لم يخرج الحوَّارُ إلاَّ أَدَنَ⁽²⁾ قصيرَ العُنق؛ لا ينال كلاً ولا ماءً إلاَّ بأن يُرْفَعَا إليه؛ فيصيرُ - لمكان نُقْصان خلقه - جزورَ لحم؛ ولا يكون من اليعملات ولا من السابقة؛ ولو عَالُوهُ وكَفُوهُ مُؤَنَّة تكلف⁽³⁾ المأكول والمشروب، ثم بلغَ إلى أن يصيرَ جملاً يمكنه الضَّرَاب. وكذلك [الأُنثى التي هي] الحائل إلى أن تصيرَ ناقة؛ فلو أَلْقَحَهَا الفحلُ لجاء ولدها أقصرَ عنقاً من الفيل، الذي لو لم يجعل الله تعالى له خُروطاً يتناولُ به طعامه وشرابه، لَمَات جُوعاً وهزالاً؛ وليس كذلك العَرَاب. وإذا ضربت الفوالجُ في العراب جاءت هذه الجوامز⁽⁴⁾ والبُخْتُ الكريمة التي تجمع عامة خصال العراب وخصال البُخْت؛ فيكون ما يُخْرِج التركيبُ من هذين الجنسَيْن أكرمَ وأفخمَ وأنفس وأثمن. ومتى ضربت فحول العراب في إناث البُخْت جاءت هذه الإبلُ البَهْوِيَّة⁽⁵⁾ [والصَّرصَرَانِيَّة⁽⁶⁾] فتخرج أقربَ منظراً من أبويها، وأشدَّ أسراً من أبويه. [وقال الراجز: ولا بهوني من الأباعر].

وبعد؛ فإنَّ هذه الشَّهْرِيَّةُ الخُراسَانِيَّة؛ يخرج لها أبدانٌ فوق أبدانِ أمهاتِها وآبائِها من الخيل والبراذين؛ وتأخذ من عَثَق الخيل، ومن وثاجة⁽⁷⁾ البراذين؛ وليس نتاجها كنتاج البرذون خالصاً والفرس خالصاً.

وما أشبه قرابة الحمار بالرمكة والحجر؛ من قرابة الجمل الفالج البُخْتِي بقرابة القلوص الأعرابيَّة.

(1) ط: «الزاعبي» والصواب ما في ل. قال في المجلد: الحمامة الراعية: ترعب في صوتها ترعيباً، وذلك قوة صوتها. تاج العروس.

(2) ط: «أثانا» وهو تصحيف عجيب، أبدلته بما في ل. والدنن، محركة: انحناء في الظهر، ودنو وتطامن في الصدر والعنق، وهو أدن، وهي دناء.

(3) ط: «تكليف». (4) ط: «الجواميز».

(5) ط: «البهوتية». ل: «البهونية» وكلاهما تحريف، وقد جاء في القاموس: «والبهونية من الإبل ما بين الكرمانية والعربية». وجاء في المخصص 7: 135 واللسان: «والبهنوي - بتقديم النون - من الإبل: ما بين الكرمانية والعربية، وهو دخيل في العربية».

(6) في القاموس والمخصص: «الصرصرانيات: بين البختي والعراب؛ أو الفوالج» وفي الأصل: «وهي الصرصرانية»، وإنما هما ضربان.

(7) ط: «وشاجة» وإنما هي «وثاجة» كما في ل. والوثاجة: الاكتناز.

(الحمر الوحشية)

ويقال: إن الحمر الوحشية؛ وبخاصة الأخرية؛ أطول الحمر أعماراً وإنما هي من نتاج الأخر؛ فرس كان لأردشير بن بابك صار وحشياً⁽¹⁾ فحمى عدة عانات فضرِبَ فيها، فجاء أولاده منها أعظم من سائر الحمر وأحسن، وخرجت أعمارها من أعمار الخيل وسائر الحمر - أعني حمر الوحش - فإن أعمارها تزيد على الأهلية مراراً عدة.

(غير أبي سيارة)

ولا يعرفون حماراً وحشياً عاش أكثر وعمر أطول من غير أبي سيارة عميلة بن أعزل⁽²⁾؛ فإنهم لا يشكون أنه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عاماً!! قال الأصمعي: لم يكن غيراً وإنما كان أناناً.

(لهج ملوك فارس بالصيد)

وزعموا - وكذلك هو في كتبهم - أن ملوك فارس؛ كانت لهجة بالصيد؛ إلا أن بهرام [جور] هو المشهور بذلك في العوام وهم يزعمون أن فيروز بن قباد⁽³⁾ الملك الفارسي؛ ألح في طلب حمار أخدري؛ وقد ذكر له ووصف؛ فطاوله عند طلبه والتماسه؛ وجد في ذلك فلج به عند طلبه الاغترام؛ وأخرجته الحفيظة إلى أن ألى ألا يأخذها إلا أسراً؛ ولا يطارده إلا فرداً؛ فحمل فرسه عليه⁽⁴⁾؛ فحطه في حبار⁽⁵⁾ فجمع جراميزه وهو على فرسه ووثب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمص به، فضم فخذه فحطم بعض أضلاعه؛ ثم أقبل به إلى معظم الناس؛ وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.

قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذ غيراً أخدرياً وغير ذلك؛ فإذا وجدته فتياً⁽⁶⁾ وسمه باسمه⁽⁷⁾ وأرضخ في اسمه يوم صيده وخلق سبيله؛ وكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم به بعده؛ سار فيه مثله تلك السيرة وخلق سبيله؛ فعرف آخرهم صنيع أولهم؛ وعرفوا مقدار مقادير أعمارها.

(1) ط: «صار حماراً وحشياً» والصواب ما أبدلت من ل و «س».

(2) ط: «عميلة بن أعزل» وإنما هو «عميلة» بالعين كما في ل والبيان 1: 307 وفيه قال عيسى بن حاضر: لو أراد أبو سيارة عميلة بن أعزل أن يدفع بالموسم على فرس عربي أو جمل مهري لفعل، ولكنه ركب غيراً أربعين عاماً، لأنه كان يتأله اهـ. وقد أفاض الثعالبي في ثمار القلوب في الحديث عنه ص 295.

(3) ط: «فيروز بن قباد» وتصويبه من ل.

(4) ط: «إلا فرداً» اقتداراً لخيار الأرض الرخوة فحمل عليه» بإقحام الجملة الموضوعية بين قوسين كبيرين، وواضح أنها تعليق لأحد الكتاب، حيث فسر الخبر بأنه الأرض الرخوة، وصحفها آخر فجعلها «لخيار».

(5) ط: «خيار» وصوابه في ل.

(6) ط: «متيئاً».

(7) ط: «وسمه باسم».

(الحكمة في تخالف النزعات والميول)

ولولا أن ناساً من كل جيل، وخصائص من كل أمة، يلهجون ويكلفون بتعريف معاني آخرين لدرست، ولعل كثيراً من هؤلاء يُزرى على أولئك، ويعجب الناس من تفرغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغل بما يُجدي، فالذي حَبَّ لهذا أن يرصد عمر حمار أو ورشان أو حية أو ضب، هو الذي حَبَّ إلى الآخر أن يكون صياداً للأفاعي والحيات، يتتبعها ويطلبها في كل وادٍ وموضع وجبل للترياقات. وسخر هذا ليكون سائس الأسد والفهود والثمور والبيور⁽¹⁾، وترك من تلقاء نفسه أن يكون راعي غنم!! والذي فرّق هذه الأقسام، وسخر هذه النفوس، وصرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافنها، وهذه المعاني من مخايبها، هو الذي سخر بطليموس مع ملكه⁽²⁾، فلاناً وفلاناً للتفرغ للأمور السماوية، ولرعاية النجوم واختلاف مسير الكواكب. وكل ميسر لما خلق له، لتتم النعمة⁽³⁾ ولتكمّل المعرفة، وإنما تأبى التيسير للمعاصي⁽⁴⁾.

فأما الصناعات فقد تقصّر الأسباب بعض الناس على أن يصير حائكاً. وتقصّر بعضهم على أن يكون صيرفيّاً، فهي وإن قصّرت على الحياة، فلم تقصّره على خلف المواعيد وعلى إبدال الغزول؛ وعلى تشقيق العمل دون الإحكام والصدق وأداء الأمانة؛ ولم تقصّر الصيرفي على التطفيف⁽⁵⁾ في الوزن والتغليط في الحساب؛ وعلى دس المموه؛ تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً.

(خضوع التاج المركب للطبيعة)

ولو كان أمر التّاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج؛ إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظن؛ لكانت الأظلاف⁽⁶⁾ تجري مجرى الحوافر والأخفاف. ألا ترى أن قرابة الضأن من الماعز؛ كقرابة البُخت من العراب؛ والخيّل من الحمير!! وسبيل نتائج الطّلف على خلاف ذلك؛ لأنّ التيسر - على شدة لُمته - لا يعرض للنعجة [إلا بالقليل الذي لا يُذكر. وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إما ألا يتم خلقه، وإما ألا يعيش⁽⁷⁾]؛ وكذلك الكيش والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج⁽⁸⁾ لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه؛ ولا يكون اللّقاح إلا بعد ضراب.

(1) في الأصل: «البيور» وإنما هي «البيور» جمع ببر، وللغريق المعلوف كلام جيد في التعريف بهذا الحيوان ص 248 من معجمه.

(2) يرى الجاحظ - كما يرى بعض المؤرخين - أن بطليموس كان ملكاً من ملوك البطالسة اليونانيين، وللقفطي تحقيق دقيق في هذا الوهم في كتابه ص 68.

(3) ط: «لتتم النعمة».

(4) ل: «وإنما تأبى التيسير للمعاصي». . والمعتزلة يربثون به تعالى عن نسبة الشر أصلاً.

(5) ل: «التطفيف». (6) ط: «الأخفاف».

(7) التكملة من الأمبروزيانا. (8) ط: «فيهما نتائج».

وطلب التيس للنعجة قليل⁽¹⁾ وأقل من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقل من ذلك أن تتلاقح⁽²⁾ ولا يبقى ذلك الولد ألبنة⁽³⁾. وقد تجاسر ناس على توليد أبواب من هذا الشكل؛ فادعوا أموراً؛ ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان!!

(زعم في الزرافة)

زعموا أن الزرافة خلق مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية وبين الذئخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنهم لما رأوا أن اسمها⁽⁴⁾ بالفارسية (أشتركاو بلنك⁽⁵⁾)؛ وتأويل (أشتر) بعير، وتأويل «كاو» بقرة، وتأويل «بلنك»⁽⁶⁾ الضبع؛ لأن الضباع عرج، كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُماع؛ كما عرض للذئب القزل - وكل ذئب أقزل - وكما أن كل غراب يحجل كما يحجل المقيّد من الناس، وكما أن العصفور لا يمشي، ومشيّه أن يجمع رجله أبداً معاً في كل حركة وسكون. وقولهم للزرافة أشتركاو بلنك اسم فارسي؛ والفرس تسمى الأشياء بالاشتقاق؛ كما تقول للنعام: اشتر مرغ؛ وكأنهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعام نتاج ما بين الإبل والطير؛ ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سمّوها بذئبك الشيين. وهم يسمون الشيء المرّ الحلو «ترش شيرين» وهو في التفسير حلو حامض. فجسر القوم فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً⁽⁷⁾؛ وجعلوا الخلقة ضرباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعرض الذئخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسندّها، فتلقح بولد يجيء خلقه ما بين خلق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض⁽⁸⁾ لها الثور الوحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة؛ وإن كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها فتلد زرافة. فمنهم من حجر ألبنة أن تكون الزرافة الأنثى تلحق من الزرافة الذكر؛ وزعموا أن كل زرافة في الأرض، فإنما⁽⁹⁾ هي من النتاج الذي ركبوا؛ وزعموا أن ذلك مشهور في بلاد الحبشة؛ وأفاصي اليمن. وقال آخرون: ليس كل خلق مركب لا ينسل ولا يبقى نجله ولا يتلاقح نسله؛ على ما حكينا من شأن الورشان والزاعبي⁽¹⁰⁾. وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتعزهم كثرة أتباعهم ممن تجدهم مستهتراً بسماع الغريب، ومغرمات بالطرائف والبدائع. ولو أعطوا مع هذا الاستهتار⁽¹¹⁾ نصيباً من الثبوت، وحظاً من التوقي؛ لسلمت الكتب من كثير من الفساد.

(1) ما عدا الأمبروزيانا: «ويطلب التيس للنعجة قليلاً».

(2) في معظم النسخ: «ألا تتلاقح» صوابه من الأمبروزيانا.

(3) الكلام من «وطلب» إلخ ساقط من ل. ما عدا الأمبروزيانا: «ولا يمنع ذلك» تحريف.

(4) ط: «أسماءها» وهو تحريف ظاهر.

(5) ط: «أشتركاو بلنك».

(6) ط: «بلنك».

(7) ط: «فوضعوا لتفسير اسمها للزرافة حديثاً».

(8) ط: «فيرض لها».

(9) ط: «إنما».

(10) ط، ل: «الورداني والزاعبي» وهو تحريف صوابه ما كتبت كما في ص 115 من هذا الجزء.

(11) ط: «ولو أعطوا بدلاً من هذا الاستهتار».

(التاج المركب في الطيور)

وأنا رأيت طائراً له صوتٌ غير حسن؛ فقال لي صاحب الطيور: إنه من نتاج ما بين القمر^(١) والفاخته^(٢). وقُتَّاص الطير، ومن يأتي كلَّ أوقه^(٣) وغيضة في التماس الصيد؛ يزعمون أنَّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي على المياه فتتسافد؛ وأنَّهم لا يزالون أشكالا لم يروها قط؛ فيقدِّرون أنَّها من تلاقح تلك المختلفة.

(زعم بعض الأعراب في الحرباء)

وقال أبو زيد النحوي، وذكر عمَّن لقي من الأعراب أنَّهم زعموا أنَّ ذكر أم حُبَيْن هو الحرباء. قال: وسمعت أعرابياً من قيس يقول لأم حُبَيْن حُبينة، والحُبينة هو اسمها. قال: وقيس تسمي ذكر العظاء العُضرفوط.

وقال يحيى الأغر: سمعت أعرابياً يقول: لا خير في العظاء، وإن كان ضباً مَكُوناً. قال: فإذا سأم أبرص، والورل، والوحر، والضب والحلكاء، كلُّها عنده عظاء.

(ولد الثعلب من الهرة الوحشية)

وزعم يحيى بن نُجَيْم^(٤) أنَّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ، وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَبوكَ أَبوكَ وَأَنْتَ أَبْنُوه فَبئسَ البُنْيُ وبئسَ الأبُ
وَأُمُّكَ سَوْدَاءُ نُوبِيَّةٌ كَأَنَّ أُنَامِلَهَا العَنْظَبُ^(٥)
يَبِيتُ أَبوكَ بِهَا مُغْدِفًا^(٦) كَمَا سَاوَرَ الْهَرَّةَ الثَّعْلَبُ
وَأَنْشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ قَوْلَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ:

(١) ابن سيده: «القمرى: طائر صغير من الحمام».

(٢) الدميري: «الفاخته: واحدة الفواخت من ذوات الأطواق». ابن سيده: «ضرب من الحمام المطوق، واشتقاق الفاخته من الفخت وهو القمر أول ما يبدو للونها».

(٣) ط: «أودية» وهو تحريف صوابه في ل. والأوقه بالضم: محضن الطير على رءوس الجبال.

(٤) ط، و «ش»: «عليه».

(٥) العنظب: الذكر من الجراد. ويروى «الحنظب» كما في الدميري 2: 396 والديوان 61 والحنظب: الذكر من الجراد، أو الخنفساء أو ضرب آخر من الخلق المركب. وفي الأصول «سوداء ما دونه» وتصحيحه من الدميري والديوان.

(٦) ل: «مغدفاً» وفي الدميري: «سافداً» وصواب أولاهما بالفاء كما أثبت فتكون بذلك مساوية للثانية في المعنى. وفي ط: «معرباً» كما في الديوان، أي سافداً.

أَبْلَغُ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ مُغْلَغَلَةً عَنِ الرَّجُلِ الْيَمَانِي
أَتَغَضَّبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ عَفٌّ وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ زَانِي
فَأَشْهَدُ أَنَّ رَحِمَكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَرِحِمِ الْفِيلِ مِنْ وَلَدِ الْأَنْثَانِ^(١)
قال كيسان: ولأي شيء قال:

كرحم الفيل من ولد الأنثان

إنما كان ينبغي أن يقول: كرحم الفيل من الخنزير. قال أبو عبيدة: أراد هو التباعد بعينه؛ وأنت تريد ما هو أقرب.

(زعم بعض المفسرين والأخباريين في حيوان سفينة نوح)

وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار، أنَّ أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر، فعطس الأسد عطسة فرمى من منخره بزوج سنانير؛ فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد. وسلح الفيل زوج خنازير، فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل. قال كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها. [قال أبو عبيدة لكيسان: أولم تعلم أنت أن لكل جنس من الحيوان آدم وحواء؟!] وضحك [فضحك] القوم.

(شره سعد القرقرة)

ولما رأى أبو قردودة سعد القرقرة، أكل عند النعمان مسلوخاً بعظامه قال:

بين النعام وبين الكلب منبته وفي الذئب له ظئر وأحوال^(٢)

يقول: إنَّ سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام^(٣) الذي يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطغى الجمر ويُميع الصخر^(٤)، وضرب في أعراقه [نجر^(٥)] الكلب الذي يرض كل عظم، ولا يقبض عليه بكفه إلا هو واثق بفتته، ولا يسيغه إلا وهو على ثقة من استمرائه^(٦). فأما

(١) في ط: «فأشهد أن آلك» و«آلك» محرف «إلك»، والرواية المشهورة: «من زياد» وأثبت ما في ل.. والأبيات في الحيوان 7: 154 والخزانة 2: 518 بولاق منسوبة كذلك إلى عبد الرحمن بن الحكم أخي مروان بن الحكم. وهي في الشعراء لابن قتيبة 79 والموشح 273 منسوبة إلى يزيد بن مفرغ. وفي الأغاني 12: 71: «والناس ينسبون لها إلى ابن مفرغ لكثرة هجائه لزياد. وذلك غلط».

(٢) ط: «وفي الذئب ظئيرات وأحوال».

(٣) في الأصول: «نجل» باللام، وإنما هو «نجر» بالراء بمعنى الطبع.

(٤) ط: «يُميع» وإنما هي «يُميع» بمعنى يسيل كما في ل.

(٥) زيادة يفتقر إليها الكلام.

(٦) في ل زيادة بعد هذا الكلام لم أر إثباتها في الصلب لانبهاهما وهي: «ما كان يمكنه أن يأكل في مقعد ما أكل».

الذئب فإنه لا يروم بفكيه شيئاً إلا ابتلعه بغير معاناة، عظماً كان أو غيره، مصمتاً كان أو أجوف. ولذلك قال الراجز⁽¹⁾:

أَطْلَسْ يُخْفِي شَخْصَهُ غَبَارُهُ فِي فَمِهِ شَفْرَتُهُ وَنَارُهُ

فأبو قردودة لم يرد أن الذئب والكلب خالاه، وأن النعام نجله، وإنما قال ذلك على المثل والتشبيه، ولم يرد أن له ظئراً من الكلاب، وخالا من الذئاب. وشبيه ذلك⁽²⁾ قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس يا نطف الخمارين⁽³⁾، ونزاع الطئورة، وأشباه الخئولة.

وعلى شبيه بذلك قال سلم بن قتيبة⁽⁴⁾ لبعض من ذكره، وهو عند سليمان بن علي: أيها الأمير، إن آل فلان أعلاج خلق الله وأوباشه، لثام غدر، شرابون بأنثع⁽⁵⁾، ثم هذا بعد في نفسه، نطفة خمار في رجم صناجة.

(زواج الأجناس المتباينة من الناس)

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس - وأبو العباس هذا كان ختن إبراهيم على أخته، وكان رجلاً يدين بالنجوم، ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجري على الطباع. قال أبو إسحاق: وقال لي مرة: أتعرف موضع الخطوة من خلوة النساء؟ قلت: لا والله لا أعرفه. قال: بل اعلم أن لا يكون الخط إلا في نتاج شكيلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدي إلى الخلاص: وهوان تزواج بين هندية وخراساني، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز. ولكن احرس ولدها؛ إن كان الولد أنثى فاحذر عليها من شدة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلم أن شهوتها للرجال على قدر خطوتها عندهم، واعلم أنها ستساق النساء على أعراق الخراسانية، وتزني بالرجال على أعراق الهند، واعلم أنه مما يزيد في زناها ومساحتها معرفتها بالخطوة عند الزناة، وبالخط عند السحاقيات⁽⁶⁾.

(مما زعموا في الخلق المركب)

وقالوا في الخلق المركب ضروباً⁽⁷⁾ من الحق والباطل، ومن الصدق والكذب. فمن

(1) البيتان في البيان 1: 114 مضافاً إليهما بيتان آخران هما:

هو الخبيث عينه فراره بهم بني محارب مزداره

وقد تكلم كثير من العلماء في هذا الشعر. انظر الأمالي (3: 129) والكامل 208 والعمدة (1: 168) وديوان المعاني (2: 134).

(2) في الأصل: «وليس ذلك على» وهو تحريف. (3) في الأصول «الخمار» والوجه الجمع.

(4) ط: «سلام بن قتيبة» وإنما هو «سلم» كما في ل. وله أخبار في الأغاني.

(5) ط: «شرايون ما نفع لهم» والصواب ما في ل. والكلام مثل. والنفع بالفتح الماء المستنقع، جمعه أنقع، فيقال في المثل: إنه لشراب بأنقع. يضرب لمن جرب الأمور أو للداهي المنكر، لأن الدليل إذا عرف الفلوات حذق سلوك الطرق إلى الأنقع.

(6) ل: «عند النساء».

(7) الأمبروزيانا: «بضروب».

الباطل زعمهم أَنَّ الشَّبُوطَ ولد الزَّجَرِ ⁽¹⁾ من البُئِيِّ، وَأَنَّ الشَّبُوطَ لا يُخَلَقُ من الشَّبُوطِ، وَأَنَّهُ كالبَغْلِ في ⁽²⁾ تركيبه وإنساله، ورووا ذلك عن أبي وائلة إياس بن معاوية [بن قرّة].

وزعموا أَنَّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حَصَرَتْ ⁽³⁾ في حوض لها ضخمة أو بركة كبيرة عدداً كثيراً من الزجر والبُئِيِّ، وَأَنَّهَا لم تَخْلُطْ بهما غيرهما، فمات أكثره وبقيت بقية كانت الصميم في القوة، وفي احتمال تغيّر المكان فلم تحمل البيض حِيناً، ثُمَّ إِنَّهَا ⁽⁴⁾ حملت بالشبايط.

(مطر الضفادع والشبايط)

وزعم خريث أَنَّهُ كان بأيْدَج ⁽⁵⁾، فإذا سحابة [دهماء] طخياء ⁽⁶⁾ تكاد تَمَسُّ الأرض، وتكاد تَمَسُّ قِمَمَ رُءُوسهم، وَأَنَّهُمْ سمعوا فيها كأصوات المجانيق ⁽⁷⁾، وكَهدير الفحول في الأشوال، ثُمَّ إِنَّهَا دَفَعَتْ بأشدَّ مطر رُئي أو سُمِعَ به، حتى استسلموا للغرق؛ ثُمَّ اندفعت بالصفادع العظام ⁽⁸⁾، ثُمَّ اندفعت بالشبايط السَّمان الخِداَل ⁽⁹⁾ فطبخوا واشتَوَوْا، وملَّحوا وادَّخَرُوا.

(غرور أبي وائلة والخليل بن أحمد)

وروا عن أبي وائلة أَنَّهُ زعم أَنَّ من الدليل على أَنَّ الشَّبُوطَ كالبغل، أَنَّ النَّاسَ لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبايط في جوفها يَبُيْضُ قَطً. فَإِنْ كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل، المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً؛ وذلك أَنِّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس، يدلُّ على أَنَّ الرجلَ حينَ أَحَسَّنَ في أشياء وَهَمَهُ العَجْبُ بنفسه أَنَّهُ لا يرون شيئاً فيمتنع عليه، وغرَّه من نفسه الذي غرَّ الخليل بن أحمد، حينَ أَحَسَّنَ في النحو والعروض، فظنَّ أَنَّهُ يُحَسِّنُ الكلامَ وتأليف اللُّحُونِ، فكتبَ فيهما كتابين لا يُشِيرُ بهما ولا يدلُّ عليهما إلا المِرَّةَ المحترقة، ولا يؤدي إلى مثل ذلك إلا خِداَلان من الله تعالى؛ فَإِنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لا يُعْجزه شيء.

(بيض الشبوط وتناسله)

والشَّبُوطُ - حفظك الله تعالى - جنسٌ كثيرُ الذكور قليلُ الإناث، فلا يكون

(1) ط: «الزجر» بالخاء وإنما هو الزجر كما في ل. قال الفيروزيادي: سمك عظام.

(2) ما عدا الأميروزيانا: «وتركيبه». (3) ط: «حضرت».

(4) ط: «فلم تحمل البيض حمائم إنما» وتصحيحه من ل.

(5) في القاموس «أيذج كأحمد بلدة من كور الأهواز، وقرية بسمرقند».

(6) ط: «ضحياء» وصوابه ما في ل. والطخياء: الشديدة السواد.

(7) ل: «المجاش» وهي جمع مجش أو مجشة، وهي الرحي.

(8) انظر الاستدراكات ص: 287.

(9) ط: «الخزال» والصواب «الخداَل» كما في ل. والخداَل: جمع خدلة، وهي الممتلئة الأعضاء لحمًا في رقة عظام.

إنّاه أيضاً يجمعن البيض، وإذا جمعن فلو جمعت بيض عشرٍ منهنّ لما كان كَشَطْرَ بَيْضِ بُيَّةٍ واحدة. وقد رأيتُ بَيْضَ^(١) الشَّبُوطِ وذقته للتعرف فوجدته غير طائل، ولا مُعْجِبٍ. وكلُّ صيَّادٍ تسأله فهو يُنبئك أنّ له بيضاً، ولكنّه إذا كانَ يكونُ ضئيلاً قليلاً، لأنّ الشَّبَابِيظَ في أصلِ العدد من أقلّ السمك. وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مذكّراً.

(موطن الشبوط)

على أنّ ربّ نهر يكون أكثرُ سمكه الشَّبُوطِ، وذلك قليل، كنهر رَامْهُرْمَز. والشَّبُوط لا يترى في البحار، ولا يسكن إلا في الأودية والأنهار؛ ويكره الماء المالح ويطلب الأعذب فالأعذب؛ ويكون في الماء الجاري، ولا يكون في الساكن، وسنذكر شأنه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(رد على ما زعموا في الزرافة)

ولم يصب أبو واثلة، وكذبوا على أمّ جعفر. فإذا^(٢) قالوا في الزرافة ما قالوا^(٣) فلا تأمنهم على ما هو دونه. وإن كان من كذب على الموتى واستشهد الغيب أحذق، فصاحب الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحب الشَّبُوط يكذب على الأحياء، ويستشهد الحضور. وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق. فالجاموس بالفارسية كاوماش، وتأويله ضائيّ بقريّ؛ لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أنّ الكباش ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

(رأي للفرس في تقسيم الحيوان)

وزعم الفرس أنّ الحيوان كلّ الذي يلد حيواناً مثله ممّا يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن. والجواميس عندهم ضأن البقر، والبُخْت عندهم ضأن الإبل، والبراذين عندهم ضأن الخيل.

(زعم في الإبل)

والناس يقولون في الإبل أقاويل عجيبة: فمنهم من يزعم أنّ فيها عرقاً من سيفاد الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خُلِقَتْ من أعنان

(١) في الأصل: «فقد» والوجه ما أثبت. ما عدل «بعض».

(٢) ل: «وإذا».

(٣) انظر ص 118.

الشياطين^(١) فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته . وقال ابن ميادة :

فلما أتاني ما تقول مُحاربٌ تغنّت شياطين وجنّ جنونها

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال : إنّ الجنّ عملته .

وهم يسمّون الكبر والخنزوانة والنّعة التي تضاف إلى أنف المتكبر شيطاناً ، قال عمر :
حتى أنزع شيطانه ، كما قال : حتى أنزع النّعة التي في أنفه^(٢) . ويسمّون الحيّة إذا كانت داهية
منها شيطاناً ، وهو قولهم : شيطان الحماطة^(٣) ، قال الشاعر :

تعالج مثنى حُزرمي كأنه تعمّج شيطانٍ بذى خروع قفر^(٤)

شبه الزّمام بالحيّة . وعلى مثل ذلك قول الشاعر :

شناحية فيها شنّاح كأنها حباب بكف الشّأ من أسطح حشر^(٥)

والحباب : الحية الذكر ، وكذلك الأيم^(٦) . وقد نُهي عن الصلاة عند غيوبة الشمس ،
وعند طلوع القرص إلى أن يتتّم ذلك . وفي الحديث : «إنّها تطلع بين قرني شيطان» .

(ضرورة حذف اللغة للعالم والمتكلم)

فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية ، وموضعُ كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم ،
ولتلك الألفاظ مواضعٌ أخرى ، ولها حينئذ دلالاتٌ أخرى ؛ فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب
والسّنة ، والشاهد والمثل ؛ فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا
الشأن ، هلك وأهلك .

(الإبل الوحشية)

وزعم ناسٌ أنّ من الإبل وحشيّاً وكذلك الخيل ، وقاسوا على الحمير والسّنانيير والحمّام

(١) ط : «أعناق» وهو تحريف صوابه في ل واللسان وابن الأثير . ذكر ابن منظور أنّ النبي ﷺ سئل عن الإبل فقال :
«أعنان الشيطان لا تقبل إلا مولية ولا تدبر إلا مولية» . قال ابن منظور : فإنه أراد أنها على أخلاق الشياطين ، وحقيقة
الأعنان النواحي . قال ابن الأثير : كأنه قال كأنه لكثرة آفاتها من نواحي الشيطان في أخلاقها وطبائعها . وفي حديث
آخر : « لا تصلوا في أعطان الإبل لأنه خلقت من أعنان الشياطين» .

(٢) ابن الأثير : النّعة بالتحريك : ذباب أزرق له إبرة يلسع بها ويتولع بالبعير ويدخل أنفه فيركب رأسه . سميت بذلك
لنعيها . ثم استعيرت للنخوة والكبر . وصاحب القاموس يضبط الكلمة إذا كانت بمعنى الكبر كهزمة وبالتحريك ،
وإذا كانت بمعنى الذباب كهزمة فقط .

(٣) الحماطة : شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات ، أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز . عن القاموس .

(٤) ط : «تعامج متنا» والصواب ما أثبت من ل ومن المخصص ولسان العرب (شطن) . ونسبه الجاحظ في 4 : 75 إلى
طرفة .

(٥) الشناحية : الطويلة . وفي ل : «أسطح جسر» ولعل في البيت تحريفاً .

(٦) الأيم ككيس والإيم بالكسر : الحية الأبيض اللطيف ، أو عام ، جمعه أيوم . وانظر معجم المعلوم 269 .

وغير ذلك^(١)، فزعموا أنَّ تلك الإبل تسكن أرض وبار؛ لأنَّها غير مسكونة، ولأنَّ الحيوان كَلَمَّا اشتدَّت وحشيَّته كان للخلاء أطلب. قالوا: وربَّما خرجَ الجملُ منها لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هَجْمَةٍ من الإبل الأهلية. قالوا: فالْمَهْرِيَّةُ من ذلك النَّتَاج.

وقال آخرون: هذه الإبل الوحشيَّة هي الحُوش، وهي التي مِن بقايا إبل وبار، فلمَّا أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأُمَمَ مثْلَ عادٍ وثمودَ والعمالقَة وطُشَم وجديسَ وجاسمَ، بقيتْ إبلُهم في أماكنهم التي لا يَطُورها إنسيُّ^(٢) فإن سَقَطَ إلى تلك الجِيْزَةِ بعضُ الخلعاء^(٣)، أو بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَّ^(٤) الجنُّ في وجهه؛ فإنَّ ألَحَّ حَبَلَتَه؛ فَضَرَبَتْ هذه الحوش^(٥) في العُمَانِيَّة؛ فجاءت هذه المَهْرِيَّة؛ وهذه العسجدِيَّة التي تسمى الذهبيَّة. وأنشدني سعدان المكفوف^(٦) عن أبي العميث قول الراجز^(٧):

مَا ذَمَّ إِبْلِي عَجَمٌ وَلَا عَرَبٌ جُلُودُهَا مِثْلُ طَواوِيسِ الذَّهَبِ
وقال الآخر^(٨):

إِذَا اصْطَكَّتْ بِضَيْقٍ حَجَرَتَاهَا تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللَّطِيمُ
والعسجد من أسماء الذهب.

قالوا: وإنَّما سُمِّيَتْ صاحِبَةً يزيد بن الطَّثَرِيَّة حُوشِيَّةً على هذا المعنى^(٩). وقال رُؤْبَةُ:

جَرَّتْ رَحَانًا مِنْ بِلَادِ الْحُوشِ^(١٠)

(١) ط: «وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير وما سوى ذلك من الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك». وفي ل: «وقاسوا ذلك على الحمير، والسنانير وغير ذلك». وقد سردت القول كما ترى.

(٢) كذا في ل. وطار المكان يطوره طورًا وطورًا: حام حوله. وفي ط: «لا يطردها أحد». قال في القاموس: «وطردتهم: أتيههم وجزتهم» فالعبارتان سلیمتان.

(٣) ط: «الجيزة» موضع «الجيزة» و«الخلعاء» موضع الخلعاء. وما في ط: تصحيف. والجيزة: الناحية.

(٤) ط: «حثا». (٥) ط: «الحوش».

(٦) ط: «وأنشد ابن سعدان المكفوف» وكتبت ما في ل و«ش». وسعدان هذا هو ابن المبارك أبو عثمان الضرير النحوي. له ترجمة في البغية للسيوطي 254 وتاريخ بغداد 4781، ونزهة الألباء 206، وهم يذكرونه في رواية العلم والأدب ويقولون: إنه روى عن أبي عبيدة، وأما ابن سعدان، فهو أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير النحوي، كان من أكابر القراء وله كتاب مصنف في النحو، وتوفي سنة 231، وله ترجمة في البغية 45، وتاريخ بغداد 2846، والنزهة 212، ورواية الجاحظ عن كل منهما محتملة.

(٧) ل: «عن أبي العميث الراجز» ولم ينعت واحد ممن ترجموا له بهذا الوصف انظر فهرس ابن النديم 48 ليسك و72 مصر وابن خلكان 1: 262 ومعجم الزركلي 2: 555، وأبو العميث هو عبد الله بن خليل الأعرابي الشاعر، وتوفي سنة 240.

(٨) هو عاهان بن كعب بن عمرو بن سعد كما في اللسان (لطم) قال: العسجدية إبل منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد، وقال ابن بري: العسجدية التي تحمل الذهب. وقال: اللطيم جمع لطيمة وهي العير التي تحمل المسك.

(٩) في الأصل: «على المعنى هذا».

(١٠) كذا في ش و ل وهو الصواب. والرحى: جماعة الإبل. وفي ط والعمدة 2: 205 «رجالاً». ورواية اللسان: إليك سارت من بلاد الحوش.

(رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابت)

وأما الذي زعم أنهم مُطَرِّوا الشُّبُوط، فإنه لَمَّا ظَنَّ أَنَّ الضفادعَ التي تُصَابُ بِعَقِبِ المطر؛ بحيث لا ماء ولا وحل ولا عين ولا شريعة - فإنهم ربَّما رأوها وسط الدَّوِّ والدهناء والصَّمَان^(١) - ولم يشكَّ أنها كانت في السحاب وعلى أنها تكون في الأنهار ومنايع المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى؛ قاسَ على ذلك الظنَّ السمك؛ ثم جَسَرَ فجعل السمك شُبُوطاً. وتلك الضفادع إنما هي شيءٌ يخلَقُ تلك الساعة من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التُّربة؛ على مقادير ومقابلات، وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق.

(امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة)

وقد تُعرف القرابة التي تكون في رأي العين بين الشكليين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافد ولا تلاقح؛ كالضأن والمعز، وكالفأر والجُرْذَان، فليس بالعجب في البقر والجواميس أن تكون كذلك. وقد رأينا الخَلاسيَّ من الدجاج والدِّيكة؛ وهو الذي تَخَلَّق من بين المولِّدات والهنديَّات؛ وهي تحمل اللحم والشحم. وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدَة؛ دجاجة ووُزَنَ فيها سبعة عشر رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

(أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس)

ورأينا الخَلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخَلَّق بين الحبشي والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصله ومثمره. ورأينا البَيَّسريَّ^(٢) من الناس، وهو الذي يُخَلَّق بين البيض والهند؛ لا يخرج ذلك التَّنَاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما، ولكنه يجيء أحسن وأملح. وهم يسمُّون^(٣) الماء إذا خالطته الملوحة بيسراً^(٤) قياساً على هذا التركيب الذي حكينا عن البيض والهنديَّات. ورأينا الخَلاسيَّ من الكلاب؛ وهو الذي يُخَلَّق بين السُّلوقيِّ وقلب الراعي؛ ولا يكون ذلك من الزُّنني والقلطي^(٥)، ومن كلاب الدُّور والحِرَّاس. وسنقول في السَّمْع^(٦) والعسبار؛ وفي غيرهما من الخَلْقِ المركَّب إن شاء الله تعالى.

(١) ط: «الدور» موضع «الدو»، «السنان» موضع «الصمان» والصواب ما كتبت من ل. والدو: الفلاة. والدهناء:

الفلاة أيضاً. والصمان: كل أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل.

(٢) البياصرة: جبل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة العدو، والواحد بيسري.

(٣) ط: «يسمونه».

(٤) كذا في ل، ولعل صوابه «يسرياً» وفي ط: «يسراً».

(٥) الزنني: القصير القوائم، وقد تحدث عنه الجاحظ في الحيوان 2: 102، والقلطي: القصير جداً.

(٦) ط: «السملع» وهو تحريف ما في ل.

(أطول الناس أعماراً)

وذكروا أنَّهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أولها سَروحمير ، ثم فَرغانة ، ثم اليمامة ، وإنَّ في الأعراب لأعماراً أطول ، على أنَّ لهم في ذلك كذباً كثيراً ، والهند تُربي^(١) عليهم في هذا المعنى . هكذا يقول علماء العرب .

(أثر النبيذ في عمر الإنسان)

وكان عثمانُ ماش ويزال وجذعان^(٢) ، يذكرون أنَّهم عدُّوا أربعين فتى من فتیان قريش وثقيف أعمارَ عام واحد فأحصَوْا عشرين من قريش ، وعشرين من ثقيف ، وتوخَّوا المتجاورين في المحلَّة والمتقاربين في الدُّور من الموقَّرين على النبيذ ، والمقصورين على التناؤم ، وأنَّهم أحصَوْا مثل ذلك العدد وأشباه أولئك في السِّن ممَّن لا يذوق النبيذ ولا يعرف شرباً إلا الماء ، فذكروا أنَّهم وجدوا بعدَ مرورِ دهرٍ عامَّة من كان يشربُ النبيذَ حياً ، ومن لا يشربه قد مات عامَّتُهم ، وكانوا قد بلغوا في السِّن . أما عثمان ويزال^(٣) فكانا من المعمَّرين ، وقد رأيتُهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما ، وسنأتي على هذا الباب في موضعه من ذكر المعمَّرين ، ونميِّز الصدق فيه من الكذب ، وما يجوز وما لا يجوز إن شاء الله تعالى .

(بعض ما يعرض للخصيان)

وما أكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش وغير ذلك ! ولا سيَّما إذا بات أحدهم ممتلئاً من النبيذ . ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدة النَّهم . ويعرض لهم أيضاً إثارة المُخفَس^(٤) وحبُّ الصُّرف ، وذلك أيضاً ممَّا يعرض للنساء ، والإفراط في شهوتهنَّ وشدة الهمة لهنَّ والغيرة عليهنَّ ويحتلمون ، ويحبُّون ويغتسلون ، ويرون الماء غير الرائق ولا الغليظ ، الذي له ريح طلع الفُحَّال^(٥) .

ويعرض للخصيَّ شدة الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مالٍ كثيرٍ أو جاهٍ عريض ، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعضٌ من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصيُّ كلفاً بهم وبتعظيمهم ، ومُغرماً بخدمتهم ، في الأدب والحسب ، وفي بُعْد الهمة وكرم الشَّيمة ، فيعمد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطان والجاه والمالُ إلى متكاٍ هذا الأديب الكريم ، والحسيب الشريف ، فينزعه من تحت مِرْفَقِهِ ، غير محتفل بذلك ولا مكترب لما فيه ،

(١) ط : «تربي» .

(٢) ل : «وبذال وجدعان» .

(٣) ل : «وبذال» .

(٤) ط : «المحبس» وليس بشيء . وفي ل : «المخفس» وهما تحريف ما كتبت ، والمخفس : الشراب السريع الإسكار .

(٥) ط : «النخل» .

ويضعه له من غير أن يكون موضع المرافق بعيداً، أو^(١) كان ذلك ممّا يفوت بعض الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسر وصاحب الجاه أبداً^(٢).

(أقوال في منع خصاء الخيل وإباحته)

وقد حرّم بعضهم خصاء الخيل خاصّة، وبعضهم زاد على ذلك حتّى حرّم خصاء البهائم، وقال بعضهم: إذا كان الخصاء إنّما اجتلبه فاعله أو تكلفه صاحبه على جهة التماس المنفعة، أو على طريق التجارة، فذلك جائز، وسيله سبيل الميسم، فإنّ الميسم نار، وألمه يجوز كلّ ألم. وقد رأينا إبل الصدقة موسومة، ووسمت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الإسلام، على مثل صنيعها في الجاهليّة. وقد كانت القصواء ناقة النبي ﷺ موسومة، وكذلك العضباء.

(أقوال في وسم الحيوان)

وقال آخرون: الخصاء غير شبيه بالميسم؛ لأنّ في الخصاء من شدّة الألم، ومن المثلة، ومن قطع النسل، ومن إدخال النقص على الأعضاء، والنقص لموادّ القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو يقطع الألية أشبه، والسمة إنّما هي لدعة، والخصاء مجاوز لكلّ شديدة^(٣). قال القوم: ولا بأس بقطع الألية إذا منعت بثقلها أو عظمتها الشاة من اللحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب. وقطع الألية في جواز العقول^(٤) أشبه من الميسم؛ لأنّ الميسم ليس للبعير فيه حظّ، وإنّما الحظّ فيه لربّ المال، وقطع الألية من شكل الختان، ومن شكل البطّ^(٥) والفصد، ومن جنس الوجور والبيطرة، ومن جنس اللدود^(٦) والحجامة، ومن جنس الكيّ عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خيف عليها الأكلة.

(وسم الإبل)

قال الأوّلون: بل^(٧) لعمرى إنّ للإبل في السمات لأعظم المنافع؛ لأنّها قد تشرب بسماتها ولا تُذاد عن الحوض إكراماً لأربابها؛ وقد تضرّفت فتؤوى؛ وتصاب في الهواشات^(٨) فتزد. قالوا: فإنّا لا نسألکم إلّا عن سمات الخيل والبغال والحمير والغنم. وبعد فكيف نستجيز أن نعمّها بالإحراق بالنار؛ لأمر عسى ألاّ يحتاج إليه من ألف بعيرٍ بعيرٍ واحد؛ ثم عسى ألاّ يحتاج [من جميع] ذلك في جميع عمره [إلّا] إلى شربةٍ واحدة.

(١) ط: «إذا».

(٢) ط: «وهو على يقين أنه ليس من حكم الخصاء أن يرى... إلخ» وهذا القول من ل.

(٣) ط: «شدة».

(٤) ط: «القول».

(٥) البط: الجرح. والمبطة: المبضع.

(٦) اللدود كصبور: ما يُصبّ بالمسقط من الدواء في أحد شقي الفم.

(٧) ط: «قل» وهو تحريف ما في ل.

(٨) الهواشات بالضم: الجماعات من الناس والإبل.

وقال القوم: إِنَّمَا المِياسم في النَّعم السائمة كالرُّقوم في ثياب البَزَّاز؛ ومتى ارتفعت الرقوم ومُنعت المِياسم، اختلَطَت الأموال، وإذا اختلَطت أَمَكَنَ فيها الظلم، والمظلومُ باذُلٌ نَفْسُهُ دُونَ المعيشة^(١) والهَضيمة.

وقالوا: ليس قطعُ الألية كالمجثمة وكالشيء المصبور، وقد نُهينا عن إحراق الهوام، وقيل لنا: لا تعذبوا بعذاب الله تعالى، والميسمُ نار، وقطعُ الألية من شكل قطع العروق، وصاحبُ المجثمة يقدر أن يرمي - إن كان به تعلُّم الرماية - شيئاً لا يَألم ولم يُنَّه عن تعذيبه، فَمَا^(٢) يَرُدُّ الشيء المصبور من العذاب مَرَدّاً بوجه من الوجوه.

(القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلاها)

وقال آخرون: ليس لك أن تُحدث في جميع الحيوان حدثاً من نقض أو نقص أو إيلا، لأنك لا تملك النشأة^(٣)، ولا يمكنك التعويض له؛ فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو الله عز وجل، حلَّ لك من ذلك ما كان لا يحل. وليس لك في حُجة العقل أن تصنع بها إلا ما كان به مصلحة، كعلاج الدَّبر^(٤) وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنع كل ما كان يُصنع على عهد رسول الله ﷺ وبعده، ممَّا لم يكن مدفوعاً^(٥) عند بعضهم، إلا أن يكون نَهْيُ ذلك البعض من جماعتهم^(٦)، في طريق الخلاف والرد والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل؛ فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلف يَعْرِفُ وجه الملام. والمذهب في ذلك معروف^(٧)، وإن كان خارجاً من ذلك الحد، فقد علمنا أنه أُبِيح من طريق التعبُّد والمحنة، كما جعل الله تعالى لنا ما أحلَّ ذبحه من البهائم، وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض، وإن لم يكن منها إلا مقدار الأذى فقط. والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لما أباح لنا خالقُ الشيء والقادر على تعويضه قتله، كان قتله أسوَّع في العقل مع الأذى، من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذٍ ولا كل [ذي] أذى^(٨) حكم الله تعالى فيه بإباحة القتل، والله عز وجل، بمقادير الأمور وبحكم المختلف والمتفق، والقليل من ذلك والكثير، أحكم وأعلم.

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما السلام، فأطاع الوالد وطاع الولد. والجواب الماضي إنما هو^(٩) قول من قال بالتعويض، [و] هو قول النظام. وأكثر المتكلمين يعترضون عليه فيه.

(١) كذا ولعلها «النكية» بمعنى الخطة الصعبة.

(٢) في الأصل: «فيما».

(٣) ل: «الشيء».

(٤) ط: «كصلاح الدين» وهو تحريف عجيب صوابه في ل.

(٥) ط: «مرفوعاً» وتصحيحه من ل.

(٦) في الأصل: «عن جماعتهم».

(٧) ل: «يعرف وجه العلاج فالمذهب... إلخ».

(٨) ط: «وليس كل ضرر ولا كل أذى».

(٩) ط: «على» موضع «إنما هو».

(منع خصاء الإنسان وإباحته)

ولا يزال - يرحمك الله تعالى - بعض الملحدين من المعاندين ، أو بعض الموحدين من الأغبياء المنقوصين ، قد طعن في ملك الخصى وبيعه وابتاعه ، ويذكرون الخصى^(١) الذي كان المقوقس عظيم القبط أهده إلى النبي ﷺ ، مع مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام . قالوا : فقد ملك ﷺ خصياً بعد أن عرفه وأحاط علمه بأنه خصى ، وأنتم تزعمون أن الخصاء حرام ، وأن من اشترى من الخاصي خصياً ثم زاد على قيمته وهو فحل ، فقد أعان على الخصاء وحث عليه ، ورغب فيه ، وأنه من أفحش الظلم وأشد القسوة ، وزعمتم أن من فعل ذلك فهو شريك الخاصي في الإثم ، وأن حاله كحال المعروفين بالابتياح من اللصوص . وقلتم : وكذلك من شهد القمار^(٢) وهراش الكلاب ، ونطاح الكباش وقتال الديوك ، وأصحاب المجارحات^(٣) وحرب الفئتين الضاليتين ، وقلتم : لأن هذه المواضع لو لم تحضرها النظارة لما عملوا تلك الأعمال ، ولو فعلوها ما بلغوا مقدار الشطر ، لغلبة الرياء والسُّمعة على قلوب الناس ، وكذلك الخاصي ، والمشتري ، والمبتاع من المشتري ، شركاء متعاونون ، وحُلطاء مترادفون . وإذا كان المبتاع يزيد في السلعة لهذه العلة ، والبائع يزيد في السوم لهذا السبب ، وقد أقرتم بأن النبي ﷺ قد قبل له من المقوقس ، كما قبل مارية ، واستخدمه ، وجرى عليه ملكه وأمره ، فافهم - فهمك الله تعالى - ما أنا مجيب به في هذه المسألة . والله الموفق ، وعلى الله قصد السبيل .

أقول : قبل كل شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويتموه من أن يكون مرضي الإسناد ، صحيح المخرج ، أو يكون مسخوط الإسناد ، فاسد المخرج . فإن كان مسخوطاً ، فقد بطلت المسألة ، وإن كان مرضياً ، فقد علمنا أنه ليس في الحديث أنه قبله منه بعد أن علم أنه خصى ، وعلى أن قبول الهدية خلاف الابتياح ؛ لأن بائع الخصى إنما يحرم عليه التماس الزيادة ، وكذلك المبتاع إنما يحرم عليه دفع الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجمل منه وأشب وأخدم منه لم يزد ، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سومه بالخصي . وقبول الهدية ، وقبول الهبة ، وسبيل البيع والابتياح لا بأس به إذا كان على ما وصفنا ؛ وإنما هدية الخصى كهدية الثوب والعطر ، والدابة والفاكهة . ولأن الخصى لا يحرم ملكه ولا استخدامه ، بل لا يحل طرده ونفيه ، وعتقه جائز ، وجواز العتق يوجب الملك . ولو باعه المالك على غير طلب الزيادة ، أو لو تاب من الخصاء أو استحله مما أتى إليه ، لَمَا حرم على الخاصي نفسه استخدامه . والخصي مالٌ وملك ، واستخدامه حسن جميل ؛ ولأن خصاء إياه لا يعتقه عليه ، ولا يُزيل عنه ملكه إلا بمثل ما وجب به ملكه^(٤) .

وأخرى : أن في قبول هدية ذلك المَلِك ، وتلقي كرامته بالإكرام تدبيراً وحكمة . فقد بطلت المسألة ، والحمد لله كما هو أهله .

(١) ذكر في كتاب البغال 356 أنه أخو مارية القبطية .

(٢) ل : « السعابين » .

(٣) ط : « المخرجات » .

(٤) ل : « إلا مثل ما يوجب له به ملكه » .

وقد رويوا مع ذلك أيضاً: أَنَّ زِنَاعاً الْجُدَامِيَّ، خَصَصَ عَبْدًا لَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْتَقَهُ عَلَيْهِ فِيمَا بَلَّغْنَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَرَبَّمَا سَأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ وَلَيْسَ الْقَوْلُ فِيهِ يَقَعُ فِي نَسْقِ الْقَوْلِ فِي الْخَصِيِّ، وَفِي الْخَلْقِ الْمَرْكَبِ، وَلَكِنْ إِذْ قَدْ أَجَبْنَا فِي مَسْأَلَةِ كَلَامِيَّةٍ مِنْ مَسَائِلِ الطُّغْنِ فِي النَّبُوءَةِ، فَلَا بَأْسَ أَنْ نُضِيفَ إِلَيْهَا أُخْرَى، وَلَا سِيَّمًا إِذَا لَمْ تَطُلْ فَتَزِيدَ فِي طُولِ الْكِتَابِ.

وقد لا يزال الطاعنُ يقول: قد علمنا أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَسْمُوا حُرُوبَ أَيَّامِ الْفِجَارِ بِالْفَجُورِ^(١) وقريش خاصة، إِلَّا أَنَّ الْقِتَالَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ، فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ كَانَ عِنْدَهُمْ فَجُورًا، وَتِلْكَ الْحُرُوبُ قَدْ شَهِدَهَا النَّبِيُّ ﷺ. وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً، وَابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً يَكُونُ بِالْغَا، وَقَالَ: «شَهِدْتُ الْفِجَارَ فَكُنْتُ أَتُبَلُّ عَلَى عَمُومِي».

وجوابنا في ذلك: أَنَّ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، طَالَبُوا أَهْلَ الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ، بِجَرِيرَةِ الْبَرَّاضِ بْنِ قَيْسٍ، فِي قَتْلِهِ عُرْوَةَ الرَّحَّالِ، وَقَدْ عِلِمُوا أَنَّهُمْ يُطَالِبُونَ مَنْ لَمْ يَجْنِ وَمَنْ لَمْ يَعَاوُنْ، وَأَنَّ الْبَرَّاضِ بْنِ قَيْسٍ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ خَلِيعًا مَطْرُودًا، فَأَتَوْهُمْ إِلَى حَرَمِهِمْ يُزِمُّونَهُمْ ذَنْبَ غَيْرِهِمْ، فِدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَعَنْ أَمْوَالِهِمْ، وَعَنْ ذُرَارِيهِمْ، وَالْفِجَارُ لَا يَكُونُ الْمُسْعِيَّ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ أَشْهَدُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهَ ﷺ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ، وَبِهِ نُصِرُوا كَمَا نُصِرَتِ الْعَرَبُ عَلَى فَارَسَ يَوْمَ ذِي قَارٍ، بِهِ ﷺ وَبِمَخْرَجِهِ. وَهَذَانِ جَوَابَانِ وَاضِحَانِ قَرِيبَانِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ لِلصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى.

(محاسن الخصي ومساويه)

ثم رَجَعَ بِنَا الْقَوْلِ إِلَى ذِكْرِ مَحَاسِنِ الْخَصِيِّ وَمَسَاوِيهِ^(٢).

الخصيُّ يَنْكُحُ وَيَتَّخِذُ الْجَوَارِيَ وَيَشْتَدُّ شَغْفُهُ بِالنِّسَاءِ، وَشَغْفُهُنَّ بِهِ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مَجْبُوبَ الْعَضْوِ فَإِنَّ قَدْ بَقِيَ لَهُ مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ أَعْجَبُ إِلَيْهِنَّ. وَقَدْ يَحْتَلِمُ وَيَخْرُجُ مِنْهُ عِنْدَ الْوُطْءِ مَاءٌ، وَلَكِنَّهُ قَلِيلٌ، مُتَغَيِّرُ الرِّيحِ، رَقِيقٌ ضَعِيفٌ. وَهُوَ يَبَاشِرُ بِمَشَقَّةٍ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْمَعَاوَدَةِ الْمَاءُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْهُ إِذْ كَانَ قَلِيلَ الْمَقْدَارِ^(٣) لَا يَخْرُجُهُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الضَّعْفِ مِثْلَ الَّذِي يَعْتَرِي مَنْ يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ يَكُونُ مِنْ إِنْسَانٍ، وَهُوَ أَخْثَرُ، وَأَكْثَرُ، وَأَحْدُ رِيحًا، وَأَصَحُّ جَوْهَرًا. وَالْخَصِيُّ يَجْتَمِعُ فِيهِ أُمْنِيَّةُ الْمَرْأَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَبْغِضُ كُلَّ سَرِيعِ الْإِرَاقَةِ، بَطِيءِ الْإِرَاقَةِ، كَمَا تَكْرَهُ كُلَّ ثَقِيلِ الصَّدْرِ، وَخَفِيفِ الْعُجْزِ، وَالْخَصِيُّ هُوَ السَّرِيعُ الْإِرَاقَةِ، الْبَطِيءُ الْإِرَاقَةِ، الْمَأْمُونُ الْإِلْقَاحَ، فَتَقِيمُ الْمَرْأَةُ مَعَهُ، وَهِيَ آمِنَةٌ الْعَارِ الْأَكْبَرِ، فَهَذَا أَشَدُّ لَتَوْفِيرِ لَذَّتِهَا وَشَهْوَتِهَا. وَإِذَا ابْتَدَلْنَ الْخِصْيَانِ، وَحَقَّرْنَ الْعَبِيدَ، وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ مِنْ قُلُوبِهِنَّ، وَتَعَظَّمُ الْبَعُولُ، وَالتَّصَنُّعُ لِدَوِي الْأَقْدَارِ بِاجْتِلَابِ الْحَيَاءِ وَتَكَلُّفِ الْخَجَلِ، ظَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ فِي قُوَى

(١) ط: «بالعجور».

(٢) انظر المحاسن والمساوي للبيهقي 2: 207-213.

(٣) في الأصول: «إِذَا كَانَ قَلِيلَ الْمَقْدَارِ».

طباعهنّ وشهواتهنّ، فأمكنها التّخير⁽¹⁾ والصّياح، وأن تكون مرّةً من فوق، ومرّةً من أسفل، وسمحت النفس بمكنونها، وأظهرت أقصى ما عندها.

وقد تجد في النساء مَنْ تُؤثّر النساء، وتجد فيهنّ مَنْ تُؤثّر الرجال، وتجد فيهنّ مَنْ تُؤثّر الخُصيان، وتجد فيهنّ مَنْ تجمّع ولا تفرّق، وتعمّ ولا تخصّ، وكذلك شأن الرجال في الرجال، وفي النساء والخصيان. فالمرأة تنازع إلى الخُصي لأنّ أمره أسترّ وعاقبته أسلم، وتحرص عليه لأنّه ممنوعٌ منها، ولأن ذلك حرام عليها. فلها جاذبان: جاذبٌ حرص كما يُحرص على الممنوع، وجاذبٌ آمن كما يُرغب في السلامة. وقال الأصمعيّ: قال يونس بن عبّيد⁽²⁾: لو أخذنا بالجزع لصبرنا⁽³⁾. قال الشاعر:

وزادها كلفاً بالحبّ أن منعت وحبّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعا⁽⁴⁾

والحرص على الممنوع بابٌ لا يُقدّر على الاحتجاز منه، والاحتباس من خُده، إلّا كلّ مبرز في الفطنة ومتمهّل [في] العزيمة، طويل التجارب، فاضل العقل على قوَى الشهوات. وبئس الشيءُ القرينُ السوء. وقالوا: صاحب السوء قطعةٌ من النار.

وبابٌ من هذا الشكل، فيكم أعظم حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده، وهو ما يصنع⁽⁵⁾ الخبيرُ السابق إلى السمع، ولا سيّما إذا صادفَ من السامع قلةً تجرّبه، فإن قرّن بين قلة التجربة وقلة التحفّظ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقرّه دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيباً: وطبيعة قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته. ومتى ألقيَ إلى الفتیان شيءٌ من أمور الفتيات، في وقت العزّارة، وعند غلبة الطبيعة، وشباب الشهوة، وقلة التشاغل؛ وكذلك متى ألقيَ إلى الفتیان شيءٌ من أمورهنّ وأمور الغلمان، وهناك سُكر الشّباب، فكذلك تكون حالهم. وإنّ الشُّطّار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له: لا يكون الغلام فتى أبداً حتّى يصادق فتى [وإلا فهو يَكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدّبه فتى ولم يخرجّه]، فما الماء العذب البارد، بأسرع في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغلام أدنى هوّى في الفتوة⁽⁶⁾، وأدنى داعية إلى المنالة⁽⁷⁾، وكذلك إذا خلّت العجوز المدربة⁽⁸⁾ بالجارية الحادثة كيف تخلبها. وأنشدنا:

فأتتها طَبَّةٌ عالمةٌ تخلط الجِدَّ بأصنافِ اللعبِ

(1) ط: «الشخير».

(2) يونس بن عبّيد من أصحاب ابن سيرين، وكان بينهما مداعبة. روى في عيون الأخبار 3: 41 أن يونس بن عبّيد قال: أتيت ابن سيرين فدعوت الجارية فسمعتة يقول: قولوا له إني نائم - يريد سأنام - فقلت: معي خبيص. فقال: مكانك حتّى أخرج إليك!.

(3) انظر البيان 3: 131 وعيون الأخبار 2: 2.

(4) ط: «أحب». ومشهور الرواية وما في ل هو ما أثبت. وفي عيون الأخبار 3: 2: «وزاده» موضع «وزادها» وصواب الرواية «وزادني»؛ فإن البيت للأحوص كما في الأغاني 11: 22 وقبله:

كم من دنى لها قد صرت أتبعه ولو صحا القلب عنها كان لي تبعاً

(5) ط: «يضع». (6) ط: «الفتنة». (7) ط: «الشطارة». (8) ط: «المدربة».

ترفعُ الصوتَ إذا لانتَ لها وتَنَاهَى عندَ سَوَراتِ الغَضَبِ]
وقال الشاعر ⁽¹⁾ فيما يشبهُ وقوعَ الخَبَرِ السابقِ إلى القلبِ :

نَقُلُ فَوَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ما الحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ
وقال مجنون بني عامر :

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا
(أثر التكرار في خلق الإنسان)

وباب آخر ممّا يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوعِ البصرِ على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابل، وأدنى حركةٍ عند مثله. وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ: لِمَ زَيْنَتِ بَعْدُكَ وَلَمْ تَزْنِي بِحَرٍّ ⁽²⁾، وما أغْرَاكَ به؟ قالت: طُولُ السَّوَادِ، وَقُرْبُ الوَسَادِ.

ولو أَنَّ أَقْبَحَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَنْتَنَهُمْ رِيحًا، وَأَظْهَرَهُمْ فَقْرًا، وَأَسْقَطَهُمْ نَفْسًا، وَأَوْضَعَهُمْ حَسْبًا، قَالَ لَامْرَأَةٍ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ كَلَامِهَا، وَمَكَّنَتْهُ مِنْ سَمْعِهَا: وَاللَّهِ يَا مَوْلَاتِي وَسَيِّدَتِي، لَقَدْ أَسْهَرْتَ لَيْلِي، وَأَرْقَيْتَ عَيْنِي، وَشَغَلْتَنِي عَنْ مُهِمِّ أَمْرِي، فَمَا أَعْقِلُ أَهْلًا، وَلَا مَالًا، وَلَا وَلَدًا؛ لِنَقْضِ طِبَاعِهَا، وَفَسْخِ عَقْدِهَا، وَلَوْ كَانَتْ أَبْرَعَ الْخَلْقِ جَمَالًا، وَأَكْمَلَهُمْ كَمَالًا، وَأَمْلَحَهُمْ مِلْحًا. فَإِنْ تَهَيَّأَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَتَعَشِّقِ، أَنْ تَدْمَعَ عَيْنُهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها وَرَعٌ أَمْ الدرداء، ومُعَاذَةُ الْعَدُوَّةِ، وَرَابِعَةُ الْقَيْسِيَّةِ، وَالشَّجَاءُ ⁽³⁾ الْخَارِجِيَّةُ.

(زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه)

وإنَّمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اضْرِبُوهُنَّ بِالْعُزْيِ» لِأَنَّ الثِّيَابَ هِيَ الْمَدْعَاةُ إِلَى الْخُرُوجِ فِي الْأَعْرَاسِ، وَالْقِيَامِ فِي الْمَنَاحَاتِ، وَالظُّهُورِ فِي الْأَعْيَادِ، وَمَتَى كَثُرَ خُرُوجُهَا لَمْ يَعْدَمَهَا أَنْ تَرَى مِنْ هُوٍ مِنْ شَكْلِ طَبْعِهَا. وَلَوْ كَانَ بَعْلُهَا أَتَمَّ حَسَنًا، وَالَّذِي رَأَتْ أَنْقَضَ حَسَنًا، لَكَانَ مَا لَا تَمْلِكُهُ، أَطْرَفَ مِمَّا تَمْلِكُهُ، وَلَكَانَ مَا لَمْ تَنْلُهُ، وَلَمْ تَسْتَكَثِرْ مِنْهُ، أَشَدَّ لَهَا اشْتِغَالًا وَأَشَدَّ لَهَا اجْتِنَابًا. وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلِلْعَيْنِ مَلْهُىً بِالتَّلَادِ وَلَمْ يَقْدُ هَوَى النَّفْسِ شَيْءٌ كَاقْتِيَادِ الطَّرَائِفِ ⁽⁴⁾

(1) هو أبو تمام كما في الأغاني 17: 146، والبيتان في ديوانه 457.

(2) في الأصل: «ولم تزن بحر» والوجه ما كتبه. وابنة الخس هي هند. ولها أخبار كثيرة في البيان.

(3) ل: «الشبجاء» وصوابه «الشجاء» كما في ط. ولها حديث مع زياد في الأمالي 174: 3.

(4) ط: «ولم يفد» بدل «لم يقد» و«كاقتياد» موضع «كاقتياد».

وقال سعيد بن مسلم: لأن^(١) يرى حرمتي ألف رجل على حالٍ تكشف منها وهي لا تراهم، أحب إلي من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف.

وقال الأول: لا يضرك حُسْنُ من لم تعرف، لأنك إذا أتبعته بصرك، وقد نقضت طبعك، فعلمت أنك لا تصل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمني، فإذا انقضى ما هو فيه من المنى^(٢)، ورجعت نفسه إلى مكانها الأول، لم يكن عليه من [فقدتها إلا مثل] فقد ما رآه في النوم، أو مثله له الأمانى^(٣).

(عقيل بن علفة وبناته)

وقيل لعقيل بن علفة^(٤): لو زوّجت بناتك! فإن النساء لحم على وضم إذا لم يكن غانيات!! قال: كلا، إني أجيعهن فلا يأسرن، وأعريهن فلا يظهرن^(٥)!! فوافقت إحدى كلمتيه قول النبي ﷺ [ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأن النبي ﷺ قال]: «الصّوم وجاء». وقال عمر: استيعنوا عليهن بالعزي. وقد جاء [في الحديث]: «وفروا أشعارهن فإن ترك الشعر مجفرة»^(٦). وقد أتينا على هذا الباب في الموضوع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأول الفساد، وكيف ينبت، وكيف يُحصَد.

(بعض ميول الخصيان)

وقد رأيت غير خصي يتلوط، ويطلب الغلمان [في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم] على جهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول^(٧)، ويتمشى مع الشطار.

وقد كان في قطيعة الربيع خصي أثير عند مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثق به في ملك يمينه، وفي حرمة من بنت وزوجة وأخت، لا يخص شيئاً دون شيء، فأشرف ذات يوم على مريد له، وفي المريد غنم صفايا، وقد شدّ يدي شاة وركبها من مؤخرها يكومها، فلمّا أبصره برق وبعل^(٨) وسقط في يديه، وهجم عليه أمر لو يكون رآه من خصي لعدو له^(٩) كما فارق ذلك الهول أبداً قلبه، فكيف وإتما عاين الذي عاين فيمن كان يخلفه في نسائه من حرمة ومملك يمينه. فبينما الرجل وهو واجم [حزين^(١٠)]، وهو ينظر^(١١) إليه [وقد تحرق عليه غيظاً]

(١) ط: «لئن».

(٢) ط: «... كالخلسة إذا كان ذلك يقضي ما فيه من المنى» وهو تحريف.

(٣) ط: «الأمانى مؤنسة».

(٤) ط: «علقمة» وهي على الصواب في ل. ولعقيل أخبار طريفة في الأغاني 11: 81-89.

(٥) ط: «يأثرن» موضع «ي» «زن» و«يظهرهن» بدل «يظهرن» وما فيها تحريف.

(٦) مجفرة: قال أبو عبيد: يعني مقطعة النكاح ونقصا للماء. وانظر اللسان (جفر).

(٧) ط: «السجون».

(٨) كذا في ل. وفي ط «بعد» ولا وجه له. . وأما (بعل) فهي بمعنى دهش وفرق فلم يدر ما يصنع.

(٩) ط: «لعدوه». (١٠) موضع هذه الكلمة في ط: «قد برق». (١١) ط: «ينتظر» وهو تحريف.

إِذْ رَفَعَ الْخَصِيَّ رَأْسَهُ، فَلَمَّا أَثَبَّتَ مَوْلَاهُ مَرَّ مُسْرِعاً نَحْوَ بَابِ الدَّارِ لِيَرْكَبَ رَأْسَهُ، وَكَانَ الْمَوْلَى أَقْرَبَ إِلَى الْبَابِ مِنْهُ، فَسَبَقَهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ الْمَوْضِعُ الَّذِي رَأَاهُ مِنْهُ مَوْضِعاً لَا يُصْعَدُ [إِلَيْهِ]، فَحَدَّثَ لَشِقَائِهِ أَمْرٌ لَمْ يَجِدْ مَوْلَاهُ [مَعَهُ] ⁽¹⁾ بُدْأاً مِنْ صُعودِهِ، فَلَبِثَ الْخَصِيُّ سَاعَةً يَتَنَفَّضُ مِنْ حُمَّى رَكِبَتْهُ ثُمَّ فَاظَ، وَلَمْ يُمَسِّ إِلَّا وَهُوَ فِي الْقَبْرِ. وَلَفِظُ إِرادَتِهِمُ النِّسَاءَ، وَبِالْحَسْرَةِ الَّتِي نَالَتْهُمْ، وَبِالْأَسْفَ الَّذِي دَخَلَهُمْ، أَبْغَضُوا الْفَحُولَ بِأَشَدِّ مِنْ تَبَاغُضِ الْأَعْدَاءِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى لَيْسَ بَيْنَ الْحَاسِدِ الْبَاغِي وَبَيْنَ أَصْحَابِ النَّعَمِ الْمَتَظَاهِرَةِ، وَلَا بَيْنَ الْمَاشِيِ الْمَعْنَى وَبَيْنَ رَاكِبِ الْهِمْلَاجِ الْفَارِهِ، وَلَا بَيْنَ مَلُوكٍ صَارُوا سُوقَةً، وَبَيْنَ سُوقَةٍ صَارُوا مَلُوكاً، وَلَا بَيْنَ بَنِي الْأَعْمَامِ مَعَ وَقُوعِ التَّنَافُسِ، أَوْ وَقُوعِ الْحَرْبِ، وَلَا بَيْنَ الْجِيرَانِ وَالْمَتَشَاكِلِينَ فِي الصَّنَاعَاتِ، مِنَ الشَّنْفِ وَبِالْبُغْضَاءِ، بِقَدْرِ مَا يَلْتَحِفُ عَلَيْهِ الْخَصِيَانُ لِلْفَحُولِ ⁽²⁾. وَبُغْضُ الْخَصِيِّ لِلْفَحْلِ مِنْ شَكْلِ بُغْضِ الْحَاسِدِ لِلَّذِي النِّعْمَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَكْلِ مَا يُولِّدُهُ التَّنَافُسُ وَتُلْحِقُهُ الْجَنَائِيَّاتِ.

(نَسْك طَوَائِفِ مِنَ النَّاسِ)

وَلِرِجَالٍ كُلِّ فَنٍّ وَضَرْبٍ مِنَ النَّاسِ، ضَرْبٌ مِنَ النَّسْكِ، إِذْ لَا بَدَّ لِأَحَدِهِمْ مِنَ النَّزْوَعِ، وَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَتَهُ الْأُولَى: فَنَسْكُ الْخَصِيِّ غَزْوُ الرُّومِ، لِمَا أَنَّ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ خَصَّوْهُمْ، وَلُزُومُ أَذْنَةِ وَالرِّبَاطُ بِطَرَسُوسَ وَأَشْبَاهِهَا. فَظَنَّ عِنْدَ ذَلِكَ أَهْلُ الْفِرَاسَةِ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ الرُّومَ لِمَا كَانُوا هُمُ الَّذِينَ خَصَّوْهُمْ، كَانُوا مَغْتَاطِينَ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ مَتَطَلِبَةً إِلَى التَّشْفِيِّ مِنْهُمْ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ حُبَّ التَّشْفِيِّ شِدَّةَ الْإِعْتَزَامِ عَلَى قَتْلِهِمْ، وَعَلَى الْإِنْفَاقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَبْلُغُ مِنْهُمْ، وَنُسْكُ الْخَرَّاسَانِيِّ أَنْ يُحَجَّ: وَنُسْكُ الْبَنَوِيِّ ⁽³⁾ أَنْ يَدَعَ الدِّيَّوَانَ. وَنُسْكُ الْمَغْنِيِّ: أَنْ يُكْثِرَ التَّسْبِيحَ وَهُوَ يَشْرَبُ النَّبِيذَ، وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالصَّلَاةَ فِي جَمَاعَةٍ. وَنُسْكُ الرَّافِضِيِّ: إِظْهَارُ تَرْكِ النَّبِيذِ. وَنُسْكُ السَّوَادِيِّ تَرْكُ شَرْبِ الْمَطْبُوخِ فَقَطْ. وَنُسْكُ الْيَهُودِيِّ: إِقَامَةُ السَّبْتِ. وَنُسْكُ الْمُتَكَلِّمِ: التَّسَرُّعُ إِلَى إِكْفَارِ أَهْلِ الْمَعَاصِي، وَأَنْ يَرْمِيَ النَّاسَ بِالْجُبْرِ، أَوْ بِالتَّعْطِيلِ، أَوْ بِالزُّنْدَقَةِ، يَرِيدُ أَنْ يُوْهِمَ أُمُوراً: مِنْهَا أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ إِلَّا مِنْ تَعْظِيمِهِ لِلدِّينِ، وَالْإِغْرَاقِ فِيهِ، وَمِنْهَا أَنْ يَقَالَ: لَوْ كَانَ نَظِيفاً، أَوْ مُرْتَاباً، أَوْ مُجْتَنِحاً عَلَى بَلِيَّةٍ ⁽⁴⁾، لَمَا رَمَى النَّاسَ، وَلِرِضَى مِنْهُمْ بِالسَّلَامَةِ، وَمَا كَانَ لِيَرْمِيَهُمْ إِلَّا لِلْعَزِّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ، وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ ذَلِكَ الرِّيْبَةِ شَيْءٌ لَقَطَعَهُ ذَلِكَ [عَنْ] ⁽⁵⁾ التَّعَرُّضِ لَهُمْ، أَوْ التَّنْبِيهِ عَلَى مَا عَسَى أَنْ يَحْرَكَهُمْ لَهُ أَنْ يَتَحَرَّكُوا. وَلَمْ نَجِدْ فِي الْمُتَكَلِّمِينَ أَنْطَفَ وَلَا أَكْثَرَ عِيوباً، مِمَّنْ يَرْمِي خُصُومَهُ بِالْكَفْرِ.

(1) زيادة يفتقر إليها الكلام.

(2) ط: «المتشاكسين» موضع «المتشاكسين» و«التنفير» موضع «الشنف» و«يلتحق» موضع «يلتحف» وما فيها محرف.

(3) في القاموس: «الأنباء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة أبنواي وبنوي محركة» وفي رسائل الجاحظ 15 ساسي ما يفيد أنهم من خراسان.. وهي في ط: «الجندي» تحريف. وانظر حواشي البيان 3: 114 وفيها تفصيل.

(4) «النطف»: الرجل المريب.. وفي ل: «محتجناً» بدل «مجتنباً».

(5) زيادة يقتضيها الكلام.

(أبو عبد الله الجمار وجارية آل جعفر)

وكان أبو عبد الله الجمار، وهو محمد بن عمرو⁽¹⁾، يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها: طُغَيان، وكان لهم خَصِيٌّ يحفظها إذا أرادت بيوت المغنّين، وكان الخَصِيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمار، وكان قد حال بينه وبين كلامها، والدنو منها، فقال الجمار [وكان اسم الخادم سناناً]:

مَالَمَقِيَتِ سِنَانٍ	وَلِلظَّبَاءِ الْمِالَاحِ
لِبِئْسَ زَانٍ خَصِيٍّ	غَازٍ بِغَيْرِ سِلَاحٍ ⁽²⁾
وَقَالَ أَيْضاً فِيهِ وَفِيهَا:	
نَفْسِي الْفِدَاءُ لَطَبِي	يَحُبُّنِي وَأَحْبُبُهُ
مَنْ أَجَلِ ذَاكَ سِنَانٌ	إِذَا رَأَيْتَنِي يَسُوبُهُ
هَبُّهُ أَجَابَ سِنَاناً	يَنْيَكُهُ أَيْنَ زُبُّهُ
وَقَالَ أَيْضاً فِيهِمَا:	
ظَبِي سِنَانٌ شَرِيكِي	فِيهِ فَبِئْسَ الشَّرِيكُ
فَلَا يَنْيَكُ سِنَانٌ	وَلَا يَدْعُنَا نَنْيَكُ

(ما قيل من الشعر في الخصاء)

وقال البخارزي⁽³⁾ يذكر محاسن خصال الخصيان:

وَنِسَاءٌ لِمَطْمَئِنِّ مُقِيمٍ	وَرَجَالٌ إِنْ كَانَتْ الْأَسْفَارُ
[وَقَالَ حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ يَهْجُو امْرَأَتَهُ:	
جُلْبَانَةٌ وَرَهَاءُ تَخْصِي حَمَارِهَا	بَفِي مِنْ بَغَى خَيْراً إِلَيْهَا الْجَلَامُدُ ⁽⁴⁾
وَقَالَ مَزْرَدُ بْنُ ضَرَّارٍ:	

(1) من أهل البصرة شاعر أديب، كان ماجئاً خبيث اللسان، دخل بغداد أيام الرشيد وفي أيام المتوكل. وأعجب به المتوكل وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانحدر فمات فرحاً بها. تاريخ بغداد 1143.

(2) ط: «ليس خصي بز» وفي ل: «أليس زان خصي» ورأيت الصواب فيما كتبت وانظر المحاسن والمساوي 209: 2.

(3) ما عدل والأمبروزيانا: «الماخوري».

(4) الجلبانة: الصخابة السيئة الخلق. والورهاء: الحمقاء.

[فجاءت كخاصي العير لم تحل عاجة⁽¹⁾ ولا جاجة منها تلوح على وشم⁽¹⁾ وقال عمرو الخاركي⁽²⁾]:

إذا لام على المرد
ولا والله ما أقل
ع ما عمّرت أو أخصي
نصيح زادني حرصا
وقال آخر⁽³⁾:

رماك الله من أنير بأفعى
جزاك الله شراً من رفيق
أجبناً في الكريهة حين نلقى
فلا والله ما أمسى رفيقي
وقال بعض عبد القيس:

ما كان قحذم ابن واهصة الخصى
ومن انتكاس الدهر أن زوجتها
لو كان منذر إذ خطبت إليهم
يرجو المناكح في بني الجارود⁽⁴⁾
ولكل دهر عشرة بجدود⁽⁵⁾
حيال كان خصاك بالمغمود

وقال أبو عبيدة: حدثني أبو الخطاب قال: كان عندنا رجل أحدث فسقط في بئر فذهبت حدبته وصار⁽⁶⁾ آذر فقل له: كيف تجدك⁽⁷⁾؟ [فقال]: الذي جاء شر من الذي ذهب! وأبو الحسن عن بعض رجاله⁽⁸⁾ قال: خرج معاوية ذات يوم يمشي ومعه حصي له، إذ

(1) في اللسان: «أبو زيد: الحاجة الخرزة التي لا قيمة لها. غيره: ما رأيت عليه عاجة ولا جاجة. وأنشد لأبي خراش الهذلي يذكر امرأته وأنه عاتبها فاستحييت وجاءت إليه مستحيية». وأنشد البيت ثم قال: «يقال جاء فلان كخاصي العير: إذا جاء مستحيياً وخائباً أيضاً. والعاجة: الوقف من العاج تجعله المرأة في يدها». والبيت في ديوان الهذليين 2: 129، وجاء في الأصل هكذا:

فجاءت كخاصي العير لم تحل حاجة ولا حاجة منها تلوح على وشم
وتصحيحه من اللسان في مادتي (جوج) و(عوج) ومن الصحاح (جوج)، ومن أمثال الميداني 1: 150 مع نسبته إلى أبي خراش الهذلي، كما في اللسان.
(2) ياقوت في (خارك): «منهم الخاركي الشاعر في أيام المأمون أو ما يقاربها». والشعر في معجم المرزباني 219 برواية محرفة.

(3) الأبيات في المحاسن للجاحظ 175.

(4) ط: «مخدم» وهما تحريف ما أثبت من ل. و«واهصة» تصحيح ما في ل، وهو «وابصة». وجاءت هذه الكلمة في ط: «راضخة» والوهص والرضخ بمعنى، وهو الدق. وانظر اللسان (وهص).

(5) ل: «وجدود» ط: «بهمجود» والصواب ما أثبت. والجد: الحظ.

(6) ط: «صاد» وصوابه من ل.

(7) ط: «نجدك» وهو تحريف ما في ل.

(8) ط: «رجال الأدب».

دخل على ميسون ابنة بحدل⁽¹⁾ وهي أم يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنما هو مثل المرأة؟ قالت: أترى أن المثلة به تحل ما حرّم الله تعالى؟!

ذكر ما جاء في خصاء الدواب

ذكر آدم بن سليمان عن الشعبي قال: قرأت كتاب عمر رضي الله عنه إلى سعد، ينهى عن حذف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يجري من رأس المائتين، وهو أربعة فراسخ.

وسفيان الثوري عن عاصم بن عبد الله بن عمر⁽²⁾ أن عمر رضي الله عنه كان ينهى عن خصاء البهائم ويقول: هل الإنماء إلا في الذكور.

وشريك بن عبد الله، قال: أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النخعي أن عمر رضي الله عنه نهى عن خصاء الخيل.

وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض عماله: لا تجري فرساً إلا من المائتين، ولا تخصي فرساً.

قال: وسمعت نافعاً يقول: كان عبد الله بن عمر يكره خصاء الذكور من الإبل، والبقر، والغنم.

وعبيد الله بن عمر عن نافع: أن ابن عمر رضي الله عنه كان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا نامية خلق الله تعالى.

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسول الله ﷺ عن أن تخصي ذكور الخيل، والإبل، والبقر، والغنم، ويقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلا بالذكور.

ومحمد بن أبي ذئب⁽³⁾ قال: سألت الزهري: هل بخصاء البهائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن رسول الله ﷺ، نهى عن صبر الروح. قال الزهري: والخصاء صبر شديد.

وأبو جعفر الرازي قال: حدثنا الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَرَهُمْ فَلْيَغْرِزْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119] قال: هو الخصاء.

وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس نحوه.

(1) ط: «بجدل» وإنما هو «بحدل» بالحاء كما في ل والأغاني والخزانة (3: 593 بولاق).

(2) في ل: «عن عاصم بن عبيد الله بن عاصم، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر». وعاصم الذي يروي عنه الثوري هو عاصم بن سليمان الأحول البصري المتوفي سنة اثنتين - أو ثلاث - وأربعين ومائة. كما في تاريخ بغداد 9: 152، 11: 243، ففي الإسناد نظر.

(3) ط: «ذؤيب» موضع «ذئب»، هو تحريف ما أثبت من ل. ومحمد هو ابن عبد الرحمن بن أبي ذئب. وأبو ذئب هو هشام بن شعبة. وترجمة محمد في تاريخ بغداد 2: 296-305 والمعارف لابن قتيبة 213، وانظر تأويل مختلف الحديث ص 11.

أبو بكر الهذلي قال: سألت الحسن عن خصاء الدواب فقال: تسألني عن هذا؟ لعن الله من خصى الرجال. أبو بكر الهذلي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَرَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119] قال: خصاء الدواب. قال: وقال سعيد بن جبير: أخطأ [عكرمة]، هو دين الله.

نصر بن طريف قال: حدثنا قتادة عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119] قال: خصاء البهائم. فبلغ مجاهداً فقال: كذب هو دين الله.

فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول [له]: كذبت. والناس لا يضعون هذه الكلمة في موضع خطأ الرأي ممن يظن به الاجتهاد، وكان ممن له أن يقول []. ولو أن إنساناً سمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119] قال: إنما يعني الخصاء، لم يقبل ذلك منه؛ لأن اللفظ ليست فيه دلالة على شيء دون شيء، وإذا كان اللفظ عاماً لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيء بعينه⁽¹⁾ إلا أن يكون النبي ﷺ قال ذلك مع تلاوة الآية، أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي ﷺ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يضمّر⁽²⁾ ولا ينوى، ولا يخص ولا يعم بالقصد؛ وإنما الدلالة [في] بنية الكلام نفسه، فصورة⁽³⁾ الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين الله تعالى عمل آخر كالذي يكون من الناس، تعالى الله عن قول المشبهة علواً كبيراً.

أبو جرير⁽⁴⁾ عن عمار بن أبي عمار⁽⁵⁾ أن ابن عباس قال في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَرَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: 119] قال: هو الخصاء. وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس مثله.

أبو داود التميمي، عن محمد بن سعيد عن عبادة بن نسي، عن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحب الخيل إلى سلف المسلمين، في عهد عمر، وعثمان، ومعاوية رضي الله عنه، الخصيان؛ فإنها أخفى للكمين والطلائع، وأبقى على الجهد.

أبو جرير قال: أخبرني ابن جريج عن عطاء أنه لم ير بأساً بخصاء الدواب. وأبو جرير عن أيوب عن ابن سيرين، أنه لم يكن يرى بأساً بالخصاء، ويقول: لو تركزت الفحولة لأكل بعضها بعضاً.

وعمر ويونس عن الحسن: أن لم يكن يرى بأساً بخصاء الدواب. سفيان بن عيينة عن ابن طاوس عن أبيه: أنه خصى بعيراً. [وسفيان بن عيينة عن مالك بن مغول عن عطاء، أنه سئل عن خصاء البغل فقال: إذا خفت عضاضه].

(2) ط: «لا يصر».

(1) ط: «بعيد» والوجه ما في ل.

(4) ط: «جزء» في كل موضع يذكر فيه «جرير».

(3) ط: «فصار».

(5) ل: «عن عمار بن عمار».

(أقوال في النتاج المركب)

ولنُصِلْ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلق المركب [وفي تلاقيح الأجناس المختلفة. زعموا أن العسبار ولد الضبع من الذئب، وجمعه عساير، و]. قال الكمي: **وتجمّع المتفرّقون من الفراعيل والعساير⁽¹⁾** يرميهم بأنهم أخلاط ومعلّجون.

(السّمع ولد الذئب من الضبع)

وزعموا أنّ السّمع ولد الذئب من الضبع، ويزعمون أنّ السّمع كالحية لا تعرف العليل، ولا تموت حتّى أنفها، ولا تموت إلّا بعرض يعرض لها. ويزعمون أنّه لا يعدو شيء كعدو السّمع، وأنّه أسرع من الريح والطير. وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه:

فأعص العواذل وازم الليل في عرض بذى شبيب يقاسي ليله خبباً
كالسمع لم ينقب البيطار سرته ولم يدجّه ولم يغمز له عصباً⁽²⁾
وقال ابن كناسة⁽³⁾ يصف فرساً:
كالعقاب الطلوب يضربها الط ل وقد صوّبت على عساير⁽⁴⁾
وقال سؤر الذئب⁽⁵⁾:

هو سمع إذا تمطر شيئاً وعقاب يحثها عسبار
يقول: إذا اشتدّ هرب المطلوب الهارب من الطالب الجادّ، فهو أحث للطالب؛ وإذا صار كذلك صار المطلوب حينئذ في معنى من يحث الطلب، إذ صار إفراط سرعته سبباً في إفراط طلب العقاب. وقال تأبط شراً⁽⁶⁾، [أو أبو محرز خلف بن حيّان الأحمر]:
مُسبِّل بالحيّ أحوى رفل وإذا يمدّو فسمع أزل
وإنما قال أزل وجعله عادياً ووصفه بذلك، لأنّه ابن الذئب.
وقال الأصمعي:

يدير عيني لمظة عسبار⁽⁷⁾

- (1) روى صاحب اللسان هذا البيت وقال: «فقد يكون - يعني العساير - جمع العسبر (كقنفذ) وقد يكون جمع عساير وحذفت الياء للضرورة. والفرع: ولد الضبع من الضبعان» يعني الذكر من الضباع.
- (2) ط: «ولم يرجه» موضع «ولم يدجّه» والودج: قطع الودج: عرق في العنق. وانظر معجم المرزباني 341.
- (3) ط: «أبو كناسة» وصوابه في ل. وله ترجمة في فهرست ابن النديم 71 ليسك، 105 مصر. توفي سنة 207.
- (4) ط: «والعقاب». (5) البيت ساقط من ل.
- (6) ط: «ابن أخت تأبط شراً». والقصيدة في حماسة أبي تمام (1: 341-347).
- (7) ط: «لاطه» موضع «لمظة» ولعل صوابهما «لظة» بمعنى ملحّة، كما يظهر أن هناك كلاماً ساقطاً بعد «قال الأصمعي»، تقديره «يقال عساير وعسبارة». وأنشد «وقال في موضع آخر» مقحمة على الكتاب.

وقال في موضع آخر:

كَأَنَّ مِنْهَا طَرَفَهُ اسْتَعَارَهُ⁽¹⁾

وقال آخر:

تَلْقَى⁽²⁾ بِهَا السَّمْعَ الْأَزْلَّ الْأَطْلَسَا

(الديسم ولد الذئب من الكلبة)

وزعموا أَنَّ وَلَدَ الذَّئْبِ مِنَ الْكَلْبَةِ الدَّيْسَمُ ، وَرَوُوا لِبَشَّارِ بْنِ بُزْدٍ فِي دَيْسَمِ الْعَنْزِيِّ أَنَّهُ قَالَ :
أَدَيْسَمُ يَابْنَ الذَّئْبِ مِنْ نَسْلِ زَارِعٍ أَتْرَوَى هِجَائِي سَادراً غَيْرَ مُقْصِرٍ
وزارع : اسم الكلب ، يقال للكلاب أولاد زارع .

(زعم لأرسطو في التاج المركب)

وزعم صاحب المنطق أَنَّ أَصْنَافاً أُخَرَ مِنَ السَّبَاعِ الْمُتَزَاوِجَاتِ الْمُتَلَاقِحَاتِ مَعَ اخْتِلَافِ
الْجِنْسِ وَالصُّورَةِ ، مَعْرُوفَةُ التَّاجِ مِثْلُ الذَّنَابِ الَّتِي تَسْقُدُ الْكِلَابَ فِي أَرْضِ رُومِيَّةٍ : قَالَ : وَتَتَوَلَّدُ
أَيْضاً كِلَابٌ سَلَوَقِيَّةٌ مِنْ ثَعَالِبٍ وَكِلَابٍ . قَالَ : وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَسْمَى بِالْيُونَانِيَّةِ طَاغَرِيْسُ⁽³⁾
وَبَيْنَ الْكِلْبِ ، تَحْدُثُ هَذِهِ الْكِلَابُ الْهِنْدِيَّةُ . قَالَ : وَلَيْسَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْوِلَادَةِ الْأُولَى .
[قَالَ أَبُو عَثْمَانَ : عَنْ بَعْضِ الْبَصْرِيِّينَ عَنْ أَصْحَابِهِ قَالَ : وَزَعَمُوا] أَنَّ نِتَاجَ الْأُولَى يَخْرُجُ
صَعْباً وَحَشِيّاً لَا يَلْقَنُ⁽⁴⁾ وَلَا يُؤَلَّفُ .

(تلاقح السبع والكلبة)

وزعم [لي بعضهم عن رجل من أهل الكوفة من بني تميم] أَنَّ الْكَلْبَةَ تَعْرِضُ لِهَذَا السَّبْعِ
حَتَّى تَلْقَحَ ، ثُمَّ تَعْرِضُ لِمِثْلِهِ مَراراً حَتَّى يَكُونَ جَرَوُ الْبَطْنِ الثَّالِثِ قَلِيلَ الصَّعُوبَةِ يَقْبَلُ التَّلْقِينَ ،
وَأَنْتَهُمْ يَأْخُذُونَ إِنْثَى الْكِلَابِ ، وَيَرْبِطُونَهَا فِي تِلْكَ الْبَرَارِيِّ ، فَتَجِيءُ هَذِهِ السَّبَاعُ وَتَسْقُدُهَا ،
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَنْشَى يُجْتَمَعُ عَلَى حَبِّ سَفَادِهَا ، وَلَا ذَكَرٌ يَجْتَمِعُ لَهُ مِنَ النُّزُوعِ إِلَى سَفَادِ
الْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ ، أَكْثَرُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكِلْبِ وَالْكَلْبَةِ .

قَالَ : وَإِذَا رَبَطُوا هَذِهِ الْكِلَابَ الْإِنْثَى فِي تِلْكَ الْبَرَارِيِّ ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ السَّبَاعُ هَائِجَةً
سَفِدَتْهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ السَّبْعُ هَائِجاً فَالْكَلْبَةُ مَأْكُولَةٌ . وَقَالَ أَبُو عَدْنَانَ⁽⁵⁾ :

(1) ل : « شِبَاةٌ » مَوْضِعٌ « مِنْهَا » . (2) ط : « يَلْقَى » .

(3) كَذَا فِي نِهَآيَةِ الْأَرْبِ 9 : 256 وَل . وَفِي ط : « طَاعُويس » .

(4) كَذَا فِي ل وَنِهَآيَةِ الْأَرْبِ . وَفِي ط « يَأْلَف » .

(5) قَالَ الْجَاهِظُ فِي شَأْنِهِ : « وَمَا كَانَ عِنْدَنَا بِالْبَصْرَةِ رَجُلَانِ أَدْرَى بِصَنُوفِ الْعِلْمِ ، وَلَا أَحْسَنَ بَيَانًا مِنْ أَبِي الْوَزِيرِ ، وَأَبِي
عَدْنَانَ الْمُعَلِّمِينَ ، وَحَالَهُمَا مِنْ أَوَّلِ مَا أَذْكَرُ مِنْ أَيَّامِ الصَّبَا » الْبَيَانُ 1 : 252 ، وَقَدْ عَدَّهُ ابْنُ النَّدِيمِ مِمَّنْ صَنَفَ فِي
غَرِيبِ الْحَدِيثِ . الْفَهْرَسْتُ 87 لَيْسِكُ ، 129 مِصْرُ .

أَيَا بَاكِي الْأَطْلَالِ فِي رَسْمِ دَمْنَةٍ تَرُودُ بِهَا عَيْنُ الْمَهَا وَالْجَاذِرِ
وَعَانَاتُ جَوَالٍ وَهَيْقُ سَفَنَجٍ وَسِنْدَاوَةٌ فَضْفَاضَةٌ وَحَضَاجِرُ⁽¹⁾
وَسَمْعُ خَفِي الرِّزِّ ثَلْبٌ وَدَوْبَلٌ وَثَرْمَلَةٌ تَعْتَادُهَا وَعَسَابِرُ⁽²⁾

وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادتٍ لا يحقُّها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء، وما عندنا في معرفة ما ادَّعى إلا هذا القول. وأمَّا الذين ذكروا في أشعارهم السَّمْعَ والعَسَابِرَ، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف، فأدبنا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة، إذ لم نجد عليها بُرْهَانًا.

(أولاد السَّعْلَةِ)

وللنَّاسِ في هذا الضَّرْبِ ضُرُوبٌ من الدعوى، وعلماءُ السَّوءِ يُظهرون تجويزَها وتحقيقَها، كالذي يدَّعون من أولاد السَّعَالِي من الناس، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروى أبو زيد النحويُّ عن السَّعْلَةِ التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم، فلمَّا رأَتْ برقاً يلمع من شقِّ بلاد السَّعَالِي، حنَّت وطارَتْ إليهم، فقال شاعرهم⁽³⁾:

رَأَى بَرْقًا فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرِ فَلَا بِكَ مَا أَسَالُ وَمَا أَغَامُ⁽⁴⁾
وَأُنْشِدُنِي أَنْ الْجَنِّ طَرَقُوا بَعْضَهُمْ فَقَالَ⁽⁵⁾:

أَتَوَا نَارِي فَقُلْتُ مَنْوُنْ أَنْتُمْ فَقَالُوا: الْجِنُّ قُلْتُ: عِمُوا ظَلَامًا
فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ: مِنْهُمْ زَعِيمٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا

ولم أعِب الرواية، وإنَّما عبْتُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها. فما أَكْثَرَ من يَروي هذا الضَّرْبَ على التعجُّبِ منه، وعلى أن يجعلَ الرواية [له] سبباً لتعريفِ النَّاسِ حقَّ ذلك من باطله، وأبو زيدٍ وأشباهه مأمونون على النَّاسِ؛ إلا أنَّ كلَّ من لم يكن متكلماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوةً وإماماً، فما أَقْرَبَ إفساده لهم من إفسادِ المتعمِّدِ لإفسادهم! وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السَّعْلَةِ:

تَقُولُ جَمْعَ مَنْ بُوَانٍ وَوَتِدُ وَحَسَنُ أَنْ كَلَفْتَنِي مَا أَجِدُ⁽⁶⁾

(1) السنداوة: الذئبة، كما في الديميري، والفضفاضة: اللحيمة الجسيمة. وبديلها في ط: «تعصبى به». وحضاجر: اسم للضيع أو لولدها، معرفة لا ينصرف لأنه اسم لواحد على بنية الجمع.

(2) ط: «ثبت» مكان «ثلب». وفي القاموس: الثلب بالكسر وككتف: المغيب.

(3) هو عمرو بن يربوع بن حنظلة، كما في نوادر أبي زيد 146.

(4) ط: «فلأيا» موضع «فلا بك» وما أثبتته من ل ومن النوادر.

(5) الشعر لشمير (أو سمير) بن الحارث الضبي كما في النوادر 123 وخزانة الأدب 3:3 بولاق. وانظر الخزانة 6:3.

(6) ط: «أقول» مكان «تقول» وفي ل: «وحسن كلفتني...»، وفي كليهما: «ما لم أجد» وهو تحريف.

وَلَمْ تَقْلَ جِيءَ بِأَبَانٍ أَوْ أُحْدَ (1) أَوْ وَلِدَ السَّعْلَةَ أَوْ جِرَوِ الْأَسَدَ
أَوْ مَلِكِ الْأَعْجَامِ مَأْسَرًا بِقَدِّ (2)

وقال آخر (3):

يَا قَاتِلَ اللَّهِ بَنِي السَّعْلَةَ عَمْرًا وَقَابوساً شِرَارَ النَّاتِ
(ما زعموا في جرهم)

وذكروا أَنَّ جُرْهُمًا كَانَ مِنْ نِتَاجِ مَا بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَبَنَاتِ آدَمَ، وَكَانَ الْمَلِكُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِذَا عَصَى رَبَّهُ فِي السَّمَاءِ أَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، وَفِي طَبِيعَتِهِ، كَمَا صَنَعَ بِهَارُوتَ وَمَارُوتَ حِينَ كَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا وَشَأْنِ الزُّهْرَةِ، وَهِيَ أَنَاهِيدُ (4) مَا كَانَ، فَلَمَّا عَصَى اللَّهُ تَعَالَى بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ فِي صُورَةِ رَجُلٍ، تَزَوَّجَ أُمَّ جُرْهُمٍ فَوُلِدَتْ لَهُ جُرْهُمًا، وَلِذَلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ (5):

لَا هُمْ إِنَّ جُرْهُمًا عِبَادُكَ النَّاسِ طَرَفٌ وَهُمْ تِلَادُكَ (6)
(ما زعموا في بلقيس وذوي القرنين)

وَمِنْ هَذَا النِّسْلِ وَمِنْ هَذَا التَّرَكِيبِ وَالنَّجْلِ (7) كَانَتْ بَلْقِيسُ مَلِكَةً سَبَأً. وَكَذَلِكَ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ كَانَتْ أُمُّهُ فِيرَى أَدَمِيَّةٌ وَأَبُوهُ عِبْرِيٌّ (8) مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَلِذَلِكَ (9) لَمَّا سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا يَنَادِي: يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ، فَقَالَ: أَفَرَعُتُمْ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فَارْتَفَعْتُمْ إِلَى أَسْمَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ وَرَوَى الْمُخْتَارُ (10) بَنَ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّ عَلِيًّا كَانَ إِذَا ذَكَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ قَالَ: ذَلِكَ الْمَلِكُ الْأَمْرُطُ.

(1) ط: «ما لم تقل» موضع «ولم تقل».

(2) ل: «الأعجم». ابن منظور: رجل أعجم وقوم أعجم، قال:

سَلُومَ لَوْ أَصْبَحْتَ وَسَطَ الْأَعْجَمِ فِي الرُّومِ أَوْ فِي فَارَسٍ أَوْ فِي الدِّيلَمِ
إِذَا لَزَزْنَاكَ وَلَوْ بَعْلَمِ

(3) هو علباء بن أرقم كما في النوادر 104، والبيت الثاني يروى بدله في الأمالي 2: 68:

عَمْرُو بْنُ يَرْبُوعٍ شَرَارَ النَّاتِ

(4) هذه الكلمة وما قبلها ساقطتان من ل. وقد ذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم 122 أسماء الكواكب بالفارسية، فقال: «كيوان، هرمز، بهرام، خور، ناهيد، تير، ماه»، بمعنى زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر.

(5) هو عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، كما في شرح الأنباري القصائد السبع ص 255.

(6) ما عدل والأمبروزيانا: «طارف».

(7) ط: «النحل» وصوابه «النجل» كما في ل.

(8) في ل: «قبري» بدل «فيرى» وهي في رسائل الجاحظ 97 ساسي «قيري». و«عبري» بدلها في الرسائل: «عيري».

(9) ط والأمبروزيانا «وكذلك».

(10) هو المختار الثقفي من زعماء الثائرين على بني أمية، وكان يقال له: كيسان، وإليه تنسب الطائفة الكيسانية، توفي سنة 67.

(ما زعموا في تلاقح الجن والإنس)

وزعموا أنَّ التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس، لقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: 64]. وذلك أن الجنَّيات إنما تعرض لصراع رجال الإنس على جهة التعشيق وطلب السَّفاد⁽¹⁾، وكذلك رجال الجنَّ لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال، والنساء للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.

ومن زعم أن الصَّرع من المِرَّة، ردَّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 275] وقال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُهُمْ وَلَا جَأً﴾ [الرحمن: 74]. فلو كان الجأ لا يفتنُّ الأدميَّات، ولم يكن ذلك قط، وليس ذلك في تركيبه، لما قال الله تعالى هذا القول.

(ما زعموا في النسناس وغيره)

وزعموا أنَّ النَّسْناس تركيب ما بين الشَّق والإنسان. ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء السدِّ تركيب من النَّسْناس، والناس، والشَّق، ويأجوج ومأجوج. وذكروا عن الواق والدوال باي⁽²⁾ أنهم نتاج ما بين بعض الثَّبات والحيوان. وذكروا أنَّ أُمَّة كانت في الأرض، فأمر الله تعالى الملائكة فأجلوهم؛ وإياهم عَنوا بقولهم: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]. فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كان في الأرض. قال الأصمعيُّ - أو خلف - في أرجوزة مشهورة، ذكر فيها طول عمر الحيَّة:

أَرْقَشُ إِنْ أُسْبَطَ أَوْ تَثْنَى حَسِبْتَ وَرْساً خَالِطَ الْيَرْنَأِ⁽³⁾
خَالِطُهُ مِنْ هَاهُنَا وَهَنَّا إِذَا تَرَاءَاهُ الْحَوَاةُ اسْتَنَّا⁽⁴⁾
قال: وكان يقال لتلك الأُمَّة مهنا⁽⁵⁾.

(قول المجوس في بدء الخلق)

وزعم المجوس أنَّ الناس من ولد مهنة ومهينة، وأنَّهما تولدا فيما بين أرحام الأرضين، ونطفتين ابتدرتا⁽⁶⁾ من عيني ابن هُرْمُز حين قتله هرمز. وحماقات أصحاب الاثنين كثيرة في

(1) ل: «الفساد» وليس بشيء.

(2) ط: «الدوال» ل: «الدوال بأي» وانظر حواشي البغال ص 374.

(3) الورس: نبت أصفر يزرع باليمن ويصبع به. وقيل: صنف من الكركم. كذا في المصباح. اليرنأ: الحناء.

(4) ط: إذا أتى إد الحداة استننا. واستن: أسرع.

(5) ط: «يهنا»، وفي رسائل الجاحظ 99 «بهنا».

(6) ط: «انتدرتا».

هذا الباب . ولولا أنني أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام، ومبلغ الرأي، لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرت كثيراً من هذا الجنس .

(عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه)

وزعم ابن هيثم أنه رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميري⁽¹⁾، صديق إبليس وختنه، وأنهم كانوا لا يشكون أن إبليس جدّه من قبل أمهاته . وسنقول في ذلك بالذي يجب إن شاء الله تعالى . وصلة هذا الكلام تجيء بعد هذا إن شاء الله تعالى .

(حوار في الكلب والديك)

وقلت : ولو تمّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما ألف الإنسان، واستوحش من السبع، وكره الغياض، وألف الدور، واستوحش من البراري وجانب القفار، وألف المجالس والديار . ولو تمّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء، لما أكل الحيوان، وكلب على الناس . نعم حتى ربّما كلب ووتب على صاحبه وكلب على أهله . وقد ذكر ذلك طرفه فقال :

كُنْتُ لَنَا وَالدَّهْرَ أَوْنَةً تَقْتُلُ حَالَ النَّعِيمِ بِالْبُؤْسِ
كَكَلْبِ طَسْمٍ وَقَدْ تَرَبَّبَهُ⁽²⁾ يَعْلُهُ بِالْحَلِيبِ فِي الْغَلَسِ
ظَلَّ عَلَيْهِ يَوْمًا يُفْرِفِرُهُ إِلَّا يَلْغُ فِي الدَّمَاءِ يَنْتَهَسِ

وقال حاجب بن دينار⁽³⁾ المازني في مثل ذلك :

وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ أَعْنَتُمْ عَلَيْكُمْ بِمَالٍ وَسُلْطَانٍ إِذَا سَلِمَ الْحَبْلُ
كَذِي الْكَلْبِ لَمَّا أَسْمَنَ الْكَلْبُ رَابَهُ بِإِحْدَى الدَّوَاهِي حِينَ فَارَقَهُ الْجَهْلُ

وقال عوف بن الأحوص⁽⁴⁾ :

فإني قيساً كالمسمّن كلبه تُخَدِّشُهُ أَنْيَابُهُ وَأَظَافِرُهُ
وَأُنْشِدُ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ لِبَعْضِهِمْ⁽⁵⁾ :

وَهُمْ سَمَّنُوا كَلْبًا لِيَأْكَلَ بَعْضُهُمْ وَلَوْ ظَفَرُوا بِالْحَزْمِ مَا سَمَّنَ الْكَلْبُ

(1) كان في زمن الحجاج، وكان صاحب شعبذة ونيرنجات، يدعي أن إبليس يتراءى له ويصادقه ويكاتبه ويطلعه على أسرارِهِ . ثمار القلوب 57 .

(2) ط : «يرببه» . والأبيات ليست في ديوان طرفه . والبيت الثاني والثالث في ثمار القلوب 314 وفيه حديث عن كلب طسم . وانظر أيضاً السهيلي 2 : 63 .

(3) ط : «ذبيان» وإنما هو «دينار» كما في ل والبيان 2 : 183 .

(4) انظر يوم الفروق في مجمع الأمثال 2 : 57، وقيس المذكور في البيت هو قيس بن زهير . والرواية في مجمع الأمثال، وفي ثمار القلوب 315 «فخدشه أنيابه وأظافره» .

(5) هو مالك بن أسماء، كما في الثمار 315 .

وفي المثل⁽¹⁾: «سَمْنُ كَلْبِكَ يَا كُلُّكَ». وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف، وكان يحضر طعامه، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخُصْب، وأنه قد سَمِنَ فكتبت إليه امرأته⁽²⁾:

أُتْهَدِي لِي الْقِرْطَاسَ وَالْخُبْزُ حَاجَتِي وَأَنْتَ عَلَى بَابِ الْأَمِيرِ بَاطِنُ
إِذَا غَبَّتْ لَمْ تَذْكُرْ صَدِيقًا وَإِنْ تَقُمْ فَأَنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ ضَنِينُ
فَأَنْتَ كَكَلْبِ السَّوْءِ فِي جُوعِ أَهْلِهِ فَيُهْزَلُ أَهْلُ الْكَلْبِ وَهُوَ سَمِينُ

وفي المثل: «سمن كلب في جوع أهله»، وذلك أنه عند السُواف⁽³⁾ يصيب المال، والإخداج⁽⁴⁾ يعرض للثوق، [يأكل الجيف فيسمن⁽⁵⁾]. وعلى أنه حارسٌ مُحترسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاء من نفسه، وأليفٌ كثير الخيانة على إلفه. وإنما اقتنوه على أن يندبرهم بموضع السارق، وتركوا طرده لينبهمهم⁽⁶⁾ على مكان المبيت. [وهو أسرقٌ من كل سارق، وأدومٌ جنايةً من ذلك المبيت]. ويدلُّ على أنه سروقٌ عندهم، قولُ الشاعر:

أَفِي أَنْ سَرَى كَلْبٌ فَبَيَّتْ جُلَّةً وَجَبَجَبَةً لِلْوُطْبِ لَيْلَى تُطْلِقُ⁽⁷⁾

فهو سَرَّاق، وصاحب بيات، وهو نَبَّاشٌ، وأكل لحوم الناس. ألا إنه يجمع سرقة الليل مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خزانه، أو مطبخ، أو عَرَصَة دار، أو في طريق، أو في براري، أو في ظهر جبل، أو في بطن وادٍ، إلاَّ وخطمه في الأرض يتشمم ويستروح، وإن كانت الأرض بيضاء خَصَاءً⁽⁸⁾ ودَوِيَّةً ملساء، أو صخرة خلفاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرها وطمعاً. نعم حتى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلاَّ اشتَمَّ استه، ولا يتشمم غيرها منه، ولا تراه يُرمى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رَجَعَ إليه فعَضَّ عليه؛ لأنه لَمَّا كان لا يكاد يأكل إلاَّ شيئاً رَمَوْا به [إليه] صار ينسى لِقْط شرهه وغلبة الجشع على طبعه، أن الرامي إنما أراد عقره أو قتله، فيظنُّ لذلك أنه إنما أراد إطعامه والإحسان إليه. كذلك يخيل إليه فزطُ التَّهم وتوهمه غلبته الشره، ولكنه رمى بنفسه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسولةً ونقصاً، وخاف السباع واستوحش من الصَّحارى.

(1) ط: «الأثر». (2) الخبر والأبيات في أمال القالي 2: 136 مع اختلاف في الرواية.

(3) ط: «الصواف» وإنما هو «السواف» كما في ل. والسواف كغراب: الموتان في الإبل.

(4) أخذجت الناقة: أتت بولد ناقص.

(5) زدتها لئتم الكلام، اعتماداً على ما في نوادر أبي زيد 248، وأمثال الميداني (2: 263).

(6) في الأصل: «لينبهم» ولم يعهد تعدية هذا الفعل بعلی. وأثبت ما في نهاية الأرب 9: 257.

(7) ط: «أخي» بدل «أفي»، و«حلة» مكان «حلة». وتصحيح البيت من ل واللسان (جيب). وفيه «سلمي» موضع «ليلى». والحلة، بالضم: وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر ويكنز. والججبة، بفتح الجيمين أو ضمهما: الكرش يجعل فيه اللحم المقطع يتزود به في الأسفار، وقال ابن الأعرابي: هو جلد جنب البعير يقور ويجعل فيه اللحم الذي يدعى الوشيقة، والوشيقة: لحم يغلى إغلاء ثم يقدد، فهو أبقي ما يكون.

(8) ط: «وحصاء» والوجه ما أثبت من ل، كما في نهاية الأرب 9: 257 نقلاً عن الحيوان. والحصاء: الجرداء.

وَلَمَّا سَمِعُوا بَعْضَ الْمَفْسَّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: 24-25] إِنَّ الْمَحْرُومَ هُوَ الْكَلْبُ؛ وَسَمِعُوا فِي الْمَثَلِ : «اصْنَعُوا الْمَعْرُوفَ وَلَوْ إِلَى الْكَلْبِ» عَطَفُوا عَلَيْهِ وَاتَّخَذُوهُ فِي الدُّورِ . وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ سِفْلَتِهِمْ وَأَغْيَابَتِهِمْ ، وَمِنْ قَلِّ تَقَرُّزِهِ⁽¹⁾ وَكَثْرُ جَهْلِهِ ، وَرَدَّ الْأَثَارَ إِمَّا جَهْلًا وَإِمَّا مَعَانِدَةً . وَأَمَّا الدِّيكُ فَمِنْ بَهَائِمِ الطَّيْرِ وَبِغَاثِهَا ، وَمِنْ كَلُولِهَا وَالْعِيَالِ عَلَى أَرْبَابِهَا . وَلَيْسَ مِنْ أَحْرَارِهَا وَلَا مِنْ عِتَاقِهَا وَجَوَارِحِهَا ، وَلَا مِمَّا⁽²⁾ يَطْرِبُ بِصَوْتِهِ وَيُشْجِي بِلَحْنِهِ ، كَالْقَمَارِيِّ وَالِدَّبَاسِيِّ وَالشَّفْنَانِيِّ⁽³⁾ وَالْوَرَّاشِيِّ وَالْبَلَابِلِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَلَا مِمَّا يُؤْنِقُ بِمَنْظَرِهِ وَيَمْتَعُ الْأَبْصَارَ حَسَنُهُ ، كَالطَّوَاوَيْسِ وَالنَّدَارِجِ ، وَلَا مِمَّا يَعِجِبُ بِبَهَادَتِهِ وَيُعَقِّدُ الذَّمَامَ بِإِلْفِهِ وَنِزَاعِهِ ، وَشِدَّةِ أُنْسِهِ وَحَنِينِهِ ، وَتُرِيدُهُ بِإِرَادَتِهِ لَكَ ، وَتَعَطَّفُ عَلَيْهِ لِحَبِّهِ إِيَّاكَ ، كَالْحِمَامِ ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ ذَوَاتِ⁽⁴⁾ الطَّيْرِانِ مِنْهَا ، فَهُوَ طَائِرٌ لَا يَطِيرُ ، وَبَهِيمَةٌ لَا يَصِيدُ ، وَلَا هُوَ أَيْضًا مِمَّا يَكُونُ صَيْدًا فَيَمْتَنِعُ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ وَيُرَادُّ لِهَذِهِ اللَّذَّةِ . وَالْحُقَّاشُ أَمْرَطُ ، وَهُوَ جَيْدُ الطَّيْرِانِ ، وَالدِّيكُ كَاسٍ وَهُوَ لَا يَطِيرُ وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ ذِي رَيْشٍ أَرْضِيٍّ ، وَمِنْ ذِي جِلْدَةٍ هَوَائِيٍّ .

وَأَجْمَعُ الْخَلْقَ لَخِصَالِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانَ ، وَلَيْسَ الزَّوْاجُ إِلَّا فِي الْإِنْسَانِ وَفِي الطَّيْرِ ، فَلَوْ كَانَ الدِّيكُ مِنْ غَيْرِ الطَّيْرِ ثُمَّ كَانَ مِمَّنْ لَا يَزَاجُ ، لَقَدْ كَانَ قَدْ مُنِعَ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ وَعَدِمَ هَذِهِ الْمَشَاكَلَةُ الْغَرِيبَةُ ، وَحُرِّمَ هَذَا السَّبَبُ الْكَرِيمُ وَالشُّبُهَةُ الْمَحْمُودُ . فَكَيْفَ وَهُوَ لَا يَزَاجُ ، وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ الَّذِي لَيْسَ الزَّوْاجُ وَالْإِلْفُ وَثَبَاتُ الْعَهْدِ ، وَطَلَبُ الذَّرْعِ وَحُبُّ النَّسْلِ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى السَّكَنِ وَالْحَنِينَ إِلَى الْوَطَنِ - إِلَّا لَهُ وَلِلْإِنْسَانِ . وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَزَاجُ فَإِنَّمَا دَخَلَهُ النِّقْصُ وَخَسِرَ هَذِهِ الْفَضِيلَةُ مِنْ جَهَةِ وَاحِدَةٍ ، وَقَدْ دَخَلَ الدِّيكُ النِّقْصُ مِنْ جِهَتَيْنِ ، وَوَصَفَ أَبُو الْأَخْزَرِ الْحِمَامِيَّ الْحِمَارَ وَغَيْرَ الْعَانَةِ خَاصَّةً⁽⁵⁾ ، فَإِنَّهُ أَمْثَلُ فِي بَابِ الْمَعْرِفَةِ مِنَ الْأَهْلِيِّ ، فَذَكَرَ كَيْفَ يَضْرِبُ فِي الْأُتُنِ ، وَوَصَفَ اسْتِبْهَامَهُ عَنْ طَلَبِ الْوَلَدِ ، وَجَهْلَهُ بِمَوْضِعِ الذَّرْعِ ، وَأَنَّ الْوَلَدَ لَمْ يَجِئْ مِنْهُ عَنْ طَلَبٍ لَهُ ، وَلَكِنْ النُّطْفَةُ الْبَرِيَّةُ مِنَ الْأَسْقَامِ ، إِذَا لَاقَتْ الْأَرْحَامَ الْبَرِيَّةَ مِنَ الْأَسْقَامِ حَدَّثَ النَّتَاجَ عَلَى الْخَلْقَةِ ، وَعَلَى مَا سَوِّتَ عَلَيْهِ الْبِنِيَّةُ⁽⁶⁾ ، وَذَكَرَ أَنَّ نَزْوَهُ عَلَى الْأَتَانِ ، مِنْ شَكْلِ نَزْوِهِ عَلَى الْعِيرِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى قَدَرٍ مَا يَحْضُرُهُ مِنَ السَّبَقِ ، ثُمَّ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى ذُبْرِ مَنْ قَبْلَ ، وَإِلَى مَا يَلْقَحُ [مِنْ مِثْلِهِ مِمَّا لَا يُلْقَحُ] فَقَالَ :

لَا مُبْتَغَى الضَّنْءِ وَلَا بِالْعَازِلِ⁽⁷⁾

يقول : هُوَ لَا يَرِيدُ الْوَلَدَ وَلَا يَعْزِلُ .

(1) ط : «تقززه» .

(2) ط : «ممن» وكذلك يتكرر هذا الخطأ في كل موضع أتت فيه «مما» . وقد جاء على الصواب الذي أثبتته ، في ل .

(3) ط : «الشغنائين» وصوابه بالفاء كما في ل . وهو جمع شغنائين بالكسر ، وقد تحدث عنه الجاحظ في 3 : 83 ، 287 و 7 : 44 ، 121 من الحيوان وكذلك الدميري .

(4) في الأصل : «ذوي» ولا يكون ذلك إلا للعاقل ، والوجه ما أثبت .

(5) ط : «وغير العانة خاصة» وصوابه في ل . وانظر ص 99 .

(6) ط : «عن» بدل «على» . (7) ط : «لضني» .

والأشياء التي تألف الناس ولا تريد سواهم، ولا تحن إلى غيرهم، كالعصفور والخُطاف والكلب والسنور. والديك لا يَألف منزله ولا رُبعه ولا يُنازع^(١) إلى دجاجته ولا طُروقه، ولا يَحْن إلى ولده، بل لم يَدِرْ قَطُّ أَنْ له ولداً؛ ولو ذَرَى لكان على دِرَائِته دليل، فإذا قد وجدناه لبيضه^(٢) وفراريجِه الكائنة منه، كما نجدُه لما لم يلدُه ولمَّا ليس من شَكْلِه ولا يرجع إلى نسبه، فكيف تُعرَف الأمور إلا بهذا وشبهه. وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوث لا يُثَبِّت وَجَهَ صَاحِبِه، وهو لم يُخْلَقْ إلاَّ عنده وفي ظله، وفي طعامه وشرابه، وتَحْت جناحه. والكلب على ما فيه يعرف صاحبه، وهو والسنور يعرفان أسماءهما، ويألفان موضعهما، وإن طُردا رجعا، وإن أُجِيعا صَبِرا، وإن أُهِنَا احتملا. والديك يكون في الدار من لَدُنْ كَانَ فُرُوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خَرَجَ من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران. أو على موضع من المواضع، لم يعرف كيف الرُّجُوع، وإن كان يُرى منزله قريباً، وسهل^(٣) المطلب يسيراً، ولا يَذْكُر ولا يتَذَكَّر، ولا يهتدي ولا يتصور له كيف يكون الاهتداء، ولو حَنَّ لَطَلَب، ولو احتاج لالتمس. ولو كان هذا الخُبْرُ في طباعه لظَهَرَ، ولكنَّها طبيعةٌ بلهاءٌ مستبهمة، طامحة^(٤) وذاهلة، ثمَّ يَسْفُد الدَّجاجة ولا يعرفها، هذا مع شِدَّة حاجته إليهنَّ وحِرْصِه على السِّفاد، والحاجة تفتِّق الحيلة، وتُدُلُّ على المعرفة، إلا ما عليه الديك؛ فإنَّه مع حِرْصِه على السِّفاد، لا يعرف التي يسفد، ولا يقصد إلى ولد، ولا يحضن بيضاً ولا يعطفه رَحِمً، فهو من هاهنا أحمق من الحُبَارَى وأعقُّ من الضَّبِّ.

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كلُّ شيءٍ يحبُّ ولده حتى الحُبَارَى». فضرب^(٥) بها المثل كما ترى في الموق والغفلة، وفي الجهل والبله، وتقول العرب: «أعقُّ من الضَّبِّ»؛ لأنَّه يأكل حُسُولَه.

(أكل الهرة أولادها)

وكرَّم عند العرب حظُّ الهرة، لقولهم: «أَبْرُ مِنْ هِرَّةٍ، وأعقُّ مِنْ ضَبٍّ» فوجَّهوا أكل الهرة أولادها على شِدَّة الحبِّ لها، ووجَّهوا أكل الضَّبِّ لها على شِدَّة البغض لها، وليس ينجو منه شيءٌ منها إلاَّ بشُغْلِه بِأَكْلِ إخوته عنه، وليس يحرسها ممَّا يأكلها إلاَّ ليأكلها، ولذلك قال العَمَلَسُ بن عَقِيل، لأبيه^(٦) عَقِيل بن عُلفَة:

أَكَلْتَ بَنِيكَ أَكَلَ الضَّبِّ حَتَّى وَجَدْتَ مَرَارَةَ الْكَالِ الْوَبِيلِ
فَلَوْ أَنَّ الْأَلَى كَانُوا شُهُوداً مَنَعْتَ فَنَاءَ بَيْتِكَ مِنْ بَجِيلِ
وَقَالَ أَيْضاً^(٧):

(١) كذا في ل. وفي ط: «يحن» فتضعف العبارة بال تكرار

(٢) ط: «إذا وجدناه لبيضه» والوجه ما في ل.

(٣) ط: «وسبيل».

(٤) لعلها: «جامحة».

(٥) الأمبروزيانا: «يضرب».

(٦) ل: «لابنه» والصواب ما في ط. وفي الأغاني 11: 89 أن الشعر لأرطاة بن سهبة.

(٧) هذه الجملة والبيت بعدها، ليسا في ل. وانظر العقد 6: 49.

أَكَلْتُ بَنِيكَ أَكَلِ الضَّبِّ حَتَّى تَرَكْتَ بَنِيكَ لَيْسَ لَهُمْ عَدِيدٌ
وَشَبَّهَ السَّيِّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِي، عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي نَصَبِهَا الْحَرْبَ يَوْمَ الْجَمَلِ
لِقِتَالِ بَنِيهَا، بِالْهَرَّةِ حِينَ تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا، فَقَالَ:

جَاءَتْ مَعَ الْأَشْقَيْنِ فِي هَوْدَجٍ تَزْجِي إِلَى الْبَصْرَةِ أَجْنَادَهَا
كَأَنَّهَا فِي فِعْلِهَا هَرَّةٌ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا!

(رعاية الذئبة لولد الضبع)

وتقول العرب أيضاً: «أَحْمَقُ مِنْ جَهِيْزَةٍ»، وهي عِرس الذئب؛ لأنها تدعُ ولدها
وترضع ولد الضبع. قال: وهذا معنى قول ابن جِذْل الطَّعَان⁽¹⁾.

كَمْ رُضِعَ أَوْلَادُ أُخْرَى وَضِيْعَتْ بَنِيهَا فَلَمْ تَرْقَعْ بِذَلِكَ مَرْقَعَا

(رعاية الذئبة لولد الضبع)

ويقولون: إِنَّ الضَّبْعَ إِذَا صِيْدَتْ أَوْ قُتِلَتْ، فَإِنَّ الذَّئْبَ يَأْتِي أَوْلَادَهَا بِاللَّحْمِ. وأنشد
الْكُمَيْت:

كَمَا خَامَرْتُ فِي حِضْنِهَا أُمَّ عَامِرٍ لِذِي الْحَبْلِ حَتَّى عَالَ أَوْسٌ عِيَالَهَا⁽²⁾
وَأَوْسُ هُوَ الذَّئْبُ. وَقَالَ فِي ذَلِكَ:

فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ ذُؤَالِهِ ضِعْتُ يَزِيدُ عَلَيَّ إِيَالَهُ
فَلَأْخِشَأَنَّكَ مِشْقَصاً أَوْساً أَوْيسٌ مِنَ الْهَبَالِ⁽³⁾

الأوس: الإعطاء. وأويس هو الذئب. وقال في ذلك الهذلي⁽⁴⁾:

يَا لَيْتَ شَعْرِي عَنْكَ وَالْأَمْرُ أَمَّمْ مَا فَعَلَ الْيَوْمَ أَوْيسٌ فِي الْغَنَمِ
وَقَالَ أَمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

وَأَبُو الْيَتَامَى كَانَ يُحْسِنُ أَوْسَهُمْ وَيَحُوطُهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ جَامِدٌ⁽⁵⁾

(1) ط: «ابن جزل الطعان» وتصحيحه من ل. والبيت في الثمار 313 والرواية فيه: «فلم تحسن بما فعلت صنعا». وانظر حماسة البحرى 170.

(2) ل: «لدى الحبل» وهي رواية ابن قتيبة في عيون الأخبار 2: 79، وبرواية ابن منظور للبيت في مادة (أوس)، «غال أوس»، وتفسيرها بقوله: «أكل جرائها» بذلك لا يصح الاستشهاد لما استشهدله الجاحظ.

(3) ط: «فلأخشونك» والصواب ما في ل. انظر أدب الكاتب 57 والاقتضاب. وحشاه: رماه. والمشقص: سهم طويل أو عريض. والبيتان لأسماء بن خارجة كما في اللسان (أبل).

(4) الشعر في اللسان (رخم) منسوب إلى عمرو ذي الكلب. وهو هذلي كما في الأغاني.

(5) ط: «جاحد» والعام الجامد: عام الجذب والقحط وامتناع الغيث.

(حمق النعامة)

ويقولون: «أَحْمَقُ مِنْ نَعَامَةٍ» كما يقولون: «أَشْرَدُ مِنْ نَعَامَةٍ» قالوا ذلك لأنها تدع الحُضْنَ على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم، حَضَنْتْ بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعل تلك أن تُصاد فلا ترجع إلى بيضها بالعرء حتى تهلك. قالوا: ولذلك قال ابن هرمة⁽¹⁾:

فإني وتركى ندى الأكرمين وقدحي بكفّي زنداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعرء وملبسة بيض أخرى جناحا

وقد تحضن الحمام على بيض الدجاج، وتحضن الدجاجة بيض الطاوس، فأما أن يدع بيضه ويحضن بيض الدجاجة، أو تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاوس فلا. فأما فروج الدجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنه يكون أكيس. وأما الطاوس الذي يخرج من تحت الدجاجة فيكون أقل حسناً وأبغض صوتاً.

(الفرج والفروج)

وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرج، إلا بيض الدجاج فإنه يسمى فروجاً، ولا يسمى فرخاً، إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام، ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر، قال الشاعر:

لعمري لأصوات المكاكي بالضحي وسود تداعى بالعشي نواعبه⁽²⁾
أحب إلينا من فراخ دجاجة ومن ديك أنباط تنوس غباغه⁽³⁾
وقال الشمّاح بن ضرار⁽⁴⁾:

ألا من مبلغ خاقان عني تأمل حين يضربك الشتاء
فتجعل في جنابك من صغير⁽⁵⁾ ومن شيخ أضرب به الفناء
فراخ دجاجة يثبعن ديكاً يلذن به إذا حمس الوغاء

[فإن] قلت: وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما، شيخان من عليّة المتكلمين، ومن الجلة⁽⁶⁾.

(1) تكلم في هذا الشعر الثعالبي في الثمار 353 والدميري 2: 502 ولابن طباطبا كلام جيد فيه انظر له الموشح 237.

(2) السود، بالفتح: سفع مستو كثير الحجارة السود. وفي ط: «وسوء» وتصحيحه من ل.

(3) ل وكذا في المخصص 167: «صغار ومن ديك تنوس غباغه».

(4) في (5: 7) أنه شمّاح بن أبي شداد

(5) ل: «جبالك» موضع «جنابك»

(6) ل: «جلة».

المتقدمين، وعلى أنَّهما متى أبرما هذا⁽¹⁾ الحكم وأفصحاً بهذه القضية، صار بهذا التدبير بهما حظاً وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدهما كلُّ من هو دونهما؛ وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازنان بين الذَّبَّانِ⁽²⁾ وبناتِ وَرْدَانٍ، وبين الخنافس والجعلان، وبين جميع أجناس الهَمَجِ وأصناف الحشرات، والخشاش، حتَّى البعوض والفراش والديدان والقردان⁽³⁾ فإن جاز هذا في الرأي وتمَّ عليه العمل، صار هذا الضَّرْبُ من النظر عوضاً من النَّظَرِ في التوحيد، وصار هذا الشكل من التمييز خلفاً من التعديل والتجويز، وسقط القول في الوعد والوعيد، ونُسي القياس والحكم في الاسم، وبطل الردُّ على أهل الملل، والموازنة بين جميع النحل، والنظر في مرشد الناس ومصالحهم، وفي منافعهم ومرافقهم؛ لأنَّ قلوبهم لا تتسع للجميع، والسَّتهم لا تنطبق بالكلِّ. وإنَّما الرأي أن تَبْدَأَ من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.

وقلت: [و] هذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف⁽⁴⁾ وطريق من طرق المزاح، وسبيلٌ من سبُل المضاحك. ورجالُ الجدِّ غير رجال الهزل، وقد يحسن الشيء بالشَّبابِ ويقبح مثله من الشيوخ، ولولا التحصيل والموازنة، والإبقاء على الأدب، والديانة بشدة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقام مقال، ولكلِّ زمان رجال، ولكلِّ ساقطة لاقطة، ولكلِّ طعام أكلة⁽⁵⁾.

(تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها)

قد زعم أناس أن كلَّ إنسانٍ فيه آلة لِمَرْفِقٍ من المرافق، وأداة لمنفعة⁽⁶⁾ من المنافع، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركة وإنَّ أبطأت، ولا بدَّ لذلك الكامن من ظهور؛ فإنَّ أمكنه ذلك بعثه، وإلاَّ سرى إليه كما يسري السمُّ في البدن، و[نمى] كما ينمى العرق؛ كما أنَّ البُزور البريَّة، والحبَّة الوحشيَّة الكامنة في أرحام الأرضين، لا بدَّ لها من حركة عند زمان الحركة، ومن التفنُّق والانتشار في إِبَّان الانتشار. وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالنُّطفة، وكان بعض الأرض كالأمِّ الغاذية⁽⁷⁾ فلا بدَّ لكلِّ ثدي قويٍّ أن يُظهر قُوَّته، كما قال الأوَّل:

* ولا بدَّ للمصدر يوماً من النَّفث *

[وقال⁽⁸⁾]:

* ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن صبر *

ولذلك صار طلبُ الحساب أخفَّ على بعضهم، وطلبُ الطَّبِّ أحبَّ إلى بعضهم.

(1) ط: «مدعا».

(2) ل: «رأيناهم يوازنون.. إلخ». ط: «الذباب» موضع «الذبان».

(3) القردان: جمع قرد، وهو دويبة تنتشر في أعطان الإبل.

(4) ط: «التطرق» (5) ل: «آكل».

(6) ط: آلة المرفق من المرافق وأداة المنفعة وهو تحريف ما في ل.

(7) ل: «ولا بد للمصدر من النفث».

(8) جعل هذا الشطر والكلام الذي قبله بيتاً واحداً، وذلك لا يستقيم. والزيادة رأيتها ضرورية لاستقامة الكلام. والآتي

عجز بيت صدره كما في البيان 3: 220 و4: 63:

وما كثرة الشكوى بأمر حزامه

وكذلك النَّزاع إلى الهندسة، وشَغَفُ أهلِ الثُّجُومِ بالثُّجُومِ. وكذلك أيضاً ربَّما تحرَّك له بعد الكَبَرَةِ، وصَرَفَ^(١) رغبته إليه بعد الكهولة، على قدر قوَّة العِرْق في بدنه، وعلى قدر الشَّواغل له وما يعترض عليه، فتجد واحداً يلهمج بطلب الغناء واللحون، وآخر يلهمج بشهوة القتال، حتى يَكْتَتِبَ مع^(٢) الجُند، وآخر يختار [أن يكون] وِزَاقاً، وآخر يختار طلب الملك، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم، ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لم^(٣) اختار ذلك في جملة ولا تفسير، إذ كان لم يجز منه على عِرْق، ولا اختاره على إرث.

(من سار على غير طبعه)

وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ويحرَّكه في بعض الجهات، ولكن العجب ممَّن يموت مغنياً وهو لا طبع له في معرفة الوزن، وليس له جرم حسن^(٤)، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغنياً خاصة أن يكون مطرباً ومغنياً عامة. وآخر قد مات على أن يذكر بالجدود، وأن يسخى على الطعام، وهو أبخل الخلق طبعاً، فتراه كلفاً باتخاذ الطيبات ومستتهراً بالتكثير منها، ثم هو أبداً مفتضح وأبداً منتقض الطباع، ظاهر الخطأ، سيء الجزع عند مؤكلة من كان هو الداعي له، والمرسل إليه، والعارف مقدار لقيمته ونهاية أكله. فإن زعمتم أن كل واحد من هؤلاء إنما هو رهنٌ بأسبابه، وأسير في أيدي علله، عذرتهم جميع اللثام وجميع المقصّرين، وجميع الفاسقين والضالين. وإن كان الأمر [إلى] التمكين دون التسخير، أفليس من أعجب العجب ومن أسوأ التقدير التمثيل^(٥) بين الديكة والكلاب.

قد عَرَفْنَا قَوْلَكَ، وفهمنا مذهبك.

فأما قولك: «وما بلغ من خطر الديك وقدر الكلب» فإن هذا ونحوه كلامٌ عبيد لم يفهم عن ربه، ولم يعقل عن سيده، إلا بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة. كأنك - فهمك الله تعالى - تظن أن خلق الحيّة والعقرب، والتدبير في خلق الفراش والذباب، والحكمة في خلق الذئب والأسد وكل مبعوض إليك أو محقر عندك، أو مسخر لك أو واثب عليك، أن التدبير فيه مختلف أو ناقص، وأن الحكمة فيه صغيرة أو ممزوجة.

(مصلحة الكون، في امتزاج الخير بالشر)

اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضرر

(١) ط: «وأصرف»

(٢) ل: «يكتب» وصوابه ما أثبت من ط. واكتتب: كتب نفسه في ديوان السلطان.

(٣) ط: «لما». (٤) الجرم، بالكسر: الصوت، والحلق.

(٥) ط: «والتمثيل» والواو هنا لا موضع لها.

بالنافع، والمكروه بالسار، والضَّعة بالرَّفعة، والكثرة بالقلَّة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلك الخلق، أو كان الخيرُ محضاً سقطت المِحنة وتقطَّعت أسبابُ الفكرة، ومع عَدَمِ الفكرة يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبُّتٌ وتوقُّفٌ وتعلُّمٌ، ولم يكن علمٌ، ولا يُعرف بابُ التبيين، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة⁽¹⁾، ولا صَبْرٌ على مكروهٍ ولا شُكْرٌ على محبوبٍ، ولا تفاضُلٌ في بيانٍ، ولا تنافسٌ في درجةٍ، وبطلت فرحةُ الظفر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذلَّةً⁽²⁾ الباطل، وموقنٌ يجد⁽³⁾ بَرْدَ اليقين، وشاكٌ يجد⁽⁴⁾ نقصَ الحيرة وكَرْبَ الوجوم؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تشعَّبها الأطماع. ومن لم يعرف كيف الطَّمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء، إلى حال السُّبع والبهيمة، وإلى [حال] الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السُّخرة، فإنها أنقص من حال البهائم في الرُّثعة. ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج، أو برجاً من البروج أو قطعة من الغيم، أو يكون المجرَّة بأسرها، أو مكياً من الماء أو مقداراً من الهواء؟! وكلُّ شيءٍ في العالم فإنما هو للإنسان ولكلِّ مختبِرٍ ومُختارٍ، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيين⁽⁵⁾ والروية.

وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة، ولذة السبع بلطع الدَّم وأكل اللحم - من سرور الظفر بالأعداء؟ ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من سرور السُّودد ومن عزِّ الرياسة؟ وأين ذلك من حال الثُّبوة والخلافة، ومن عزِّهما وساطع نورهما. وأين تقع لذة درك الحواسِّ الذي هو ملاقة المطعم والمشرب، وملاقاة الصوتِ المُطرب واللونِ المونق، والملمسة⁽⁶⁾ اللينة - من السرور بنفاذ الأمر والنهي، وبجواز التوقيع، وبما يُوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجَّة؟!

ولو استوت الأمور بطلَ التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة، ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكل على الله تعالى، واليقين بأنه الوَزَرُ والحافظ، والكالئ والدافع⁽⁷⁾، وأن الذي يحاسبك أجود الأجودين، وأرحم الراحمين، وأنه [الذي] يقبل اليسير ويهب الكثير، ولا يهلك عليه إلا هالك. ولو كان الأمر على ما يشتهي الغرير والجاهل بعواقب الأمور، لبطل النَّظَرُ وما يشحذ عليه⁽⁸⁾، وما يدعو إليه، ولتعطلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها.

(1) ط: «التدبير» موضع «التبين»، و«المضرة» موضع «مضرة»، و«المنفعة» موضع «منفعة».

(2) ط: «بحد» وهو تصحيف.

(3) ط: «بحد ذل» وهو تحريف كذلك.

(4) ط: «وموفق بحد» وهو تحريف.

(5) ط: «التبين».

(6) ط: «واللمسة».

(7) ط: «والكافي» والرافع.

(8) الشحذ: السوق العنيف.

فسبَحان من جعل منافعتها نعمةً، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين مُلِدٍّ ومؤلم، وبين مؤنسٍ ومؤحش، وبين صغيرٍ حقيرٍ وجيليل كبير، وبين عدوٍّ يرصدك وبين عقلٍ يحرسك، وبين مُسالمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعها تتم النعمة، وفي بطلانٍ واحدٍ منها بطلانُ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً. فإنَّ الجميع ^(١) إنّما هو واحدٌ ضُمَّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنَّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنَّ كلَّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوّزَتْ رُفِعَ واحدٌ والآخَرُ مثله في الوزن وله مثلُ علته وحظّه ونصيبه، فقد جوّزَتْ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأوّلُ بأحقَّ من الثاني في الوقت ^(٢) الذي رجوت فيه إبطال الأوّل، والثاني كذلك والثالث والرابع، حتّى تأتي على الكلِّ وتستفرغ الجميع. كذلك الأمور المضمّنة والأسباب المقيّدة ^(٣)؛ ألا ترى أنّ الجبلَ ليس بأدَلَّ على الله تعالى من الحصة، وليس الطاوُسُ المستحسنُ بأدَلَّ على الله تعالى من الخنزير المستقبح. والنارُ والثلج وإن اختلفا في جهة البرودة والسخونة، فإنَّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدلالة. وأظنُّك ممّن يرى أنّ الطاوُسَ أكرمُ على الله تعالى من الغراب، وأنَّ التُّدْرُجَ ^(٤) أعزُّ على الله تعالى من الحِذَاةِ، وأنَّ الغزالَ أحبُّ إلى الله تعالى من الذئب. فإنَّما هذه أمور فرّقها الله تعالى في عيون الناس، وميّزها في طبائع العباد، فجعلَ بعضها بهم أقربَ شَبَهاً، وجعلَ بعضها إنسيّاً، وجعلَ بعضها وحشيّاً، وبعضها غاذياً، وبعضها قاتلاً. وكذلك الدُّرَّةُ والخَزْرَبةُ والتمرة ^(٥) والجَمرة. فلا تذهبْ إلى ما تريك العينَ واذهبْ إلى ما يريك العقل.

(الاعتماد على العقل دون الحواس)

وللأُمور حكمان: حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول، والعقل هو الحِجَّة. وقد علمنا أنّ خَزَنَةَ النارِ من الملائكة، ليسوا بدون خَزَنَةِ الجَنَّةِ؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدون ملك السَّحاب، وإنَّ أتاناً بالغَيْثِ وجلب الحَياء ^(٦)؛ وجبريلُ الذي ينزلُ بالعذاب، ليس بدون ميكائيل الذي ينزلُ بالرحمة؛ وإنَّما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقات ذلك ومواضعه. والاختلاف بين أصحابنا أنّهم إذا استَووا في المعاصي استَووا في العقاب، وإذا استَووا في الطاعة استَووا في الثواب، وإذا استَووا في عدم الطاعة والمعصية استَووا في التفضل. هذا هو أصلُ المقالة، والقُطْبُ الذي تدورُ عليه الرُحى.

(١) من كلمة «قياساً» سقط الكلام في ل إلى هنا.

(٢) ط: «فالحق» وهو تحريف.

(٣) ط: «المطمئنة» مكان «المضمّنة»، و«المفيدة» مكان «المقيّدة» وهو تحريف.

(٤) للفريق أمين المعلوف بحث طيب في التعريف بهذا الحيوان ص 187 من معجمه.

(٥) في الأصل: «الثمرة» والوجه ما كتبت.

(٦) ط: «أحياة» وهو تصحيف ما في ل. والحياء: الخصب والمطر، ويمد.

(التين والزيتون)

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ﴾ [التين: 1] فزعم زيد بن أسلم أن التين دمشق، والزيتون فلسطين. وللغالية في هذا تأويل أرغب بالعترة عنه⁽¹⁾ وذكره. وقد أخرج الله تبارك وتعالى الكلام مخرج القسم. وما تُعرف دمشق إلا بدمشق، ولا فلسطين إلا بفلسطين. فإن كنت إنما تقف من ذكر التين على مقدار طعم يابس ورطبه، وعلى الاكتنان بورقه وأغصانه، والوقود بعيدانه، وأنه نافع لصاحب السُّل، وهو غذاء قوي ويصلح في مواضع من الدواء، وفي الأضمة، وأنه ليس شيء حلو إلا وهو ضار بالأسنان غيره، وأنه عند أهل الكتاب الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام، وبورقها ستر السوء عند نزول العقوبة، وأن صاحب البواسير يأكله ليُزلق عنه الثفل، ويسهل عليه مخرج الزبل⁽²⁾؛ وتقف من الزيتون على زيته والاصطباج به، وعلى التأدم بهما والوقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما - فقد أسأت ظناً بالقرآن، وجهلت فضل التأويل. وليس لهذا المقدار عظمهما الله - عز وجل - وأقسم بهما ونوه بذكرهما.

(التأمل في جناح البعوضة)

ولو وقفت على جناح بعوضة وقوف معتبر، وتأملت تأمل متفكر بعد أن تكون ثاقب النظر سليم الآلة، غواصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك، ولا من الشواغل إلا ما زاد في نشاطك، لمألت ممّا تُوجدك العبرة من غرائب الطوامير الطوال، والجلود الواسعة الكبار، ولرايت أن له من كثرة التصرف في الأعاجيب، ومن تقلبه في طبقات الحكمة، ولرايت له من الغرر والريع، ومن الحلب والدرّ ولتبجس عليك⁽³⁾ من كوامن المعاني ودفائنها، ومن خفيات الحكم وينابيع العلم، ما لا يشئد معه تعجبك ممّن وقف على ما في الديك من الخصال العجيبة، وفي الكلب من الأمور الغريبة، ومن أصناف المنافع، وفنون المرافق؛ وما فيهما⁽⁴⁾ من المحن الشداد، ومع ما أودعها من المعرفة، التي متى تجلت لك تصاعرت عندك كبير ما تستعظم، وقل في عينك كثير ما تستكثر، كأنك تظن أن شيئاً وإن حسن عندك في ثمنه ومنظره، أن الحكمة التي هي في خلقه إنما هي على مقدار ثمنه ومنظره.

(كلمات الله)

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: 27] والكلمات في هذا الموضع، ليس يُريد بها القول والكلام

(1) ط: «أرغب عن التعبير عنه»

(2) ط: «الثقل» موضع «الثفل»، و«البول» بدل «الزبل» وأثبت ما في ل.

(3) ط: «ولا ينجس».

(4) ط: «فيها».

المؤلف من الحروف، وإنما يريد النعم والأعاجيب، والصفات⁽¹⁾ وما أشبه ذلك، فإن كلاً من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن، صحيح الفكر تام الأداة، لما برح أن تحسره⁽²⁾ المعاني وتغمره الحكمة.

وقد قال المتكلمون والرؤساء والجلّة العظماء في التمثيل بين الملائكة والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجن والإنس. وطباع الجن أبعد من طباع الإنس، ومن طباع الديك، ومن طباع الكلب. وإنما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية. ويخيل إلي أنك لو [كنت] سمعتهم يمثّلان ما بين التدرج والطاؤس، لما اشتدّ تعجبك. ونحن نرى أن تمثيل ما بين خصال الذرة والحمامة، والفيل والبعر، والتعلّب والذيب أعجب. ولسنا نعني أن للذرة ما للطاؤس من حسن ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه⁽³⁾، ولا أن لها غناء الفرس في الحرب والدفع عن الحريم؛ لكن إذا أردنا مواضع التدبير العجيب من الخلق الخسيس، والحسن اللطيف من الشيء السخيف⁽⁴⁾، والنظر في العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجن والملائكة، لم نذهب إلى ضخّم البدن وعظم الحجم، ولا إلى المنظر الحسن ولا إلى كثرة الثمن. وفي القرد أعاجيب وفي الدبّ أعاجيب، وليس فيهما كبير مرفق إلا بقدر ما تتكسّب به [أصحاب]⁽⁶⁾ القردة، وإنما قصدنا إلى شيئين يشيع القول فيهما، ويكثر الاعتبار ممّا يستخرج العلماء من خفي أمرهما. ولو جمعنا بين الديك وبين بعض ما ذكرت، وبين الكلب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القول قبل أن يبلغ حدّ الموازنة والمقابلة. وقد ذكرت أن بعض ما دعاك إلى الإنكار عليهما والتعجب من أمرهما، سقوط قدر الكلب ونذالته، وبكّة الديك وغباوته، وأن الكلب لا بهيمة تامة ولا سبع تام، وما كان ليخرجه من شيء من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدار ما هو عليه من الأنس بهم، فقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ولا يكون ذلك مخرجاً لهما من أحكامهما وحدودهما.

(تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما)

وقد يشبّه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحية والنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدّ الإنسان. وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار، وهو الثور، وهو النيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجعل، وهو القرنبي، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا

(1) ط: «الصلاة»، وليس بشيء.

(2) ط: «تحسره»، ويكون صوابها «تحشر له المعاني». وأثبت ما في ل. يقال: حسر البعير: ساقه حتى أعياه.

(3) يقال ثوب معرج: أي مخطط في التواء. وفي ل: «تقاريحه». وانظر 5: 102.

(4) ط: «والحسن اللطيف في الشيء السخيف»، وهي عبارة مشوهة.

(5) في الأصل: «ولم».

(6) زدتها ليستقيم الكلام.

أسمائهم، ولا يُخرجون بذلك^(١) الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء. وسمّوا الجارية غزالاً، وسمّوها أيضاً خشفاً، ومُهرّة، وفاختة، وحمامة، وزهرة، وقضيبة، وخيزراناً، على ذلك المعنى. وصنّعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب، فذكروا الأسد والثور، والحمل والجدي، والعقرب والحوت، وسمّوها بالقوس والسنبلة والميزان، وغيرها. وقال في ذلك ابن عسلة الشيباني^(٢):

فَصَحُوتِ وَالنَّمَرِيُّ يَحْسَبُهَا عَمَّ السَّمَاءِ وَخَالَةَ النَّجْمِ^(٣)

ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «نِعِمَّتِ الْعَمَةُ لَكُمْ النَّخْلَةُ [خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ]». وهذا الكلام صحيح المعنى، لا يعيبه إلا مَنْ لا يعرف مجاز الكلام. وليس هذا ممّا يطرّد لنا أن نقيسه، وإنّما نُقدِّم على ما أفدّموا، ونُحجم عما أحجموا، وننتهي إلى حيث انتهوا. ونراهم يسمّون الرجلَ جملاً ولا يسمّونه بعيراً، ولا يسمّون المرأة ناقة؛ ويسمّون الرجلَ ثوراً ولا يسمّون المرأة بقرة، ويسمّون الرجلَ حماراً ولا يسمّون المرأة أتاناً؛ ويسمّون المرأة نعجةً ولا يسمّونها شاة. وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون [ذلك]^(٤) علامةً مثل: زيد وعمر، ويسمّون المرأة عذراً.

(تسمية الإنسان بالعالم الأصغر)

أو ما علمت أنّ الإنسان الذي خُلِقَتْ السموات والأرض وما بينهما من أجله^(٥) كما قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: 13] إنّما سمّوه العالم الصغير سليل العالم الكبير، لِمَا وجدوا فيه من جمع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتات به البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وزوغان الثعلب، وجبن الصُفْرَد، وجمع الدرة، وصنعة السُرْفَة^(٦) وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام. وربّما وجدوا فيه ممّا في البهائم والسباع خُلُقَيْنِ^(٧) أو ثلاثة، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته، وصولته وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا

(١) ط: «ذلك».

(٢) هو عبد المسيح، شاعر جاهلي، روى له صاحب المفضليات ثلاث قصائد برقم 72، 73، 83، والبيت روايته في البيان 1: 229 مطابقة لهذه. والرواية في المفضليات: «لصحوت» وقبلة:

يا كعب إنك لو قصرت على حسن الندام وقللة الجرم
وسماع مدجنة تعللنا حتى ننام تناوم العجم

(٣) صوابه: «لصحوت» كما في المفضليات 279. (٤) زيادة يتطلبها الكلام.

(٥) في الأصل: «والأرض من أجله وما بينهما»، وسويت القول كما ترى.

(٦) ط: «وصفة السُرْفَة» وصوابه في ل. ويقال في المثل: «أصنع من سُرْفَة». الدميري: دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال النّاس ثم تدخل فيه وتموت.

(٧) في ثمار القلوب 280 حيث نقل هذا الكلام: «خلتين» وهو الأشبه بكلام الجاحظ.

يلزم شبه الذئب بقدر ما يتَّهياً فيه من مثل غدِّه ومكرِّه، واسترواحه وتوحُّشه، وشدة نُكره. كما أن الرجل يصيبُ الرأي الغامضَ المرَّةَ والمرتين والثلاث، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له: داهيةٌ وذو نكراءٍ أو صاحبُ بَزْلاء⁽¹⁾، وكما يخطئ الرجل فيفحش خطأؤه⁽²⁾ في المرَّةَ والمرتين والثلاث، فلا يبلغُ الأمرُ به أن يقال له: غيٌّ وأبلهٌ ومنقوص. وسمَّوه العالمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدَّوه يصوِّر كلَّ شيءٍ بيده، ويحكي كلَّ صوتٍ بفمِّه⁽³⁾. وقالوا: ولأنَّ أعضاءه مقسومةٌ على البروج الاثني عشر، والنجوم السبعة، وفيه الصفراء وهي من نتاج النار، وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض، وفيه الدَّم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء. وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة⁽⁴⁾.

فجعلوه العالمَ الصغير، إذ كان فيه جميعُ أجزائه وأخلاطه وطبائعه. ألا ترى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ والرضا، وآلةَ اليقين والشكِّ، والاعتقاد والوقف⁽⁵⁾ وفيه طبائعُ الفطنة والغباوة، والسلامة والمكر⁽⁶⁾، والنصيحة والغشِّ، والوفاء والغدر، والرياء والإخلاص، والحبِّ والبُغض، والجِدِّ والهزل، والبخل والجود، والاقتصاد والسرف، والتواضع والكبر، والأنس والوحشة، والفكرة⁽⁷⁾ والإمهال، والتمييز والخبط، والجبن والشجاعة، والحزم والإضاعة، [والتبذير والتقتير]، والتبذل والتعزز⁽⁸⁾، والادِّخار والتوكل، والفنائة والجِرص، والرغبة والرُّهْد، والسُّخْط والرضا، والصبر والجزع، والذكر والنسيان، والخوف والرجاء، والطَّمع واليأس، والتنزُّه والطَّبَع، والشكِّ واليقين، والحياة والقحَّة، والكثمان والإشاعة، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهَرَب، والجحْدوسرعة الرضا، والجِدَّة وبُعْد الغضب، والسُّرور والهَم، واللَّذَّة والألَم⁽⁹⁾ والتأميل والتمني، والإصرار والتَّدَم، والجِمَاح والبَدَوات⁽¹⁰⁾، والعِي والبلاغة، والثُّطق والخرس، والتصميم والتوقف⁽¹¹⁾ والتغافل والتفاطن، والعفو والمكافأة، والاستطاعة والطبيعة⁽¹²⁾ وما لا يحصى عدده⁽¹³⁾، ولا يُعرف حدُّه. فالكلبُ سبع وإن كان بالناس أنيساً، ولا تخرجه الخصلة والخصلتان ممَّا قارب بعض طبائع الناس، إلى أن يخرجَه من الكلبِيَّة. قال: وكذلك الجميع. وقد عرفت شبه باطن الكلب⁽¹⁴⁾ بباطن الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك في طُرْفَةٍ وتغميض عينه، وفي ضحكته وفي حكايته، وفي كفه وأصابعه، وفي رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبَّه⁽¹⁵⁾ وكيف يلقن كل

(1) ط: «نكر» بدل «نكراء» وكلاهما صحيح. والنكراء، والنكر بالضم: الدهاء والفطنة. والبزلاء: الرأي الجيد والشدائد.

(2) الخطاء: الخطأ. والجاحظ يميل إلى استعمال الكلمة الأولى.

(3) ط: «يعيه» والوجه ما في ل. (4) ل: «وجدت الأوتار الأربعة»

(5) ط: «والتمني». (6) ط: «والنكر».

(7) لعلها «الطفرة» ليصح قرنهما بالإمهال. (8) ط: «والتبذل والتمز» وهو تحريف ما في ل.

(9) ط: «والآلام» والوجه ما في ل. (10) كذا في ل. وفي ط: «البدات»

(11) ل: «والتكفي». (12) كذا. (13) ط: «عده». (14) ط: باطن شبه الكلب.

(15) ل: «سره» وهما بمعنى.

مَا أُخِذَ بِهِ ^(١) وَأُعِيدَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ إِذَا سَقَطَ فِي الْمَاءِ غَرِقَ مِثْلَ الْإِنْسَانِ، وَمَعَ اجْتِمَاعِ أَسْبَابِ الْمَعْرِفَةِ فِيهِ يَغْرُقُ إِلَّا ^(٢) أَنْ يَكْتَسِبَ مَعْرِفَ السَّبَاحَةِ، وَإِنْ كَانَ طَبْعُهُ أَوْفَى وَأَكْمَلَ فَهُوَ مِنْ هَاهُنَا أَنْقَصَ وَأَكْلٌ. وَكُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ يَسْبَحُ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ، مِمَّا يوصَفُ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْفِطْنَةِ، وَمِمَّا يوصَفُ بِالْغَبَاوَةِ وَالْبَلَادَةِ؛ وَلَيْسَ يَصِيرُ الْقَرْدُ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ مِنَ الْمَقَارَبَةِ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَعْضِ حُدُودِ الْقُرُودِ إِلَى حُدُودِ الْإِنْسَانِ.

(عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك)

وَزَعِمَتْ أَنَّ مِمَّا يَمْنَعُ مِنَ التَّمَثِيلِ بَيْنَ الدِّيكِ وَالْكَلْبِ أَنَّهُ حَارِسٌ مُحْتَرَسٌ مِنْهُ. وَكُلُّ حَارِسٍ مِنَ النَّاسِ فَهُوَ حَارِسٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ تَبَدُّلُهُ.

وَلَقَدْ سَأَلَ زِيَادٌ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي: مَنْ عَلَى شُرْطَتِكُمْ؟ قَالُوا: بُلُجُ بْنُ نُشْبَةَ الْجُشَمِيِّ. فَقَالَ:

وَسَاعٍ مَعَ السُّلْطَانِ يَسْعَى عَلَيْهِمْ وَمُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ
وَيَقَالُ: إِنَّ الشَّاعِرَ ^(٣) قَالَ هَذَا الشَّعْرَ فِي الْفَلَاكْسِ التَّهْشَلِيِّ ^(٤)، حِينَ وَلِيَ شُرْطَةَ
الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ [فَقَالَ]:

أَقْلَى عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ وَذُمِّي زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْفُلَاكْسُ
وَسَاعٍ مَعَ السُّلْطَانِ يَسْعَى عَلَيْهِمْ وَمُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ
وَلَيْسَ يُحْكَمُ لِصِغَارِ الْمَضَارِّ عَلَى كِبَارِهَا ^(٥) بَلِ الْحُكْمُ لِلْغَامِرِ عَلَى الْمَغْمُورِ ^(٦) وَالْقَاهِرِ
عَلَى الْمَقْهُورِ. وَلَوْ قَدْ حَكَيْنَا مَا ذَكَرَ هَذَا الشَّيْخُ مِنْ خِصَالِ الْكَلْبِ وَذَكَرَ صَاحِبَهُ مِنْ خِصَالِ
الدِّيكِ، أَيقَنْتَ أَنَّ الْعَجَلَةَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّ الْعُجْبَ بِسُّ الصَّاحِبِ.

وَقُلْتُ: وَمَا يَبْلُغُ مِنْ قَدْرِ الْكَلْبِ وَمِنْ مَقْدَارِ الدِّيكِ، أَنْ يَتَفَرَّغَ لِهَمَّا شَيْخَانِ
مِنْ جِلَّةِ الْمَعْتَزَلَةِ، وَهَمَّ أَشْرَافُ ^(٧) أَهْلِ الْحِكْمَةِ؛ فَأَيُّ شَيْءٍ بَلَغَ - غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ - مِنْ قَدْرِ
جَزْءٍ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ رُمْلٍ عَالِجٍ، وَالْجَزْءِ الْأَقْلُ مِنْ أَوَّلِ قَطْعِ الذَّرَّةِ لِلْمَكَانِ السَّحِيقِ، وَالصَّحِيفَةِ
الَّتِي لَا عَمَقَ لَهَا، وَلَا أَيُّ شَيْءٍ يُعْنَوْنَ بِذَلِكَ، وَمَا يَبْلُغُ مِنْ ثَمَنِهِ وَقَدْرِ حُجْمِهِ، حَتَّى يَتَفَرَّغَ
لِلْجِدَالِ فِيهِ الشُّبُوحُ الْجِلَّةُ، وَالْكُهُولُ الْعُلْيَةُ، وَحَتَّى يَخْتَارُوا النَّظَرَ فِيهِ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ،
وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَطَوْلِ الْإِنْتِصَابِ فِي الصَّلَاةِ؛ وَحَتَّى يَزْعَمَ أَهْلُهُ أَنَّهُ فَوْقَ الْحُجِّ وَالْجِهَادِ، وَفَوْقَ

(١) ط: «يلقى كلما أخذ به» وهو تحريف. وفي ثمار القلوب 324 «يتقن».

(٢) ط: «إلى».

(٣) هو عبد الله بن همام السلولي. ترجم له ابن قتيبة في الشعراء 633، وانظر عيون الأخبار 1: 57 والمحاسن والمساوي للبيهقي 1: 126.

(٤) قال ابن قتيبة: كان الفلافس هذا على شرطة الكوفة من قبل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخي عمر ابن أبي ربيعة. وخرج الفلافس مع ابن الأشعث فقتله الحجاج.

(٥) ل: «على كبار المنافع» (٦) ل: «للعامر على المعمور» وما أثبتته من ط أشبه

(٧) ل: «شرف».

كُلُّ بَرٍّ وَاجْتِهَادٍ^(١) . فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ سَوَاءٌ ، طَالَتْ الْخُصُومَةُ مَعَكَ ، وَشَغَلْتَنَا [بِهِمَا] عَمَّا هُوَ أَوْلَىٰ بِنَا فِيكَ . عَلَىٰ أَنَّكَ إِذَا عَمِمْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالذَّمِّ ، وَجَلَلْتَهُ بِالْعَيْبِ ، صَارَتْ الْمَصِيبَةُ فِيكَ أَجَلٌ ، وَالْعِزَاءُ عَنْهَا أَعْسَرُ . وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَازَ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا إِلَىٰ أَثْمَانِ الْأَعْيَانِ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَإِلَىٰ عَظَمِ الْحِجَمِ ، وَإِلَىٰ مَا يَرُوقُ الْعَيْنَ وَيَلَاثِمُ النَّفْسَ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا إِلَىٰ عَاقِبَةِ الْأَمْرِ فِيهِ ، وَإِلَىٰ نَتِيجَتِهِ ، وَمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ مِنْ عِلْمِ النَّهَايَاتِ ، وَمِنْ بَابِ الْكُلِّ وَالْبَعْضِ ، وَكَانَ وَيَكُونُ ، وَمِنْ بَابِ مَا يَحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ أَوْ مَا يَفْضُلُ عَنْهُ ، وَمِنْ فَرْقٍ [مَا^(٢)] بَيْنَ مَذَاهِبِ الدُّهْرِيَّةِ وَمَذَاهِبِ الْمُوَحِّدِينَ . فَإِنْ كَانَ هَذَا الْعُذْرُ مَقْبُولًا ، وَهَذَا الْحُكْمُ صَحِيحًا ، فَكَذَلِكَ نَقُولُ^(٣) فِي الْكَلْبِ ، لِأَنَّ الْكَلْبَ لَيْسَ لَهُ خَطَرٌ ثَمِينٌ وَلَا قَدْرٌ فِي الصَّدْرِ جَلِيلٌ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ كَلْبٌ صِيدَ فَدَيْتُهُ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا ، وَإِنْ كَانَ كَلْبٌ ضَرَعَ فَدَيْتُهُ شَاةٌ ، وَإِنْ كَانَ كَلْبٌ دَارَ فَدَيْتُهُ زَنْبِيلٌ مِنْ تَرَابٍ ، حُقٌّ عَلَى الْقَاتِلِ أَنْ يُوَدِّيَهُ ، وَحُقٌّ عَلَى صَاحِبِ الدَّارِ أَنْ يَقْبَلَهُ ، فَهَذَا مَقْدَارُ ظَاهِرِ حَالِهِ [وَمُقْتَضِيهِ] . وَكَوَامِينُ خِصَالِهِ ، وَدَفَائِنُ الْحِكْمَةِ فِيهِ . وَالْبَرَهَانَاتُ عَلَىٰ عَجِيبِ تَدْبِيرِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ فِيهِ ، عَلَىٰ خِلَافِ ذَلِكَ ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَجَازُوا النَّظَرَ فِي شَأْنِهِ ، وَالتَّمَثِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَظِيرِهِ . وَتَعْلَمُ أَيْضًا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ الْكَلْبَ إِذَا كَانَ فِيهِ ، مَعَ حُمُولِهِ وَسَقُوطِهِ ، مِنْ عَجِيبِ التَّدْبِيرِ وَالنِّعْمَةِ السَّابِغَةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، مِثْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي لَهُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، أَحَقُّ بِأَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ ، وَيُحَمَدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا أَوْدَعَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الْعَجِيبَةِ ، وَالنِّعْمَةِ السَّابِغَةِ . وَقُلْتُ : وَلَوْ كَانَ بَدَلُ النَّظَرِ فِيهِمَا النَّظَرُ فِي التَّوْحِيدِ ، وَفِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ ، وَفِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَفِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيرِ ، وَفِي تَصْحِيحِ الْأَخْبَارِ ، وَالتَّفْضِيلِ بَيْنَ عِلْمِ الطَّبَائِعِ وَالِاخْتِيَارِ ، لَكَانَ أَصُوبَ .

(دَفَاعُ عَنِ الْمُتَكَلِّمِينَ)

وَالْعَجَبُ أَنَّكَ عَمَدْتَ إِلَىٰ رِجَالٍ لَا صِنَاعَةَ لَهُمْ وَلَا تِجَارَةَ إِلَّا الدَّعَاءَ إِلَىٰ مَا ذَكَرْتَ ، وَالِاحْتِجَاجُ لِمَا^(٤) وَصَفْتَ ، وَإِلَّا وَضِعَ الْكِتَابُ فِيهِ وَالْوَلَايَةُ وَالْعِدَاوَةُ فِيهِ ، وَلَا لَهُمْ لَذَّةٌ وَلَا هَمٌّ وَلَا مَذْهَبٌ وَلَا مَجَازٌ إِلَّا عَلَيْهِ وَإِلَيْهِ ؛ فَحِينَ ارَادُوا أَنْ يُقَسِّطُوا بَيْنَ الْجَمِيعِ بِالْحِصَصِ ، وَيَعْدِلُوا بَيْنَ الْكُلِّ بِإِعْطَاءِ كُلِّ شَيْءٍ نَصِيبَهُ ، حَتَّىٰ يَقَعَ التَّعْدِيلُ شَامِلًا ، وَالتَّقْسِيطُ جَامِعًا ، وَيُظْهَرَ بِذَلِكَ الْخَفِيُّ مِنَ الْحُكْمِ ، وَالْمُسْتَوْرُ مِنَ التَّدْبِيرِ ، اعْتَرَضَتْ بِالتَّعْنُّتِ وَالتَّعْجُّبِ ، وَسَطَرَتِ الْكَلَامُ ، وَأَطْلَتِ الْخُطْبُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ صَوَّبَ رَأْيُكَ أَدِيبٌ ، وَشَايَعَكَ حَكِيمٌ .

(نَسْكَ طَوَائِفَ مِنَ النَّاسِ)

وَسَأَضْرِبُ لَكَ مِثْلًا قَدْ اسْتَوْجِبْتَ أَغْلَظَ مِنْهُ ، وَتَعَرَّضْتَ لِأَشَدِّ مِنْهُ ؛ وَلَكِنَّا نَسْتَأْنِي بِكَ وَنَنْتَظِرُ أَوْبَتَكَ . وَجَدْنَا لِجَمِيعِ أَهْلِ النَّقْصِ ، وَلِأَهْلِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ نُسْكًَا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي الْجَمَالِ ، وَيَحْتَسِبُونَ بِهِ فِي الطَّاعَةِ وَطَلَبِ الْمُثُوبَةِ ، وَيَفْرَعُونَ إِلَيْهِ ، عَلَىٰ قَدْرِ فُسَادِ الطَّبَاعِ ،

(٢) زيادة يقتضيها الكلام

(٤) في الأصل : «بما» .

(١) ل : «كل أثره وإجهاد» وليس بشيء

(٣) ط : «يقول» وهو تحريف .

وضعف الأصل، واضطراب الفرع، مع خبث المنشأ، وقلة الثبوت والتوقف، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر: فُنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلّى برمي الناس بالريبة، ويتزيّن بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه، خوفاً من أين يكون قد فطن له، فهو يستر ذلك الداء برمي الناس به. ونُسك الخارجي الذي يتحلّى به ويتزيّن بجماله، إظهار استعظام المعاصي، ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار وإلى ظلم العباد، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين، وأن في الحق ما وسع الجميع. ونُسك الخُراساني أن يحجّ وينام على قفاه، ويعقد⁽¹⁾ الرئاسة، ويتهيأ للشهادة، ويسيطر لسانه بالحسبة، وقد قالوا: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر. وتفسيره قريب واضح. ونُسك البُنوي⁽²⁾، والجندى طرُح الديوان، والزراية على السلطان⁽³⁾. ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ⁽⁴⁾. ونُسك الخَصبي لزوم طرطوس وإظهار مجاهدة الروم. ونُسك الرافضي ترك النبيذ. ونسك البستاني ترك سرقة الثمر. ونُسك المغني الصلاة في الجماعة وكثرة التسبيح، والصلاة على النبي ﷺ. ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته.

والصوفي المظهر النُسك من المسلمين، إذا كان فسلأ يبغض العمل تطرف⁽⁵⁾ وأظهر تحریم المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له. وإذا كان النصرائي فسلأ نذلاً مبغضاً للعمل، ترهب وليس الصوف؛ لأنه واثق أنه متى لبس وتزيّن بذلك الزي وتحلّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السیما، أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفّوه، ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة. فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة، ظن أنه قد حوّل ريبته إلى خصمه، وحوّل براءة خصمه إليه. وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمانة، ووقف على النهاية. فاحذر أن تكون منهم واعلم أنك قد أشبهتهم في هذا الوجه، وضارعتهم في هذا المذهب.

باب مما قدّمنا ذكره، وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق

يقال: أجزأ من الليث، وأجبن من الصفر، وأسخى من لافطة، وأصبر على الهون⁽⁶⁾ من كلب، وأحذر من عقق، وأزهى من غراب، وأصنع من سرقة⁽⁷⁾ وأظلم من حية، وأغدر من

(1) ط: «يفقد» وليس بشيء.

(2) ط: «الكوفي».

(3) ط: «والزيارة للسلطان» ل: «والزيارة على السلطان» وقد جعلت القول كما ترى.

(4) في القاموس: «الطبخ ضرب من المنصف». وفي مادة نصف «وكمعظم: الشراب طبخ حتى ذهب نصفه».

(5) ط: «بين» بدل «من»، و«بعض» موضع «يبغض». وفي ل: «تصوف» موضع «تطرف».

(6) ل: «الهوان» وهما بمعنى

(7) ط: «واضع من شرفة». وانظر الحاشية رقم (6) ص 157.

الذئب، وأخبت من ذئبٍ خَمَرٍ^(١) وأشدُّ عداوةً من عقرب، وأروغ من ثعلب، وأحمق من حُبَارِي، وأهدى من قطاة، وأكذب من فاختة، وألأم من كلب على جيفة، وأجمع من ذرة، وأضل من جمار أهلي^(٢)، وأعق من ضب، وأبر من هرة، وأنقر من الظليم، وأضل من ورل^(٣) وأضل من ضب، وأضل من الحية. فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة، حتى كأنهم من الملوّمين والمشكورين، ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير، ويجعلون خبرهم^(٤) مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والقوى فيقولون: أبصر من عقاب، وأسمع من فرس، وأطول ذمءاً من ضب، وأصح من الظليم.

والثاني يشبه العبارة عن الحمد والذم، والأول يشبه العبارة عن اللائمة والشكر^(٥). وإنما قلنا ذلك، لأن كل مشكورٍ محمود، وليس كل محمودٍ مشكوراً؛ وكل ملوم مذموم وليس كل مذموم ملوماً. وقد يحمدون البلدة ويذمون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللوم وإنما على جهة الشكر؛ لأن الأجر^(٦) لا يقع إلا على جهة التخير والتكلف، وإلا على ما لا ينال إلا بالاستطاعة^(٧) والأول إنما ينال بالخلقة وبمقدار المعرفة، ولا يبلغ أن يسمى عقلاً، كما أنه ليس كل قوة تسمى استطاعة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

باب

ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب وتعداد أصناف معائبها^(٨) ومثالبها، من لؤمها وجبنها^(٩) وضعفها وشرها، وغدرها وبدائها، وجهلها وتسرعها، ونثنها وقدرها، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وإمسакها، ومن الأمر بقتلها وطردها، ومن كثرة جناياتها وقلة ردها^(١٠) ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها، وقبحها وقبح معازلتها^(١١) ومن سماجة نباحها وكثرة أذاها، وتقذر المسلمين من دُنُوها^(١٢) [وأنها تأكل لحوم الناس]، وأنها كالخلق المركب والحيوان الملقق: كالبعل في الدواب وكالراعي في الحمام^(١٣)، وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا إنسيّة ولا جيّة، وأنها من الجن^(١٤) دون الجن، وأنها مطايا الجن ونوع من المسخ، وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وأنها يعتريها الكلب من أكل لحوم الناس.

(١) ط: «ضمير» وهو تحريف. والخمر، بالتحريك، ما وارك من شجر وغيره.

(٢) ل: «أهله».

(٣) ل: «أشرد من ورل».

(٤) ط: «خيرهم» والصواب ما في ل.

(٥) ط: «السلامة والشكر» والوجه ما في ل.

(٦) ط: «الأخر» وهو تصحيف.

(٧) ط: «ما لا يقال التعني بالاستطاعة» وهي عبارة مشوهة.

(٨) ط: «معائبها» بالهمز وهو خطأ صوابه في ل، إذ المعائب جمع معاب أو معاينة بمعنى العيب، فيأوه في الجمع أصيلة غير زائدة فلا يصح قلبها همزة، مثلها في ذلك مثل معيشة ومعاش.

(٩) ط: «وخبثها» والكلب يوصف بالجن.

(١٠) ط: «الرد: النفع. ما عدل: «ودها»، تحريف.

(١١) ط: «معاطاتها» وهو تحريف. والعطال: الملازمة في السفاد من الكلب ونحوه.

(١٢) ط: «درنها».

(١٣) ط: «والزاعبي من الحمام» وهو تصحيف نبهت على صوابه فيما سبق.

(١٤) ط: «الجن» وصوابه في ل.

فإذا حكينا ذلك حكينا قولَ من عدَّد محاسنها، وصنّف مناقبها، وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها، وتغذية الرجال إياها⁽¹⁾ واستهتارهم بها، وذكر كسبها وحراستها، ووفائها وإلفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحسن اللطيف⁽²⁾ والأدب المحمود. وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة الشم، وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانتها للثام، وذكر صبرها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكر ذمها وشدة منعها معاقدة الذمار منها⁽³⁾، وذكر يقظتها وقلة غفلتها⁽⁴⁾ وبُعْد أصواتها، وكثرة نسلها وسُرعة قبولها وإلفاحها وتصرف أرحامها في ذلك، مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرة أعمامها وأخوالها، وترددها في أصناف السباع، وسلامتها من أعراق البهائم، وذكر لقنها وحكايتها، وجودة ثقافتها ومهنتها⁽⁵⁾ وخدمتها، وجدها ولعبها وجميع أمورها؛ بالأشعار المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكُتب المنزلة والأمثال السائرة، وعن تجربة الناس لها وفراستهم فيها، وما عاينوا منها؛ وكيف قال أصحاب الفأل فيها، وبإخبار المتطيرين عنها، وعن أسنانها⁽⁶⁾ ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدّة حملها، وعن أسمائها وألقابها، وسماتها وشياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقن منها⁽⁷⁾ وعن أعراقها والخارجي منها⁽⁸⁾ وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

وذكر صاحب الديك ما يحفظ من أكل الكلاب للحوم الناس فقال: قال الجارود بن أبي سبرة⁽⁹⁾ في ذلك:

ألم تر أنّ الله ربّي بحَوْلِهِ وقوّته أخزى ابنَ عمّرة مالكا
فمن كانَ عنه بالمغيبِ سائلاً فقد صارَ في أرض الرُّصافة هالكا
تظللُ الكلابُ العاديّاتُ يَنشُئُهُ إذا اجتنبن مُسودّاً مِنَ الليلِ حالكا⁽¹⁰⁾

(1) ط: «وتغذية الرجال إياها» وهو تحريف. (2) ط: «والحسن اللطيف» وليس بشيء.

(3) ل: «منها» موضع «منعها». ط: «الذمام» مكان «الذمار» والذمار: ما يلزمك حفظه وحمايته، وأما الذمام فهو الحق.

(4) ل: «وكثرة غفلتها» وبذلك يفسد المعنى.

(5) ط: «ثقافتها» موضع «ثقافتها» والوجه في الثاني: إذ الثقاف: هو الجلال والخصام وما تسوى به الرماح. ولا وجه له هنا. وأما الثقافة فهي من ثقف ككرم وفرح صار حاذقاً خفياً فطناً. وفي ل: «وفهمها» بدل «مهنها».

(6) ط: «أسنادها» وليس بشيء.

(7) ط: «لا تلقى منها» وهو تحريف.

(8) الجاحظ يجعل «الخارجي» مقابل «العريق» كما في البيان 1: 30، 90.

(9) ط: «سمرة» وهو تحريف. قال الجاحظ في البيان 1: 329 «وكان الجارود بن أبي سبرة - ويكنى أبا نوفل - من أبين الناس وأحسنهم حديثاً. وكان راوية علامة شاعراً مفلحاً. وكان من رجال الشيعة ولما استنطقه الحجاج قال: ما ظننت أن بالعراق مثل هذا!!». توفي سنة 120 كما في تقريب التهذيب ص 28.

(10) ل: «ينبئه» مكان «ينشئه» ط: «إذا اجتنبن مستوراً».

وقال نُفَيْع بن صَفَّار المحاربي⁽¹⁾ من ولد مُحَارِب بن خُصْفَة⁽²⁾ في حرب قيسٍ وتغلب:

أَفْنَتُ بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرِ حَرْبُنَا حَتَّى تَعَادَلَ مَيْلُ تَغْلِبٍ فَاسْتَوَى
أَكَلُ الْكَلَابِ أَنْوَفَهُمْ وَخُصَّاهُمْ فَلَتَبْتُكَ تَغْلِبُ لِلْأَنْوَفِ وَلِلْخُصَى

وقال أبو يعقوب الخُرَيْمِيُّ، وهو إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانَ بْنِ قَوْهِي⁽³⁾ في قتلى حربِ بَغْدَاد:

وَهَلْ رَأَيْتَ الْفَتِيَانَ فِي بَاحَةِ الْمَ عَزَكَ مَعْفُورَةً مَنَاحِرُهَا⁽⁴⁾
كَلَّ فَتَى مَانِعَ حَقِيقَتِهِ يَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَى مَسَاعِرُهَا
بَاتَتْ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَنْهَشُهُ مَخْضُوبَةً مِنْ دَمِ أَظْفَرِهَا

وقال أبو الشَّمَقْمَقِ (وهو مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ، مَوْلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَيَكْنَى أَبَا مُحَمَّدٍ)⁽⁵⁾:

يُوسُفُ الشَّاعِرُ فَرُخٌ وَجَدُّهُ بِالْأَبْلَهِ
حَلَقِي قَدْ تَلَقَّي كَامِنًا فِي جَوْفِ جُلَّةٍ⁽⁶⁾
خَيَّطُوهَا خَشْيَةَ الْكَلِ بِعَلَيْهِ بِمَسَلِّهِ

وذكر لي عن أَبِي بَكْرِ الْهُذَلِيِّ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ الْحَسَنِ إِذْ أَقْبَلَ وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ فَجَلَسَ، فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ: مَا تَقُولُ فِي دَمِ الْبَرَاغِيثِ يُصِيبُ الثَّوبَ: أَيُصَلِّي فِيهِ؟ فَقَالَ: يَا عَجَبًا مَمَّنْ يَلْغُ فِي دَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ كَلْبٌ، ثُمَّ يَسْأَلُ عَنْ دَمِ الْبَرَاغِيثِ!! فَقَامَ وَكَيْعٌ يَتَخَلَّجُ فِي مَشِيَّتِهِ كَتَخَلَّجِ الْمَجْنُونِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ لَّهُ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ نِعْمَةً فَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنَا مَمَّنْ يَتَقَوَّى بِنِعْمَتِكَ عَلَى مَعْصِيَتِكَ!!

(ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة)

وقال صاحب الديك: أشياء من الحيوان تُضاف إلى نثر الجلود وخبث الرائحة، كريح

(1) ط: نقيع بن الصفار المحاربي وأثبت ما في ل.

(2) ط: «خضعة» والصواب «خضفة» كما في نهاية الأرب 1: 334.

(3) ط: «ابن يعقوب الخزيمي». وهو إسحاق بن حسان بن موسى والصواب ما أثبت من ل ومن تاريخ بغداد 3369، قال الخطيب: «وأصله من خراسان من بلاد السغد، وكان متصلاً بخريم بن عامر المري وآله فنسب إليه. وقيل كان اتصاله بعثمان بن خريم وأبوه خريم الموصوف بالناعم»، ثم قال: «وله مدائح في محمد بن منصور بن زياد ويحيى بن خالد وغيرهما. السجستاني: الخريمي أشعر المولدين». وانظر لخريم الناعم قاموس الزركلي 1: 290، وأمثلة الميداني 2: 281 والقصيدة في تاريخ الطبري 10: 176-180.

(4) ط: «ساعة» - ولعلها «ساحة» - موضع «باحة».

(5) ترجمته في تاريخ بغداد 7128 وابن خلكان، في تضاعيف ترجمة يزيد بن مزيد، ولم يفرده له ترجمة. وأبو الشَّمَقْمَقِ اجتمع بشار وأبي نواس، ودخل بغداد في أيام الرشيد، وهو بصري.

(6) ط: «حلقي بلقي». وانظر شفاء الغليل للخفاجي في تفسير الحلقي. والبلقي لعله منسوب إلى البلقي بالتحريك بمعنى الحمق، و«كامناً» هي في الأصل «كامن» والوجه النصب.

أبدان الحيات، وكنثن الثيوس وصنان عرقها، وكنتن جلد الكلب إذا أصابه مطر. وضروب من الثنن في سوى ذلك، نحن ذكروها إن شاء الله تعالى. وقال روح بن زنباع الجذامي في امرأته، وضرب بالكلب المثل:

ريح الكرائم معروف له أرخ وريحها ريح كلب مسه مطر
قال: وكانت امرأة روح بن زنباع أم جعفر بنت النعمان بن بشير، وكان عبد الملك زوجة إياها، وقال: إنها جارية حسناء، فاصبر على بداء لسانها. وقال الآخر:

وريح مجروب وريح جلّه وريح كلب في غداة طله⁽¹⁾
وأنشد أبو زيد في ذلك:

كأن ريحهم من خبث طعمتهم ريح الكلاب إذا ما بلّها المطر⁽²⁾
ومما ذكر به الكلب في أكله العذرة، قول الراجز:

أحرص من كلب على عقي صبي⁽³⁾

وقال مثل ذلك حنظلة بن عرادة [في ذكره] لابنه السرندي:

ما للسرندي أطال الله أيمته خلّى أباه بقفر البيد وأدلجا⁽⁴⁾
مجمع خبيث يعاطي الكلب طعمته وإن رأى غفلة من جاره ولجا⁽⁵⁾
ربيته وهو مثل الفرخ أضربه والكلب يلحس من تحت استه الردجا⁽⁶⁾

يقال للذي يخرج من بطن الصبي حين يخرج من بطن أمه: عقي بكسر العين، ويقال: عقى الصبي يعقي عقى، فإذا شدّ بطنه للسمن قيل قد ضرب ليسمن⁽⁷⁾. والعقي وهو العقية الغيبة، وإياه عنى ابن عمر حين قيل له: هلاً بايعت أخاك ابن الزبير؟ فقال: إن أخي وضع يده في عقية⁽⁸⁾ ودعا إلى البيعة. إني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة⁽⁹⁾.

وفي الحديث المرفوع: «الراجع في هبته كالراجع في قيئه». وهذا المثل في الكلب.

(1) ط: «كلة» وتصحيحه من ل.

(2) ط: «إذا ما مسها مطر». والبيت لحسان بن ثابت في ديوان ص 227.

(3) ط: «عفى» والصواب بالقاف كما في ل. والعقي بالكسر: ما يخرج من بطن الولد حين يولد.

(4) ط: «بغير البيد».

(5) ط: «ريح خبيث» وهو تحريف. والمجمع بالكسر، الأحق، إذا جلس لم يكذب من مكانه، والجاهل، وفيها «جارة» وهو تصحيف.

(6) ط: «أعظمه» موضع «أضربه» وفي ل «أطعمه» وأثبت ما يقتضيه كلام الجاحظ الآتي.

(7) في الأصل «اشتد» موضع «شد»، وهو تحريف. وفي ط: «ضرب» مكان «قد ضرب» وتصحيحه من ل.

(8) ط: «قيئة» وبذلك يفوت الاستشهاد. والصواب في ل.

(9) ط: «واضعاً في فرقة».

ويقال: «أَبْخَلُ من كَلْبٍ على جِيْفَةٍ». وقال بعضهم في الكلب: الجِيْفَةُ أَحَبُّ إليه من اللَّحْمِ الغَرِيضِ، ويأكل العَذْرَةَ ويرجع في قَيْئِهِ، ويشعر ببَوْلِهِ فيصير في جوفٍ فيه وأنْفِهِ، ويحذفه تِلْقَاءَ⁽¹⁾ خَيْشُومِهِ.

وقال صاحب الكلب: إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَسْتَسْقِطُونَ الكلب⁽²⁾ وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجِيْفَةُ أَنتَنُ من العَذْرَةِ، والعَذْرَةُ شَرُّ من القِيءِ، والجِيْفَةُ أَحَبُّ إلى أشْراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغَضِّ.

(مَأْكُل السَّبْع)

والأَسَدُ سَيِّدُ السَّبْعِ، وهو يأكل الجِيْفَةَ، ولا يعرض لشرائع الوحش واقتراس البهائم، ولا للسَّابِلَةِ من الناس، ما وَجَدَ في فريسته فَضْلَةً. ويبدأ بعد شُرْبِ الدَّمِ فيبْقُرُ بطنه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل⁽³⁾ والحَشْوَةِ والزَّبَلِ، وهو يرجع في قَيْئِهِ، وعنه⁽⁴⁾ وَرِثَ السَّنُورِ ذلك.

(ما قِيلَ في السَّبْعِ من الأمثال)

وهو المضروبُ به المثلُ في النَّجْدَةِ والبَسَالَةِ، وفي شِدَّةِ الإِقْدَامِ⁽⁵⁾ والصَّوْلَةِ، فيقال: «ما هو إلاَّ الأسدُ على بَرائِئِهِ» و«هو أَشَدُّ من الأسد» و«هو أَجْرَأُ من الليثِ العادي» و«فلانُ أسدُ البلاد» و«هو الأسدُ الأسود»⁽⁶⁾. وقيل لحمزة بن عبد المطلب أسدُ الله. فكفَّاكَ من نُبْلِ الأسدِ أَنَّهُ اشْتَقَّ لحمزة بن عبد المطلب من اسمه. ويقال للملك أَصِيدٌ إذا أرادوا أن يصفوه بالكِبَرِ وبِقِلَّةِ الالتفاتِ، وبأنَّ أنْفَهُ فيه أسلوب⁽⁷⁾ ولأنَّ الأسدَ يلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد. وقال حاتم⁽⁸⁾:

هَلَّا إِذَا مَطَرَ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ⁽⁹⁾ وَرَفَعْتَ رَأْسَكَ مِثْلَ رَأْسِ الْأَصِيدِ

وقال الآخر:

يَذُودُونَ كَلْباً بِالرِّمَاحِ وَطِيئاً وَتَغْلِبَ وَالصَّيْدَ النُّوَاطِرَ مِنْ بَكَرٍ

وقال الآخر:

وَكَمْ لِي بِهَا مِنْ أَبٍ أَصِيدٍ نَمَاهُ أَبٌ مَاجِدٌ أَصِيدٌ⁽¹⁰⁾

- (1) ل: «ويسدده».
- (2) ط: «تستسفلون» وهو تصحيف.
- (3) ط: «القيئة والثفل» وهو تحريف ما في ل.
- (4) ط: «وعند» وتصحيحه من ل.
- (5) ط: «وهو في شدة الأقدام» وكلمة «هو» مقحمة.
- (6) ط: «الأسود» ولعله «وهو أسد الأسود».
- (7) ل: «وبأن أنفه أسلوب» ط: «... في أسلوب» وسويت العبارة كما ترى. والأسلوب: الشموخ في الأنف.
- (8) في الأصل «أبو حاتم» وإنما هو حاتم الطائي، والبيت من أبيات ستة لها خبر في آخر ديوانه بخمسة دواوين العرب . 128
- (9) ط: «مطرت سماءكم بها»، وفي الديوان:
- هَذَا إِنَّمَا مَطَرَتْ سَمَاؤَكُمْ دَمًا
- (10) ط: «نماه لمجد أب أصيد».

وبعد: فإن الذي يأكل الجيفة لم يبعد من طبع كثير من الناس؛ لأن من الناس من يشتهي اللحم الغائب، ومنهم من يشتهي النمكسود⁽¹⁾. وليس بين النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق، وإنما يذبحون الديكة والبط والدجاج والدراج من أول الليل، ليسترخي لحمها، وذلك أول التجفيف⁽²⁾. فالأسد أجمع لهذه الخصال من الكلب، فهلاً ذكرتم بذلك الأسد وهو أنه ذكراً وأبعد صيتاً.

وأما ما ذكرتم من ثنن الجلد ومن استنشاق البول، فإن للئيس في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذف ببوله تلقاء أنفه، وباينه بشدة الصنان؛ فإن الأمثال له أكثر ذكراً. وفي العنز أيضاً عيوب. وفي توجيه التيس ببوله إلى حاق خيشومه قال الشاعر لبعض من يهجو:

دُعِيَتْ زَيْدَ كِي زَيْدَ فَلَمْ تَزِدْ فَعَادَ لَكَ الْمُسْمَى فَأَسَمَاكَ بِالْقَحْرِ⁽³⁾
وَمَا الْقَحْرُ إِلَّا التَّيْسُ يَعْتِكُ بَوْلُهُ عَلَيْهِ فَيَمْزِي فِي لَبَانٍ وَفِي نَحْرِ⁽⁴⁾
وقال آخر في مثل ذلك⁽⁵⁾:

أَعْثِمَانُ بْنُ حَيَّانَ بْنِ لَوْمٍ عَثُودٌ فِي مَفَارِقِهِ يَبُولُ
وَلَوْ أَنِّي أَشَافُهُ لَشَالَتْ نَعَامَتُهُ وَيَفْهَمُ مَا يَقُولُ
وبعد فما يعلم من صنيع العنز⁽⁶⁾ في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلا أقبح. وقال ابن أحمَر الباهلي في ذلك:

إِنَّا وَجَدْنَا بَنِي سَهْمٍ وَجَامِلِهِمْ كَالْعَنْزِ تَعَطُّفُ رَوْقِيهَا وَتَرْتَضِعُ⁽⁷⁾
وَقَلْتُمْ: هَجَا ابْنُ غَادِيَةِ السَّلْمَى⁽⁸⁾ بَعْضَ الْكِرَامِ، حِينَ عَزَلَ عَنِ يَنْبُعٍ، فَقَالَ لِمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ
إِنَّمَا عَزَلَ لِمَكَانِهِ:

رَكِبُوكَ مُرْتَحَلًا فَظَهَرُكَ مِنْهُمْ دَبَرُ الْحَرَاقِفِ وَالْفَقَارِ مُوقِعُ
كَالْكَلْبِ يَتَّبِعُ خَانِقِيهِ وَيَنْتَحِي نَحْوَ الَّذِينَ بِهِمْ يَعْزُّ وَيَمْنَعُ
وقال ابن هرمة الفهري:

فَمَا عَادَتْ لَدِي يَمِنْ رِءُوساً وَلَا ضَرَّتْ بِفُرْقَتِهَا نِزَارَا

(1) انظر النمكسود ما ورد في تذكرة داود. (2) ما عدل والأمبروزيانا «التجفيف».

(3) ط: «بالفجر» وهو تصحيف ما ي ل، والقحر أصل معناه البعير المسن.

(4) ط: «الفجر» موضع «القحر» و«يعتل» مكان «يعتك». يقال عتك عليه بضربه أي لم ينهه عنه شيء. وفي ل: «ويمذي في اللبان وفي النحر».

(5) هو الممرار الفقعي. انظر حواشي 313: 5.

(6) ل: «فما نعلم صنيع».

(7) ط: «وجاهلهم» ل: «وحاملهم» وتصحيحه مما سيأتي في هذا الجزء ص 244 ومن عيون الأخبار 2: 75، والجمال: قطع الإبل معه ريعانه وأربابه.

(8) ط: «السلمحا» وفي ل: «عادية» بالعين. وأثبت ما في ش وم.

كَعَنَزِ السَّوْءِ تَنْطَحُ مَنْ خَلَاهَا وَتَرَأَمُ مَنْ يُحِدُّ لَهَا الشَّفَارَا

وما نعلم الرجوع في الجرة، وإعادة الفرث إلى الفم لِيُسْتَقْصَى مضغُه إلا أَسْمَجُ⁽¹⁾ وأقْدَرُ من الرجوع في القيء. وقد اختار الله عزَّ وجلَّ تلك الطبيعة للأنعام، وجعل الناس ليسوا لشيء من اللّحمان أشدَّ أَكْلاً ولا أشدَّ عَجَباً به منكم⁽²⁾، ولا أَصْلَحَ لأبدانهم ولا أَغْذَى لهم من لُحُوم هذه الأنعام أَفتانها ومَسَانَّها.

وقال صاحب الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشية في الجرة، ورجوعها في الفرث تطحنه وتُسيغه، الرجوع في القيء. وقد زعمتم أَنَّ جِرَّةَ البعير أَنتن من قيء الكلاب لطول غُبُوبها⁽³⁾ في الجوف، وانقلابها إلى طباع الرُّبْل، وأَنَّها⁽⁴⁾ أَنتن من الثلث، وإنَّما مثل الجرة مثل الرِّيق الذي ذكره ابنُ أحمَر فقال:

هذا الشنَاء وأجْدَرُ أنْ أَصاحبه وَقَدْ يَدُومُ رِيقُ الطَّامِعِ الْأَمَلِ⁽⁵⁾

فإنَّما مَثَلُ القيءِ مَثَلُ العذرة؛ لأنَّ الرِّيقَ الذي زعمتم، مادام في فم صاحبه، أَلذُّ من السلوى، وأمتع من النسيم، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطشان المسهوم. والرِّيقُ كذلك ما لم يزايل موضعه، ومتى زایل فَمَ صاحبه إلى بعض جِلْدِه اشتدَّت نَتْنُه وعادَ في سبيل القيء. فالرِّيق والجرة في سبيل واحد، كما أَنَّ القيء والعذرة في سبيل واحد. ولو أَنَّ الكلبَ قَلَسَ حَتَّى يَمْتَلِئَ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مَبَايِنَةٍ له، لكان في ذلك أَحَقُّ بالنظافة من الأنعام في جِرَّتِها، وحشيتها وأهليتها، وإنَّ الأَرَانِبَ لَتَحِيضُ حِيضاً نَتْناً، فما عاف لَحْمَها أَصْحَابُ التَّقْدِرِ⁽⁶⁾ لمشاركتها الأنعام في الجرة.

فقال صاحب الكلب: أَمَّا ما عبتموه من أَكْلِ العذرة، فإنَّ ذلك عامٌّ في الماشية المتخبرٍ لَحْمِها على اللّحمان؛ لأنَّ الإبل والشيء⁽⁷⁾ كُلُّها جَلَالَةٌ وَهْنٌ على يابسٍ ما يخرُج من الناسِ أَحْرَصُ؛ وعلى أَنَّها إِذَا تَعَوَّدَتْ أَكْلَ ما قد جفَّ ظاهره وداخله رطباً، رَجَعَ أمرُها إلى ما عليه الكلب. ثم الدَّجاج لا تَرْضَى بالعذرة، وبما يَبْقَى من الحبوب التي لم يَأْتِ عليها الاستمرار والهضم، حَتَّى تَلْتَمِسَ الديدانَ التي فيها، فتجتمع نوعين من العذرة⁽⁸⁾ لأنها إِذَا أَكَلَتْ ديدان

(1) ط: «إلى السمع» وهو تحريف ما في ل.

(2) وضعت كلمة (به) في ط بعد أَكَلَا. وتصحيحه من ل.

(3) ط: «غيبوها» والغيوب صحيحة، والأشبه «غوبها» بالياء كما مضى قريباً وكما في ل.

(4) في ط: «وأنه» وفي ل: «وأُنهما» والوجه ما أثبت لأن الضمير راجع إلى الجرة.

(5) ط: «بصاحبه» و«يداوم» وتصحيحه من ل ومن البيان 1: 180.

(6) ط والأمبروزيانا: «التقرز» وهو الاشتزاز. والتقذر من تقذر الشيء: عده قذراً.

(7) في الأصل: «الشاة» والوجه الجمع كما صنعت.

(8) ط: «فيجتمع نوعان».

العذرة فقد أتت على النوعين جميعاً ولذلك قال عبد الرحمن بن الحَكَم ⁽¹⁾ في هجائه الأنصار بخبيث الطعام فضرب المثل بالدجاج من بين جميع الحيوان، وترك ذكر الكلاب وهي له مُعْرِضة فقال:

وَلَلْأَنْصَارُ أَكَلُ فِي قُرَاهَا لَخَبِثِ الْأَطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ ⁽²⁾

ولو قال:

وَلَلْأَنْصَارُ أَكَلُ فِي قُرَاهَا لَخَبِثِ الْأَطْعِمَاتِ مِنَ الْكِلَابِ
لَكَانَ الشَّعْرُ صَحِيحاً مُرْضِياً.

وعلى أَنَّ الكلاب متى شِيعت، لم تعرض للعذرة، والأنعام الجلالة وكذلك الحافر، قد جعلت ذلك كالحمض إذا كانت لها خلة؛ فهي مرة تتغذى به ومرة تتحمض. وقد جاء في لُحوم الجلالة ما جاء.

(رغبة الملوك والأشراف في الدجاج)

وملوكنَا وأهل العيش مِنَّا، لا يرغبون في شيء من اللحمان رغبتهم في الدجاج، وهم يقدمونها على البط والنواهض، والقَبَج والدَّرَاج. نعم وعلى الجداء والأعناق الحُمُر من بنات الصَّفايا. وهم يعرفون طبعها وسوء قوتها ⁽³⁾، وهم مع ذلك يأكلون الرِّوَاعِي كما يأكلون المسمَّات.

(الشبوط أجود السمك)

وأطيب ما في الأنهار من السمك، وأحسنها قُدوداً وخَرْطاً، وأسبَطها سُبوطاً ⁽⁴⁾، وأرفعها ثمناً وأكثرها تصرفاً في المالح والطري، وفي القريس والنشوط السُّبوط ⁽⁵⁾، وليس في الماء سمكة رقيقة الذكر ولا ذات خمول، إلا وهي أحرص على أكل العذرة منها، وإنها في ذلك ⁽⁶⁾ لأشدُّ طلباً لها من الخنزير في البر، والجري في البحر.

(1) ط: «ابن أم الحكم» والصواب ما أثبت من ل. وعبد الرحمن بن الحكم هذا شاعر إسلامي متوسط الحال في شعراء زمانه. وكان بهاجي عبدالرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري فيقاومه، وينتصف كل واحد منهما من صاحبه. له ترجمة في الأغاني 12: 69-73، وأما عبد الرحمن بن أم الحكم فهو ممن ولى الكوفة وأساء بها السيرة، وولاه خاله معاوية عدة أعمال فذمه أهلها، وتظلموا منه فعزله وأطرحه. الأغاني 13-32.

(2) ل: «كخبث» وهو تحريف.

(3) ط: «وشهوتها».

(4) ل: «سباطة» يقال سبط سباطة وسبوطه وسبوطاً.

(5) في القاموس: سمك قريس: طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد. وفي مبادئ اللغة 74: «والقريس: لحم يطبخ بخل ثم يبرد». وهي في ط: «القريش» وفي ل: «القريص» وهما كلمتان محرفتان. وأما النشوط فهي كلمة ساقطة من ط. والنشوط: سمك يمقر في ماء وملح.

(6) التكملة من الأمبروزيانا.

(لحم الخنزير)

وقد علم الناس كيف استطابةُ أكل لحوم الخنازير، وأكل الخنازير لها، وكيف كانت الأكاسرة والقياصرة يقدمونها ويفضّلونها. ولولا التعبّد لجري عندنا مجراه عند غيرنا. وقد علم الناس كيف استطابةُ أكل الجري لأذناها^(١).

(ما قيل في الجري)

وفي الجري قال أبو كلفة: هو أدم العُميان، وجيد في الكوشان^(٢) ودواء للكليتين^(٣)، وصالح لوجع الظهر وعجب الذنب، وخلاف على اليهود، وغيظ على الروافض؛ وفي أكله إحياء لبعض السنن، وإماتة بعض البدع، ولم يفلج عليه كثير منه قط، وهو محنة بين المبتدع والسني، هلك فيه فتتان^(٤) مذ كانت الدنيا: محلل ومحرم.

وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدماغ، يلتهم العذرة ويأكل الجردان^(٥) [صاحاً والفار]، وزهم لا يستطاع أكله إلا محسباً^(٦) ولا يتصرف تصرف السمك، وقد وقع عليه اسم المسخ، لا يطيب مملوحاً ولا ممقوراً، [ولا يؤكل] كباباً، ولا يختار مطبوخاً، ويرمى كله إلا ذنبه^(٧).

والأصناف التي تعرض للعذرة كثيرة، وقد ذكرنا الجالات من الأنعام والجري والسبوط من السمك. ويعرض لها من الطير الدجاج والرخم والهداهد.

(الأنوق وما سمي بهذا الاسم)

وقد بلغ من شهوة الرخمة لذلك، أن سمّوها الأنوق، حتى سمّوا كل شيء من الحيوان يعرض للعذرة بأنوق، وهو قول الشاعر:

حتى إذا أضحي تدرى واكتحل لجارتيه ثم ولى فنثل
رزق الأنوقين القرنبى والجعل^(٨)

(١) في ط: «لأذناها محشوا» وفي ل: «لأذناها محسباً» ومحسباً ومحشوا كلمتان مقحمتان فأسقطتهما. واللام في «لأذناها» بمعنى إلى.

(٢) الكوشان: طعام لأهل عمان من الأرز والسمك.

(٣) ط: «في الكلمتين» وهو تحريف.

(٤) ط: «فتيان» وليس بشيء.

(٥) ط: «يلتقم العذرة ويتلع الجردان».

(٦) هذا ما في ل. وانظر ما سيأتي في 5: 304 و6: 230، وكتاب الطببخ للبغدادي 64 حيث ذكر صفة المحسبي. وفي سائر النسخ «محسوا».

(٧) ل: «بكله إلا ذنبه».

(٨) في الأصل: «ذرق» صوابه من 3: 278.

(ما قيل من الشعر في الجعل)

ولشدة طلب الجعل لذلك قال الشاعر :

يبيت في مجلس الأقسام يربوهم
وكذلك قال الآخر (1) :

إذا أتوه بطعام وأكل (2)
هذا البيت يدل على عظم مقدار النجور، فهجاه بذلك، وعلى أن الجعل يقتات البراز.
وفي مثل ذلك يقول ابن عبدل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأن الشعر يرتفع عنه
والشعر قوله :

نعم جار الخنزيرة المرضع الغر
ثاويًا قد أصاب عند صديق
ثم أنحى بجعره حاجب الشم
بضريط ترى الخنازير منه
وقال الراجز [في مثل ذلك] :

قد دقه ثارده وصومعا (6)
جعجعة العود ابتغى أن ينجعا (7)
عن جائم يحسب كلباً أبقعا (8)

وفي طلب الجعل للزبل قال الراجز (وهو أبو الغضن الأسدي) :

ماذا تلاقى طلحات الحرجه
ظل لها بين الحلال أرجه (10)
فجئتها قاعده منشجه (12)
من كل ذات بخنق غملجه (9)
من الضراط والفساء السمجه (11)
تعطيه عنها جعلاً مدحرجه

وقال يحيى الأغر: تقول العرب «سذك به جعله» (13). وقال الشاعر :

- (1) ط : «ولذلك قال الشاعر» وهو تحريف .
(2) ط : «نعم جاز الخنزيرة المرضع الفرثي»، وتصحيحه من ل ومن البيان 3: 311 .
(3) ط : «نعم جاز الخنزيرة المرضع الفرثي»، وتصحيحه من ل ومن البيان 3: 311 .
(4) ط : «نعم جاز الخنزيرة المرضع الفرثي»، وتصحيحه من ل ومن البيان 3: 311 .
(5) ط : «ثم أنحى بجعره» وهو على الصواب في ل والبيان .
(6) ط : «فردقة ثارده» وهو تصحيف ما في ل . في القاموس : ثريدة مصومعة : مدقة الرأس .
(7) ط : «جعجعة العواء تبغي تنجعا» وهو كلام مشوه تصحيحه من ل .
(8) في القاموس : «البقع محرقة في الطير والكلاب كالبلق في الدواب» وفيه : «البلق : سواد وبياض» وفي ل : كبشاً أبقعا والوجه ما أثبت من ط .
(9) ط : «نجنق» ولا معنى له وصوابه في ل . والبخنق : خرقه تتقنع بها الجارية .
(10) ل : «بين الحجال» . (11) ل : «السمهجة» . (12) ل : «مفسحة» .
(13) ط : «سرك به جعله» وإنما هي سذك - بمعنى لزم - كما في ل . وفي الأمثال : «ألصق من جعل» .

إِذَا أَتَيْتُ سُلَيْمَى شَبَّ لِي جُعَلٌ إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِي يُغَرَى بِهِ الْجُعَلُ^(١)
 يضرب هذا المثل للرجل إذا لصق به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه [وهو] يهرُب منه .
 قال يحيى : وكان أصله ملازمة الجُعَل لمن بات في الصحراء، فكلَّمَا قام لحاجةٍ تبعه ؛
 لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائط .

(القرنبي)

وفي القرنبي يقول ابن مقبل :
 وَلَا أَطْرُقُ الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ قَابِعاً قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ أَخْلَفْتَهُ مَجَاعِرَهُ^(٢)
 والقُبُوع : الاجتماع والتقبض . والقرنبي : دويبة فوق الخنفساء ودون الجعل ، وهو
 والجعل يتبعان الرجل إلى الغائط .

(الهدهد وخبث ريحه)

ومن الطير الذي يضارع الرخمة في ذلك الهدهد ، منتن البدن وإن لم تجده ملطخاً
 بشيء من العذرة ؛ لأنَّه يبني بيته ويصنع أفحوصه من الزبل ، وليس اقتيائه منه إلا على قدر
 رغبته وحاجته في ألا يتخذ بيتاً ولا أفحوصاً إلا منه ، فخامرَه [ذلك] التَّنُّ فعلق ببدنه وجري
 في أعراق أبويه ؛ إذ كان هذا الصنيع عامّاً في جنسه^(٣) . وتعتري هذه الشهوة الذبان ، حتّى إنَّها
 لو رأت عسلاً وقذراً ، لكانت إلى القدر أسرع . وقال الشاعر^(٤) :

قَفَا خَلْفَ وَجْهِ قَدْ أُطِيلَ كَأَنَّهُ قَفَا مَالِكٍ يُقْصِي الْهُمُومَ عَلَى بَثْقِ^(٥)
 وَأَعْظَمُ زَهْواً مِنْ دُبَابٍ عَلَى خِرَا^(٦) وَأَبْخَلُ مِنْ كَلْبٍ عَقُورٍ عَلَى عَرَقِ^(٧)

ويزعمون أنَّ الزُّنبورَ لهجٌ بصيد الذبان ، ولا يكاد يصيده^(٨) إلا وهو ساقط على عذرة
 لفرط شهوته لها [ولا ستفراغها] ، فيعرف الزُّنبور ذلك ، فيجعل غفلته فرصة ونهزة . قالوا :
 وإنَّما قلنا ذلك لأنَّا لم نجده يروم صيده وهو ساقط على ثمرة ، فما دونها في الحلاوة .

(١) شب ، أي أتيت . وعنى بالجعل الواشي . أمثال الميداني 2 : 180 .

(٢) ط وأمثال الميداني 2 : 180 «محاجره» وأثبت ما في ل .

(٣) ط : «إذ كان هذا التضييع عامّاً في جنبه» وهو تحريف ما في ل .

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانئ كما سيأتي وكما في البيان 3 : 354 وعبون الأخبار 1 : 273 والشعراء 760 ، والشعر في

هجاء جعفر بن يحيى البرمكي .

(٥) البثق : منبعث الماد . ما عدل : «بثق» .

(٦) ل : «خر» .

(٧) العرق بالفتح : العظم بلحمه . فإذا أكل لحمه فعراق - كغراب - أو كلاهما لكليهما .

(٨) ط : «يصيد» والوجه ما في ل .

(شعر في الهجاء)

وقال أبو الشَّمَقِ في ذلك :

الطَّرِيقَ الطَّرِيقَ جَاءَ كُمْ الْأَحَدُ مَقُّ رَأْسِ الْأَنْتَانِ وَالْقَذِرَ
وَابْنُ عَمِّ الْحِمَارِ فِي صُورَةِ الْفَيْدِ لِي وَخَالَ الْجَامُوسِ وَالْبَقَرِ
يَمْشِي رُويْدًا يَرِيدُ حَلَقَتَكُمْ كَمْشِي خَنْزِيرَةً إِلَى عَذْرِهِ (1)
وقال حَمَادُ عَجْرَدَ فِي بَشَارِ بْنِ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ :

مَا صَوَّرَ اللَّهُ شَبْهًا لَهُ مِنْ كُلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ صَوْرًا
أَشْبَهَ بِالْخَنْزِيرِ وَجْهًا وَلَا بِالْكَلْبِ أَعْرَاقًا وَلَا مَكْسِيرًا (2)
وَلَا رَأَيْنَا أَحَدًا مِثْلَهُ أَنْجَسَ أَوْ أَطْفَسَ أَوْ أَقْذَرًا (3)
لَوْ طُلِيتُ جِلْدَتُهُ عَنَبْرًا لَنَتَّيْتُ جِلْدَتَهُ الْعَنْبَرَا (4)
أَوْ طُلِيتُ مِسْكَ ذَكِيًّا إِذْنُ تَحَوَّلَ الْمِسْكُ عَلَيْهِ خِرَا

وقال أبو نُوَاسٍ فِي هِجَاءِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ :

إِذَا مَا مَدَحْتُ فَتَى مِنْ خِرَا أَلَيْسَ جَزَائِي أَنْ أُعْطِيَ الْخِرَا (5)
وقال أَعْرَابِيٌّ يَهْجُو رَجُلًا يُقَالُ لَهُ جُلْمُودُ بْنُ أَوْسٍ ، كَانَ مُتَنِّزَ الْعِرْقِ :
إِنِّي إِذَا مَا عَارِضِي تَأَلَّقَا (6) وَرَعَدْتُ حَافَتَهُ وَبَرَقَا
أَهْلَكْتُ جُلْمُودَ بْنَ أَوْسٍ عَرَقَا كَانَ لِحِمَقَاءِ فَصَارَ أَحْمَقَا
أَخْبَثَ شَيْءٌ عَرَقَا وَخَرَقَا (7)

وقال حَمَادُ عَجْرَدَ فِي بَشَارِ :

يَابْنَ بُرْدٍ اخْسَأْ إِلَيْكَ فَمِثْلُ الْـ كَلْبِ فِي الْخُلُقِ أَنْتَ لَا الْإِنْسَانَ (8)
بَلْ لَعَمْرِي لَأَنْتَ شَرُّ مِنَ الْكَلْبِ بِ وَأَوْلَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانٍ
وَلَرِيحُ الْخَنْزِيرِ أَطْيَبُ مِنْ رِيـ حِكِّ يَابْنَ الطَّيَّانِ ذِي الثُّبَّانِ

(1) ط : « يريد خلعتكم مشي » والوجه ما في ل .

(2) المكسر - كمنزل - : « الأصل والمخير .

(3) الطفس بالتحريك : قدر الإنسان إذا لم يتعهد نفسه . وطفس كقذر وزنا ومعنى .

(4) في شرح المقامات للشريشي 2: 114 : « لأفسدت » .

(5) ط : « من خرى » ل « من خر » . وفي ط : « أعطى الخرا » .

(6) ط : إذا عارضني تألقا .

(7) ط : « أحرقا وعرقا » .

(8) في ط نقصان كلمة (إليك) وبذلك يختل البيت . والشعر من الخفيف لحقه التشعيث في البيت الأول والثالث .

وانظر الأغاني 3: 21 .

وقال بعض الشعراء في عبد الله بن عمير :

عَزَا ابْنُ عُمَيْرٍ عَزْوَةً تَرَكَتْ لَهُ ثَنَاءً كَرِيحِ الْجَوْرَبِ الْمَتَخَرِّقِ
وقال حمادُ عَجَرَدٍ فِي بَشَّارٍ (1) :

قُلْ لَشَقِيٍّ الْجَدُّ فِي رَمْسِهِ وَمَنْ يَفِرُّ النَّاسُ مِنْ رَجْسِهِ (2)
لِلْقَرْدِ بَشَّارٍ بِنِ بُرْدٍ وَلَا تَحْفِلْ بِرَغْمِ الْقَرْدِ أَوْ تَعْسِهِ (3)
لِلْقَرْدِ بِاللَّيْثِ اغْتِرَارًا بِهِ فَمَا الَّذِي أَدْنَاكَ مِنْ مَسِّهِ (4)
يَابْنَ اسْتِهَا فَاصْبِرْ عَلَى ضُعْمَةٍ بَنَابِهِ يَا قَرْدُ أَوْ ضَرْسِهِ
نَهَارُهُ أَخْبَثُ مِنْ لَيْلِهِ وَيَوْمُهُ أَخْبَثُ مِنْ أَمْسِهِ
وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ غَيْهِ (5) حَتَّى يُدَلِّي الْقَرْدُ فِي رَمْسِهِ
مَا خَلَقَ اللَّهُ شَبِيهَا لَهُ مِنْ جَنْهِ طُرّاً وَمِنْ إِنْسِهِ
وَاللَّهِ مَا الْخَنْزِيرُ فِي نَثْنِهِ مِنْ رُبْعِهِ بِالْعُشْرِ أَوْ خُمْسِهِ
بَلْ رِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِهِ وَمُسُّهُ أَلْيَنُ مِنْ مَسِّهِ
وَوَجْهُهُ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَنَفْسُهُ أَنْبَلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ (6)

وأنا - حفظك الله تعالى - أستظرف وضعه الخنزير بهذا المكان وفي هذا الموضع، حين يقول: وعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ وأَيُّ عودٍ للخنزير (7)؟! قَبَّحَهُ اللَّهُ تعالى، [وقبح من يشتهي أكله]. وقال حمادُ عَجَرَدٍ فِي بَشَّارٍ بن بُرْدٍ :

إِنَّ ابْنَ بُرْدٍ رَأَى رُؤْيَا فَاوْلَهَا (8) بِلَا مَشْوَرَةٍ إِنْسَانٍ وَلَا أَثَرٍ
رَأَى الْعَمَى نِعْمَةً لِلَّهِ سَابِغَةً عَلَيْهِ، إِذَا كَانَ مَكْفُوفًا عَنِ النَّظَرِ
وَقَالَ: لَوْ لَمْ أَكُنْ أَعْمَى لَكُنْتُ كَمَا قَدْ كَانَ بُرْدُ أَبِي فِي الضِّيْقِ وَالْعُسْرِ
أَكْذُ نَفْسِي بِالتَّطْيِينِ مَجْتَهِدًا إِمَّا أَجِيرًا وَإِمَّا غَيْرَ مُؤْتَجَرٍ
أَوْ كُنْتُ إِنْ أَنَا لَمْ أَقْنَعْ بِفَعْلِ أَبِي قَصَابَ شَاءِ شَقِيٍّ الْجَدُّ أَوْ بَقَرٍ

(1) الشعر في أمالي المرتضى 1: 93 ومعاهد التنصيص 1: 100 .

(2) ل: « . . . » في رسمه وأمه الشلافة الرجسة» وهو تحريف .

(3) ط: «نخسه» ولعلها «نحسه» وأثبت ما في ل .

(4) ل: «ما الذي أدناك» .

(5) كذا في معاهد التنصيص . وفي ط: «غيلة» ول: «فعله» .

(6) ط: «أحسن» وارتضيت ما في ل ومعاهد التنصيص .

(7) ط: وعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ أين عود الخنزير من الكرم» . ووضع الكلام بهذه الصورة من تلاعب النساخ . وقد

رددت الأمر إلى نصابه، معتمداً ما في ل .

(8) ل: «فقال بها» .

كإخوتي دائباً أشقى شقاءهم
فقد كفاني العمى من كل مكسبة
فصرتُ ذا نَسَبٍ من غير ما طلب
أضُمُّ شيئاً إلى شيءٍ فأذخره⁽³⁾
مَنْ كان يعرفني لو لم أكن زَمِناً
فقل له لا هداه الله من رجلٍ
لقد فطنت إلى شيءٍ تعيش به
يابن التي نَشَرْتَ عن شيخ صبيتهَا
أما يكفك عن شَتْمِي ومنقَصَتِي
نفثك عنها عَقِيلٌ وهي صادقة
ياعبد أم الأطباء المستطب بها
بل أنت كالكلب ذلاً أو أذل وفي
وأنت كالقرد في تشويه منظره
ووصف ابن أبي كريمة حُشّاً له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال:

ولي كَنِيفٌ بِحَمْدِ اللَّهِ يطرقني
له بدائع نثن ليس يعرفها⁽¹¹⁾
إذا أتاني دَخِيلٌ⁽¹²⁾ زَادَنِي بِدَعَاً
قد اجتواني له الخُلَانُ كُلُّهُمْ
فمن أراد من البرسام أقتله
استكثف النثن في أنفي لكثرتِه
أرواح وادي خبال غير فَتَّار⁽¹⁰⁾
من البرية إلا خازن النار
كأنه لهج عمداً بإضراري
وباع مسكنه من قُربه جاري
أو الصُّدَاعُ فمره يدخلن داري
فليس يوجدينه غير إضماري⁽¹³⁾

- (1) ط: «بأنواع من القدر».
- (2) ط: «إلا بمسألتي إن كنت في صفر» وهو تحريف.
- (3) ط: «فأحرزه».
- (4) العرر: المساوي والمثالب. في ط: «لاهداك الله».
- (5) ط: «لاقد» وهو تحريف، وفيها: «قد وفقت في النظر».
- (6) ط: «عن شيخ مبيتها لا يرميان يذي» وهو تحريف.
- (7) كذا في ل. وفي ط: «ذفر» بالذال. وهما بمعنى. في أدب الكاتب 157: «الذفر: شدة ريح الشيء الطيب والشيء الخبيث».
- (8) ط: «فسل أسيد أو فاسأل».
- (9) البعر، ساكنة العين: الشاة أو الجدي يشد عنه زبية الذئب أو الأسد. ومن أمثالهم: «هو أذل من البعر». وقد جاء محرّكاً في هذا الشعر. وفي ط: «وفي ندالة النفس والخنزير والنقر».
- (10) كذا في. وفي ط: «واري خيال»، وفي س: «وادي خيال» وفي م: «واد خبال».
- (11) كذا في ط. وفي ل: «يعجزها» وليس بشيء. (12) ط: «بخيل» موضع «دخيل».
- (13) يوجدينه: يجعلني أشعر بوجوده. وفي ط: «يوجد فيه» وهو تحريف.

(ثروة المحلول من الشعر)

وقيل للمحلول⁽¹⁾ : ويلك ، ما حفظت بيت شعر قط ؟ فقال : بيتاً واحداً اشتهيته فحفظته . فقيل له : فهاته . فقال : أما إني⁽²⁾ لا أحفظ إلا بيتاً واحداً . قيل : فكيف رزق منك هذا البيت ؟ فَأُشِدّه ، فَأُسَدّهم :

كَأَنَّمَا نَكْهَتْهَا مِدَّةٌ تَسِيلُ مِنْ مَخْطَةِ مَجْدُومٍ
وزعم أصحابنا أَنَّ رجلاً من بني سعد - وكان أنتن الناس إبطاً - بلغه أن ناساً من عبد القيس يتحدّونه برجلٍ منهم ، فمضى إليهم شداً ، فوافاهم وقد أزدب⁽³⁾ إبطاه ، وهو يقول :
أَقْبَلْتُ مِنْ جَلْهَةٍ نَاعَتِينَا⁽⁴⁾ بِذِي حُطَاطٍ يُعْطِسُ الْمَخْنُونَا⁽⁵⁾
يَزُوي له من نَتْنِهِ⁽⁶⁾ الْجَبِينَا حَتَّى تَرَى لَوَجْهِهِ غُضُونَا
نُبْتُتُ عَبْدَ الْقَيْسِ يَأْبطُونَا

قال : ومتح أعرابي على بئر وهو يقول :

يَا رِيَّهَا إِذَا بَدَا ضُنَانِي كَأَنَّنِي جَانِي عُبَيْثُرَانِ⁽⁷⁾
وقال آخر :

كَأَنَّ إِبْطِيَّ وَقَدْ طَالَ الْمَدَى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَامِيخِ الْقَرَى⁽⁸⁾
ويقال إنه ليس في الأرض رائحة أنتن ، ولا أشد على النفس ، من بخر فم أو نتن حِر ، ولا في الأرض رائحة أعصم لروح من رائحة التفاح .

وقال صاحب الكلب : فما نرى النَّاسَ يَعَافُونَ تَسْمِيدَ بُقُولِهِمْ قَبْلَ نُجُومِهَا وَتَفْتُحِ بَزُورِهَا⁽⁹⁾ ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتى ربّما ذرّوا عليها السّمَادَ ذَرّاً ، ثُمَّ يُرْسَلُ عَلَيْهَا الْمَاءُ حَتَّى يَشْرَبَ اللَّبُّ⁽¹⁰⁾ قُوَى الْعَذِيرَةِ ، بل مَنْ لَهُمْ بِالْعَذِيرَةِ ؟! وعلى أَنَّهُمْ مَا

(1) روى الجاحظ خبراً له في البيان 3: 226 وفي البخلاء 99 ما يفيد أن المحلول مولى لتمام بن جعفر .

(2) في الأصل : «أما أنا» . (3) ط : «زيد» .

(4) في معجم البلدان والقاموس أن «ناعتين» موضع ؛ ولم يعينه واحد منهما . . وفي ط : «باعثينا» محرفة .

(5) الحطاط بالضم : الرائحة الخبيثة . والمخنون : المزكوم ، وأصله من الخنان في الإبل وهو لها كالزكام للناس . . وفي ط : «بذي حضيض يعطس المجنون» وهو تحريف .

(6) ط : «من شمه» .

(7) العبيثران . قال ابن سيده : «هو من ريحان البر طيب الريح ، قريب الشبه من القيصوم ونوره مثل نوره وهو أطيب منه . . وقيل هو أغبر شبيه بالقيصوم إلا أن له شمراخاً مدلي ، عليته نور أصفر شبيه بالذي يكون في وسط الأفيحوان . ويوضع في المجالس مع الفاغية فلا يفوقه ريحان» . وهي في ط : «عبيثراني» محرفة .

(8) النفحة : الدفعة . . وهي في ط : «النفحة» . وانظر عيون الأخبار 3: 63 .

(9) ل : «بذورها» بالذال ، وهما بمعنى .

(10) ط : «يشرب موضع اللب» و«موضع» مقحمة .

يصيبونها إلا مغشوشةً مُفسدةً. وكذلك صنيعهم في الريحان. فأما النَّخلُ فلو استطاعوا⁽¹⁾ أن يَطلُّوا بها الأَجْدَاعَ طلياً⁽²⁾ لفعَلُوا. وإنَّهم لَيُوقِدُونَ بها الحَمَامَاتِ وَأَتَاتِينَ المَلَالِ⁽³⁾، وتنانير الخبز. ومن أكرم سمادهم الأَبَاعِرُ كُلُّهَا والأَخْثَاءُ إِذَا جَفَّتْ. وما بَيْنَ الثَّلَاطِ جَافَا والخِثَاءِ يَابَساً، وبين العَذِرَةِ جَافَةً وَيَابَسَةً فَرَقَ. وعلى أَنَّهُمْ يَعَالِجُونَ بالعَذِرَةِ وَبُخْرَةِ الكَلْبِ، من الذُّبْحَةِ والخَانُوقِ⁽⁴⁾ في أَقْصَى مواضع التَّقْرِزِ⁽⁵⁾ وهو أَقْصَى الحَلَقِ، ومواضع اللِّهَاءِ⁽⁶⁾، ويضعونها على مواضع الشُّوكَةِ، ويعالجون بها عُيُونَ الدَّوَابِّ.

(أقوال لمسيح الكناس)

وقال مسيح⁽⁷⁾ الكناس: إِنَّمَا اشْتَقَّ الخَيْرُ مِنَ الْخُرِّ. والخُرُّ في النوم خير. وسَلَحَةٌ مُدْرِكَةٌ أَلْذُ مِنْ كَوْمِ العَرُوسِ لَيْلَةَ العُرْسِ. ولقد دخلتُ على بَعْضِ الملوك لِبَعْضِ الأسبابِ، وإذا به قُعَاصٌ وَزُكَامٌ وَثَقُلَ رَأْسُ، وإذا ذلك قد طاوله، وقد كان بلغني أَنَّهُ كان هَجَرَ الجُلُوسِ على المقعدة وإِتْيَانِ الخلاءِ، فأمرته بالعود إلى عادته، فما مَرَّتْ به أَيَّامٌ حتى ذهب ذلك⁽⁸⁾ عنه. وزعم أَنَّ الدنيا مُنْتَنَةٌ الجِيطَانِ والتُّرْبَةِ، والأنهار والأودية، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك التَّنُّ المحيط بهم، وقد مَحَقَّ حِسَّهُمْ له طَوْلُ مُكُوثِهِ في خياشيمهم. قال: فمن ارتابَ بخبري، فليَقِفْ في الرَّدِّ إلى أَن يَمْتَحِنَ ذلك في أَوَّلِ ما يَخْرُجُ إلى الدنيا، عَنْ بَيْتِ مطيِّبٍ؛ وليتَشَمَّ⁽⁹⁾ تشمَّ المتشَبِّثِ. عَلَى أَنَّ البَقَاعَ تَتَفَاوَتُ في التَّنِّ. فهذا قولُ مسيح⁽¹⁰⁾ الكنَّاسِ.

(عصبية سلمويه وابن ماسويه)

وزعم لي سلمويه وابن ماسويه مُتَطَبِّبَا الخلفاء⁽¹¹⁾، أَنَّهُ ليس على الأرض جِيفَةٌ أَتَنُّ نَتْنًا وَلَا أَثَقَبُ ثَقُوبًا مِنْ جِيفَةٍ بَعِيرٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّ الذي وَهَمَهُمَا ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليه، وبغضهما لأربابه، ولأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، هو المذكورُ في الكتبِ بَرَاكِبِ⁽¹²⁾ البعير. [ويقال إنَّ الحِجَّاجَ قال لهم: أَيُّ الجِيفِ أَتَنُّ؟ فقول: جِيفُ الكلابِ. فامتَحَنَتْ فُقِيلَ له: أَتَنُّ منها جِيفُ السنانيرِ، وَأَتَنُّ جِيفُهَا الذكورُ منها. فصلب ابن الزُّبَيْرِ بين جِيفَتَيْ سَوَّورَيْنِ ذَكَرَيْنِ⁽¹³⁾].

(1) ط: «استطالوا» وهو تحريف ما في ل.

(2) ط: «صلباً» وهو تحريف ظاهر.

(3) المليل: الخبز واللحم وضعت في الملة. والملة: الرماد الحار. وفي ل: «القلال».

(4) الذبحة: وجع في الحلق أو دم يخنق فيقتل. وفي ط: «الخاثوق» موضع الخانوق.

(5) ط: «التفرز» وهو تصحيف ما في ل.

(6) ط: «ومواضع اللهات» وهو تحريف.

(7) ط: «مسيح».

(8) ط: «حتى ذهبت عنه».

(9) ط: «ليشم».

(10) ط: «مسيح».

(11) سلمويه هو ابن بنان، خدم المعتصم. ترجم له القفطي 143، وابن النديم 296 ليسك، 412 مصر. وأما ابن ماسويه فهو أبو زكريا يحيى أو يوحنا. خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، كما في الفهرست 295، ليسك، 411 مصر. وفي ط: «مطيّب الخلقاء» وصحته في ل.

(12) ط: «بركوب».

(13) في المعارف 99 أنه صلب حيث أصيب.

(أطيب الأشياء رائحة وأخبثها)

وأنا أقول في التَّن والطَّيب شيئاً، لعلَّك إن تفقدته أن توافقني عليه وترضى قولِي . أمَّا التَّن فإنِّي لم أشم شيئاً أنتن من ريح حُشٍّ مقيرٍ، يبول فيه الخِصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإنَّ لأبوالهم المترادفة المتراكبة^(١) ولرياح القار وريح هواء الحش^(٢) وما ينفصل إليه من ريح البالوعة - جهةً من التَّن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنما يقصد إلى عين الرُّوح وصميم القلب، ولا سيما إذا كان الخلاء غير مكشوف، وكان مغموماً غير مفتوح . فأما الطَّيب فإنِّي لم أشم رائحة قطُّ أحيا للنفس ولا أعصم للرُّوح، ولا أفتق ولا أغنج، ولا أطيب خمرة من ريح عروس^(٣)، إذا أحكى تلك الأخطا، وكان عَرَفَ [بدنها] ورأسها وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول ﷺ فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة .

(ما قيل في الظربان)

ومما قالوا في التَّن، وفي ريح جُحر الظَّربان خاصَّة، قول الحكم بن عبدَل :

الْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضٍ مَشَقَّةٍ	وَلَحَضْدُ أَنْفِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ ^(٤)
أَنْتَ امْرُؤٌ فِي أَرْضِ أُمَّكَ فُلْفُلٌ	جَمٌّ وَفُلْفُلْنَا هُنَاكَ الدَّنْدَنُ ^(٥)
فَبِحَقِّ أُمَّكَ وَهِيَ مِنْكَ حَقِيقَةٌ	بِالْبِرِّ وَاللِّطْفِ الَّذِي لَا يُخْزَنُ
لَا تُدْنِ فَاكٌ مِنَ الْأَمِيرِ وَنَحْه	حَتَّى يُدَاوِيَ مَا بِأَنْفِكَ أَهْرَنُ ^(٦)
إِنْ كَانَ لِلظَّرْبَانِ جُحْرٌ مُنْتِنٌ	فَلْجُحْرُ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ

وقال الربيع بن أبي الحقيق - وذكر الظَّربان - حين رمى قوماً بأنهم يفسون في مجالسهم، لأنَّ الظَّربان أنتن خلق الله تعالى فسوةً . وقد عَرَفَ الظَّربان ذلك فجعله من أشدَّ^(٧) سلاجه، كما عَرَفَتِ الحُبَارِي مَا فِي سُلَاحِهَا مِنَ الْآلَةِ، إذا قرب الصقر منها . والظَّربان يدخل على الضَّبِّ جُحْرَهُ وفيه حُسُولُهُ أَوْ بَيْضُهُ، فيأتي أضيق موضع في الجُحر فيسده بيديه، ويحوِّل استه فلا يفسو ثلاث فَسَوَاتٍ حَتَّى يُدَارَ بِالضَّبِّ فَيُخْرَ^(٨) سَكَرَانٌ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ، فيأكله، ثم يقيم في جُحْرِهِ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِ حُسُولِهِ .

(١) ط : «لأبوالهم المتراكمة» .

(٢) ط : «ولرياح الغار وريح هوائه» وهو كلام محرف .

(٣) ل : «مشطة امرأة» .

(٤) العروض : الناحية، والطريق في عرض الجبل في مضيق .

(٥) الدندن : ما اسود من نبات أو شجر، وأصل الصليان .

(٦) هو أهرن القس بن أعين . الفهرست 297 لبيسك، 413 مصر، والقفطي 57 وفي ط : «أهون» والصواب في ل وفيما سيأتي قريباً، وفي عيون الأخبار 4 : 62، وانظر الأغاني 2 : 424 دار الكتب، والشعر فيه محرف .

(٧) ط : «أحد» .

(٨) ط : «فيحز» وصوابه في ل وثمار القلوب 333 .

وتقول العرب: إنه ربّما دخل في خلال الهجمة فيفسو، فلا تيمّ له ثلاث فسوات حتى تتفرّق الإبل عن المبرك، تتركه وفيه فردان فلا يردها الراعي، إلا بالجهد الشديد. فقال الربيع، وهجاهم [أيضاً] بريح الثيوس:

قَلِيلٌ غَنَاؤُهُمْ فِي الْهَيَاجِ إِذَا مَا تَنَادَوْا لِأَمْرٍ شَدِيدٍ
وَأَنْتُمْ كِلَابٌ لَدَى دُورِكُمْ تَهْرُ هَرِيرَ الْعَقُورِ الرَّصُودِ⁽¹⁾
وَأَنْتُمْ ظُرَابِيٍّ إِذْ تَجْلِسُونَ وَمَا إِنْ لَنَا فِيكُمْ مِنْ نَدِيدٍ⁽²⁾
وَأَنْتُمْ تِيوسٌ وَقَدْ تُعْرِفُونَ بَرِيحَ الثِّيُوسِ وَقُبْحَ الْخُدُودِ⁽³⁾

قال: ويقال: «أفسي من الظربان» ويسمى مفرق النعم، يريدون من نثن ربح فسائه. ويقال في المثل - إذا وقع بين الرجلين شرّ فتباينا وتقاطعا -: «فسا بينهما ظربان». ويقال: «أنتن من ظربان» لأن الضب إنما يخدع⁽⁴⁾ في جحره ويوغل في سرّبه لشدة طلب الظربان له. وقال الفرزدق في ذلك.

ولو كنتُ في نارِ الجحيم لأصَبَحْتُ ظُرَابِيٍّ مِنْ حِمَّانٍ عَنِّي تَشِيرُهَا⁽⁵⁾
وكان أبو عبيدة يُسمي الحِمَّانِيَّ صَاحِبَ الْأَصَمِّ: الظربان⁽⁶⁾، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانِيٍّ⁽⁷⁾ ظُرْبَانًا. وقال ابن عبدل:

لَا تُدْنِ فَاكٌ مِنَ الْأَمِيرِ وَنَحْه حَتَّى يَدَاوِيَ مَا بَأْنَفِكَ أَهْرُنْ
إِنْ كَانَ لِلظَّرْبَانِ جُحْرٌ مُنْتِنٌ فَلَجُحْرِ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ
في شعره الذي يقول:

لَيْتَ الْأَمِيرَ أَطَاعَنِي فَشَفِيئُهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُكْفِي الْقَصِيدَ وَيُلْحَنُ
مُتَكَوِّرٌ يَحْثُو الْكَلَامَ كَأَنَّمَا بَاتَتْ مَنَاخِرُهُ بِدُهْنٍ تُعْرَنُ⁽⁸⁾
وَبَنَى لَهُمْ سَجْنًا فَكَنْتُ أَمِيرَهُمْ زَمَنًا فَأَضْرَبُ مَنْ أَشَاءُ وَأَسْجُنُ
قُلْ لَابْنِ أَكَلَةِ الْعِفَاصِ مُحَمَّدٍ إِنْ كُنْتُ مِنْ حَبِّ التَّقْرُبِ تَجِبُنُ⁽⁹⁾

(1) ط: «الصرود». (2) نديد: مثيل، وفي ط: «مزيد» وهو تحريف ما في ل وثمار القلوب.

(3) ط: «الجدود» وفي الثمار: «ونتن الجلود».

(4) خدع الضب في جحره: دخل. وفي ط: «ينخدع» وهما بمعنى.

(5) البيت في النوادر لأبي زيد 211، وفي ط: «تشير» فقط بدل «تشيرها» وليس بشيء.

(6) كذا فيل. وفي ط، ش: «يسمى الحِمَّانِي صَاحِبَ الْأَحْمِ» فقط.

(7) في الأصل «حمان» والوجه ما أثبت.

(8) كوره فتكور: صرعه فصرع؛ أو هو من تكور: سقط. ويحثو: يلقى. وفي ط: «متكوراً» محرفة. وفي ط:

«يحسو» محرفة.

(9) ل: «قد كدت من حب التعزب تختن» وهو تحريف ما في ط وما في م.

وَلَحَضْدُ أَنْفِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ
جَمٌّ وَفَلَفَلْنَا هُنَاكَ الدُّنْدِينَ
بِالْبَرِّ وَاللَّطْفِ الَّذِي لَا يُحْزَنُ⁽¹⁾
حَتَّى يُدَاوِيَ مَا بِأَنْفِكَ أَهْرُنُ
فَلَجُحْرُ أَنْفِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ⁽²⁾
وَبَنُو أَبِيهِ لِلْفَصَاحَةِ مَعْدِنُ
بَسَلِيْقَةِ الْعُرْبِ الَّتِي لَا تَحْزَنُ⁽³⁾
فَتَجِيدُ مَا عَمِلْتَ يَدَاكَ وَتَحْسِنُ
أَنْ قَدْ خُتِنْتَ وَأَنْهَا لَا تُخْتَنُ
وَفُتِنْتَ فِيهَا، وَابْنُ آدَمَ يُفْتَنُ
إِذَا ذَاكَ تَقْصِيفُ فِي الْقِيَانِ وَتَرْفُنُ
بِإِضَاءِ مُغْرَبَةٍ⁽⁶⁾ عَلَيْهَا السُّوسُنُ

كَرِيحِ الْجَعْرِ فَوْقَ عَظِيمِ جِلْدِ
كَرِيمٍ يَطْلُبُ الْمَعْرُوفَ عِنْدِي
وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيطِي وَحَمْدِي
أَكَلَّمُ صَخْرَةً فِي رَأْسِ صَمْدٍ⁽⁸⁾
فَمَا يَزْدَادُ مَنِّي غَيْرَ بُعْدِ
أَبَا بَخْرٍ⁽¹⁰⁾ لَتَتَخَمَّنَ رَدِّي
لَخَفَتَ مَلَامَتِي وَرَجَوْتَ حَمْدِي

أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضِ مَشَقَّةٍ
أَنْتَ أَمْرُؤُ فِي أَرْضِ أُمَّكَ فَلَفَلُ
فَبَحَقُّ أُمَّكَ وَهِيَ مِنْكَ حَقِيقَةٌ
لَا تُدْنِ فَاكَ مِنَ الْأَمِيرِ وَنَحْه
إِنْ كَانَ لِلظَّرِبَانِ جُحْرٌ مُنْتَنُ
فَسَلِ الْأَمِيرَ وَأَنْتَ غَيْرُ مُوَفَّقٍ
وَسَلِ ابْنَ ذَكْوَانَ تَجِدْهُ عَالِمًا
إِذَا أَنْتَ تَجْعَلُ كُلَّ يَوْمٍ عَفْصَةً⁽⁴⁾
أَشْبَهْتَ أُمَّكَ غَيْرَ بَابٍ وَاحِدٍ
فَلَمَّا أَصَبْتَ دِرَاهِمًا فَدَفَنْتَهَا
فَبِمَا⁽⁵⁾ أَرَاكَ وَأَنْتَ غَيْرُ مُدْرِهِمْ
إِذَا رَأْسُ مَالِكَ لُغْبَةٌ بِصَرِيَّةٍ
وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ أَيْضًا:

نَجَوْتُ⁽⁷⁾ مُحَمَّدًا وَدَخَانُ فِيهِ
رَكِبْتُ إِلَيْهِ فِي رَجُلٍ أَتَانِي
فَقُلْتُ لَهُ: وَلَمْ أَعْجَلْ عَلَيْهِ،
فَأَعْرَضَ مُكَمِّحًا عَنِّي كَأَنِّي
أَقْرَبُ كُلِّ آصِرَةٍ⁽⁹⁾ لِيَدْنُو
فَأَقْسِمُ غَيْرَ مُسْتَثْنٍ يَمِينًا
فَلَوْ كُنْتُ الْمَهْذَبَ مِنْ تَمِيمٍ

(1) ط: «لا يحزن» وهو تحريف.

(2) محمد هذا هو ابن حسان بن سعد كما في الأغاني 2: 412 طبع دار الكتب وعيون الأخبار 4: 62.

(3) من الحزونة وهي الصعوبة. وفي الأصل: «تخزن».

(4) ط: «غمصة».

(6) المغربة: الشديدة البياض. ط: «معربة» بالعين.

(7) ل: «فقدت» محرف، يقال نجوت فلانًا، إذا استنكته. والبيت في اللسان (نجا) بدون نسبة. والقصيدة في معجم الأدباء 10: 232-233.

(8) المكمح: من يرفع رأسه من الزهو. وفي ط: «مكفحًا» وتصحيحه من ل. والصمد: المكان المرتفع الغليظ. وفي ط: «همد» وفي ل: «ضمد» بالضاد ولا يتجه أحدهما.

(9) الآصرة: الرحم والقرابة. وفي ل: «ذي صر» وليس بشيء.

(10) البخر، بالتحريك: نتن الفم. وفي ل: «بحر» والوجه ما في ط.

نَجَوْتُ (1) محمداً فوجدتُ ريحاً
وقد ألدعتني (2) ثعبانٌ نثنٍ
وأدنى خطمه فوددتُ أنني
كما افتدت المعادة من جواه (4)
وفارقها جواه فاستراحتُ
وقد أدنيتُ فاه إليّ حتّى
وما يدنو إليّ فيه دُبابٌ
يذقن حلاوةً ويخفن موتاً
فلما فاح فوه عليّ فوحاً
فقلت له: تنحّ بفيك عني
وما هذا بريح طلاً ولكن
فحدثنني فإنّ الصّدق أدنى
أبات يجولُ في عَفَجٍ طحور
[نكهت عليّ نكهةً أخدريّ
فإن أهديت لي من فيك حتفي
لكم شُرداً يَسِرْنَ مغنّياتٍ
أما تخزي خزيت لها إذا ما
لأرجو إن نجوت ولم يُصبني

كريح الكلب مات قريب عهدٍ
سيبلغ إن سلّمنا أهلَ نجدٍ
قرئتُ (3) ذنوه مني ببُعدٍ
بخلعتها ولم ترجع برُندٍ
وكانت عنده كأسيرٍ قد (5)
قتلتُ بذاك نفسي غيرَ عمدٍ
ولو طليت مشافره بقُند (6)
زعافاً إن همّمن له بورد (7)
بمثل غثيثة الدبر المغد (8)
فما هذا بريح قنار رند (9)
يفوخ خراك منه غير سرّد (10)
لباب الحق من كذب وجحدٍ
فاعلم أم أتاكَ به مُغدّي (11)
شتيم أعصل الأنياب ورّد
فإنني كالذي أهديت أهدى (12)
تكون فنوئها من كل فنّد (13)
روّاه الناس من شيب ومُرد (14)
جوى إنني إذن لسعيد جدّ

(1) ما عدا ل: «نحوت» بالحاء، وهو تحريف. وانظر ما سبق وكذا المخصص 11: 209 واللسان (جلد، نجا).

(2) ط: «لذعتني».

(4) ط: كما افتدت المعادن من جواه.

(5) هذا البيت في الأصول متأخر عن البيت الذي بعده، وقد قدمت موضعه ليستقيم الشعر.

(6) القند: غسل قصب السكر إذا جمّد. معرب.

(7) الزعاف والذعاف: السم القاتل. وفي ل: «ذعافاً» وفيهما كذلك «يرين حلاوة».

(8) الغثيثة: القبيح. والمغد: المصاب بالطاعون. وفي ط: «المغد» وهو تحريف.

(9) الرند: نبت طيب الرائحة. وفي ل: «وقلت له...» وفي ط: «بعيد عني» وتصحيحه من ل.

(10) الطلاء، بالكسر: الخمر. وفي ط: «فيه غير سرّد».

(11) العفج: ما ينتقل إليه الطعام المعد. والطحور: السريع وفي ط:

أبت تجول في عفج طحون فاعلم إذا أتاكَ به معدي

(كذا)

(12) ل: «مهد».

(13) الفند، بالكسر: النوع. وفي ط: «قند» ولا وجه له.

(14) ط: «خزيت له إذا ما» والوجه ما في ل. ل: «رأها الناس» والوجه ما في ط.

وقلت له : متى استطرفت هذا
فقلت له : أما داويت هذا
فقال : أما علمت له رقاء
فقلت له : ولا آله عيا
عليك بقيئة وبجعر كلب
وجللتيت وكُرَّاثٍ وثُوم
وحنجره ابن آوى وابن عرس
وكفَّ ذُرْحُح⁽⁷⁾ ولسان صقر
يُدَقُّ ويُعَجَّن المنخول منه
وتدْفِنُه زماناً في شعير
فدَحْن فاك ما عتقت منه
فإن حَضَرَ الشتاء وأنت حي ،
فدَحْرِجْها بنادق وازدردْها
فتقذِف بالمَصَل على مَصَل
وويلك ما لبَطْنِكَ مذْقَعَدْنَا
فإنَّ لحَكَّة الناسور عندي
يُميت الدودَ عنكَ وتشتْهيهِ

فقال أصابني من جوف مهدي
فتعذر فيه آمالاً بجَهْد⁽¹⁾
فتسديهِ لنا فيما سئسدي⁽²⁾
له فيما أسرُّ له وأبدي⁽³⁾
ومثلى ذاك من نون كنعدي⁽⁴⁾
وعودى حَرْمَلٍ ودِمَاغ فَهْد⁽⁵⁾
ووزن شعيرة من بَزْر فَقْد⁽⁶⁾
ومثقالين من صَوَان رَقْد⁽⁸⁾
ببول آجن وبجعر قرد
وترقبه فلا يَبْدُو لَبْرْد⁽⁹⁾
ولا يعجن بأظفار ونَدَّ⁽¹⁰⁾
أراك اللُّهُ عَيِّكَ أَمَر رَشْد⁽¹¹⁾
متى رُمْتَ التكلُّم أي زَرْد
ببلعوم وشَدَقٍ مُسْمَعِد⁽¹²⁾
كأن دويِّه إِرْزام رَعْد⁽¹³⁾
دواء إن صبرت له سيَّجدي
إن أنت سَنَنْتَه سنَّ المَقْدِي⁽¹⁴⁾

(1) كذا .

(2) في الأصل : «تدي» ولا يستقيم بها القول .

(3) هذا البيت والأبيات الأربعة السابقة له ، ساقطة من ل . وفي البيت كلمة «عيا» وهي محرفة .

(4) كذا في ل . وفي ط : «من لون كعقدي»

(5) ط : «وحنثيت» والصواب باللام كما في ل .

(6) في القاموس : «الفقد نبات» ولم يفسره . وفي ل : «فقد» بتقديم القاف وهو تصحيف . وفي ط : «وحنجره ابن آوى ثم دفلى» .

(7) الذرحح : دويبة حمراء منقطة بسواد ، تطير ، وهي من السموم . وهي في ط : «زرحح» ول : «ذرائح» محرفتان . وفي ط : «ومثالين» محرف «ومثقالين» .

(8) رقد : جبل تنحت منه الأرحية ، كما في القاموس . وفي معجم البلدان اختلاف فيه وفي ط : «رقد» محرفة .

(9) في الأصل : «وترميه فلا يبدو لبرد» وكتبت بدلها «ترفيه» ليتجه القول .

(10) ل : «ولا تعجن بأظفار وسعد» صوابه في ط . والأظفار والتد : ضربان من الطيب .

(11) كذا في ل . وفي ط : «أزال الله عنك أمور رشد» .

(12) مصل : له صليل كثير . والمسمعد : المنتفخ وربما ، ومثله المصمغد والمسمغد . وفي ل : «مصمغد» .

(13) ط : «كأن رويه» وهو تحريف .

(14) السن : الصب في سهولة . والمقدي : ضرب من الشراب غليظ ، وفي ل : «المعد» وفي ط «المقد» محرفتان .

به، وليتّه بأصولٍ دُفليّ وشيءٍ من جنّى لَصَفٍ ورند⁽¹⁾
أظنني ميتاً من نثن فيه أهان الله من ناجاه بعدي
(أشعار العرب في هجاء الكلب)

وقال صاحب الديك: سنذكر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرداً على وجهه، ثم نذكر ما دُثِّموا من خلاله وأصناف أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكر هجائه في الجملة. قال بشار بن بُرد:

عددت سويداً إذ فخرت وتولباً وللكلب خير من سويد وتولب
وقال بشار أو غيره:

أتذكر إذ ترعى على الحي شاءهم وأنت شريك الكلب في كل مطعم
وتلحس ما في القعب من فضل سوره وقد عاث فيه باليدين وبالضم
[وقال ابن الذبابة:

من يجمع المال ولا يثب به⁽²⁾ ويترك المال لعمام جذبه
يهن على الناس هوان كلبه]
وقال آخر:

إن شريبي لا يغب بوجهه كلومي كأن كلباً يهارش أكلباً⁽³⁾
ولا أقسم الأعطان⁽⁴⁾ بيني وبينه ولا أتوقاه وإن كان مجرباً
وهجا [أبو] الأحوص ابناً له فشبهه بجرو فقل:

أبيع به من ولد وأشقح مثل جري⁽⁵⁾ الكلب لم يفتقح
إن ير سوءاً ما يقيم فينب⁽⁶⁾ بالباب عند حاجة المستفتح⁽⁷⁾
وقال أبو حزابة⁽⁸⁾:

(1) الدفلي: نبت مرقتال زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب. واللفظ: نبت ورقة كورق لسان الحمل أو أدق. والرند: نبت طيب الرائحة. وفي ط «سعدي» موضع «دفلي» وهو تحريف، و«نصف» موضع «لصف» وهو تحريف أيضاً. وفي ل: «زبد» وليس بشيء.

(2) كذا في عيون الأخبار 1: 243. وفي ل: «يثبه» وهو تحريف إملائي. وفي البخلاء 155: «يثبته» وليس بشيء. وانظرهما.

(3) ط: «إن شراي لا تغيب بوجهه كلوم» وهو قول محرف صوابه في ل.

(4) كذا في ل وهو الصواب، وفي ط: «الأعكان» (5) جرى: مصغر جرو. وفي ل: «جريء».

(6) ط: «إن ير سوءاً لم يقيم فينب». (7) ط: خلقة المستفتح.

(8) كذا في ل وهو الصواب، وفي ط: «أبو خدانة». وأبو حزابة هو الوليد بن حنيفة، أحد بني ربيعة بن حنظلة، شاعر من شعراء الدولة الأموية. بدوي حضر وسكن البصرة ثم اكتب في الديوان وضرب عليه البعث إلى سجستان فكان بها مدة وعاد إلى البصرة وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك. قال أبو الفرج: وأظنه قتل معه. وكان شاعراً راجزاً فصيحاً خبيث اللسان هجاء. انظر الأغاني 10: 152-156 والمشتبه للذهبي 160 ليدن وتاج العروس (حزب).

يَابْنَ عَلِيَّ بَرَحَ الْخَفَاءِ أَنْتَ لَغَيْرِ طَلْحَةَ الْفِدَاءِ⁽¹⁾
 قَدْ عَلِمَ الْأَشْرَافُ وَالْأَكْفَاءُ أَنْتَ أَنْتَ النَّاقِصُ اللَّفَاءِ⁽²⁾
 حَبَلُكَ جَدَّعَهُ الرَّعَاءُ⁽³⁾ يَغْمُهُ الْمِئْزَرُ وَالرَّدَاءُ
 بَنُو عَلِيٍّ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ كَأَنَّهُمْ زِينَةُ جِرَاءِ⁽⁴⁾
 وقال عبدُ بني الحَسْحَاسِ، وَذَكَرَ قُبْحَ وَجْهِهِ [فَقَالَ]:

أَتَيْتُ نِسَاءَ الْحَارِثِيِّينَ غُدُوَّةً بِوَجْهِ بَرَاهُ اللَّهْ غَيْرِ جَمِيلِ⁽⁵⁾
 فَشَبَّهَنِي كَلْباً وَلَسْتُ بِفَوْقِهِ وَلَا دُونَهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ قَلِيلِ
 وقال أَبُو ذُبَابِ السَّعْدِيِّ⁽⁶⁾ فِي هَوَانِ الْكَلْبِ:

لِكِسْرَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ تَمِيمٍ لِيَالِي فَرَّ مِنْ أَرْضِ الضَّبَابِ
 وَأَسْكَنَ أَهْلَهُ بِبِلَادِ رَيْفٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ عَذَابِ
 فَصَارَ بَنُو بَنِيهِ لَهَا مُلُوكاً وَصَرْنَا نَحْنُ أَمْثَالُ الْكِلَابِ
 فَلَا رَحِمَ الْإِلَهِ صَدَى تَمِيمٍ فَقَدْ أَرَى بِنَا فِي كُلِّ بَابِ
 وَأَرَادَ اللَّعِينُ⁽⁷⁾ هَجَاءَ جَرِيرٍ - وَجَرِيرٌ مِنْ بَنِي كَلِيبٍ - فَاشْتَقَّ هَجَاءَهُ مِنْ نَسَبِهِ فَقَالَ:

سَأُقْضِي بَيْنَ كَلْبِ بَنِي كَلِيبٍ وَبَيْنَ الْقَيْنِ قَيْنِ بَنِي عِقَالِ
 فَإِنَّ الْكَلْبَ مَطْعَمُهُ خَبِيثٌ وَإِنَّ الْقَيْنَ يَعْمَلُ فِي سَفَالِ
 كِلَا الْعَبِيدِينَ - قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ لَيْمٍ الْأَصْلَ مِنْ عَمٍّ وَخَالِ
 فَمَا بَقِيََا عَلَيَّ تَرْكُثْمَانِي وَلَكِنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النَّبَالِ

(1) الفداء هنا بمعنى البدل . وفي ل: «أنت لقبر طلحة الفداء» وفي الأغاني 19: 153: «أنت لعين طلحة الفداء» . وابن علي هذا هو عبد الله بن علي بن عدي ولي سجستان بعد طلحة . وطلحة هذا هو ابن عبد الله بن خلف، الذي يقال له: طلحة الطلحات، وكان والياً على سجستان قبل عبد الله بن علي . وكان طلحة يحبو ابن خُزابة، وكان عبد الله شحيحاً ممسكاً .

(2) اللفاء، كسحاب: الخسيس الحقيق . وفي ل: «اللقاء» وهو تحريف .

(3) الحبلق: غنم صغار لا تكبر أو قصار المعز ودماهمها . وفي ط: «الدعاء» موضع «الرعاء» وهو تحريف .

(4) الزينية: كلاب قصيرة القوائم . وفي الأغاني «بنو عدي» . . إلخ .

(5) كذا في ل وعبون الأخبار 4: 35 بمعنى خلقه غير جميل . وفي ط: «يراه الله» .

(6) أبو ذباب السعدي: صحابي شاعر، من سعد العشيرة . له في إسلامه خبر طريف، وهو ممن عرف بكنته فقط، ترجم له ابن حجر في الإصابة أول قسم الذال من باب الكنى وهو في ط: «ابن دب» وفي ل: «ابن دواب» . ولعل صوابهما ما أثبت . والأبيات أعادها الجاحظ في الحيوان 6: 64 ونسبها في الحنين إلى الأوطان إلى الفرزدق .

(7) هو منازل بن زمعة المنقري، من بني منقر . وكان ممن قضى بين جرير والفرزدق فأصابه الشر . قال ابن قتيبة: وكان اللعين هجاء للأضياف قال:

وليس أبغض ما بي جل مأكله إلا تنفجه عندي إذا قعدا
 ما زال ينفج كتفيه وحبوته حتى أقول لعل الضيف قد ولدا

وقال رجلٌ من همدان، يقال له الضَّحَّاك بن سعد⁽¹⁾، يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقَّ له اسماً من الكلب فجعله كلباً فقال:

لَجَّ الْفِرَارُ بِمَرْوَانَ فَقُلْتُ لَهُ عَادَ الظُّلُومَ ظَلِيماً هُمُ الْهَرَبُ⁽²⁾
أَيْنَ الْفِرَارُ وَتَرَكُ الْمَلِكُ إِنِ قَبِلْتُ مِنْكَ الْهُوَيْنَى فَلَا دِينَ وَلَا أَدَبُ⁽³⁾
فَرَأَشَةَ الْحِلْمِ فِرْعَوْنَ الْعَذَابِ، وَإِنْ يُطْلَبُ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلْبُ
وقال آخر وجعل الكلب مثلاً في اللُّوم:

سَرَتْ مَا سَرَتْ مِنْ لَيْلِهَا ثُمَّ عَرَسَتْ عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرَجِ الْأُمِّ مِنْ كَلْبٍ
وكذلك قول الأسود بن المنذر⁽⁴⁾، فإنه قال:

فَإِنْ أَمَرَأَ أَنْتُمْ حَوْلَهُ تَحْمُقُونَ قُبَّتَهُ بِالْقَبَابِ⁽⁵⁾
يُهَيِّنُ سَرَاتِكُمْ جَاهِداً وَيَقْتُلُكُمْ مِثْلَ قَتْلِ الْكَلَابِ
وقال سحيمة بن نعيم:

أَلَسْتَ كَلِيباً لَكَلْبٍ وَكَلْبَةً لَهَا عِنْدَ أَطْنَابِ الْبُيُوتِ هَرِيرُ
وقال النَّجْرَانِيُّ فِي ذَلِكَ:

مِنْ مَنْزِلِي قَدْ أَخْرَجْتَنِي زَوْجَتِي تَهَرُّ فِي وَجْهِي هَرِيرِ الْكَلْبَةِ
زُوجْتُهَا فَقِيرَةٌ مِنْ حِرْفَتِي قُلْتُ لَهَا لَمَّا أَرَاكَتْ جَرْتِي
أُمُّ هَلَالٍ أَبْشِرِي بِالْحَسْرَةِ وَأَبْشِرِي مِنْكَ بِقُرْبِ الضَّرَةِ

(الفلحس والأرشم)

ويقال للكلب «فلحس»، وهو من صفات الحرص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأل من فلحس». وفلحس: رجلٌ من بني شيبان⁽⁶⁾ كان حريصاً رغبياً، ومُلِحِفاً مُلِحاً. وكلُّ طُفَيْلِيٍّ فهو عندهم فُلْحَسٌ.

(1) نسبه العسكري في ديوان المعاني 1: 196 إلى سعيد بن العاصي.

(2) ط: «عاد الظليم ظلماً». والظليم: الذكر من النعام.

(3) ديوان المعاني: «إذا كشفت عنك». الطبري 9: 131: «إذا ذهبت عنك».

(4) في الأغاني 19: 130 نسبة البيت إلى لقيط بن زُرارة يعير بني مالك بن حنظلة في أخذ عمرو بن هند لهم وقتله كثيراً منهم.

(5) في عيون الأخبار 1: 192 «بأن»، وقبله:

فأبلغ لديك أبا مالك على نأيها وسراة الرباب

(6) ط: «من ابني شيبان». وانظر أمثال الميداني (1: 317).

والأرشم: ^(١) الكلب والذئب، وقد اشتق منه للإنسان إذا كان يتشمم الطعام ويتبع مواضعه. قال جرير في بعضهم:

لَقِيَ حَمَلْتَهُ أُمُّهُ وَهِيَ ضَيْفَةٌ فَجَاءَتْ بِثَنٍ لِلضَّيْفَةِ أَرْشَمًا ^(٢)
وَقَالَ جَرِيرٌ فِي اسْتِرَاحِ الطَّعَامِ ^(٣):

وَبَنُو الْهُجَيْمِ سَخِيفَةٌ أَحْلَامُهُمْ تُطُّ اللَّحَى مُتَشَابِهُهُو الْأَلْوَانِ
لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ بَعْمَانٍ أَضْحَى جَمْعُهُمْ بَعْمَانِ
مَتَابُطِينَ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ صُعَرَ الْخُدُودِ لَرِيحِ كُلِّ دُخَانٍ ^(٤)
وَقَالَ سَهُمٌ بْنُ حَنْظَلَةَ الْغَنَوِيِّ فِي ذَلِكَ:

وَأَمَّا كِلَابٌ فَمِثْلُ الْكِلا بَ لَا يُحْسِنُ الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرًا
وَأَمَّا نُمَيْرٌ فَمِثْلُ الْبِغَا لَ أَشْبَهْنَ أَبَاءَهُنَّ الْحَمِيرَا ^(٥)
وَأَمَّا هَلَالٌ فَعَطَّارَةٌ تَبِيعَ كِبَاءً وَعِطَّرَا كَثِيرًا ^(٦)

(بين جرير والراعي)

ومرَّ جرير يوماً بالمرَبَد، فوقف عليه الراعي وابنه جندل، فقال له ابنه جندل: إنَّه قد طال وقوفك على هذا الكلب الكليبي، فالى متى؟! وضرب بغلته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير: واللَّه لأثقلنَّ رواحلك! فلما أمسى أخذ في هجائه، فلم يأتِه ما يريد، فلما كان مع الصبح انفتح له القول فقال:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا
وَلَوْ جُعِلَتْ فِقَاحُ بَنِي نُمَيْرٍ عَلَى خَبَثِ الْحَدِيدِ إِذَا لَذَابَا

ثم وقف في موقفه، فلما مرَّ به جندل قبض على عنان فرسه، فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت:

(١) ل: «الأرسم» وهو تصحيف. والأرشم: الذي يتشمم الطعام ويحرص عليه.

(٢) ل: «أرسمًا» مصحف. وفي ط: «متى» محرفًا. والبيت على الصواب في اللسان (ضيف، رشم، يتن) وأدب الكاتب لابن قتيبة 127 والاقطصاب 346، وقد نسب في كل تلك إلى البعيث. ابن منظور (رشم): قال ابن سيده: وأنشد أبو عبيد هذا البيت لجرير. قال: وهو غلط.

(٣) الأبيات في البيان 3: 320 وعيون الأخبار 3: 225.

(٤) البيت ساقط من ل.

(٥) يتندى هذا البيت والذي قبله في ل، بكلمة «فأما» مع الفصل بين البيتين بكلمة «وقال» وفي ط: «وأما تميم فمثل البغال».

(٦) الكباء ككتاب: عود البخور أو ضرب منه. وبذله في ل «ملابا» وهو كسحاب عطر أو الزعفران. والشعر في كتاب البغال 343.

أَجْنَدُلُ مَا تَقُولُ بَنُو نَمِيرٍ إِذَا مَا الْأَيْرُ فِي اسْتِ أَبِيكَ غَابَا
قال: فأدبَر وهو يقول: يقولون واللَّه شراً^(١). وقال الشاعر - وضرب بالكلب المثل في
فُجَح الوجه:

سَفَرْتُ فَقُلْتُ لَهَا هَجٍ فَتَبَرَّقَعَتْ فَذَكَرْتُ حِينَ تَبَرَّقَعَتْ ضَبَّاراً^(٢)
وضَبَّار: اسم كلب له^(٣).

(أمثال في الكلاب)

وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفراً: إِنَّ لِكُلِّ رُقْفَةٍ كَلْبًا، فَلَا تَكُنْ كَلْبُ أَصْحَابِكَ.
وتقول العرب: «أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ كَلْبُهُمُ الظَّاعِنُ»^(٤). ومن الأمثال: «وَقَعَ الْكَلْبُ عَلَى
الدُّبِّ لِيَأْخُذَ مِنْهُ [مثل] مَا أَخَذَ». ومن أمثالهم: «الكلاب على البقر»^(٥). ومن أمثالهم في
الشؤم قولهم: «على أهلها دَلَّتْ بَرَأَقِشُ». وبراقيش: كلبه قوم نبحت على جيش مرؤا ليلاً وهم
لا يشعرون بالحي، فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها. قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ سَيِّدَ آلِ ثَوْرٍ نُبَاتَةَ عَضِّهِ كَلْبٌ فَمَاتَا^(٦)

(قتيل الكبش و قتيل العنز)

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناس بكل شيء، وقد قال عبد الملك بن مروان: ألا
تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبض ولا نبض^(٧).
وقال عرفة بن شريك يهجو أسلم بن زُرْعَةَ - ووطئت أباه عتُرَ بالمربد فمات - فقال:

وَلَمْ أَسْتَطِعْ إِذْ بَانَ^(٨) مَنِّي مَعْشَرِي مَكَانَ قَتِيلِ الْعَنْزِ أَنْ أَتَكَلَّمَا

فِيَابَنَ قَتِيلِ الْعَنْزِ هَلْ أَنْتَ ثَائِرٌ بِزُرْعَةَ تَيْسًا فِي الزَّرِيْبَةِ أَزْنَمَا^(٩)

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى^(١٠):

(١) سقط الكلام في ل من «ثم وقف» إلى هنا.

(٢) في الصحاح: «هج مخفف زجر للكلب، يسكن وينون» وأنشد البيت في (هجع وهجر) برواية «هبأرا»، وكذلك في
اللسان (هجر) ولكن في (هجع وضجر): «ضباراً» كما في 12: 2 من الحيوان

(٣) ل: «لهم».

(٤) في عيون الأخبار 81: 2: «الكلب أحب أهله إليه الظاعن». وانظر أمثال الميداني 1: 183 والتمثيل والمحاضرة 355

(٥) في الأصل: «الكلاب كل البقر» والمثل معروف. ولصاحب القاموس، وكذلك للدميري في حياة الحيوان كلام
كثير فيه. وانظر المزهر 65: 1.

(٦) ط: أَلَمْ تَرَ أَنَّ سَيِّدَ آلِ ثَوْرٍ بِنَابِهِ عَضُّهُ كَلْبٌ فَمَاتَا

(٧) في القاموس: ما به حبض ولا نبض: حراك. (٨) ط: «بات» وهو تحريف ما في ل.

(٩) الأزمن: ذو الزنمة، وهي هنة معلقة في حلقه تحت اللحية. وفي ط «أزما».

(١٠) أبو الهول الحميري شاعر مقل له شعر يبلغ خمسين ورقة. ابن النديم في الفهرست 163 ليبسك و232 مصر. وفي
ط «أبو الغول» محرفاً. والشعر في العمدة 40: 1 والبيان 3: 351 واسمه عامر بن عبد الرحمن. تاريخ بغداد 6682
والشعر منسوب لإسماعيل بن بشر اللاحق في الأوراق للصولي أخبار الشعراء ص 73.

أصبحت محتاجاً إلى الضرب في طلب العُزف إلى الكلب
 قد وقَّح السَّبُّ له وجهه فصار لا ينحاش للسَّب
 إذا شكَّا صبَّ إليه الهوى قال له مالي وللصب
 أعني فتى يطعن في دينه يشبُّ معه خشب الصُّلب⁽¹⁾
 قال: وقلت لأبي عبدة: أليس بُقِع الكلاب أمثلاً؟ قال: لا. قلت: ولم قال:
 وخفت هجاءهم لما تَوَاصَوْا كخوف الذئب من بُقِع الكلاب⁽²⁾؟
 قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

كخوف الذئب من سود الكلاب

ألا ترى أنه حين أراد الهجاء قال:
 كأنك بالمبارك بعد شهر كأنت على ذلك قول الجدلي⁽⁴⁾:
 تَخوضُ غَموره بُقِع الكلاب⁽³⁾ ويدل على ذلك قول الجودي⁽⁴⁾:
 لعمري لجو من جواء سويقة أسافله ميث وأعلاه أجرع
 أحب إلينا أن نجاور أهله ويصبح منا وهو مرأى ومسمع
 من الجوسق الملعون بالرِّي لا يني على رأسه داعي المنية يلمع
 يقولون لي: صبراً فقلت: لطالما صبرت ولكن لا أرى الصبر ينفع
 فليت عطائي كان قسماً بينهم وكان لي الصمان والحزن أجمع⁽⁵⁾
 وكان لهم أجري هنيئاً وأصبحت بي البازل الكوماء بالرميل تضبع
 أجعل نفسي عدل علج كأنما يموت به كلب إذا مات أبقع
 قال: فقد بين كما ترى أن الأبقع شرها.

قال: وقلت: فلم قال الشاعر:

أرسلت أسداً على بُقِع الكلاب فقد أمسى شريدهم في الأرض فلألا⁽⁶⁾

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغر شأن من هزموا فقد صغر شأن

(1) ل: «... دبره يشب منه» وهو تحريف.

(2) ل: «وخفت هجينهم».

(3) المبارك: اسم نهر بالبصرة احتفراه خالد بن عبد الله القسري لهشام بن عبد الملك. وفي ط: «بالمنازل» وهو تحريف. والغمر: جمع غمر، وهو الماء الكثير. وفي ط: «غمورة» وفي ل: «عموره» وصوابهما ما أثبت. وانظر معجم البلدان رسم (المبارك). والبيت فيه للفرزدق، وقد أعاده الجاحظ في 2: 46.

(4) نسبه ياقوت إلى الغطمش الضبي في رسم (الجوسق).

(5) ط: «وكان لي الكتمان».

(6) في اللسان: وهم قوم فل: منهزمون، والجمع فلول وفلال. ولأخفش في هذه الكلمة بحث جيد في اللسان.

الممدوح . بل إِنَّمَا قال : «أرسلت أسداً على سود الكلاب» . قال : وإِنَّمَا جاء الحديث في قتل سُود الكلاب ، لأنَّ عُقْرَهَا أَكْثَرُ ما تكون سوداً ، وذلك من غلبة أنفسها . وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحمّارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسان ، إلّا والسُّودُ أَشَدُّها أَسْراً وَعَصَباً⁽¹⁾ ، وأظهرها قُوَّةً وصَبْراً .

وقال أبو سعد المخزومي⁽²⁾ في هجائه دعبلاً :

يا ثابِتَ بن أبي سعيدٍ إنّها دُولٌ وأخِرُ بها بأنّ تننَقِّلا
هلاً جعلت لها كحُزْمَةِ دُعْبِلٍ في است [أم] كلبٍ لا يساوي دُعْبِلا
[وقال ابن نوفل] :

وجئت على قُصواءٍ تنقلُ سوءَ إلينا وكم من سوءٍ لاتهابها⁽³⁾
وتزعّم أن لم تخز سلّمُ بن جندلٍ وقد خزيت بعد الرّجال كلابها⁽⁴⁾
وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفر بن يحيى :

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه قفا مالك يقضي الهموم على بئق⁽⁵⁾
وأعظم زهواً من ذباب على خرا⁽⁶⁾ وأبخل من كلبٍ عَقُورٍ على عَرَقٍ
وقال أبو السَّمَقِق :

أهلُ جودٍ ونائلٍ وفَعالٍ غلبوا الناسَ بالنّدى والعطيّة
جئته زائراً فأدنى مكاني وتلقّى بمَرْحَبٍ وتحية
لا كمثّل الأصم حارثة اللؤ م شبيه الكليبة القلطيّة
جئته زائراً فأعرض عني مثل إعراض قحبة سُوسيّة⁽⁷⁾
وتولّى كأنه أبر بغلٍ غاب في دُبرِ بغلةٍ مصريّة
وقال أيضاً :

ألا قُولا لسرّان المخازي ووجه الكلب والتّيسِ الضّروط⁽⁸⁾

(1) في الأصل : «شرا وعصيا» . وانظر 2 : 47 .

(2) أبو سعد المخزومي ممن عرف بكنيته ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية . وقد عاصر دعبلاً وله معه مهاجاة وإقذاع . وقد نعته الجاحظ في البيان 3 : 147 بأنه دعى بني مخزوم . وفي ط : «أبو سعيد» والصواب ما في ل . ويؤيد ذلك قول ابن أبي الشيص فيه (الأغاني 18 : 54) :

أنا بشرت أبا سـ مد فأعطاني البشارة

وقول دعبل :

إن أبا سعد فتى شاعر يعرف بالكنية لا الوالد

(3) ط : «جنب على قُصواء» وهو تحريف . (4) ل : «سلمى بن جندل» وهو تحريف .

(5) ط : «تنق» . وانظر الشعراء 790 وما سبق في ص 172 (6) ل : «خر» .

(7) ط : «سرسية» . (8) ط : «ألا قولاً لشران» .

له بطنٌ يَضُلُّ الفيلُ فيه وأَيْرٌ عارمٌ لا خيرَ فيه
 ولحيَةٌ حائِكٌ من باب قلب⁽³⁾ له وجهٌ عليه الفقرُ بادٍ
 إِذَا نَهَضَ الْكَرَامُ إِلَى الْمَعَالِي وقال أيضاً في ذلك :

يا رازقَ الكلبِ والخنزيرِ في سعةٍ ولو شئتَ صَيَّرْتَهُ في حالٍ فاقتَه
 والطيرُ والوحشُ في يهماءٍ دَوِيَّةٍ⁽⁵⁾ وقال جرير بن عطية، يهجو الصَّلَتَانِ العبدَيَّ⁽⁷⁾ :
 حتى تُقَرَّ بتلك الحالِ عينيه⁽⁶⁾

أقول لها والدَّمعُ يغسلُ كحلَّها متى كان حكمُ اللَّهِ في كَرَبِ النخلِ
 فأجابه الصَّلَتَانُ فقال : تُعَيِّرُنَا أَنْ كَانَتِ النَّخْلُ مَا لَنَا
 وودَّ أبوك الكلبُ لو كان ذا نَخْلٍ يعيِّره جريراً بأنَّه كان هو وأبوه من أصحابِ النَّخْلِ⁽⁸⁾ .
 وقال وضاحُ اليمَن :

وأكتم السَّرَّ غَضَبَاناً وفي سكري وأتركُ القولَ عَنْ عِلْمٍ وَمَقْدِرَةٍ
 حتى يكون له وجهٌ ومستمِعٌ حتى يكون لَذَاكَ النَّجْدُ مُطْلَعٌ⁽⁹⁾
 يبِيتُ يأوي إليه الكلبُ والرُّبْعُ لا تُؤْتِي قُوَّةُ الرَّاعِي رُكَّائِبَهُ
 حتَّى يَثُوبَ وباقِي نَعْلِهِ قَطْعٌ⁽¹¹⁾ ولا العسيفِ الذي تشتدُّ عُقْبَتُهُ

- (1) الراقود: دن كبير أو طويل الأسفل يسيع داخله بالقار. والنشوط: سمك يمقر في ماء وملح.
 (2) عارم، من يوم عارم: نهاية في البرد. والروط بالضم: النهر، معرب. وبتق النهر: كسر شطه لينبتق الماء. وفي ل: «زوط» وليس بشيء.
 (3) ل: «قلبا».
 (4) ط: «بغوط» وقد كتب هذا البيت تالياً الذي بعده في ط، ورددته إلى موضعه سابقاً له كما في ل.
 (5) ط: «في يهما روية»، وهو تصحيف. وفي ل: «من سعة». (6) ل: «حتى يقر».
 (7) ل: «قال الصلتان العبدان يهجو جريراً» وهو خطأ صوابه في ط، وفي الخزانة 2: 155، والشعراء لابن قتيبة 478
 (8) ل: «يعير جريراً وأباه بأنهما كانا أصحاب نخل»، وهو خطأ انظر له المراجع السابقة.
 (9) ط: «حتى يكون بذاك».
 (10) الربع: ولد الناقة في الربيع، وفي ط: «الولع» وصوابه في ل، وفي الحماسة 1: 261، والشعر في الحماسة غير منسوب.
 (11) العسيف: العبد أو الأجير. وعقبته: مرفوع على الفاعل، أو منصوب على الظرف (برواية: يشتد) أي وقت عقبته، والعقبة من المعاقبة وهي النوبة. وفي ط: «وباقى فعله» وتصحيحه من ل، ومن الحماسة. وانظر التبريزي (97: 2).

وقال محمد بن عبّاد الكاتب مولى بجيلة، وأبوه⁽¹⁾ من سبي دابق وكاتب زهير، وصديق ثمامة، يهجو أبا سعد⁽²⁾ دعيّ بني مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي:

فَعَلْتُ نَزَارُ بِكَ الَّذِي اسـ تَأَهَّلْتَهُ نَفِيًّا وَضَرَبَا
فَهَجَوْتُ قَحْطَانًا لِأَهـ جُوهَم مَكَايِدَةً وَإِرْبَا⁽³⁾
وَأُرِدْتُ كَيْمَا تَشْتَفِي بِهِجَائِهِمْ مِنْهُمْ فَتَرَبَا
وَوَثَّقْتُ أَنَّكَ مَا سَبَبـ تَ، حَمَاكَ لَوْ مُكَّ أَنْ تُسَبَّأ
كَالْكَلْبِ إِنْ يَنْبَحُ فَلِيـ سَ جَوَابِهِ إِلَّا أَخْسَ كَلْبَا⁽⁴⁾
خَفَضَ عَلَيْكَ وَقَرَّمَكَ نَكَ لَا تَطْفُ شَرْقًا وَغَرْبًا
وَكَشِفَ قِنَاعَ أَبِيكَ فَالـ أَبَاءُ لَيْسَ تُنَالُ غَضْبَا
وقال آخر يصف كلباً:

وَلَدُّ كَطْعَمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ
وَمُبْدٍ لِي الشَّحْنَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ دَعَوْتُ وَقَدْ طَالَ السُّرَى فِدْعَانِي
فوصفه كما ترى أنّه يبدي له البغضاء.
وقال آخر:

سَرْتُ مَا سَرْتُ مِنْ لَيْلِهَا ثُمَّ عَرَسْتُ عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرْجِ أَلَامٌ مِنْ كَلْبِ
وقال راشد بن شهاب اليشكري:

فَلَسْتُ إِذَا هَبَّتْ شَمَالٌ عَرِيَّةً بِكَلْبٍ عَلَى لَحْمِ الْجَزْوِرِ وَلَا بَرَمٍ
وقال كثير بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلًا من نعال الكرام⁽⁵⁾:

إِذَا طَرَحْتُ لَمْ يَطْبِ الْكَلْبَ رِيحُهَا وَإِنْ وُضِعَتْ فِي مَجْلِسِ الْقَوْمِ شُمَّتِ

وقال اللعين في بعض أضيافه⁽⁶⁾، يخبر أنّه قراه لحم كلب. وقد قال ابن الأعرابي: إنّما وصف تيساً:

(1) كلمة «وأبوه» ساقطة من ل: والصواب إثباتها كما في الأغاني 6: 14، وانظر البيان 1: 44، وفي ط: «من سبي وابق» وتصحيحه من ل. ومن البيان

(2) ط: «أبو سعيد» وهو تحريف نبهت عليه ص 189.

(3) ل: «لأهجوكم». ط: «مكابرة وإربا». (4) ل: «كالكلب».

(5) للبغدادى كلام في البيت الآتي. الخزانة 4: 147 بولاق. وهو مع بيتين سابقين له في البيان 3: 109، ولبشار مثل هذا المعنى إذ يقول:

إِذَا وَضِعَتْ فِي مَجْلِسِ الْقَوْمِ نَعْلُهَا تَضُوعُ مَسْكَا مَا أَصَابَتْ وَعَنْبَرَا
وروايته في اللسان (نعل): «له نعل»، وقال: «حرك الحلق لانفتاح ما قبله».

(6) انظر ترجمة اللعين ص 184.

فقلتُ لَعَبْدِي أَقْتُلَا دَاءَ بَطْنِهِ وَأَعْفَاجِهِ اللَّائِي لَهُنَّ زَوَائِدُ^(١)
 فجاءَ بِخِرْشَاوَى شَعِيرٍ عَلَيْهِمَا كَرَادِيْسُ مِنْ أَوْصَالٍ أَعْقَدَ سَافِدِ
 وقال خُلَيْدٌ عَيْنَيْنِ^(٢) وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه:
 وعيّرْتَنَا بالنخل أن كان مالنا وودَّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل
 وقال دعبل بن عليّ:
 ولو يُرْزَقُ النَّاسُ عَنْ حِيلَةٍ لِمَا نَالَ كَفًّا مِنَ الثَّرْبَةِ
 ولو يشربُ الماءَ أَهْلُ الْعَفَا ف لِمَا نَالَ مِنْ مَائِهِمْ شَرْبُهُ
 ولكِنَّهُ رَزَقُ مَنْ رَزَقُهُ يعمُّ به الكلبُ والكلْبَةُ

باب ذكر من هُجِيَ بِأَكْلِ لَحُومِ الْكِلَابِ وَلَحُومِ النَّاسِ

قال سالم بن ذارة الغطفاني^(٣):

يَا فُقْعَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ لِمَهُ لَوْ خَافَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرَمَهُ
 فَمَا أَكَلْتَ لَحْمَهُ وَلَا دَمَهُ

وقال الفرزدق في ذلك:

إِذَا أَسَدِي جَاعَ يَوْمًا بِبَلَدَةٍ وَكَانَ سَمِينًا كَلْبُهُ فَهُوَ آكَلُهُ
 وقال مساور بن هند:

إِذَا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلَامًا فَبَشَّرَهَا بِلَوْمٍ فِي الْغِلَامِ
 بِخِرْسَهَا نِسَاءً بَنِي دُبَيْرٍ بِأَخْبَثِ مَا يَجِدُنَ مِنَ الطَّعَامِ^(٤)
 تَرَى أَظْفَارَ أَعْقَدِ مُلْقِيَاتٍ بِرَائِثُهَا عَلَى وَضَمِ الثُّمَامِ^(٥)

فهذا الشعر وما أشبهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنَّما قراهم كلباً ولم يقرهم تيساً، وأنَّ الصوابَ خلافُ ما قال ابنُ الأعرابيِّ.

(١) في هذا البيت إقواء. وقد روى ياقوت في معجم البلدان برسم (حلامات) سبعة أبيات من قصيدة اللعين هذه، اثنان منها مضموماً القافية يليهما خمسة مكسورات القوافي. وهذا البيت هو الرابع في روايته. وقد روى عجزه هكذا:

وأعفاجه العظمى ذوات الزوائد

(٢) هو من ولد عبد الله بن دارم، وكان ينزل أرضاً بالبحرين يقال له: «عينين» فنسب إليها. وقد أجازته زياد لمناسبة طريفة. الشعراء 434.

(٣) هو سالم بن مسافع. وداراة أمه، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان رجلاً هجاء، وله ترجمة مسهبة في الخزائن 2: 125-130، والشعر في البخلاء 197 وانظر الحيوان 2: 91، 4: 24.

(٤) ط: «ما يكون من الطعام» وأثبت ما في ل والبخلاء 197.

(٥) وضَم الثمام: مثل القلة والهون. وفي ط: «الشمَام» وصوابه في ل والبخلاء 197.

وقال مُساور بن هند أيضاً:

بني أسدٍ أن تُمحل العامَ فقَعَسُ فهذا إذنُ دَهْر الكلابِ وعائِها

وقال شريح بن أوس يهجو أبا المهوش الأسدي ⁽¹⁾:

وعَيَّرتنا تمرَ العراقِ وبُرهَ وزادُك أير الكلبِ شَيْطه الجمرُ

(أكل لحوم الناس وما قيل في ذلك من الشعر)

وقال معروفٌ الدُّبيري ⁽²⁾ في أكلهم لحوم الناس:

إذا ما ضِغْت يوماً فقَعَسِيّاً فلا تَطْعَمْ له أبداً طعاماً

فإنَّ اللحمَ إنسانٌ فدَعُهُ وخيرُ الزَّادِ ما مَنَعَ الحراما

وقد هُجيت هذيلٌ وأسَدٌ وبَلَعَتَبَرٌ وباهلةٌ بأكلٍ لحوم الناس، قال حسان بن ثابت يذكر

هذيلاً:

إن سَرَّكَ الغَدْرُ صِرفاً لا مِرْجَاحَ له فأتَ الرجيعَ وسلَ عن دارِ لِحْيَانِ

قومٌ تواصوا بأكلِ الجارِ بينهم فالكلبُ والشَّاةُ والإنسانُ سِيَّانِ

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل:

وأنتم أكلتُم شحمةَ بن مَخْدَمٍ زبابَ فلا يَأْمُنْكُمْ أحدٌ بعدُ ⁽³⁾

تداعوا له من بينِ خَمْسٍ وأربعٍ وقد نصل الأظفارُ وانسبأ الجِلْدُ ⁽⁴⁾

ورَفَعْتُم جُرْدَانَه لرئيسكم مُعاوية الفلحاء يا لك ما شُكِدَ ⁽⁵⁾

وقال الشاعر في ذلك في باهلة:

إنَّ غَفاقاً أَكَلَتْه باهله تمشَّشوا عظامَه وكاهله

وأصَبَحَتْ أم غَفاقٍ ثاكِلَه ⁽⁶⁾

(1) أبو المهوش الأسدي: هو حوط بن رثاب، أو ربيعة بن وثاب، من المخضرمين الذين أدرَكوا النبي ﷺ ولم يروه.

وانظر الخزانة 3: 86 بولاق والإصابة 2015، وفي ط: «المهوس» وصوابه في الخزانة ول، والبخلاء 198.

(2) ط: «الأسدي» وأثبت ما في ل والبخلاء 199.

(3) ل: «شخفة بن مخدَم». وفي البخلاء 198: «شخفة بن مخدَم» وفي ط: «زماناً» موضع «زباب». والزباب: ضرب

من الفأر، وهو مما يهجي به. قال:

وهم زباب حائر لا تسمع الآذان رعداً

(4) ط: «نسل» وليس بشيء وصوابه في ل والبخلاء.

(5) ط:

ودفعتم جيرانه لرئيسكم معاوية الفساء يالك ما شكِد

والصواب في ل والبخلاء. و«يالك ما» كذا وردت والوجه «يالك من».

(6) ط: «غفاقاً» و«أم غفاق» بالعين، وأثبت ما في ل والبخلاء.

وهجا شاعر آخر بَلْعَنير، وهو يريد ثوبَ بن شَحْمَةَ⁽¹⁾، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير. فأما مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خبيري⁽²⁾ فعَبَّرَ الشاعرُ ثوبَ بن شحمة بأكل الرجل العنبري⁽³⁾ لحم المرأة إلى أن أتى ثوب⁽⁴⁾ من الجبل فقال:

عَجِلْتُمْ مَا صَادَكُمْ عِلَاجٌ مِنْ الْعُنُوقِ وَمِنْ النَّعَاجِ
حَتَّى أَكَلْتُمْ طِفْلَةً كَالْعَاجِ
فلما عَيَّرَهُ قَالَ ثوبُ⁽⁵⁾:

يَا بِنْتَ عَمِّي مَا أَدْرَاكِ مَا حَسْبِي إِذْ لَا تَجْنُ خَبِيثَ الزَادِ أَضْلَاعِي⁽⁶⁾
إِنِّي لَذُو مِرَّةٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ عِنْدَ الصَّيَاحِ بِنَضْلِ السَّيْفِ قَرَاعٍ
ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان⁽⁷⁾:

فَمَا كَلْبَةٌ سَوْدَاءُ تَفْرِي بِنَابِهَا عُرَاقًا مِنَ الْمَوْتِ مَرَارًا وَتَكْدِمُ⁽⁸⁾
أُتِيحَ لَهَا كَلْبٌ فَضَنْتُ بَعْرَقَهَا فَهَارَشَهَا وَهِيَ عَلَى الْعَرَقِ تَعْدُمُ⁽⁹⁾
فقَفَّ على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا.

وقال سُنَيْحُ بن رباح شار الزنجي⁽¹⁰⁾:

مَا بَالُ كَلْبِ بَنِي كُلَيْبٍ سَبَّنَا أَنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعِقْلًا
(قَتِيلُ الْكَلَابِ)

وتنازع مالك بن مِسْمَعٍ وشقيق بن ثور، فقال له مالك: إِنَّمَا رَفَعَكَ قَبْرٌ بُسْتَرٌ⁽¹¹⁾ فقال شقيق: حِينَ وَضَعْتَ قَبْرًا بِالمَشْفَرِّ، يَا ابْنَ قَتِيلِ النِّسَاءِ وَقَتِيلِ الْكَلَابِ!!
قال: وكان يقال لمسمع بن شيبان قَتِيلُ⁽¹²⁾ الكلاب، وذلك أَنَّهُ لَجَأَ فِي الرِّدَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَكَانَ كُلُّهُمْ يَنْبُحُ عَلَيْهِ فَخَافَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَكَانِهِ فَقَتَلَهُ فَقَتِلَ بِهِ.

(1) كذا في القاموس والبخلاء 198، وفي ط: «ثور بن شحمة» وفي ل: «ثوب بن شحمة» وكلاهما محرف. وكان ثوب سيداً شريفاً قد أجاز الطير فكان لا يثار ولا يصاد بأرضه، فسمى مجير الطير. ثمار القلوب 355.

(2) ط: «جبير». وانظر خبر مجير الجراد في أمثال الميداني (1: 202) وبلوغ الأرب (1: 144).

(3) ل: «القيني»، وفي البخلاء «بأكل الفتى» (4) ط: «ثورًا» وصوابه في ل.

(5) ط: «ثور».

(6) ط: «ما يدريك» وهما سبان، ط: «لا تجر» ل: «لا يجر» وتصحيحه من البخلاء.

(7) سبقت ترجمته ص 141

(8) ط: «تغري بنابها» وهو تحريف. وفيها «مرادًا وتكدم» وصوابهما في ل.

(9) تعذم: تعض أو تأكل بجفاء.

(10) ط «وقال الشاذيرجي». ل: «وقال السارزنجي» وهذا تحريف كتبت بدله ما في رسائل 61 ساسي. وفي الكامل 415 ليسك «رياح بن سنيح الزنجي» وانظر الرسائل 62 وكامل ابن الأثير 4: 161.

(11) ط: «بتشير». (12) في ثمار القلوب 318: «مسمع بن سنان».

(أمثال أخرى في الكلب)

قال : والعرب تقول : «أسرع من لحسة كلب أنفه» . ويقال : «أحرص من لغوة» وهي الكلبة ، وجمعها لعاء⁽¹⁾ . وفي المثل : «لأم من كلب على عرق» ، و«نعم كلب في بؤس أهله» . وفي المثل : «اصنع المعروف ولو مع الكلب» .

(رؤيا الكلب وتأويلها)

وقال ابن سيرين : الكلب في النوم رجل فاحش ، فإن كان أسود فهو عربي ، وإن كان أبقع فهو عجمي .

وقال الأصمعي عن حماد بن سلمة عن ابن أخت أبي بلال مرداس بن أدية⁽²⁾ قال : رأيت أبا بلال في النوم كلباً تذرِف عيناه ، وقال : إنا حوّلنا بعدكم كلاباً من كلاب النار .

قال : ولما خرج شمر بن ذي الجوشن [الضبابي] لقتال الحسين بن علي رضي الله عنه فرأى الحسين فيما يرى النائم أن كلباً أبقع يلغ في دماهم ، فأول ذلك أن يقتلهم⁽³⁾ شمر [بن ذي الجوشن] . وكان مُسلخاً برصاً⁽⁴⁾ .

قال : والمسلمون كلهم يسمّون الخوارج : كلاب النار⁽⁵⁾ .

(شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب)

وقال صاحب الديك : صاحب الكلب⁽⁶⁾ يصفه بالسرعة في الحضر ، وبالصبر على طول العدو ، وبسعة الإهاب ، وأنه إذا عدا ضبع وبسط يديه ورجليه حتى يمس قصصه الأرض ، وحتى يشرط أذنيه بشباً⁽⁷⁾ أظفاره ، وأنه لا يحتشي ريحاً مع ما⁽⁸⁾ يصيب الكلاب من اللّهث . فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراء الفرس وشبهته بضروب من الخلق ، وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره ، وتركوا الكلب في المنسأ⁽⁹⁾ لا يلتفت أحد لفته⁽¹⁰⁾ ؟! وقال أبو دؤاد الإيادي في ذلك :

(1) في ط : «لقوة و«لقاء» وصوابهما في ل .

(2) ط : «أبي بلال بن مرداس بن أدية» . وأبو بلال كنية مرداس نفسه كما في الأغاني وجمهرة ابن حزم 211 .

(3) ط : «فأول ذلك بقتلهم شمر» . (4) ل : «متسلخاً برصاً» .

(5) ل : «أهل النار» والصواب ما في ط وثمار القلوب 315 .

(6) ط : «لصاحب الكلب» وصوابه في ل .

(7) شبا : جمع شباة : وهي الحد . وفي ط : «بشبا» محرفاً .

(8) ل : «لا يحتشي ريحاً مع ما» وط : «لا يحتشي ريحاً مما» وسويت القول كما ترى .

(9) المنسأ : المزجر . وفي ل : «المنسي» وفي ط : «المنسأ» .

(10) لفته : جهته . وفي ط : «لا يلتفت إليه أحد» .

عن لسان كجثة الورل الأحـ مرمج الندى عليه العرار⁽¹⁾
ولم يذكره في شيء . وقال خالد بن عجرة الكلبي⁽²⁾ :

كأن لسانه ورل عليه بدار مضية مج العرار
وقال امرؤ القيس :

وخد أسيل كالمسن وبركة كجؤجؤ هيق دفه قد تمورا
ولم يذكره في شيء . وقال عتبة بن سابق :

عريض الخد والجبهـ ة والصهوة والجنب
ولم يذكره في شيء . وقال امرؤ القيس :

وسامعتان تعرف العتق فيهما كسامعتي مذعورة وسط ربرب
ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال عتبة بن سابق :

ولها بركة كجؤجؤ هيق ولبان مخرج بالخضاب
ولم يذكره في شيء . وقال خفاف بن ندبة :

عبل الذراعين سليم الشظا كالسيد يوم القرّة الصادر⁽³⁾
[ولم يذكره في شيء من ذلك] . وقال امرؤ القيس :

سليم الشظا عبّل الشوى شنج النسا أقب كتيس الحلب الغدوان⁽⁴⁾
ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال عتبة بن سابق .

وأرساغ كأعناق ظباء أربع غلب
ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال الجعدي :

كأن تماثيل أرساغه رقاب وُعول لدى مشرب
ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال امرؤ القيس :

لها مئنتان حظّاتا كما أكب على ساعديه النمر

(1) الورل : ضرب من الوزغ . قال ابن منظور : ولون الورل إلى الصحمة ، وهي غبرة مشربة سوادًا وإذا سمن اصفر صدره ، وروى البيت برواية : « كجثة الورل الأصفل » ونسب البيت إلى عدي بن الرقاع .

(2) ط : « حماد عجرد الكلبي . والبيت في النوادر لأبي زيد 116 غير منسوب وبهذه الرواية :

كأن لسانه ورل عليه بدار مضنة مج العرارا

وفي ل : « ندى رمصيه » .

(3) ط : « يوم نفرة الصادر » وهو تحريف ما في ل . وفي ل : « أمين الشظا » .

(4) الحلب : نبت تعتاده الظباء ، يخرج منه شيء شبيه باللبن إذا قطع . والغدوان : النشيط المسرع ، وفي ط : « العدوان » من العدو ، وهو الجري . وهما روايتان . الديوان 123 .

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال أبو ذؤاد :

يمشي كمشي نعماتين تُتَابِعَانِ أَشَقَّ شَاخِصٍ

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال ابن الصَّعِقِ ⁽¹⁾ :

بِمَحْنَبٍ مِثْلِ الْعُقَا بِ تَخَالُهُ لِلضُّمْرِ قَدْحَا ⁽²⁾

ولم يذكره في شيء من ذلك .

وقال ربيعة بن جُشم [النمري] ، ويروى لامرئ القيس ⁽³⁾ :

وساقان كعباهما أَصَمَا نِ لَحْمٍ حَمَاتِيهِمَا مِنْبِتِرُ

ولم يذكره في شيء من ذلك .

وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري :

كَأَنَّ حَمَاتِيهِمَا أَرْنَبَانِ تَقَبَّضَتَا خَيْفَةَ الْأَجْدَلِ ⁽⁴⁾

ولم يذكره في شيء من ذلك .

وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك ⁽⁵⁾ :

كَأَنَّ حَمَاتَهَا كَرْدُوسُ فَحْلٍ مَقْلَصَةٌ عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ

ولم يذكره في شيء من ذلك .

وقال الأعشى :

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ جَذْعُ سَمَا فَوْقَ النَّخِيلِ مَشْدَبُ

وَإِذَا تَصَفَّحَهُ الْفَوَارِسُ مَعْرَضًا فَتَقُولُ سِرْحَانُ الْعَضَا الْمَتَصَوِّبُ ⁽⁶⁾

أَمَّا إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ فَتَسَوُّفُهُ سَاقٌ يَقْمَصُهَا وَظِيفٌ أَحْدَبُ

مِنْهُ وَجَاعِرَةٌ كَأَنَّ حَمَاتَهَا لَمَّا كَشَفْتَ الْجُلَّ عَنْهُ أَرْنَبُ ⁽⁷⁾

ولم يذكره في شيء من ذلك . وقال الأسعر الجُعْفِي ⁽⁸⁾ :

أَمَّا إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فَكَأَنَّهُ بَازٍ يَكْفِكِفُ أَنْ يَطِيرَ وَقَدْ رَأَى

(1) هو يزيد بن عمرو بن خويلد . له ترجمة في الخزائن 1 : 388 .

(2) المحنب : المعوج الساقين . وفي ط « بمنجب » وليس بشيء .

(3) جملة « ويروى لامرئ القيس » ساقطة من ل . وانظر ديوان امرئ القيس أول قصيدة منه .

(4) الحماة : عضلة الساق . وفي ط : « كأن حمايتها » وهو تحريف . والأجدل : الصقر .

(5) جملة : خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك « ساقطة من ل .

(6) ط : « وإذا تصفحه الفوارس مغضباً » .

(7) الجل : غطاء الفرس . وفي ط : « الحبل » محرفاً . وفي ل : « هنة وجاعرة » .

(8) الأبيات في الخزائن 4 : 22 بولاق بتقديم الثالث على الثاني .

أما إذا استعرضته متمطراً
أما إذا استدبرته فتسوقه
ولم يذكره في شيء. وقال أبو دواد:
كالسيد ما استقبلته وإذا
لأم إذا استعرضته ومشى
يمشي كمشي نعامة تبعث
[ولم يذكره في شيء من ذلك]. وقال امرؤ القيس:

له أطلا ظبي وساقاً نعامة
[ولم يذكره في شيء من ذلك]. وقال ابن سنان العبدي:

أما إذا ما أقبلت فمطاراً
أما إذا ما أعرضت فنبيلة
أما إذا تشتد فهي نعامة
كالجذع شذبه نفى المنجل
ضخم مكان حزامها والمركل⁽²⁾
تنفي سنا بكها صلاب الجندل⁽³⁾

(قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان)

قال أبو عبيدة: ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طولٌ وظيفها وقصر ساقها وعُرى نسيتها⁽⁴⁾. ومما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها. ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه، وظمأ فصوصه وسرايته، وتمحص عصبه⁽⁵⁾، وتمكن أرساغه، وعرض صهوته.

قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إن مما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت شدقه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصه⁽⁶⁾، وسوغ ضلوعه، وطول ذراعيه، ورُحْب جلده، ولحوق بطنه. وقال طُفيل الغنوي، يصف الخيل:

تباري مراخيها الزجاج كأنها
وقال طُفيل أيضاً:

(1) الضرب: الخفيف اللحم. وفي ل: «صرب».

(2) ط: «فقليلة».

(3) ل: «أما إذا ما أدبرت فنعامة».

(4) ط: «نسيها» وليس بشيء.

(5) تمحص العصب: شدته. وفي ط: «تمحيص».

(6) القص والقصص: الصدر. ل: «قصه» ط: «قصه» محرفتان.

(7) يقول: إن هذه الخيل المراخي - وهن المسرعات واحدها مراخ - تباري الزجاج: جمع زج. أي تكاد تسبق ما يحمله أربابها من سلاح. مثله قول لبيد:

بطرده الزج يباري ظله

بأسيل كالسنان المنتخل

وفي ط، ل: «تبادي». وفي ط «مراخيها». وذلك تحريف. انظر الحيوان (2: 48).

كَأَنَّ عَلَى أَعْطَافِهِ ثَوْبَ مَائِحٍ وَإِنْ يَلْقَى كَلْبٌ بَيْنَ لَحْيَيْهِ يَذْهَبُ⁽¹⁾

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيت والبيتان والثلاثة، من جميع أشعار العرب؟!

وقال صاحب الكلب: لعلنا إن تتبعنا ذلك وجدناه كثيراً، ولكنك تقدمت في أمر ولم تُشعر بالذي تعني، فنلتقط⁽²⁾ من الجميع أكثر مما التقطت. والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضع منه مواضع من الفرس العتيق. وما حضرنا من الأشعار إلا قوله:

وَتَرَى الْكَمِيَّتَ أَمَامَهُ وَكَأَنَّهُ رَجُلٌ مُغَاضِبٌ

وقال الشاعر في ذلك:

خُوصٌ تَرَاخٍ إِلَى الصَّرَاخِ إِذَا غَدَتْ فِعْلَ الضَّرَاءِ تَرَاخٍ لِلْكَلَابِ⁽³⁾

وقد شبهوا بالكلب كل شيء.

وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والورد.

(شعر في وصف الناقة ونشاطها)

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقة ونشاطها والذي يهيجها فقال:

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَغْرَضِهَا وَالتَفَّ دَيْكٌ بِرَجْلَيْهَا وَخَنَزِيرٌ⁽⁴⁾

فهلاً قال: والتف كلب كما قال: والتف ديك!! وقال أبو حية:

[و] تَزَاوَرَتْ عَنْهُ كَأَن بَدَفَهَا هَرًّا يَنْشَبُ ضَبْعَهَا بِالْأَظْفَرِ⁽⁵⁾

وقال الأعشى:

بِجَلَالَةِ سُرْحٍ كَأَن بَدَفَهَا⁽⁶⁾ هَرًّا إِذَا انْتَعَلَ الْمَطِيُّ ظِلَالَهَا

وقال عنتره بن شداد العبسي:

وَكَأَنَّمَا يَنأَى بِجَانِبِ دَفِّهَا الْوُ حُشِيٍّ مِنْ هَزَجِ الْعَشِيِّ مَوْوَمٍ⁽⁷⁾

هَرٌّ جَنِيْبٌ كَلَّمَا عَطَفَتْ لَهُ غَضَبِيَّ اتَقَاهَا بِالْيَدَيْنِ وَبِالْفَمِ⁽⁸⁾

وقال المثقّب العبدي:

(1) المائح: الذي ينزل البثر فيملاً الدلو، والماتح: الذي يجذب الدلو ليخرجها. وفي ل: «كأن على أعطافها ثوب

ماتح» وفي ط: «كأن على أعطافه ثوب مائح». وانظر أدب الكاتب 87 والاقتضاب 227.

(2) في الأصل: فتلتقط. (3) ل: «إلى الصباح» وكذلك في اللسان مادة (روح).

(4) لابن طباطبا نقد في هذا البيت ذكره المرزباني في الموشح 86، ولابن رشيق كلام فيه في العمدة 2: 225، وانظر معاهد التنصيص 1: 47.

(5) ينشب: يعلق به. وفي ط: «تنشب». (6) ل: «بغرزاها». والغرز: ركاب من جلد. والدف: الجانب.

(7) في الأصل: دفها الوحشي في هزج. . وانظر التبريزي 187.

(8) ط: «التقاها».

فَسَلِّهِمْ عَنْكَ بِذَاتِ لَوْثٍ عَذَابِةٍ كَمِطْرَةِ الْقَيْئُونَ
وَبِصَادِقَةِ الْوَجِيفِ كَأَنَّ هَرًّا يُبَارِيهَا وَيَأْخُذُ بِالْوَضِيزِينَ^(١)

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السَّبَاعَ المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار، كما ذكر الهرَّ وابن آوى. والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أنَّ الهرَّ أقوى منه. ألا ترى أنَّ أوسَ بن حجرٍ قال في ذلك:

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَغْرَضِهَا

فذكر الموضع الذي يوصف بالخَلْبِ والخَدَشِ والخمَشِ والتظفير، فلما أراد أن يُفَرِّعَهَا ويثَوِّرَهَا حتى تذهب جافلة في وجهها^(٢)، أو ناذة، أو كأنها مجنونة من حاقَّ المرح والنشاط^(٣) قال:

والتفَّ ديكٌ برجليها وخنزير^(٤)

وقال أبو النجم:

لَوْ جُرَّ شَنْ وَسَطُهَا لَمْ تُجْفَلِ^(٥) مِنْ شَهْوَةِ الْمَاءِ وَرَزٍّ مَعْضَلِ^(٦)
[ويروى: تحفل]. ولو قال أوس:

والتفَّ شَنْ بَرَجْلِيهَا وَخَنَزِيرٍ

لكان جائزاً، لولا يُبْسُ الشَنْ وقُحُولُهُ، وأنه ليس مما يلتوى على رجليها. وقال آخر:

كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوْتَقٌّ تَحْتَ غَرَزِهَا إِذَا هَوَلَ لَمْ يَكْلِمْ بِنَابِيهِ ظَفَرًا

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لرجلٍ [أنَّ]^(٧) يُعْطِي عَطِيَّةً وَيَرْجِعَ فِيهَا، إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ. ومثل الذي يُعْطِي العَطِيَّةَ ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَأْكُلُ، حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَاءً ثُمَّ عَادَ فِي قَيْئِهِ»^(٨).

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرجع في هَبْتِهِ إِلَّا الْوَالِدُ مِنْ وَلَدِهِ. والعائدُ في هَبْتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر، أنَّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلاب. قال عبد الله بن جعفر: وكانت أمِّي تحتَ أبي بكرٍ، وكان جرؤُ لي تحتَ سريره^(٩) فقلت له:

(١) ط: «وصادقة الوجيف» وانظر المفضليات 290. (٢) ل: «وجه» وهو تحريف.

(٣) حاق المرح: صادقه. وفي ط: «حال المرح».

(٤) البيت لأوس بن حجر كما سبق قريباً. وصدرة:

كَأَنَّ هَرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَغْرَضِهَا

(٥) ط: «لو جرشن خلفها لم يحفل».

(٦) البيت ساقط من ل. والرز: الصوت، وعنى به الوجع، كما في اللسان (رزز) عند إنشاد الرجز. وفي الأصول: «رزء»، تحريف.

(٧) ليست بالأصل. (٨) ل: «قاء ثم عاد في قيه».

(٩) ط: «تحت السرير».

يا أبت، وكلبي أيضاً؟ فقال: لا تقتلوا كلب ابني، ثم أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خذوه من تحت السرير - وأنا لا أدري، فقتل.

وإسماعيل بن أمية قال: أمتان من الجنّ مُسختا، وهما الكلاب والحيّات.

ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدرَ نفسه صار عند نفسه أذلّ من الكلب.

(لؤم الكلب)

قال صاحب الديك - وذكر الكلب فقال: من لؤمه أنه إذا أسمىته أكلك، وإن أجعته أنكر. ومن لؤمه اتّباعه لمن أهانه، وإلفه لمن أجاعه؛ لأنه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به⁽¹⁾ وأشره وأنهم وأحرص وألج من أن يذهب بمطعمته⁽²⁾ ما يذهب بمطامع السباع. ومن جهله أيضاً أنا لم نجدّه يحرس المحسنين إليه بنباحه، وأربابهُ الذين ربّوه وتبّوه⁽³⁾ إلا كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة، بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه. بل ليس ذلك منه حراسةً، وإنّما هو فيه من فضل البداء أو الفُحش، وشدة التحرش والتسرّع. وقد قال الشاعر في ذلك:

إذا تخارزت وما بي من خزرٍ ثم كسرت العين من غير عور⁽⁴⁾

أبدي إذا بوزيت من كلب ذكر⁽⁵⁾ أسود قزاح يُعوّي في السحر⁽⁶⁾

وإنّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي⁽⁷⁾ يعتري نساء السفلة من الصخب.

(جبن الكلب)

والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم. ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيّب كان أمثل. ومن فرط الجبن أنه يفزع من كل شيء وينبّه. والبرذون ربّما رمح البرذون مبتدئاً، وقلق وصهل صهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضل قوّة يجدها في نفسه على المرموح، ولكنّه يكون جباناً، فإذا رأى البرذون الذي يظنّ أنّه يعجز عنه أراه الجبن أنّه واقع به، فعندها يقلق وإذا قلق رمح. وهذه العلة تعرض للمجنون؛ فإنّ المجنون الذي تستولي عليه السوداء، ربما وثب على من لا يعرفه. وليس ذلك إلا لأنّ المِرّة أوهمته أنّه يريد بسوء، وأنّ الرأي أن يبدأ⁽⁸⁾ بالضرب. وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماء والنار.

(1) ل: منه.

(2) مطعمته: طمعه. وفي ط: «بمطعمه».

(3) ط: «وواسوه» والوجه ما في ل.

(4) ل: «الطرف» موضع العين.

(5) أبدي، من البداء. ط: «أبزي إذا بوزيت» صوابه في ل. وانظر الأمازي (1: 96) وأمثال الميداني (2: 127). والرجز منسوب إلى عمرو بن العاص عند الدميري (1: 410).

(6) القزاح: الذي يدفع ببوله دفعا. وفي ط: «فراع». وفي ط: «تعوى في السحر» وفي ل: «يغضى في السحر».

(7) ط: «ولا الذي» وهو تحريف.

(8) ط: «أنه يبدأ».

(مما حدث للنظام)

فأما الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيّار النظام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبلّة، وتقدّمته شيئاً، وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرّعاء، وكره أن يعدّو فيغريه ويضريه^(١)، وأنف أيضاً من ذلك - وكان أنفاً شديد الشّكيمة أباء للهضيمة - وكره أن يجلس مخافة أن يشعّر عليه^(٢) أو لعلّه أن يعضّه فيهرت ثوبه، وألح عليه فلم ينله بسوء^(٣). فلما جُزنا حدّه وتخلّصنا منه، قال إبراهيم في كلام له كثير، يعدّد خصاله المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سبّع فاذهب مع السّباع، وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنّا سكوت البهائم! ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون. من قولي: «إن كنت سبّع» ولم أقل «إن كنت سبعا»!

(إفساد الإعراب لنوادير المولدين)

وأنا أقول: إنّ الإعراب يفسد نوادر المولدين، كما أنّ اللحن يُفسد كلام الأعراب^(٤)؛ لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبه تلك الصورة^(٥) وذلك المخرّج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي إنّما أضحك بسخفه وبعض كلام العجميّة التي فيه^(٦) - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيّل^(٧) وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة^(٨) انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدّلت صورته.

ثم قال أبو إسحاق: إنّ أطعمه اللصّ بالنهار كسرة خبز خلاه، ودار حوله ليلاً. فهو في هذا الوجه مرتش وأكل سُحت؛ وهو مع ذلك أسمع الخلق صوتاً، وأحمق الخلق يقظةً ونوماً، ينام النّهار كله على نفس الجادّة، وعلى مدقّ الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقى طريق، وعلى سبيل الحمولة^(٩) وقد سهر الليل كله بالصياح والصّخب، والتّصب والتّعب، والغيط والغضب، وبالمجيء والذهاب، فيركبه من حبّ النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئته دابةً فأسوأ الخلق جزعاً وألامه لؤماً، وأكثره ثباحاً وعوّاء، فإن سلم ولم تطأه دابةً ولا وطئته إنسان، فليست تتمّ له السلامة؛ لأنّه في حال متوقّع للبلية. ومتوقّع البلية في بليّة. فإن لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه؛ لأنّه أسوأهم جزعاً، وأقلهم صبراً، ولأنّه

(١) يضريه: يغريه. وفي الأصل: «ويضربه».

(٢) في ط: «يشر عليه ببوله» وهو تحريف.

(٣) ل: «أن يأكله فهرت ثوبه وألح عليه ولم يرد سواه».

(٤) ل: «يفسد كلام المولدين كما أنّ اللحن يفسد نوادر كلام الأعراب». وانظر البيان 1: 145.

(٥) ل: «أضحكته» بدل «أعجبهته».

(٦) ط: «فيها» والوجه ما في ل.

(٧) ط: «والتخفيف والتثقيّل» والوجه ما في ل.

(٨) ل: «والثخانة».

(٩) الحمولة بالفتح: ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار ونحوه. وفي الأصل: «الخمولة» بالخاء، مصحفة.

الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطُّرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة. وبعد فإنَّ كُلَّ خُلُقٍ فارقَ أخلاقَ الناسِ فإنَّه مذموم. والناس ينمون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً، ويتشرون بالتهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس⁽¹⁾ مَسْرَحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إنَّ سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكيَّة لقلنا، ولو كان خلاف ذلك أَلَدٌ لكانت الملوك بذلك أولى. وأمَّا الذي أشرتُم به من النوم في الطريق الخالية، وعبثُم به من نومه على شوارع الطُّرق والسَّكك العامرة⁽²⁾ وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم [بشأنه]. ولولا أنَّ الكلبَ يعلم ما يلقى من الأحداث والسُّفهاءِ وصبيان الكُتَّاب، من رَضَّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً في طريق خالٍ ليس بِحَضْرته رجالٌ يُهابون⁽³⁾، ومشِيخةٍ يرحمون ويزجرون السفهاء، وأنَّ ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق - لَقَلَّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق. وعلى أنَّ هذا الخُلُقُ إنَّما يعتري كلاب الحُرَّاس، وهي التي في الأسواق مأواها ومنازلها. وبعد فمن أخطأ وأظلم ممَّن يكلف السباع أخلاقَ الناس وعادات البهائم!! وقد علمنا أنَّ سباع الأرض عن آخرها إنَّما تهيج وتَسرح وتلتَمِس المعيشة وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

(سبب اختيار الليل للنوم)

وإنما نام الناس بالليل عن حوائجهم، لأنَّ التمييز والتفصيل والتبيين⁽⁴⁾ لا يمكنهم إلاَّ نهاراً، وليس للمتعب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جماماً له. ولولا صرفُهم⁽⁵⁾ التماسَ الجَمَام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقت مانع من التمييز والتبيين⁽⁶⁾، لكانت الطبائع تنتقض. فجعلوا النَّوم بالليل لضربين: أحدهما لأنَّ الليلَ إذا كان من طبعه البرد والرُّكود والخُثورة، كان ذلك أنزعَ إلى النوم وما دعا إليه، لأنَّه من شكله. و[أمَّا]⁽⁷⁾ الوجه الآخر فلاَّ النَّوم بالليل مَحْشٌ مَخُوفٌ الجوانب من الهوامِّ والسباع، ولأنَّ الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدرهم، والحبوب، والبزور، والجواهر، وأخلاق العطر، والبرِّبهار⁽⁸⁾ وما لا يحصى عدده. فقادتهم طبائعهم وساقتههم غرائزهم إلى وضع النوم في موضعه، والانتشار والتصرف⁽⁹⁾ في موضعه على ما قدَّر الله تعالى من ذلك وأحبَّه. وأمَّا السباع فإنَّها تتصرَّف وتبصر بالليل، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرها.

(1) ل: «النفوس»

(2) شرع المنزل: صار على طريق نافذ. وفي ل: «على مربعات السكك العامرة».

(3) في الأصل: «في طريق ليس خال بحضرته». إلخ وكلمة «خال» مزحجة عن موضعه.

(4) ط: «والتفصيل والتبيين» والوجه ما في ل (5) ل: «فصرفهم»

(6) ط: «التبيين». (7) زيادة يفتقر إليها الكلام.

(8) البرِّبهار: الأدوية التي تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير ونحوها، يقول البحرية وأهل البصرة لها: البرِّبهار،

أنساب السمعاني 71، وانظر ما سيأتي في حواشي 3: 232.

(9) ط: «والانتشار بالتصرف» وهو تحريف.

(نوم الملوك)

وأما ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنهار وسهرهم بالليل، فإن⁽¹⁾ الملوك لم تجهل فضل النوم بالليل والحركة بالنهار، ولكن الملوك لكثرة أشغالها فضلت حوائجها عن⁽²⁾ مقدار النهار ولم يتسع لها، فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بد من الخلوة بالتدبير المكتوم والسر المخزون، وجمعت المقدار الفاضل عن اتساع النهار إلى المقدار الذي لابد للخلوة بالأسرار منه؛ أخذت من الليل صدراً صالحاً. فلما طال ذلك عليها أعانها المِران⁽³⁾، وخف ذلك عليها بالدربة. وناس منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سماع الصوت الحسن مما يزيد في المنة، ويكون مادة للقوة. وعلموا أن العوام إذا كانت لا تتناول الشراب ولا تتكلف السماع على هذا المعنى، أن ظنّها سيسوء⁽⁴⁾، وقولها سيكثر؛ فأروا أن الليل أستر وأجدر أن يتم به التدبير⁽⁵⁾، وقال الراجز:

الليل أخفى والنهار أفضح

وقالوا في المثل: «الليل أخفى⁽⁶⁾ للويل».

(تلهي المحزون بالسماع)

وما زالت ملوك العجم تلهي المحزون بالسماع، وتعلل المريض، وتشغله عن التفكير، حتى أخذت ذلك ملوك العرب عن ملوك العجم. ولذلك قال ابن عسلة الشيباني⁽⁷⁾:

وسماع مُدجّنة تعلّلنا حتّى ننام تناوّم العجم
فصحوت والتّمريّ يحسبها عمّ السّماء وخالة النّجم⁽⁸⁾
النجم: واحد وجمع، وإنّما يعني في البيت الثريّا. ومدجّنة: يعني سحابة دائمة.

(قول أم تأبط شرّاً في ولدها)

وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب - وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدّمة فيهم⁽⁹⁾ - فرووا جميعاً أن أم تأبط شرّاً قالت: «والله ما ولّدته يتنّا، ولا سقيته غيّلاً ولا أبته على مائة».

(1) في الأصل: «وإن» والوجه ما أثبت.

(2) ط: «المرات» وهو تحريف.

(3) ط: «متيسر» وهو تحريف ما في ل.

(4) ط: «به باقي التدبير».

(5) ط: «أنفى للويل». وانظر أمثال الميداني (2: 127).

(6) سبق هذا الشعر ص 157 كما سبقت ترجمة ابن عسلة.

(7) صواب روايته: «لصحوت» كما سبق في حواشي 157.

(8) ل: «عندهم».

(9) ل: «عندهم».

فأما اليتن فخرج رجل المولود قبل رأسه، وذلك علامة سوء، ودليل على الفساد. وأما سقى الغيل، فارتضاع لبن الحبل، وذلك فساد شديد.

(ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه)

وأما قولها في المأفة، فإن الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأم جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدوار، أو نوّمته بأن تضرب يدها على جنبه. ومتى نام الصبي وتلك الفرعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه، ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره، حتى يكون نومه على سرور، فيسرى فيه ويعمل في طباعه، ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم؛ فإن ذلك ممّا يعمل في الفساد. والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرقاً ما بين هاتين الحالتين، كثر منها ذلك الفساد، وترادف، وأعان الثاني الأول والثالث الثاني حتى يخرج الصبي مائثاً. وفي المثل: «صاحبي ميق وأنا تنق»، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرفيق والزميل، وقد استفرغه الضجر لطول السفر⁽¹⁾ فقلبه ملآن، فأول شيء يكون في ذلك المثل من المكروه لم يحتمله⁽²⁾ بل يفيض ضجره عليه، لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر.

(ما يحتاج إليه الملوك)

فاحتاج خُداق الملوك وأصحاب العنايات التامة، أن يداووا أنفسهم بالسمع الحسن، ويشدوا من متنبهم بالشراب، الذي إذا وقع في الجوف حرّك الدم، وإذا حرّك الدم طبع السرور، ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم، زائداً في الحركة المولدة للسرور. هذه صفة الملوك. وعليه بنوا أمرهم، جهل ذلك من جهله، وعلمه من علمه.

وقال صاحب الكلب: أمّا تركه الاعتراض على اللص الذي أطعمه أياماً وأحسن إليه مراراً، فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه، وتعاهدهم⁽³⁾ له. فإذا كان عهده ببر اللص أحدث من عهده ببر أهله⁽⁴⁾، لم يكلف الكلب النظر في العواقب، وموازنة الأمور⁽⁵⁾. والذي أضمر اللص من البيات غيب قد ستر عنه؛ وهو لا يدري أجاأ ليأخذ أم جاء ليعطي، أو هم أمره أو هو المتكلف لذلك؛ ولعل أهله أيضاً [أن] يكونوا قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة، وبالسب والإهانة. وأمّا سماجة الصوت فالبغل أسمع صوتاً منه، كذلك الطاوس على أنهم يتشاءمون به. وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القماري والدبّاسي، وأصناف الشفانين⁽⁶⁾ والوراشين. فأما الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميع الطير

(1) ل: «بطول السفر» ط: «ولم يحتمله»، والواو مقحمة

(3) ل: «وتعاهدهم له» وهما بمعنى.

(4) ط: «إذا كان عهده بين اللص وبينه أحدث من عهده بينه وبين أهله» وأثبت ما في ل، مع إبدال «بينه وبين» بكلمة «بين».

(5) ط: «وموازنة الأمور». (6) ط: «الشفانين» وهو تحريف سبق التنبيه عليه ص 147.

والسباع والبهائم فكذاك. وإنَّما لك أن تَدَمَّ الكلبَ في الشيء الذي لا يعم. والناس يقولون: ليس في الناس شيءٌ أقلُّ من ثلاثة أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة الحسنة؛ ثمَّ النَّاسُ بعدُ مختلِطون ممتزجون. ورُبَّما كان من النَّاسِ بل كثيراً ما تجده وصوته أقيح من صوت الكلب، فلم تخصُّون الكلبَ بشيءٍ عامَّة الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب؟! وأما عُواؤه من وطء الدَّابة وسوء جزعه من ضرب الصَّبيان، فجزعُ الفرس من وقع عذبة السَّوط، أسوأ من جزعه من وقع حافر برذون، وهو في هذا الموضع للفرس أشدُّ⁽¹⁾ مناسبةً منه للحمار. على أنَّ الديك لا يُذكر بصبرٍ ولا جزع.

(نوادير ديسيموس اليوناني)

قال صاحب الديك: حدَّثني العُتبي⁽²⁾ قال: كان في اليونانيِّين ممرور له نوادرٌ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس⁽³⁾، قال: والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة [مأمناً] إلاَّ وهي عُرةٌ وعينٌ من عُيون النوادر: فمنها أنَّه كان كلَّما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقي في أصل باب داره وفي دُوارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه⁽⁴⁾ كلَّما رجع من حاجته، فكان كلَّما رجع⁽⁵⁾ لم يجد الحجر في موضعه، ووجد الباب منصفقاً. فكمن له في بعض الأيام⁽⁶⁾ ليرى هذا الذي يصنع⁽⁷⁾ ما يصنع. فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجلٌ حتَّى تناوَل الحجر، فلمَّا نَحاه عن مكانه انصفق الباب، فقال له: ما لك ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال: لم أعلم أنَّه لك. قال: فقد علمت أنَّه ليس لك!

قال: وقال بعضهم: ما بال ديسيموس يعلم النَّاسَ الشَّعر ولا يقول الشعر؟ قال: ديسيموس كالمِسِّن الذي يشحذ ولا يقطع. وراه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أأأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكل من السوق. قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطاً عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقليل له: ما منعك من مكافأته وهو لك مُعرِّض؟ قال: رأيت لو رمحك حِمَاراً أكنت ترمحه؟ قال: لا. قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح⁽⁸⁾ عليه؟ قال: لا، قال: فإنَّ السفية إما أن يكون حِمَاراً، وإما أن يكون كلباً، ؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارة تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه⁽⁹⁾.

(1) ل: «إلى الفرس» وفي الأصل: «أشد منه». وكلمة «منه» مقحمة.

(2) ل: «القيني» وهو تحريف. وقد سبقت ترجمة العتبي ص 66.

(3) كتابة هذا العلم بالدال هي الصواب كما في ل، ورسائل الجاحظ 143، وهو علم يوناني متداول، وحرف بالراء في ط والبخلاء 158، والبيان 2: 225-226.

(4) ط: «رفعه» والوجه ما في ل.

(5) ل: «إذا رجع».

(6) ط: «في بعض الأماكن في بعض الأيام».

(7) ط: «الباب يصنع» وهو تحريف.

(8) ل: «فإن نبح عليك الكلب» إلخ..

(9) ط: «من يجتمعان فيه» والوجه ما في ل.

(أمثال أخرى في الكلب)

وقال صاحب الديك : يقال للسفيه إنَّما هو كلب ، وإنَّما أنت كلبٌ نَبَّاح ، وما زال ينبَح علينا منذُ اليوم ، وكلُّبٌ مَنْ هذا؟ ويا كلب ابن الكلب؟ واخسأ كلباً^(١) .

وقالوا في المثل : «احتاج إلى الصُوف مَنْ جَزَّ كلبه» ، و«أَجْعُ كلبك يَتَّبِعُك» ، و«أحبُّ شيء إلى الكلبِ خانقَه» ، و«سَمَّنْ كلبك يأكلُك» و«أَجْوَعُ من كَلْبَةِ حَوْمَل»^(٢) ، و«كالكلب يربض في الآريِّ فلا هو يأكل ولا يدَع الدابة تعتلف» .

(براقش)

وفي أمثالهم في الشؤم : «على أهلها دَلَّتْ بَراقِشُ» . وبراقش : كلبة نبحت على جيش مرؤا في جوف الليل وهم لا يشعرون بموضع الحي ، فاستدلوا عليهم بنباح الكلبة فاستباحوهم^(٣) .

(الجن والحن)

وقال صاحب الديك : روى إسماعيلُ المكيُّ عن أبي عطاءٍ العطاردي قال : سمعت ابن عباس يقول : السُّود من الكلاب الجنِّ ، والبُئع منها الحنَّ . ويقال إنَّ الحنَّ ضَعْفَةُ الجنِّ ، كما أنَّ الجنِّيَّ إذا كفر وظلم وتعدَّى وأفسد ، قيل شيطان ؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل ، وعلى استراق السمع قيل مارد ، فإنَّ زاد فهو عَفريت ، فإنَّ زاد فهو عبقرِي . كما أنَّ الرجلَ إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع^(٤) ، فإنَّ زاد فهو البطل ، فإنَّ زاد قالوا : بُهْمَة ، فإنَّ زاد قالوا : أَلَيْسَ . فهذا قول أبي عبيدة . وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحنَّ والجنَّ صِنْفان مختلفان ، وذهبوا إلى قول الأعرابي حينَ أتى بعضَ أبواب الملوك ليكتتب في الرَّمْنَى ، فقال في ذلك :

إن تكتبوا الرَّمْنَى فإنِّي لَرَمْنٌ من ظاهر الداءِ وداءِ مُستَكِنٍ
أبيت أهوى في شياطين تُرِنٌ مختلف نجارهم حنٌّ وجنٌّ

(ما ورد من الحديث والخبر في قتل الكلاب)

وعن أبي عنبسة^(٦) عن أبي الزبير عن جابر^(٧) : قال : أمرنا رسول الله ﷺ بقتل

(١) ل : «ويا كلب ابن الكلبة واخسأ كلباً» .

(٢) انظر ثمار القلوب 315 والتمثيل والمحاضرة 355 والميداني 1 : 169-170 .

(٣) انظر تحقيقاً طريفاً للمثل في إكليل الهمداني 8 : 126 .

(٤) ل : «ولم يخم . . .» وهما بمعنى .

(٥) الأليس من الليس بمعنى الشجاعة . وفي ط : «ليث» وهو تحريف

(٦) ل : «ويحيى بن أبي أنيسة» .

(٧) في ل بعد هذا زيادة : «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم ، وعن أبي الزبير عن جابر» . كما أن الحديث الآتي في ل روى بعد الذي يليه هنا .

الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها، وقال: «عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: «إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان».

وعبد الله وأبو بكر ابنا نافع⁽¹⁾ عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقتل الكلاب، فكُنَّا نقتلها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوز مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان⁽²⁾ فقالت: ارجع إلى النبي ﷺ فأخبره أن هذا الكلب يؤنسني، وليس قربي أحد. فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتل كلبها فقتله. وقال في حديث آخر⁽³⁾: إنه لما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال: الآن استرحت. قالوا: فقد صحَّ الخبر عن قتل جميع الكلاب، ثم صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنها من الجن والحن، وأنَّ أمتين مُسختا، وهما الحيات والكلاب.

ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطب عثمان خطبة إلا أمر بقتل الكلاب وذبح الحمام.

وعن الحسن قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اقتلوا الكلاب واذبحوا الحمام.

قال: وقال عطاء: في قتل كلب الصيد إذا كان صائداً أربعون درهماً، وفي كلب الزرع

شاة.

(ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب)

والحسن بن عماره عن يعلى بن عطاء عن إسماعيل بن حسان عن عبد الله بن عمر⁽⁴⁾ قال: قضى رسول الله ﷺ في كلب الصيد بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفرق من طعام⁽⁵⁾، وفي كلب الدار بفرق من تراب، حُقَّ على القاتل أن يؤدَّيه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه.

قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفرق.

وفي قوله: وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليل على أنه عقوبة على اتخاذه⁽⁶⁾ وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، [و] على وجه الإرغام لمالكه. ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكرهه على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

(1) ما عدل: «أنبانا نافع».

(2) ط: «يقربها إنسان».

(3) ل: «قال وفي حديث».

(4) في الأصل: «حسان بن عبد الله بن عمر».

(5) الفرق، بالفتح، وبالتحريك: مكيال ضخمة لأهل المدينة يقال إنه يسع ستة عشر رطلاً. وفي ل: «من الزرع».

(6) ط: «على النهي عن اتخاذه»، وتصحيحه من ل.

(ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب)

قال : وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار من هو له كاره .
ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي الحكم : أنَّ ابنَ عمر سئل عن ذلك فقال : المأثم على ربِّ الدَّار الذي يملكها .
وعن ابنِ عُمر قال : من اتَّخذ كلباً ليس بكلِّب زَرع ولا ضَرع ولا صيد نَقص من أجره كلَّ يوم قيراط . فقال رجل : فإن اتَّخذ رجلاً وهو كاره؟ قال : إنَّما إثمُه على صاحب الدار .
وصدَّقة بن طيسلة^(١) المازني قال : سألت الحسن قلت : إنَّ دورنا في الجَبان^(٢) وهي مُعَوَّرة وليس عليها أبواب ، أفترى أن نَتَّخذ فيها كلاباً؟ قال : لا لا .
وعن ابنِ أبي أنيسة^(٣) عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتنى كلباً إلاَّ كلب صيدٍ أو كلب ماشية ، نقص من أجره كلَّ يوم قيراطان » .
وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من اقتنى كلباً^(٤) فإنَّه ينقص من عمله كلَّ يوم قيراط » .
ويونس عن أبيه عن إسحاق^(٥) قال : حدثنا هُنيْدَةُ بن خالد^(٦) الخزاعي قال : انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبي ﷺ ، نعوذُ رجلاً من الأنصار ، فلمَّا انتهوا إلى باب الدار ثارت أكلبٌ في وجوه القوم ، فقال بعضهم لبعض : ما يُبقي هؤلاء من عمل فلان شيئاً ، كلُّ كلبٍ منها ينقص قيراطاً في كل يوم .
هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « من اتَّخذ كلباً ليس بكلِّب صيدٍ ولا زرع ولا ضَرع ، فإنَّه ينقص من أجره كلَّ يوم قيراط ، والقيراط^(٧) مثلُ جبل أحد » .
يونس عن أبي إسحاق^(٨) عن مجاهد^(٩) قال : أقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مَكَّة ، وكانت امرأة عمِّ له تهاديه ، فلما كانت ذات يوم قالت له : لو أرسلت إليَّ الغنم فاستأنست برعائنها وكرابها فقد نزلت قاصية ! فقال : لو لا كلابُها لفعلتُ ؛ إنَّ الملائكة لا تدخل داراً فيها كلب .
الثوريُّ عن سماك بن حرب ، أنَّ ابنَ عباس قال على منبر البصرة : إنَّ الكلاب من الجنِّ^(١٠) وإنَّ الجنَّ من ضَعْفَةِ الجن ، فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقوا إليها شيئاً أو اطرده^(١١) ، فإنَّ لها أنفُسَ سوء .

(١) ط : « طيلسة » وأثبت ما في ل .

(٢) الجبان والجبانة : المقبرة والصحراء . وفي ط : « الجنان » وهو تحريف .

(٣) اسمه يحيى . ما عدل : « ابن أبي شيبه » تحريف . (٤) ل : « من أمسك كلباً » .

(٥) ل : « ويونس عن أبي إسحاق وإسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق قال : حدثنا أبو إسحاق قال : حدثنا هبيرة » .

(٦) ط : « هنييرة » ، وهو تحريف صوابه في ل والإصابة 9010 .

(٧) ل : « وقيراط » . (٨) ل : « يونس بن أبي إسحاق » .

(٩) ل : « عن أبيه عن مجاهد » . (١٠) ط : « الجن » بالجمع ، والصواب بالحاء كما في ل .

(١١) كذا جاء في الأصل بتغاير الضميرين .

وهُشِيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان^(١) إلا الكلاب.

قال صاحب الديك: روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي، عن محمد بن المنكدر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: تقامر رجُلان على عهد عُمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقتل^(٢) فأناه رجلٌ من الأنصار فقال: أمرت بقتل أمة من الأمم تسبح الله تعالى؟! فأمر بتركها.

وعن قتادة أن أبا موسى قال: لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال الله تعالى في أهل القرى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: 97].

وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس، لأن تأويله هذا ليس على وجه، ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب^(٣) اتخاذ ما يتخذ الفلاح وأصحاب التعيش، مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهب الفرسان وفي ذربة رجال الحرب. فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه.

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عُمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء، والديكة تدخل في هذا الاسم، واسم الدجاج يجمعها جميعاً. ورويت في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم ورويت أن الحمام مسخ، ولا أن بعضه من الجن وبعضه من الجن، ولا أن أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام. وزعمتم أن عمر إنما^(٤) أمر بقتل الديكة حين كره الهراش بها والقمار بها. فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور^(٥) وأكثر أهلها من الهراش بها والقمار فيها. وقد علمتم أن ولاية المدينة ربما دَمَرُوا على صاحب الحمام^(٦) إذا خيف قبله القمار^(٧) وظنوا أنه الشرف^(٨). وذكروا عنه الرمي بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ. فما بالكم لم تُخرجوا للكلاب من التأويل والعذر، مثل الذي خرّجتم للحمام والديكة.

(المسخ من الحيوان)

ورويتم في الجري^(٩) والضباب أنهما كانتا أمتين مُسختا. وروى بعضهم في الإريانة أنها كانت خيطة تسرق السلوك، وأنها مُسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس سرقتها. ورويتم في الفأرة أنها كانت طحانة، وفي سهيل أنه كان عشاراً باليمن^(١٠)

(١) ط: «وعن غلمان» وليس بشيء وانظر الجزء الثاني ص 164.

(٢) ط: «نقل»، وهو تحريف. (٣) ل: «وللرجال».

(٤) في الأصل «لما» والوجه ما كتبت. (٥) ل: «العقر» وهو جمع عقور.

(٦) دمروا عليه: دخلوا عليه وهجموا فجأة. (٧) ط: «من قبل القمار» والصواب ما في ل.

(٨) الشرف: الإشفاء على خطر من خير أو شر. وفي ل: «به التشرف»، وفي ط: «أنه السرف».

(٩) الجري: ضرب من السمك. وفي ط: «الجدي» وهو تحريف. (١٠) العشار: من يأخذ العشر.

وفي الحية أنها كانت في صورة جمل، وأن الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابها على عشرة أقسام، حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها. وقلتم في الورغة وفي الحكاة⁽¹⁾ ما قلتم. وزعمتم أن الإبل خلقت من أعنان الشياطين⁽²⁾ وتأولتم في ذلك أقبح التأويل. وزعمتم أن الكلاب أمة من الجن مسخت. والذئب أحمق بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنه وحشي وصاحب قفار، وبه يضرب المثل في التعدي، والكلب ألوف وصاحب ديار، وبه يضرب المثل. والذئب خثور غدار، والكلب وفي مناصح. وقد أقام الناس في الديار الكلاب مقام السنائر للفأر⁽³⁾. والذئب مضرّة كلّه، والكلب منافع فاضلة على مضاره، بل هي غالبية عليها وغامرة لها، وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة.

والناس لم يطبقوا على اتخاذها عبثاً ولا جهلاً، والقضاة والفقهاء والعُباد والوُلاة والشُساك، الذين يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمحتسبة وأصحاب التكلف والتسليم جميعاً، لم يطبقوا على ترك التكبر على⁽⁴⁾ ما يشاهدونه منها في دور من لا يعصهم ولا يمتنع عليهم إلا وقد علموا أنه قد كان لقتل الكلاب بأعيانها في ذلك الدهر، معنى. وإلا فالتأس في جميع أقطار الأرض لا يُجمعون على مسالمة أصحاب المعاصي، الذين قد خلعوا عُذرهم وأبرزوا صفحتهم⁽⁵⁾. بل ما ترى خصماً يطعن على شاهد عند قاض بأن في داره كلباً، ولا ترى حكماً يردّ بذلك شهادة. بل لو كان اتخذ الكلاب مأموراً به، لما كان إلا كذلك. ولو أنكم حملتم حكم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان، وجميع الغربان على حكم غراب نوح، وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة⁽⁶⁾، وجميع الذئاب على حكم ذئب أهبان بن أوس، وجميع الحمير على حكم حمار عزير لكان ذلك حكماً مردوداً.

(ما لا يحدث إلا في دهر الأنبياء ونزول الوحي)

وقد تعرض لخصائص الأمور أسباب في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلها في غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دحية الكلبي، وكان إبليس يتراءى في السكك⁽⁷⁾ في صورة سراقه المذلجي، وظهر في صورة الشيخ النجدي. ومثل هذا كثير.

(1) الحكاة: عطاء مخططة بخمسة خطوط سود، تعرف في مصر بالسحلية الخضاري. معجم المعلوم 155، وفي ط: «الحدأة» وهو تحريف.

(2) الأعنان: النواحي والجوانب. وفي الأصل: «أعناق» وهو تصحيف نبهت عليه ص 124 وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص 163.

(3) ل: «من الفأر».

(4) في الأصل: «وعلى» والواو مقحمة.

(5) ط: «ضجتهم» وهو تحريف.

(6) في الأصل «حمام السفينة»، وهو تحريف. انظر الحيوان 2: 183 والثمار 367.

(7) ل: «يتخرق السكك».

(ما يسمى شيطانا وليس به)

فإن زعمتم أن النبي ﷺ نظر إلى رجل يتبع حماماً طياراً فقال : « شيطانٌ يتبع شيطانا » ، فخبرونا عمن يتخذ الحمام ⁽¹⁾ من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرمين والبصريين ⁽²⁾ ومن بني هاشم إلى من دونهم ، أترعمون أنهم شياطينٌ على الحقيقة ، وأنهم من نجل الشياطين ؛ أو أترعمون أنهم كانوا إناساً فمسخوا بعد جناً ؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان ، على مثل قوله ﴿ شَيْطَانٌ آَلِيسٌ وَآَلِجٌ ﴾ [الأنعام: 112] وعلى قول عمر : لأنزعن شيطانه من نُخْرَتِه ⁽³⁾ ، وعلى قول منظور بن رواحة ⁽⁴⁾ :

فلما أتاني ما تقولُ تَرَقَّصْتُ شياطينُ رأسي وانتشين من الحمرِ

وقد قال مرّة أبو الوجيه العُكلي : « وكان ذلك حين ركبني شيطاني » قيل له : وأيّ الشياطين تعني ؟ قال : الغضب . والعرب تسمي كل حية شيطانا . وأنشد الأصمعي :

تلاعب مثنى حُضْرَمِي كائنه تعمج شيطانٍ بذِي خِرْوَعٍ قُفْرِ ⁽⁵⁾

وقالت العرب : ما هو إلا شيطان الحَمَاطة ، ويقولون : « ما هو إلا شيطان » يريدون القبح ؛ و « ما هو إلا شيطان » ، يريدون الفطنة وشدة العارضة . وروى عن بعض الأعراب في وقعة كانت : والله ما قتلنا إلا شيطاناً برصاً ⁽⁶⁾ لأن الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان ، وكان به برص . وفي بني سعد بنو شيطان . قال طفيل الغنوي :

وشيطان إذ يدعوهم ويثوب ⁽⁷⁾

وقال ابن ميادة :

فلما أتاني ما تقول محارب تغنت شياطيني ⁽⁸⁾ وجن جنونها

وقال الراجز :

إنني وإن كنت حديث السن وكان في العين نبوء عني

فإن شيطاني كبير الجر

وقال أبو النجم :

(1) ط : « يتبع الحمام » . (2) ل : « الحرمين والمصريين » .

(3) النخرة ، بالضم وكهمة : مقدم الأنف . ط : « نعرقه » تصحيف . وانظر 6 : 122 .

(4) ط : « منصور بن رواحة » . وانظر ص 213 .

(5) تعمج : تلوى . وفي ط : « تعمج » وهو تحريف ، وانظر ص 124 .

(6) ل : « شياطينا برصاً » والوجه ما في ط .

(7) شيطان هو ابن الحكم ، فارس الخذواء . وصدر البيت كما في اللسان (شطن ، شيط ، خذا) :

وقد منت الخذواء منا عليهم

(8) ط : « شياطين » وصوابه في ل . وانظر ص 124 وثمار القلوب 57 .

إِنِّي وَكُلَّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ شَيْطَانُهُ أَتْنَى وَشَيْطَانِي ذَكَرُ
وهذا كله [منهم] على وجه المثل، وعلى قول منظور بن رَوَاحَةَ:
أَتَانِي وَأَهْلِي بِالْذِّمَاحِ فَعَمْرَةَ مَسْبُ غُوفِبِ اللُّؤْمِ حَتَّى بَنِي بَذْرٍ⁽¹⁾
فَلَمَّا أَتَانِي مَا يَقُولُ تَرْقُصْتُ شَيَاطِينُ رَأْسِي وَانْتَشَيْنَ مِنَ الْحَمْرِ
(خرافة العذري)

وقد رويتم عن عبد الله بن فايد بإسناد له يرفعه قال: خرافة رجل من بني عذرة استهوته الشياطين، فتحدث رسول الله ﷺ [يوماً] بحديث فقالت امرأة من نسائه: هذا من حديث خرافة. قال: «لا وَخُرافة حق».

(حديث عمر مع الذي استهوته الجن)

ورويتم أن شريك بن خناسة دخل الجنة وخرج منها ومعه ورقة من ورقها⁽²⁾، وأن عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجن فقال: ما كان طعامهم⁽³⁾؟ قال: الفول والرمّة⁽⁴⁾. وسأل عن شراهم فقال: الجدف⁽⁵⁾. وقال الأعشى:

وَإِنِّي وَمَا⁽⁶⁾ كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ لِأَعْلَمُ مِنْ أَمْسَى أَعَقَّ وَأُخُوبَا
لِكَالْثُورِ وَالْجِنِّي يَضْرِبُ ظَهْرَهُ⁽⁷⁾ وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتِ الْمَاءُ مَشْرَبَا

(من خنقته الجن، ثم عود إلى الحوار)

وزعمتم أن الجن خنقت حرب بن أمية، وخنقت مرداس بن أبي عامر، وخنقت الغريص المغني، وأنها قتلت سعد بن عباد، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد؛ فأنتم أملياء بالخرافات⁽⁸⁾ أقوياء على ردّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردّ تأويل الحديث⁽⁹⁾ المشهور إلى أهوائكم. وقد عارضناكم وقابلناكم وقارضناكم.

وقالوا: في الحديث أنه: «من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فقد أثم⁽¹⁰⁾». فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرع والضرع والقنص. وبعد فهل اتخذوا

(1) ط: «بالرماح» ل: «بالذماح». وانظر ياقوت (دماخ، غمرة). ل: «خي بني بدر».

(2) «من ورقها» ساقطة من ل. (3) ط: «طعامكم».

(4) ط: «البعر والبول والرمّة».

(5) الجدف بالتحريك: نبت يكون باليمن لا يحتاج أكله معه إلى شرب ماء. ابن الأثير. وفي ط: «الجدف» وهو تحريف.

(6) ط. ش: «وإن» وتصحيحه من ل وهذا الجزء ص 46.

(7) ط: «ظهرة» وهو تحريف. (8) ل: «ملأ بالخرافات» وهما بمعنى.

(9) ط: «ورد بأن التنزيل والحديث» والصواب في ل.

(10) ط: «فهو أثم».

كَلَبَ الضَّرْعَ إِلَّا لِيَحْرَسَ الماشية وأولادها من السباع؟ وهل عند الكلب عند طروق الأسد والنمر والذئب وجميع ما يقتات اللحمان من رؤساء السباع، إلا صياحه ونباحه وإنذاره ودلالته، وأن يشغلها بعض الشغل، ويهيج بها بعض الهجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها⁽¹⁾ من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنا متى وجدنا دهرًا تكثر فيه اللصوص ويفشو فيه السراق، وتظهر فيه الثقب، ويشيع فيه التسلق، ممن إذا أفضى إلى منزل القوم لم يرض إلا بالحريبة⁽²⁾ ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريد حتى يمر على النساء مكشفات، ومن عسى إذا أخذ المرأة أخذ يد ألا يرضى أن يتوعد بذبح الأولاد [و] أن يتقى بالمال⁽³⁾، حتى يذبح، ومن عسى إن تمكن شيئًا أو أمن قليلًا، أن يركب الحرّم بالسوء العظمى وبالتي لا شوى لها⁽⁴⁾. فهذا الحال أحق بالحراسة من تلك الأحوال.

وبعد فلم صار نساء الحرمين يتزاوّن ليلاً، ونساء المصريين⁽⁵⁾ يتزاوّن نهاراً، ونساء الحرمين لا يرين نهاراً، ونساء المصريين لا يُرين ليلاً؛ إلا للمكابرات ولمكان كثرة من يستقفى ويتحوب⁽⁶⁾ للنقب والتسلق. وإذا كان الأمر كذلك فأئ الأمور أحق بالتحصين⁽⁷⁾ والحياطة، وأيهما أشبه بالتغير والإضاعة: اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقظة السراق على قدر نوم المسروقين. وعلى أنا لو حلنا⁽⁸⁾ بين حرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس⁽⁹⁾، وبين اتخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضمان الحراسة، ولا تمتنع كل محروس من إعطائهم⁽¹⁰⁾ تلك الأجرة، ولوجد اللصوص ذلك من أعظم الغنم وأجود الفرص⁽¹¹⁾. أو ما تعلمون أن هذا الحريم، وهذه الحرمات⁽¹²⁾ وهذه العقائل من الأموال، أحق بالمنع والحراسة والدفع عنها بكل حيلة، من حفظ الغنم وحريم الراعي وحُرمة الأجير؟!

وبعد فإن الذئب لا تجتمع على قطيع واحد، والذي يخاف من الذئب السلة والخطفة⁽¹³⁾، والاستلاب والاختلاس. والأموال التي في حوانيت التجار وفي منازل أهل اليسار يأتيها من العدد والعدة، ومن نجب أصحاب النجدة، ومن يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثم يجالدون دون ذلك⁽¹⁴⁾ بسيوف الهند وبالأذرع الطوال. وهم من بين جميع الخليقة لولا⁽¹⁵⁾ أنهم قد أحسوا من أنفسهم الجراءة وثبات العزيمة، بما ليس من

(1) ل: «إليه».

(2) الحريبة: المال الذي يعيش به الإنسان، أو المال الذي يسلب منه. وفي ط: «بالحريبة».

(3) ل: «وإن لم يتق بالمال» والوجه ما في ط. (4) يريد بالإصابة التي لا تخطئ.

(5) ط: «المصريين» وهو تحريف. (6) ط: «ومن يتخوف».

(7) ط: «بالتحصيل» وهو تحريف. (8) ط: «جعلنا» وهو تحريف.

(9) ط: «جراة الناس» وهو تحريف. وسبق قريباً تفسير الحريبة.

(10) في الأصل: «إعطائهم» والضمير ضمير الحرس. فالصواب ما كتبت.

(11) في الأصل: «الغرض». (12) ط: «الحريمات».

(13) ل: «والخطف» وهما بمعنى (14) ط: «على ذلك».

(15) ل: «أولى» والصواب في ط.

غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولولا أن قلوبهم أشد من قلوب الأسد لما خرجوا، على أن جميع الخلق يطالبونهم، وعلى أن السلطان لم يؤل^(١) إلا لمكانهم. و[الكلاب لم تتخذ إلا ل] الإنذار بهم، وعلى أنهم إن أُنذِرَ بهم قاتلوا قتال من لا ينجيه إلا القتال، وعلى أنهم إذا أخذوا ماتوا كراماً. ولعل المدينة قد كانت [في] ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد^(٢) وكان أكثر كلابها عقوراً، وأكثر فتيانها من بين مُهارشٍ أو مقامرٍ. والكلب العقور والكلب الكلب أشد مضرّة من الذئب المأمور بقتله. وقد يعرض للكلاب الكلب والجنون لأُمور: منها أن تأكل لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يعرض لسائر الحيوان.

(قتل العامة للوزغ)

وجُهل الناس [اليوم] يقتلون الوزغ، على أن آباءها وأمهاتها^(٣) كانت تنفخ على نار إبراهيم، وتنقل إليها الحطب. فأحسب أن آباءها وأمهاتها قد كن يعرفن فضل^(٤) ما بين النبي والمنتبي، وأنهن اعتقدن عداوة إبراهيم، على تقصير في أصل النظر، أو عن معاندة بعد الاستبانة حتى فعلن ذلك - كيف جاز لنا أن تزر وازرة وزر أخرى؟! إلا أن تدعوا أن هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدة للنبوّة، والكافرة بالربوبية، وأنها لا تتناكح ولا تتوالد. وقد يستقيم في بعض الأمر^(٥) أن تقتل أكثر هذه الأجناس، إمّا من طريق المحنة والتعبد^(٦) وإمّا إذ^(٧) كان الله عز وجل قد قضى على جماعتها الموت، أن يجري ذلك المجري على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت.

وبعد فلعل النبي ﷺ قال هذا القول [إن] كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم. ولعل ذلك كان على معني كان يومئذ معلوماً فترك الناس العلة ورووا الخبر^(٨) سالمين من العلل، مجرداً غير مضمّن^(٩). ولعل من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوله، ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام إلى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء. وكل ذلك ممكن سائغ^(١٠) غير مستنكر ولا مدفوع. وقد رويتم [في الفواسق ما قد رويتم في^(١١) الحية والحدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم في الكلب العقور، وكيف يُقتلن^(١٢) في الحل والحرم. فإن كنتم فقهاء فقد علمتم أن تسمية الغراب بالفسق، والفأرة بالفويسقة؛ أن ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق^(١٣)، ولا من شكل تسمية إبليس.

-
- (١) ط: «يولهم». (٢) ل: «مأمونة من أهل الفساد» وأثبت ما في ط.
 (٣) ط: «آبأها وأمهاتها» والوجه ما في ل.
 (٤) فصل: فرق. وفي الأصل: «فضل». (٥) ل: «في البدي الأمر»
 (٦) ط: «وإمّا إذا». (٧) ط: «غير مميز»
 (٨) ط: «وردوا الخبر» وهو تحريف
 (٩) ل: «شائع» وهو تحريف ما في ط.
 (١٠) ط: «يقتل» والوجه ما في ل.
 (١١) في الأصل: «من».
 (١٢) ط: «القاذق». ل: «القاذف» والوجه ما أثبت.

وقد قالوا: ما فجرها إلا فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه. وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقد قال ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة⁽¹⁾ فلا يقربن مصلاناً» وهو على غير قوله عز وجل ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: 26]. وقد قال بعض الرُجَّاز وذكر ذئباً:

أما أُنَاكَ عَنِّي الْحَدِيثُ إذْ أَنَا بِالْغَائِطِ أَسْتَغِيثُ
والذئبُ وَسَطٌ غَنَمِي يَعِيبُ وصَحْتُ بِالْغَائِطِ يَأْخُبِيْتُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم. وقد يشبه الاسم الاسم في صورة تقطيع الصوت، وفي الخط في القِرطاس، وإن اختلفت أماكنه ودلائله، فإذا كان كذلك فإنما يعرف فضله بالمتكلمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام، وهذه جملة، وتفسيرها يطول.

(القتل والقصاص)

وقالوا: قد أمرنا بقتل الحيّة والعقرب، والذئب والأسد، على معنئ ينتظم معنئين⁽²⁾: أحدهما الامتحان والتعبّد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة. وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العصي لا تُغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمر بالقصد إلى قتله، وإنما الغاية في دفع بأسه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارق مات من قطع يده، وقاذف مات عن جلد ظهره⁽³⁾. وقد أمرنا بالقصد إلى قتل الحيات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأنّ جنسها الجنس المتلف متى همّ بذلك. وليس لنا أن نضرب الباغي بالسيف إلا وهو مقبل غير مدبر، ولنا أن نقتل الحيّة مقبلة ومدبرة، كما يُقتل الكافر مقبلاً ومدبراً؛ إلا أنّ قتل الكافر يجمع الامتحان⁽⁴⁾ والعقوبة، وليس في قتل الحيّة إلا الامتحان. وقد كان يجوز أن تمتحن بحبسها⁽⁵⁾ والاحتياط لمنعها، دون قتلها. وإذا ولّى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس [أبدأ] إلى أن يؤنس منه النزوع. وسبيل الأحناش والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات، القتل مقبلة ومدبرة. وقد أبيع لنا قتل ضروب من الحيوان عند ما يبلغ من جنائياتها علينا الخدش، فضلاً عن الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

والبعير قتلُه فساد، فإن صال على الناس كان قتلُه صلاحاً، والإنسان قتلُه حرام، فإن خيف منه كان قتلُه حلالاً.

(1) قال ابن الأثير: يريد الثوم والبصل والكراث

(2) في الأصل: «بمعنيين»، وهو تحريف.

(3) ط: «من جلد ظهره». (4) ط: «الانتقام».

(5) ط: «يمتحن لجنسها» وهو تحريف.

(طائفة من المسائل)

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجِرِّيِّ، وعن مسخ الكلاب والحُكَاةِ وَأَنَّ الحمامَ شيطان، من جنس المُنْزاح الذي كُتِبَنا به إلى بعض إخواننا⁽¹⁾ مَمَّنْ يدَّعي علمَ كُلِّ شيء، فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار، من باب المسائل.

فقلنا له: ما الشَّنْقَنَاقُ والشَّيْصَبَانُ⁽²⁾ وتنكوير⁽³⁾ ودركاذب⁽⁴⁾ وَمَنْ قاتل امرأة ابنِ مقبل؟ ومن خاتق الغريض⁽⁵⁾؟ ومن هاتف سعد⁽⁶⁾؟ وخبرنا عن بني أقيش⁽⁷⁾ وعن بني لبنى، وَمَنْ زَوْجُهَا؟ وعن بني غَزْوان ومن امرأته؟ وعن سملقة وزوبعة⁽⁸⁾، والميدعان⁽⁹⁾، وعن النقار ذي الرقبة⁽¹⁰⁾ وعن آصف، ومن منهم أشار بأصفر سليم⁽¹¹⁾، وعن أطيقس اسم كلب أصحاب الكهف، وكيف صارت الكلاب لا تنبح من سمائه⁽¹²⁾؟ وأين بلغ كتابُ شَرطهم؟ وكيف حَدَّثوا عن ابن عباس في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّيِّ، أَتَهَنَّ كَلَهَنَّ مِسْخ [وكيف خُصَّتْ هذه بالمِسْخ؟] وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عباس؟ وكيف صارت الطباء ماشية الجن؟ وكيف صارت الغيلان تُغيِّر كلَّ شيء إلاَّ حوافرها؟ ولم ماتت من ضربة وعاشت من ضربتين⁽¹³⁾؟ ولم صارت الأرانب والكلاب والتَّعَامُ مراكب الغيلان؟ ولم صارت الرواقيد مطايا السَّواحِر؟ وبأي شيء زَوَّجَ أَهْلُ السَّعْلاة ابن يربوع؟ وما فرق ما بينه وبين عبد الله بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي

(1) هو أحمد بن عبد الوهاب الذي صنع فيه الجاحظ رسالة «التربيع والتدوير».

(2) الشنقناق والشيصبان - زعموا - : رئيسان عظيمان من الجن . وسيتحدث عنهما الجاحظ في الجزء السادس . وانظر الثمار ص 55 وفي ل : «الشيصمان» محرفاً .

(3) ل : «تنكوير» وفي رسائل الجاحظ 106 : «بركوير» . (4) ل : «ركازات» وفي الرسائل : «دركاذب» .

(5) الغريض هو عبد الملك، كان مولداً من مولدي البربر . ولولاه للثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة، وكان من رؤساء الغناء أخذ عن ابن سريج، وانظر حديث قتل الجن له في الأغاني 2 : 143 .

(6) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي، صحابي كان سيد الخزرج، وكان يلقب في الجاهلية بالكامل، لمعرفة الكتابة والرمي والسباحة، توفي سنة 15 وزعموا أن الجن قتله، وسمع هاتفه يقول :

قد قتلنا سيد الخزر ج سعد بن عباده
ورميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

(7) ط : «ابن أقيش» ! وبنو أقيش : حي من الجن .

(8) زوبعة، هو الجني الذي صنع لسليمان صرخاً ممرداً من قوارير . التيجان 161، وانظر 6 : 147 .

(9) ط : «والميدعات» . (10) ل : «النقاد ذي الرقبة» .

(11) أصفر سليم . قال الشعالي في ثمار القلوب 119 : «كان سليم صيدلانياً بالبصرة، وقد عجن دواء أصفر لكل ما شرب له، فكان يستشفى به كل مبرود ومحروور، فصار مثلاً في البركة وحسن الموقع» اهـ . وقال ابن قتيبة في المعارف 265 : «كان لعبيد الله بن أبي بكر ثلاثة وكلاء : يقال لهم سليم الناصح، وسليم الغاش، وسليم الساحر، وهذا هو الذي عمل أصفر سليم» . في ط : «أشعار بأصغر سليم» وهو تحريف صوابه في ل ، س ، وم .

(12) ط : «أطيغش» . وفي ل : «من سماها» وهو تحريف . وانظر قول الدميري في كلب أصحاب الكهف 2 : 428 .

(13) سيتحدث الجاحظ عن هذا في الجزء السادس ص 149 - 150 .

وأبي منصور⁽¹⁾؟ ولم غضب من ذلك المذهب؟ ولم مضى على وجهه ششف⁽²⁾؟ وما الفرق بين الغيلان والسعال، وبين شيطان الخضراء⁽³⁾ وشيطان الحماطة؟ ولم علّق السمك المالح بأذناه [والطري بأذانه]⁽⁴⁾ وما بال الفراخ تحمّل بأجنحتها والفراريح بأرجلها؟ وما بال كل شيء أصل لسانه ممّا يلي الحلق⁽⁵⁾ وطرفه ممّا يلي الهواء، إلّا لسان الفيل؟ ولم قالت الهند: لولا أنّ لسانه مقلوب لتكلّم؟ ولم صار كلّ ماضغ وأكل يُحرّك فكّه الأسفل، إلّا التمساح [فإنه]⁽⁶⁾ يحرك فكّه الأعلى؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلّا في الأجفان العالية؟ وما بال عين الجرادة وعين الأفعى لا تدوران؟ وما بيضة العُقر⁽⁷⁾ وما بيضة الديك؟ ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكون الأبلق العقوق⁽⁸⁾ وما بال لسان سمك البحر [عديماً]؟ وما بال الغريق من الرّجال يطفو على قفاه، ومن النساء على وجهه⁽⁹⁾؟ ولم صار القتل إذا قُتل يسقط على وجهه ثم يقبله ذكره، وأين تذهب⁽¹⁰⁾ شقشقة البعير وغُرمول الحمار [والبغل] وكبد الكوسج بالنهار، ودُم الميت؟ [ولم انتصب خلق الإنسان من بين سائر الحيوان]؟ وخبرني عن الضفادع، لم صارت تنقّ بالليل⁽¹¹⁾ وإذا أوقدت النار أمسكت⁽¹²⁾؟.

وقالوا: قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخرافة. لنردّكم إلى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر⁽¹³⁾. فإن أعجبتك هذه المسائل، واستطرفت هذا المذهب، فاقرأ رسالتي⁽¹⁴⁾ إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب، [فهي مجموعة هناك].

(أصناف الكلاب)

والكلاب أصناف لا يحيط بها⁽¹⁵⁾ إلّا من أطال الكلام. وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضّراء، وواحدتها ضروة⁽¹⁶⁾، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلّا السّلوقيّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها⁽¹⁷⁾، والخلاسية⁽¹⁸⁾ هجنها ومقاريفها. وكلاب الرعاء من زينيّها وكرديةا فهي كرادتها⁽¹⁹⁾.

(1) ل: «سمية نصير على يد جرمي . . إلخ».

(2) ل: «سفسف».

(3) ط: «الحصر».

(4) ط: «الميح بأذناه»، وتعليق السمك الطري بأذانه عبارة تهكمية، فليس للسمك أذن ظاهرة.

(5) ط: «مما يلي الفم» ل: «مما يلي داخل».

(6) حرف يحتاج إليه الكلام.

(7) ل: «العصفور» وهو تحريف. وبيضة العقوق هي التي تمتحن بها المرأة عند الافتضاخ أو أول بيضة الدجاجة، أو آخرها، أو بيضة الديك يبيضها في السنة مرة.

(8) الأبلق: الفرس فيه سواد وبياض، وهو ذكر. والعقوق: الحامل أو الحائل، وهي أنثى. ولا يكون الذكر أنثى.

(9) ل: «يظهر على قفاه». ط: «ومن النساء على وجهها».

(10) ط: «وما بال».

(11) النقيق: صوت الضفدع. وفي ط: «تنق»، والنقيق إنما هو لليوم والغربان.

(12) ل: «إذا أبصرت النهار أمسكت» وهو تحريف، صوابه في ط وفي الحيوان 4: 298.

(13) هذه الفقرة دخيلة وليس هذا موضعها.

(14) في الأصل: «فاقرأ رسالتي» والوجه «فاقرأ».

(15) ل: «لا يحصيها».

(16) ط: «ضار» وهو تحريف.

(17) في الأصل: «وهي في أحرار الكلاب وعتاقها» وصححته كما ترى.

(18) ط: «الجلاسية» وهو تصحيف.

(19) كذا وفي ل: «حوادبها ومحامرها».

وقد تصيد الكلاب غير السلوقيّة، ولكنّها تقصّر عن السلوقيّة بعيداً. وسلوق من أرض اليمن كان لها حديد جيّد الطبع، كريم العنصر حرّ الجوهر. وقد قال النابغة⁽¹⁾:

تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الْخُبَابِ

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلبٍ وقد دنا خطمه من عَجَبِ ذنبِ الظبي⁽²⁾ وهو يقول: إيه فدتك⁽³⁾ نفسي!! وأنشد لبعض الرجاز⁽⁴⁾:

مَفْدِيَّاتٍ وَمَلْعَنَاتٍ⁽⁵⁾

قال صاحب الديك: فلما صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنذالة، والحرص والشرة⁽⁶⁾، والبذاء والتسرّع وأشباه ذلك، صاروا يشتقون من اسمه لمن هجّوه بهذه الخصال. وقال بشر:

وَاسْتَفْنِ بِالْوَجَبَاتِ عَنْ ذَهَبٍ لَمْ يَبْقَ قَبْلَكَ لَامِرِيٌّ ذَهْبُهُ⁽⁷⁾
يَرُدُّ الْحَرِيصَ عَلَى مِتَالِفِهِ وَاللَيْثُ يَبْعَثُ حَيْثُ كَلْبُهُ

(ما اشتق من اسم الكلب)

قال صاحب الكلب: لما⁽⁸⁾ اشتقوا من اسمه للأشياء المحمودّة أكثر قال عامر بن الطفيل⁽⁹⁾:

وَمَدَجَجَ يَسْعَى بِشِكَّتِهِ مُحَمَّرَةً عَيْنَاهُ كَالْكَلْبِ⁽¹⁰⁾

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب⁽¹¹⁾ بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة [بن نزار]. وفيهم من السباع أسد، وصبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقة من اسم الكلب. ومن هذا الباب كليب⁽¹²⁾ بن يربوع، وكلاب بن ربيعة، وكلب بن وبرة. ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر:

سَيَكْفِيكَ مِنْ ابْنِي نَزَارٍ لِرَاغِبٍ بَنُو الْكَلْبَةِ الشَّمُ الطَوَالُ الْأَشَاجِعِ⁽¹³⁾

والكلبة لقب مئة بنت علاج بن شحمة العنبري. وبنوها بنو الكلبة الذين سمعت بهم.

(1) ط: «الشاعر». والبيت من قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها:

كَلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

(2) ط: «الظباء» وهو تحريف. (3) ل: «إيها».

(4) ط: «الرجال». (5) ط: «مفديّات ومحميات».

(6) في الأصل: «الشدّة»، وإنما هو الشره قرين الحرص.

(7) المرتضى في أماليه 2: 29 قبل ذكر هذا البيت: «قال ابن السكيت: يقال فلان يأكل الوجبة إذا كان يأكل في اليوم والليله وجبة». وفي ل: «الوجنات» وهو تحريف.

(8) في الأصل: «كلما» والوجه ما أثبت.

(9) في الأغاني (12: 50) أن الشعر للحارث بن الطفيل.

(10) المدجج عني به القنفذ، للشوك الذي عليه. اللسان (دجج) والمخصص 8: 95.

(11) ل: «أكلب».

(13) ما عدا ل: «لواغب». وانظر الاشتقاق 193.

تزوجها خزيمة بن [النعمان] من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمهم. وفيها يقول شبيل بن عذرة⁽¹⁾ الضُّبَيْعِي صاحب الغريب - وكان شيعياً من الغالية⁽²⁾، فصار خارجياً من الصُّفَرِيَّة:

بنو كلبه هَرَّارَةٌ وَأَبُوهُمْ خُزَيْمَةُ عَبْدٌ خَامِلٌ الْأَصْلُ أَوْكَسُ
وفي مَيَّة [الكلبة] يقول أبوها، وهو علاج بن شحمة⁽³⁾:

إِنْ تَكُ قَدْ بَانَتْ بِمَيَّةَ غَرِيبَةً فَقَدْ كَانَ مِمَّا لَا يُمَلُّ مَزَارُهَا⁽⁴⁾
دَعَتْهَا رَجَالٌ مِنْ ضُبَيْعَةٍ كَلْبَةٍ وَمَا كَانَ يُشْكِي فِي الْمَحُولِ جَوَارُهَا⁽⁵⁾

ومما اشتق له من اسم الكلب من القرى والبلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الواقعة التي كانت بإرم الكلبة⁽⁶⁾. ومن ذلك قولهم: حين نزلنا من السَّراة صرنا إلى نجد الكلبة. وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوءة من السَّراة⁽⁷⁾ أَنَّ بني أخته قتلوا كلبه لجاره، وكانوا أعداء منه⁽⁸⁾ فغضب ومضى، فسَمِّي ذلك النجد الذي هبط منه نَجْدُ الْكَلْبَةِ. [وبطسوج بادوريا نهر يقال له: نهر الكلبة].

ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب. ومن ذلك قولهم: عبَّاد بن أنف الكلب. ومن ذلك أبو عَمَرَ الْكَلْبُ الْجَرَمِيُّ النُّحُوي⁽⁹⁾، وكان رجلاً من العلية عالماً. عروضيّاً [نحويّاً] فرضياً. وعَلُويّه⁽¹⁰⁾ كلب المطبخ، وكان أشرب الناس للنبذ، وقد راهنوا بينه وبين محمد بن علي.

والكلب: كلب الماء، وكلب الرحي⁽¹¹⁾ والضبة التي يقال لها الكلب. وكذلك الْكَلْبَةُ وَالْكَلْبَتَانِ، وَالْكَلَّابُ وَالْكَلُّوبُ.

(1) هذا العلم كثيراً ما يقع فيه التحريف والتصحيح؛ فقد ورد في خزنة الأدب (انظر 1: 92) برسم (شبيل بن عمرو)، وفي الأمالي 1: 48 (شبيل بن عروة) وفي فهرست ابن النديم 58 مصر (شبيل بن عرعة) وفي القاموس (شبيل بن عروة) وفي ط من الحيوان (شبيل بن عذرة)، وصواب هذا كله ما أثبتته من ل، وما نبه عليه الزبيدي في تاج العروس، وكما ضبطه ابن دريد في الاشتقاق 193 جوتنجن، وقد نبهت على ذلك في تصحيحي للخزانة وشبيل هذا من خطباء الخوارج وعلمائهم، وله قصيدة في الغريب، وكان أولاً رافضياً ثم انتقل إلى الشراة وبرئ من الروافض، ومات بالبصرة. هذه ترجمة ابن النديم له، وهي تشبه ترجمة الجاحظ.

(2) ط: «من كبار الشيعة» ومثله في ش.

(3) ل: «سحمة».

(4) ط: «مبالاً يمل» وهو تحريف.

(5) ل: «في المحل».

(6) إرم الكلبة: موضع قريب من النجاج بين البصرة والحجاز، وللعرب فيه يوم قتل فيه بجير بن عبد الله بن سلمة، قتله قعنب الرياحي. معجم البلدان.

(7) ل: «من أزد شنوءة بالسراة».

(8) أعد منه: أكثر عدداً. وفي ل: «أنجد». وفي ط: «لجارهم» موضع «لجاره».

(9) هو صالح بن إسحاق الجرهمي مول جرم بن ربان، أخذ عن الأخفش ويونس وأبي عبيدة، وحدث عنه المبرد ومات سنة 225. وفي الأصل: «أبو عمرو» وهو تحريف. انظر نزهة الألباء 198 وبغية الوعاة 268 ووفيات الأعيان 1: 228.

(10) ط: «علمويه». محرف. وانظر الحيوان 2: 129.

(11) ط: «الرحاء» وهو تحريف.

وقال راشد بن شهاب في ذلك المعنى :

أَمْكُنْ كِلَابَ الْقَنَا مِنْ ثُغُورِهَا وَأَخْضِبْ مَا يَبْدُو مِنْ اسْتَاهِهَا بِدَمٍ⁽¹⁾
[وقال]:

فَسَوْفَ يَرَى الْأَقْوَامُ دِينِي وَدِينَكُمْ إِذَا كَلَبْتَا قَيْنَ وَمِقْرَاضَهُ أَزَمَ⁽²⁾
وقال الراجز:

مَا زَالَ مَذْكَانٌ غُلَامًا يَسْتَتِرُ⁽³⁾ لَهُ عَلَى الْعَيْرِ إِكَافٌ وَتَفَرُّ
وَالْكَلْبَتَانِ وَالْعَلَاةُ وَالْوَتَرُ

وقال أشهب بن زُمَيْلَةَ، وكان أَوَّلَ مَنْ رَمَى بَنِي مَجَاشِعَ بِأَنَّهُمْ قُيُونُ:

يَا عَجَبًا هَلْ يَرْكَبُ الْقَيْنُ الْفَرَسَ وَعَرَقَ الْقَيْنَ عَلَى الْخَيْلِ نَجَسٌ⁽⁴⁾
وَأَنَّمَا أَدَاتُهُ إِذَا جَلَسَ الْكَلْبَتَانِ وَالْعَلَاةُ وَالْقَبَسُ

وكان اسم المزنوق فرس عامر بن الطفيل: الكلب. وقد زعمت العلماء أنَّ حرب أيام هَراميت⁽⁵⁾ إِنَّمَا كَانَ سِبْهَ كَلْبٍ.

قال صاحب الديك: قد قيل للخوارج: كلاب النار، وللنوائح: كلاب النار.

وقد قال جندل بن الراعي [لأبيه] في وقوفه على جرير: مَالِكٌ تُطِيلُ الْوُقُوفَ عَلَى كَلْبِ
بَنِي كَلِيبٍ؟! وقال زفر بن الحارث:

يَا كَلْبُ قَدْ كَلِبَ الزَّمَانُ عَلَيْكُمْ وَأَصَابَكُمْ مِنَّا عَذَابٌ مُرْسَلٌ
إِنَّ السَّمَاءَ لَا سَمَاوَةَ فَالْحَقَى بِمَنَابِتِ الزَّيْتُونِ وَابْنِي بِحَدَلٍ⁽⁶⁾
وَبَأَرْضِ عَكٍّ فِي السَّوَاوِحِلِ إِنَّهَا أَرْضٌ تَذُوبُ بِهَا اللَّقَاحُ وَتُهَزَّلُ

وقال حُصَيْنُ بْنُ الْقَعْقَاعِ⁽⁷⁾ يَرِثِي عُتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ:

بَكَرَ النَّعْيُ بِخَيْرِ خِنْدِفٍ كُلِّهَا بَعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ
قَتَلُوا ذُؤَابًا بَعْدَ مَقْتَلِ سَبْعَةٍ فَشَفَى الْغَلِيلَ وَرَبَّةَ الْمَرْتَابِ
يَوْمَ الْحَلِيسِ بِذِي الْفَقَارِ كَأَنَّهُ كَلِبٌ بِضَرْبِ جَمَاجِمٍ وَرِقَابِ
وقال آخر⁽⁸⁾:

لِلَّهِ دُرٌّ بِنِي الْحَدَاءِ مِنْ نَفَرٍ وَكُلُّ جَارٍ عَلَى جِيرَانِهِ كَلِبٌ

(1) ط: «من نحوره». (2) ط: «كلبت قين» وهو تحريف. وفي ل: «بدم» بدل «أزم» وهو تحريف.

(3) ل: «تستبر».

(4) ل: «لحس» وهو تحريف، وأشهب يهجو بهذا الشعر الفرزدق. وانظر خبر الشعر في خزنة الأدب 2: 510 بولاق.

(5) يوم الهراميت كان بين الضباب وجعفر بن كلاب، وهو من أيام العرب في الإسلام، وكان في زمن عبد الملك بن مروان. معجم البلدان (هَراميت) والعمدة لابن رشيقي 2: 167 والحرب مؤنثة، وقد تذكر. القاموس.

(6) ط: «جندل» وكذلك في ل. وأثبت ما في س والأغاني 17: 113

(7) ط: «حصين بن القا». (8) هو بشر بن أبي خازم كما في البيان 3: 75. وانظر كلام الجاحظ في هذا الشعر.

إِذَا عَدَوْا وَعَصِي الطَّلَحَ أَرْجُلُهُمْ كَمَا تَنْصَبُ وَسَطَ الْبَيْعَةِ الصُّلْبُ
وإذا كان العود سريع العلوق في كل زمانٍ أو كل أرض⁽¹⁾، أو في عامة ذلك قالوا: ما
هو إلا كلب.

وقالوا: قال النبي ﷺ [في وزر بن جابر⁽²⁾] حين خرج من عنده واستأذنه إلى أهله:
«نعم إن لم تدركه أم كلب» يعني الحمى. ومما ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة
والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال رؤبة:

لَاقَيْتَ مَطْلًا كُنْعَاسَ الْكَلْبِ⁽³⁾

يقول: مطلاً مقرمطاً⁽⁴⁾ دائماً. وقال الشاعر في ذلك:

يَكُونُ بِهَا دَلِيلَ الْقَوْمِ نَجْمٌ كَعَيْنِ الْكَلْبِ فِي هُبَى قِبَاعِ⁽⁵⁾

قال: هذه أرض ذات غبرة من الجذب⁽⁶⁾ لا يبصر القوم فيها النجم الذي يهتدى به إلا
وهو كأنه عين الكلب، لأن الكلب أبداً مغوص غير مطبق الجفون ولا مفتوحها. والهبي:
الظلمة واحدها هاب، والجمع هبي مثل غاز وغزى. والقباع: التي قبع في القتام، واحدها
قابع، كما يقنع القنفذ وما أشبهه في جحره. وأنشد لابن مقبل:

وَلَا أَطْرُقُ الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ قَابِعًا قُبُوعَ الْقَرْنَبِيِّ أَخْلَفْتَهُ مَجَاعِرُهُ⁽⁷⁾

والقُبوع: الاجتماع والتقبُّص. والقَرْنَبِيُّ: دُوَيْبَّةٌ أعظم من الخُنْفَسَاءِ.

(شعر في الهجاء له سبب بالكلب)

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب:

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلَ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ الْبَحْرَانِ
إِنَّ الْأَرَاقِمَ لَا يَنَالُ قَدِيمَهَا كَلْبٌ عَوَى مَتَهَتَّمِ الْأَسْنَانِ⁽⁸⁾

وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان:

لَبِئْسَ مَا خَلَفَ الْأَبَاءَ بَعْدَهُمْ فِي الْأُمَّهَاتِ عِجَانُ الْكَلْبِ مَنْظُورٌ

ومن هذا الضرب قول الأعرابي⁽⁹⁾:

(1) في الأصل: «وكل أرض» والوجه ما أثبت.

(2) كان ممن وفد مع زيد الخيل إلى الرسول ﷺ. وانظر الحيوان 2: 175.

(3) للثعالبي قول في هذا البيت بشار القلوب 316، وانظر أمثال الميداني (أنوم من كلب) 2: 280.

(4) في ط: «مقرطاً» وليس له معنى يصح. وأصل القرمطة: مقارنة الخطو.

(5) ط: «هبا» والصواب في ل. وانظر الميداني (كعين الكلب الناعس).

(6) ط: «الحر».

(7) في الأصل: «أسلمته مجاحره» وانظر ص 172 من هذا الجزء.

(8) ل: «لن ينال قديمها». والشعر للفرزدق كما في البيان 3: 248، وقد سبق البيت الأول ص 42.

(9) من هنا يبتدئ سقط كبير في ل، وسأنبه على نهايته.

لصغرى فتى من أهلها لا يزيناها يعذب فيها نفسه ويهينها	لقد شان صغرى والياها وزينا كلاب لعاب الكلب ⁽¹⁾ إن ساق هجمة وقال عمرو بن معديكرب ⁽²⁾ :
وجوه كلاب هارشت فازبارت ولم أجعل النعماء لابن شعوب لدن غدوة حتى دنت لغروب	لحا الله جرماً كلما ذر شارق وقال أبو سفيان بن حرب: ولو شئت نجتني كميث طمرة وما زال مهري مزجر الكلب منهم وقال عبد الرحمن بن زياد:
من الطرف حتى خاف بصبصة الكلب وزادك أير الكلب شيطه الجمر كراديس من أوصال أعقد سافد	دعته بمسروق الحديث وظالع وقال شريح بن أوس ⁽³⁾ : وعيرتنا تمر العراق ونخله وقال آخر ⁽⁴⁾ وهو يهجو قوماً: فجاء بخرشاوى شعير عليهما وقال الحارث بن الوليد:
هشوا وقالوا: مرحباً بالمقبل ولغ الكلاب تهارشت في منهل وقال سبرة بن عمرو الفقيسي، حين ارتشى ضمرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنف	ذهب الذين إذا رأوني مُقبلاً وبقيت في خلف كأن حديثهم وقال سبرة بن عمرو الفقيسي، حين ارتشى ضمرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداوي ⁽⁵⁾ فقال سبرة:
والحكم مسئول به المتعمد أم هل سمعت بمثلها لا ينشد دنساً تغور به الرفاق وتنجد فلك اللقاء وراكب متجرد	يا ضمّر كيف حكمت أمك هابل أحفظت عهداً أم رعيت أمانة شنعاء فاقرة تجلل نهشلاً إن الرفاق أمال حكمك حبها

(1) كذا.

(2) له ترجمة في الخزائن 2: 388-390 والبيت من أبيات فيها، وانظر تنبيه البكري 42 وحماصة أبي تمام 1: 43 ومعجم البكري 28-29.

(3) الشعر في هجاء أبي المهوش الأسدي. وقد سبق القول فيه ص 193.

(4) هو اللعين المنقري كما في ص 191.

(5) ط: «عبادة». وفي أمالي المرتضى 3: 40 «عباد بن أنف الكلبي»، محرفة وفي الأصل: «الصيداني»، وإنما هو منسوب إلى بني الصيداء. المعمرين 43.

فضح العشيرة واستمر كآته
لا شيء يعدلها ولكن دونها
جوعان يلحس أسكتا زيفية
وقال مزرد بن ضرار:

وإن كناز اللحم من بكراتكم
وليت الذي ألقى فناؤك رحله
تهر عليها أمكم وتكالب
لتقريه بالث عليه الثعالب

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لامن باب الصفات وذكر الأعضاء . وقال :

يا سبر يا عبد بني كلاب
أكان هذا أول الثواب
يا أير كلب موثق بباب
يا ورا لا رقرق في سراب
لا يعلقنكم ظفري ونابي

وقال الآخر^(١) :

كأن بني طهية رهط سلمى
حجارة خارئ يرمي الكلابا

وقال صاحب الكلب : ومما اشتق من اسم الكلب في موضع النباهة ، كليب بن ربيعة ، هو كليب وائل . ويقال إنه قيل في رجلين من بني ربيعة مالم يُقْل في أحد من العرب ، حتى ضرب بهما المثل ، وهو قولهم : أعز من كليب وائل ، والآخر : « لآخر بوادي عوف » .

قالوا : وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوِّض حوضاً ، وكان يحمي الكلاء ولا يتكلم عنده إلا خفضاً ، ويجير الصيد ويقول : صيد أرض كذا وكذا في جوارى لا يباح . وكان له جرو كلب قد كتعه^(٢) فربما قذف به في الروضة تعجبه ، فيحميها إلى منتهى عوائه ، ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده بعير حتى تصدر إبله .

(ما قيل من الشعر في كليب)

وفي ذلك يقول معبد بن شعبة التميمي^(٣) :

أظن ضراراً أنني سأطيعه
وأنني سأعطيه الذي كنت أمنع
إذ اغرورقت عيناه واحمر وجهه
وقد كاذ غيظاً وجهه يتبضع^(٤)
تقدم في الظلم المبين عامداً
ذراعاً إذا ما قدّمت لك إصبع^(٥)

(١) هو جبرير كما في البيان 2 : 250 ، وللبيت حديث فيه . وانظر ثمار القلوب 399 .

(٢) كتعه بمعنى شد قوائمه . وانظر أمثال الميداني 1 : 466 والثمار 17

(٣) هنا ينتهي السقط في ل .

(٤) ط : « يتبضع » .

(٥) ل : « إذا ما أرخيت لك إصبع » .

كفعل كليب كنت أنبتت أنه يخلط أكلاء المياه ويمنع⁽¹⁾
يُجير على أفناء بكر بن وائل أرانب ضاح والظباء فترتع
وقال دريد بن الصمة:

لعمرك ما كليب حين دلى بحبل كلبه فيمن يميح⁽²⁾
بأعظم من بني سفيان بغياً وكل عدوهم منهم مريح⁽³⁾
وقال العباس بن مرداس:

كما كان يبغيها كليب بظلمه من العز حتى طاح وهو قتلها
على وائل إذ ينزل الكلب مائحاً وإذ يُمْنع الأكلاء منها حلولها⁽⁴⁾
وقال عباس أيضاً لكليب بن عهمة الظفري⁽⁵⁾:

أكليب إنك كل يوم ظالم والظلم أنكذ وجهه ملعون
تبغي بقومك ما أراد بوائل يوم الغدير سميك المطعون
وإخال أنك سوف تلقى مثلها في صفحتيك سنائه المسنون⁽⁶⁾
وقال النابغة الجعدي:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً وأيسر ذنباً منك ضرج بالدم
رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة كحاشية البرد اليماني المسهم
وقال قطران العسيمي، [ويقال العبيشي⁽⁷⁾]:

ألم تر جساس بن مرة لم يرد حمى وائل حتى احتداه جهولها⁽⁸⁾
أجر كليباً إذ رمى الناب طعنة جدت وائلاً حتى استخفت عقولها⁽⁹⁾
بأهون مما قلت إذ أنت سادر وللدهر والأيام وإل يديلها⁽¹⁰⁾
وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة⁽¹¹⁾:

نحن أبسنا تغلب ابنة وائل بقتل كليب إذ طغى وتخيلا⁽¹²⁾
أبأناه بالناب التي شق ضرعها فأصبح موطوء الحمى متذلاً⁽¹³⁾

(1) (يخلط) لعلها (يحلى). (2) ط: «كلية فيمن يميح». (3) ط: «منه».

(4) ط: «يرك الكلب» وتصحيحه من ل. وفي ل: «فيها حلولها».

(5) كذا في ل. وفي ط: «عيمة» وفي الإصابة 7448: «عيمة».

(6) ل: «سنانه مسنون». (7) كذا. ولعله «العبيسي».

(8) ط: «اعتداه». (9) ط: «حدث وائلاً». (10) ط: «دال».

(11) في الأغاني 14: 141: «وقال رجل من بني بكر بن وائل في الإسلام، وهي تنسب للأعشى».

(12) أبسنا: قهرنا وأذللنا. وفي ط: «تحوز النساء» وهو تحريف.

(13) أبأناه: جعلناه عدلاً فقتلناه بها. وفي ط: «أثابته بالناب» وليس بالشيء.

وقال رجل من بني سدوس:

وأنت كليبِي لِكَلْبٍ وَكَلْبَةٍ لَهَا حَوْلَ أَطْنَابِ الْبُيُوتِ هَرِيرُ

وقال ابن مقبل العجلاني:

بَكَتْ أُمُّ بَكْرٍ إِذْ تَبَدَّدَ رَهْطُهَا وَأَنْ أَصْبَحُوا مِنْهُمْ شَرِيدٌ وَهَالِكٌ

وإنَّ كَلَا حَيَّيْكَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا حَالُهَا مَتَمَّاسِكٌ⁽¹⁾

كَلَابٌ وَكَعْبٌ لَا يَبِيتُ أَخُوهُمْ ذَلِيلًا وَلَا تُعَيِّي عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ⁽²⁾

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج⁽³⁾، لمعاوية بن أبي سفيان:

قَدْ سِرَتْ سَيْرَ كَلِيبٍ فِي عَشِيرَتِهِ لَوْ كَانَ فِيهِمْ غَلَامٌ مِثْلُ جَسَّاسٍ

الطَّاعِنِ الطَّعْنَةَ النِّجْلَاءَ عَانِدُهَا كَطَرَّةِ الْبَرْدِ، أَعْيَا فَتَقُّهَا الْآسَى⁽⁴⁾

(أَهْوَنُ مِنْ تَبَالَةٍ عَلَى الْحَجَّاجِ)

وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق: كان أول عمل وليه الحجَّاج بن يوسف تبالة، فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل: أين هي، وعلى أيِّ سمت هي؟ قال: تسترك عنها هذه الأكمة. قال: لا أراني أميراً إلاَّ على موضع تسترني منه أكمة، أهوَنُ بها عليَّ؟! وكرَّ راجعاً، فقبل في المثل: «أَهْوَنُ مِنْ تَبَالَةٍ عَلَى الْحَجَّاجِ».

والعامة تقول: لهو أهوَنُ عَلَيَّ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى عَرَكُوكِ⁽⁵⁾.

(الْحَجَّاجُ وَالْمَنْجَمُ حِينَمَا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ)

قال: ولَمَّا حَضَرَتْ الْحَجَّاجَ الْوَفَاةُ وَقَدْ وَلَّى قَبْلَ ذَلِكَ مَا وَلَّى، وَافْتَتَحَ مَا افْتَتَحَ، وَقَتْلَ مَنْ قَتَلَ، قَالَ لِلْمَنْجَمِ: هَلْ تَرَى مَلَكًا يَمُوتُ؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَسْتُ بِهِ، أَرَى مَلِكًا يَمُوتُ اسْمُهُ كَلِيبٌ، وَأَنْتَ اسْمُكَ الْحَجَّاجُ. قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ كَلِيبٌ، أُمِّي سَمَّيْنِي بِهِ وَأَنَا صَبِيٌّ. فَمَاتَ، وَ[كَانَ] اسْتَخْلَفَ عَلَى الْخِرَاجِ⁽⁶⁾ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلَمٍ، وَعَلَى الْحَرْبِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ.

(1) ل: «وإن كل حييك منهم» وهو تحريف.

(2) ل: «ولا تعيا عليه المسالك».

(3) في نوادر أبي زيد 151 أن قاتل الشعر هو بشير بن أبي العباسي.

(4) العائد: «العرق يسيل فلا يرقأ». وفي ط: «عائدها» وهو تحريف، وفي ل: «عن عرض». وفي النوادر: «يعيا

فتقها» بنصب «فتقها»، قال: أراد يعيا بفتقها.

بهذا ينتهي الجزء الأول من النسخة التي رمزت إليها بحرف ل، وتستمر المقابلة على النسخة ش.

(5) كذا.

(6) في الأصل: «الخوارج» وهو تحريف. انظر المعارف لابن قتيبة 174، وقد زدت كلمة كان ليستقيم

الكلام.

(ما كان العرب يسمّون به أولادهم)

قال : والعرب إنّما كانت تسمّي بكلب، وحمار، وحجر، وجعل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى ⁽¹⁾ حجراً سمّي ابنه به وتفاءل فيه الشدة ⁽²⁾ والصلابة، والبقاء والصبر، وأنه يحطم ما لقي . وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأوّل فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وإن كان حماراً تأوّل فيه طول العمر والوقاحة والقوّة والجلد . وإن كان كلباً تأوّل فيه الحراسة واليقظة وبُعد الصوت، والكسب وغير ذلك .

ولذلك صوّر عبید الله بن زياد في دهلزيه كلباً وكبشاً وأسداً، وقال : كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح . فتطير إلى ذلك فطارت عليه .

وقال آخر : لو كان الرجل منهم إنّما كان يسمّي ابنه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجعل، على هذا المعنى فهلاًّ سمّي ببرذون ⁽³⁾، وبغل، وعقاب، وأشباه ذلك ؛ وهذه الأسماء من لغتهم .

قال الأول : إنّما لم يكن ذلك، لأنّه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً، ولعلّه لا يكون رأهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عديدة لأمرٍ لعلهم يحتاجون إليها يوماً ما .

قالوا : فقد كان يسمع بفرس وبغير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقّ منهما اشتقاقاً محموداً، بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمّي بنجم ولا يسمّي بكوكب ! إلّا أنّ بعضهم قد سمّي بذلك عبداً له، وفيه يقول :

كوكبٌ إن مُتْ فهَي مَيَّتِي لا مُتْ إلّا هَرماً يا كوكبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسند، وطود ⁽⁴⁾، ولا يسمّون بأحد ولا بتبّير وأجاء وسلمى ورصى، وصنّيد وحميم ⁽⁵⁾، وهو تلقاء عيونهم متى أطلّعوا رءوسهم من خيامهم . ويسمون ببُرّج ولا يسمون بفلك، ويسمون بقمر وشمس على جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسمّوا بأرض وسماء، وهواء وماء، إلّا على ما وصفنا . وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أنّ جبلاً أبلغ من حجر، وطوداً ⁽⁶⁾ أجمع من صخر . وتركوا أسماء جبالهم المعروفة . وقد سمّوا بأسد وليث وأسامّة وضِرْغامَة ⁽⁷⁾ . وتركوا أن يسمّوا بسبع وسبعة . [وسبع ⁽⁸⁾ هو الاسم الجامع لكلّ ذي ناب ومخلب .

(1) في الأصل : «ورأى» . (2) لعلها «بالشدة» فإن الفعل يتعدى بالباء . وانظر الاشتقاق 4-6 .

(3) في الأصل : سمى برذون والوجه ما أثبت . (4) في ط : «طور» وهما بمعنى .

(5) لعله «حنين» وجبال حنين يقول فيها القائل :

سقوني وقالوا لا تغن ولو سقوا (جبال حنين) ما سقيت لغنت

(6) في ط : «وطور» وهما بمعنى . (7) الضرغام والضرغامَة والضرعم كجعفر : الأسد .

(8) زيادة يقتضيها الكلام .

قال الأول: قد تسمّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمّوا بأبان وسلّمى.

قال آخرون: إنّما هذه أسماء ناس سمّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماء تركت لثقلها، أو لعلّة من العلل؛ وإلا فكيف سمّوا⁽¹⁾ بسلمى وتركوا أجاً ورّضوى.

وقال بعضهم: قد كانوا ربّما فعلوا ذلك على أن يتّفق لواحد ولودٍ ولمعظم جليل، أن يسمع أو يرى حماراً، فيسمّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب والذئب، ولن يتّفق في ذلك الوقت أن يسمع بذكر فرس ولا حِجر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسم رجل معظم، تتابعت عليه العرب تطيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خاصّة بعده. وعلى ذلك سمّت⁽²⁾ الرعية بنيتها وبناتها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليّ يكنى بأبي الحسن، وكلُّ عمّر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك. فالأسماء ضروب، منها شيء أصليّ كالسماء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماء أخرى مشتقات منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنه عميراً، ويسمّي عمير ابنه عمران، ويسمّي عمران ابنه معمرًا. وربّما كانت الأسماء بأسماء الله عزّ وجلّ مثل ما سمي الله عز وجلّ أبا إبراهيم آزر، وسمّي إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذة من أمورٍ تحدث في الأسماء؛ مثل يوم العروبة سمّيت في الإسلام يوم الجمعة، واشتقّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة.

(ما ترك الناس من ألفاظ الجاهلية)

وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعود إلى موضعنا الأوّل إن شاء الله تعالى. ترك النّاس مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السّلطان: الحُمْلان والمكّس. وقال جابر بن حنّي⁽³⁾:

أفي كلّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ وفي كلّ ما باع امرؤُ مكّسٍ درهم

وكما قال العبدئ في الجارود⁽⁴⁾:

أيابن المعلّي خلّتنا أم حسبّتنا صراريّ نعطّي الماكسين مكوساً⁽⁵⁾

وكما تركوا انعم صباحاً، وانعم ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟

(1) ط: «بسموا» وصوابه في س.

(2) في الأصل: «سميت» وهو تحريف ما أثبتّه.

(3) في الأصل: «خارجي» وهو تحريف عجيب. والبيت في اللسان (مكس)، وقصيدته في المفضليات 209-212.

(4) العبدى هو يزيد بن خذاق: كما في المفضليات 298، والجارود هو ابن المعلّي، صحابي كان سيد عبد القيس، قدم على الرسول ﷺ في وفد عبد القيس الأخير سنة عشر وأسلم وحسن إسلامه، وابنه المنذر بن الجارود، وحفيده الحكم بن المنذر الذي يقول فيه الأعشى:

يا حكم بن المنذر بن الجارود سراقك المجد عليك ممدود

قتل الجارود سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه. الإصابة 1038.

(5) ط: «أكابر»، س: «أكابن». وانظر المفضليات.

وقال قيس بن زهير بن جذيمة، ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: انعم ظلاماً أبا ضمرة!
قال: نعمت فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير. وعلى ذلك قال امرؤ القيس:

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يِعَمَّنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
وعلى ذلك قال الأول⁽¹⁾:

أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ مَنُوءَ قَالُوا سَرَاةَ الْجَنِّ قُلْتُ عَمُوا ظَلَامَا
وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع: أبيت اللعن، كما قيل⁽²⁾:

مَهْلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهُ

وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يُحْيَا بِتَحِيَّةِ الْمُلُوكِ وَيُقَالُ لَهُ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ. وتركوا ذلك
في الإسلام من غير أن يكون كفراً. وقد ترك العبد أن يقول لسيد ربه، كما يقال رب الدار،
ورب البيت. وكذلك حاشية السيد والملك تركوا أن يقولوا ربنا. كما قال الحارث بن حلزة:

رَبُّنَا وَابْنِنَا وَأَفْضَلُ مَنْ يَمُ شَيْ وَمَنْ دُونَ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
وكما قال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر:

وَأَهْلَكُنْ يَوْمًا رَبَّ كِنْدَةَ وَابْنَهُ وَرَبَّ مَعَدٍّ بَيْنَ خَبْتٍ وَعَزْعَرٍ

وكما عير زيد الخيل حاتماً الطائي في خروجه من طيئ ومن حرب الفساد، إلى بني
بدر، حيث يقول⁽³⁾:

وَفَرَّ مِنَ الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَلَمْ يَكُنْ بِهَا حَاتِمٌ طَبَّاءٌ وَلَا مِطْبَبٌ
وَرِيبٌ حَصْنًا بَعْدَ أَنْ كَانَ أَبِيًّا أَبْوَةً حِصْنٍ فَاسْتَقَالَ وَأَعْتَبَا
أَقِمَّ فِي بَنِي بَدْرِ وَلَا مَا يَهْمُنَا إِذَا مَا تَقَضَّتْ حَرْبُنَا أَنْ تَطْرِبَا

وقال عوف بن محلم⁽⁴⁾، حين رأى الملك: إنه ربي ورب الكعبة، وزوجه أم أناس
بنت عوف.

وكما تركوا أن يقولوا للقوام الملوك السدنة وقالوا الحجة⁽⁵⁾.

(1) البيت لشمير (أو سمير) بن الحارث الضبي كما في النوادر 123 وخزانة الأدب 3: 3 بولاق.

(2) البيت للبيد من أبيات لها خبر في الأغاني (14: 91-92).

(3) حرب الفساد كانت في الجاهلية بين جديلة والغوث. وانظر خمسة دواوين العرب 107 والأغاني (11: 127) وأمثال الميداني (2: 358).

(4) هو الذي يقال فيه: «لاحر يوادي عوف». أمثال الميداني 2: 167 وهو من بني ذهل بن شيبان، ومن أشرف العرب في الجاهلية توفي نحو 45 ق. هـ قاموس الأعلام 747، وهو غير عوف بن محلم الخزاعي، فإن هذا إسلامي كان ينادم طاهر بن الحسين وابنه عبد الله، وفارقه بقصيدته المشهورة التي فيها:

إِن الثَّمَانِينَ وَبَلَّغْتَهَا قَدْ أَحْجَتِ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانِ

(5) في الأصل: «بالسدنة وقالوا للجحية» وهو تحريف.

وقال أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن المَثَنَّى عن أبي عبد الرحمن يونس⁽¹⁾ بن حبيب النحوي حين أنشدَه شعر الأسدَي:

ومركضة صريحٍ أبوها تُهان لها الغلام والغلام⁽²⁾

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلام؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك، وأسماءه زالت مع زوال معانيها، كالمِرباع والنَّشِيطَة وبقى⁽³⁾ الصَّفايا؛ فالمِرباع: رُبع جميع الغنِمة الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنَّه الله تعالى. وأما النَّشِيطَة فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قِسمة المتاع العَلَقَ النفيس يراه إذا استحلاه. وبقى الصَّفيّ وكان لرسول الله ﷺ من كل مَعْنَم، وهو كالسيف اللَهْدَم⁽⁴⁾ والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشَّيء النادر. وقال ابن عَنَمَة الضبيّ⁽⁵⁾ حليف بني شيبان، في مَرثيته بِسطام بن قيس:

لك المِرباع منها والصَّفايا وحُكْمك والنَّشِيطَة والفُضُول

والفُضُول: فضول المقاسم، كالشَّيء إذا قسم وفضلت فَضْلُهُ استهلك، كاللؤلؤة، والسيف، والدَّرْع، والبيضة، والجارية، وغير ذلك.

(كلمات إسلامية محدثة)

وأسماءٌ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقَّتْ لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهليَّة والإسلام مُخَضَّرم كَأبي رجاء العُطاردِي⁽⁶⁾، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجعديّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنَّهم في الجاهليَّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون. ويقال إنَّ أوَّل من سمَّى الأرض التي لم تُحَفَّر قطُّ ولم تحرث إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغة حيث يقول:

إلا الأوارِيَّ لأياً ما أبَيَّئُها والنَّوَيَّ كالحَوْضِ بالمظلومةِ الجَلَدِ

ومنه قيل سِقَاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه. وقال الحادِرة:

ظَلَمَ البِطَاحُ له انهلالُ حَرِيصَةٍ فصفا النُّطافُ له بُعيدَ المَقْلَعِ

وقال الآخر:

(1) في الأصل: «عن أبي عبد الرحمن بن يونس» وكلمة «ابن» مقحمة، فإن أبا عبد الرحمن كنية يونس بن حبيب كما في بغية الوعاة 395 والمعارف 235 وقد أخذ عنه أبو عبيدة كما في البغية 395 توفي يونس سنة 182 عن ثمان وثمانين سنة.

(2) الجوهري: صريح: اسم فحل منجب. وأنشد هذا البيت.

(3) كذا ولعلها «نقى». (4) ش: «الهزام» وهما بمعنى.

(5) ط: «ابن غنمة» وصوابه في س. وابن غنمة هذا هو عبد الله، وهو ممن شهد القادسية، والبيت من أبيات ثمانية رواها أبو تمام في الحماسة 1: 420.

(6) لأبي رجاء ترجمة في الإصابة ج 7: 72 واسمه عمران بن ملحان أو ابن تيم.

قالت له ميٌّ بأعلى ذي سلم لوما تَزُورُنَا إذا الشعبُ أَلَمَ
ألا بلى يامي واليوم ظلم⁽¹⁾

يقول ظلم حين وضع الشيء في غير موضعه . وقال الآخر :

أنا أبو زينب واليوم ظلم⁽²⁾

وقال ابن مقبل :

عاد الأذلة في دارٍ وكان بها هُرْتُ الشَّقَاشِقُ ظَلَامُونَ لِلجَزُرِ
وقال آخر :

وصاحب صدقٍ لم تنلني أذاته ظلمتُ وفي ظلمي له عامداً أجُرُ
وقال آخر :

لا يَظْلِمُونَ إذا ضيفوا وطابَهُمْ وهم لجودهم في جُزُرِهِم ظلم
وظلم الجزور : أن يعرقوها ، وكان في الحق أن تنحر نحرًا . وظلمهم الجزر⁽³⁾ أيضاً أن ينحروها صِحاحاً سماناً لا علة بها .

قال : ومن ذلك قولهم : الحرب غشوم ؛ وإنما سميت بهذا لأنها تنال غير الجاني .

قال : ومن ذلك قولهم : «مَنْ أَشَبَّهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ» ، يقول : قد وضع الشبه في موضعه .

ومن المحدث المشتق ، اسم منافق لمن رآى بالإسلام واستسرى بالكفر أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدائم⁽⁴⁾ ، ومثل المشرك والكافر ، ومثل التيمم . قال الله تعالى : ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:6] أي تحرروا ذلك وتوخواه . وقال : ﴿فَأَمْسِكُوا بُجُوهَكُمْ وَآيْدِيَكُمْ مِّنْهُ﴾ [المائدة:6] فكثُر هذا في الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه . وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملاستهم له⁽⁵⁾ . وكما سموا رَجِيعَ الإنسان الغائط ، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر . ومنه العذرة ، وإنما العذرة الفناء ، والأفنية هي العذرات ، ولكن لما طال إلفاؤهم النجس والزبل في أفنيتهم ، سميت تلك الأشياء التي رَمَوْا بها ، باسم المكان الذي رميت به . وفي الحديث : «أَنْقُوا عَذِرَاتِكُمْ» . وقال ابن الرقيّات :

رَحِمَ اللَّهُ أَعْظَمًا دَفَنُوهَا بِسِسِجَسْتَانِ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ⁽⁶⁾
كان لا يحجب الصديق ولا يع
ولكنهم لكثرة ما كانوا يُلْقُونَ نجوهم في أفنيتهم سموها باسمها .

(1) اليوم ظلم : أي حقًا كما تقول لا جرم أي حقًا . وانظر اللسان (ظلم) والرجز فيه .

(2) في الأصل : «النوم ظلم» ، وانظر التنبيه السابق . (3) في الأصل : «الجزور» والوجه الجمع .

(4) هي من أسماء جحرة اليربوع السبع . انظر اللسان (دمم) .

(5) في الأصل : «صحبتهم وملاستهم له» .

(6) طلحة الطلحات ، هو طلحة بن عبد الله الخزاعي ، أحد أجواد العرب توفي سنة 65 ، وانظر ص 184 .

ومنه التجو: وذلك أَنَّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تسَّرت بنجوة.
والتجو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب يَنْجُو، كما قالوا ذهب يتغوَّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمَّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى.
وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضَّأ، وإلى المذهب، وإلى الخَلَاء، وإلى الحُشِّ، وإنَّما الحشَّ القطعة من النَّخل وهي الحِشَان. وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل؛ لأنَّ ذلك أستر، فسموا المتوضَّأ الحشَّ، وإن كان بعيداً من النخل؛ كلَّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب للخرء، لأنَّ الاسم الخرء، وكل شيء سواه من ⁽¹⁾ ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية. ومن هذا الباب المملَّة، والمملَّة موضع الحُبْزة، فسموا الحُبْزة باسم موضعها. وهذا عند الأصمعيّ خطأ. ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسميت المزادة باسم حامل المزادة. ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية.

ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صداقها. قالوا: وإنَّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصَّدَاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة. وقال شاعرهم:

وليس تِلادي من وِرائَةِ والدي ولا شاد مالي مُستَفاد النوافج

وكانوا يقولون: تهنيك النافجة. قال: فإذا كانوا يدفعون الصَّدَاق عينا وورقا فلا يقال ساق إليها الصَّدَاق. ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناء، كالقبة والخيمة والخيام ⁽²⁾، على قدر الإمكان، فيقال بنى عليها، اشتقاقاً من البناء، ولا يقال ذلك اليوم، والعروس إما أن تكون مقيمةً في مكانها أو تتحوَّل إلى مكان أقدم من بنائها.
قال: ومن ذلك قولهم في البغي المكتسبة بالفجور: قُحْبة، وإنَّما القُحَاب السعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عَمَّن زَنَتْ وتكسَّبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية. وقال الشاعر:

إنَّ السُّعَالَ هُوَ القُحَاب

[وقال ⁽³⁾]:

وإذا ما قَحَبْتَ واحدةً جَاوِبَ المَبْعِدُ مِنْهَا ⁽⁴⁾ فَخَضَفَ

وكذلك كان كنايةهم في انكشاف عورة الرجل، يقال كشف علينا متاعه وعورته وشواره. والشوار: المتاع ⁽⁵⁾. وكذلك الفرج وإنَّما [يعنون ⁽⁶⁾] الأير والحِرَّ والاسْت.

(1) في الأصل فراغ يتسع لكلمة واحدة.

(2) كذا في ط، ش، م.

(3) زيادة يقتضيها الكلام.

(4) ط: «فقحب» وأثبت ما ش، م، ومعنى خضف ضرط.

(5) في القاموس: «الشوار مثلثة: متاع البيت».

(6) زيادة يقتضيها الكلام.

(كلمات للنبي ﷺ، لم يتقدمه فيهن أحد)

وكلمات للنبي ﷺ، لم يتقدمه فيهن أحد⁽¹⁾ : من ذلك قوله : « إِذَا لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنَزَانٌ ». ومن ذلك قوله : « مَاتَ حَتْفُ أَنْفِهِ ». ومن ذلك قوله : « يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرَكَبِي » ومن ذلك قوله : « كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا »، وقوله : « لَا يَلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرْتِينَ ».

(شَنْشَنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَم)

وقال عمر رضي الله عنه : « شَنْشَنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَم »، يعني شبه ابن العباس بالعباس . وأخْزَم : فحل معروف بالكرم .

(ما يكره من الكلام)

وأما الكلام الذي جاءت به كراهية من طريق الروايات، فروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبِثَ نَفْسِي وَلَكِنْ لَيْقُلْ لَقِستَ نَفْسِي »، كأنه كره ﷺ أن يضيف المؤمن الظاهر إلى نفسه الخُبث والفساد بوجه من الوجوه . وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل : استأثر الله بفلان، بل يقال مات فلان . ويقال⁽²⁾ استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا .

قال النَّخَعِي : كانوا يكرهون أن يقال : قراءة عبد الله، وقراءة سالم وقراءة أبي، وقراءة زيد . وكانوا يكرهون أن يقولوا سَنَّةُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، بل يقال سَنَّةُ اللَّهِ وَسَنَّةُ رَسُولِهِ، ويقال : فلان يقرأ بوجه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا .

وكره مجاهد أن يقولوا مُسَيِّجِدٌ وَمُصَيِّجِفٌ، للمسجد القليل الذُّرْعُ، والمصحف القليل الورق . ويقول : هم وإن لم يريدوا التصغير فإنه بذلك شبيه .

(وجوه تصغير الكلام)

وربما صغروا الشيء من طريق الشَّفَقَّةِ والرَّفَقَةِ، كقول عمر : أخافُ على هذا العُريب . وليس التصغير بهم يريد . وقد يقول الرجل : إِنَّمَا فَلَانٌ أَخِيَّ وَصُدَيْقِي ؛ وليس التصغير له يريد . وذكر عمرُ ابنُ مسعود فقال : كُنَيْفٌ مُلَيَّ عَلَمًا⁽³⁾ . وقال الحباب بن المنذر⁽⁴⁾ يوم السَّقِيفَةِ : أَنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ، وَعُذَيْقُهَا الْمَرْجَبُ . وهذا كقول النبي ﷺ لعائشة : الحُمِيرَاءُ،

(1) انظر البيان 2: 15-16 وكتاب البغال 223 .

(2) ط : « ولا يقال » وصوابه في ل .

(3) كنيف : تصغير كنف، بالكسر، بمعنى الوعاء .

(4) في الأصل : « سلمة بن سلامة بن وقش » وقائل القول الآتي هو الحباب بن المنذر كما هو معروف، وكما كتبه الجاحظ في البيان 3: 296 في حديث يوم السقيفة . وانظر تاريخ الخصري 1: 253 .

وكقولهم لأبي قابوسَ الملك: أبو قُبَيْس. وكقولهم: دَبَّتْ إليه دُوَيْهِيَّةُ الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك. ويقال إنَّ كلَّ فُعِيلٍ في أسماء العرب فائِئْما هو على هذا المعنى، كقولهم المُعِيدِي، وكنحو سُليم، وضمير، وکليب، وعُقير، وجُعيل، وحُميد، وسُعید، وجُبیر؛ وكنحو عُبید، وعُبید الله، وعُبید الرماح^(١). وطريق التحقير والتصغير إنَّما هو كقولهم: نُجِيل ونُذِيل. قالوا: ورُبَّ اسم إذا صَغُرَتْه كان أملاً للصَّدر، مثل قولك أبو عبيد الله، هو أكبر في السماع من أبو عبد الله، وكعب بن جُعيل، هو أفخم من كعب بن جعل. ورَبْما كان التصغير خِلقة وبنية، لا يتغيَّر، كنحو الحُمَيَّا والسُّكَيْتِ، وجُنَيْدَة، والقُطَيْعَا، والمِرِيْطَاء، والسُّمَيْرَاء، والمِلِيسَاء - وليس هو كقولهم الفُصَيْرَى، وفي كبيدات السماء والثريا.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: دَقَّقْتُ البابَ على رسول الله ﷺ: فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: أنا! كأنَّه كره قولِي أنا.

وحدَّثني أبو عليُّ الأنصاري، وعبد الكريم الغفاريُّ قالا: حدَّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عُبَيْد^(٢) يجلس في داره، وكان لا يَدَعُ بابَه مفتوحاً، فإذا قرعه إنسان قام بنفسه حتَّى يفتحه له. فأتيتُ البابَ يوماً فقرعته فقال: من هذا؟ فقلت: أنا. فقال: ما أعرف أحداً يسمَّى أنا. فلم أَقُلْ شيئاً وقمتُ خلف الباب، إذ جاء رجلٌ من أهل خراسان فقرع الباب، فقال عمرو: مَنْ هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدِمَ عليك، يلتمس العلم. فقام له ففتح له الباب، فلمَّا وجدتُ فرجةً أردت أن أَلِجَ الباب، فدفع الباب في وجهي بِعُنف، فأقمتُ عنده أياماً^(٣) ثم قلت في نفسي: والله إنِّي يومَ أنْغَضِبَ على عمرو بن عُبَيْد، لَعَيْرُ رشيد الرأي. فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت: عيسى بن حاضر. فقام ففتح لي الباب.

وقال رجل عند الشَّعْبِيِّ: أليس الله قال كذا وكذا! قال: وما علَّمَك؟ وقال الربيع بن خُثَيْم: اتَّقُوا تكذيب الله، ليتَّق أحدكم أن يقولَ قال الله في كتابه كذا وكذا، فيقول الله: كذبت لم أفلُه.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: لا يقل أحدكم أهرِيقُ الماء ولكن يقول أبول. وسأل عمرُ رجلاً عن شيء، فقال: الله أعلم. فقال عمر: قد خَزينَا إن كُنَّا لا نعلم أن الله أعلم؛ إذا سئِلَ أحدكم عن شيء فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك. وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الْأَقْلَيْنِ! قال: ما هذا الدعاء؟ قال: إنِّي سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، وقال: ﴿وَمَا أَمْنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]. قال عمر: عليك من الدعاء بما يُعرَف.

(١) كذا.

(٢) ط: «عبيدة» وصوابه في س. وعمرو هذا من شيوخ المعتزلة، وأحد الزهاد المشهورين وله أخبار مع المنصور، توفي بمران سنة 144، ورثاه المنصور. قالوا ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه. تاريخ بغداد 6652 والمعارف 212.

(٣) كذا.

وكره عمر بن عبد العزيز قول الرجل لصاحبه: ضعه تحت إبطك، وقال: هلاً قلت تحت يدك، وتحت منكبك! وقال مرة - وراث فرس بحضرة سليمان⁽¹⁾ - فقال: ارفعوا ذلك الثَّيْل. ولم يقل ذلك الروث.

وقال الحجاج لأُم عبد الرحمن بن الأشعث⁽²⁾: عَمَدَتِ إِلَى مَالِ اللَّهِ فَوَضَعْتَهُ تَحْتَ. كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَقُولَ عَلَى عَادَةِ النَّاسِ: تَحْتَ اسْتَكْ، فَتَلْجَلِجْ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ قَدْعًا أَوْ رَفَثًا، ثُمَّ قَالَ: تَحْتَ ذِيْلِكَ.

وقال النبي ﷺ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ لِمَمْلُوكِهِ: عَبْدِي وَأُمْتِي، وَلَكِنْ يَقُولُ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلَا يَقُولُ الْمَمْلُوكُ: رَبِّي وَرَبَّتِي، وَلَكِنْ يَقُولُ: سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي».

وكره مُطَرَفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَوْلَ الْقَائِلِ لِلْكَلْبِ: اللَّهُمَّ أَخْزِهِ. وكره عمران بن الحصين، أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَمْلُوكِهِ: «أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا»؛ و«لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا».

وقد كرهوا أشياء ممَّا جاءت في الروايات لأُتَعَرَفَ وجوهها، فرأى أصحابنا: لَا يَكْرَهُونَهَا. وَلَا نَسْتَطِيعُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ نَسْمَعْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَرَاهَةِ. وَلَوْ كَانُوا يَرَوْنَ الْأُمُورَ مَعَ عِلَلِهَا وَبِرَهَانَاتِهَا خَفَّتِ الْمُؤَنَةُ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ مُجَرَّدَةٌ، وَقَدْ اقْتَصَرُوا عَلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ دُونَ حِكَايَةِ الْعِلَّةِ، وَدُونَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْبَرَهَانِ. وَإِنْ كَانُوا قَدْ شَاهَدُوا النُّوعَيْنِ مُشَاهِدَةً وَاحِدَةً.

قال ابن مسعود وأبو هريرة: «لَا تَسْمُوا الْعَيْنَ الْكَرْمَ؛ فَإِنَّ الْكَرْمَ هُوَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ». وَقَدْ رَفَعُوا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وأما قوله: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ» فَمَا أَحْسَنَ مَا فَسَّرَ ذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ⁽³⁾ قَالَ: وَجْهُ هَذَا عِنْدَنَا، أَنَّ الْقَوْمَ قَالُوا: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا إِلَى الدَّهْرِ﴾ [الجاثية: 24] فَلَمَّا قَالَ الْقَوْمُ ذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذَلِكَ اللَّهُ». يَعْنِي أَنَّ الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَوَهَّمُوا مِنْهُ الْمَتَوَهَّمُ إِنَّهُ إِنَّمَا أَوْقَعَ الْكَلَامَ عَلَى الدَّهْرِ.

وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي ﷺ لِحَسَّانٍ: «قُلْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ» فقالوا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانٍ: قُلْ وَمَعَكَ جَبْرِيلُ؛ لِأَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ أَيْضًا مِنْ أَسْمَاءِ جَبْرِيلَ. أَلَا تَرَى أَنَّ مُوسَى قَالَ: «لَيْتَ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ»، وَهُوَ يَرِيدُ الْعِصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ. وَالنَّصَارَى

(1) هو سليمان بن عبد الملك، وكان سليمان استوزر عمر، وولى عمر الخلافة بعده بعهد منه.

(2) في الأصل: «الأشعب» وهو تحريف. وكان لعبد الرحمن حروب قاوم فيها الحجاج وانتهت بقتل عبد الرحمن سنة 85هـ كان أهمها وقعة دير الجماجم التي دامت مائة وثلاثة أيام.

(3) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري، من أئمة حفاظ الحديث. قال الشافعي: لا أعرف له نظيرًا في الدنيا. توفي بالبصرة 198.

تقول للمتنبّي: معه روح دكالا⁽¹⁾، ومعه روح سيفرت⁽²⁾. وتقول اليهود: معه روح بعلزبول⁽³⁾، يريدون شيطاناً. فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح الله، وقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، يعني القرآن.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل. فكره ذلك وقال: إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببر قط. ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كره الحسن كما ترى.

وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر! وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس. كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعواهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق.

وروا أن ابن عباس قال: لا تقولوا والذي خاتمته على فمي، فإنما يختم الله عز وجل على فم الكافر. وكره قولهم: قوس قزح. وقال: قزح شيطان، وإنما ذهبوا إلى التعرّيج والتلوين، كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية. وكان أحب أن يقال قوس الله، فيرفع من قدره، كما يقال بيت الله، وزوار الله، وأرض الله، وسماؤه الله، وأسد الله⁽⁴⁾.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قولوا لرسول الله ﷺ خاتم النبيين، ولا تقولوا: لا نبّي بعده». فلا تكن ذهباً إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلا أن تكون قالت لا تعيروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفظوا بمثله سواء.

وكره ابن عمر رضي الله عنه قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلا لله⁽⁵⁾ عز وجل. وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر، وهو أعلم بذلك.

وكره ابن عباس رضي الله عنه قول القائل: أنا كسلان.
وقال عمر: لا تسموا الطريق السكة.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جنازة، وقال: قل تبع جنازة. كأنه ذهب إلى أنه عنى أنه كان في جوفها، وقال قل تبع جنازة. والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهة بقول من كره أن يقول: أعطاني فلان نصف درهم. وقال: إذا قلت: كيف تكيل الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القفّيز بدّنينير، ولكن يتناول القفّيز ثم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة. وهذا من القول مسخوط!

وكره ابن عباس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا: قد

(1) في رسائل الجاحظ 104: «دلالاً». (2) في الرسائل: «شيقرة».

(3) في الأصل: «بلعربوث» وصوابه من إنجيل متى 10: 25، 12: 24 ومرقس 3: 22 ولوقا 11: 15، وهو رئيس الشياطين. وفي الرسائل: «بلعد بوث».

(4) انظر مثل هذا الكلام في الحيوان 2: 103 وكذا ثمار القلوب 8-28 حيث فسر الثعالبي ما أضيف إلى لفظ الجلالة.

(5) في الأصل: «الله».

قَضَوْا الصَّلَاةَ، وقد فرغوا من الصلاة، وقد صلُّوا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: 127] قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد انصرفوا من السوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفة الناس من الدار اليوم بخير، وكنت في أوّل المنصرفين. وقد كرهه ابن عباس. ولو أخبرونا بعليّه انتفعنا بذلك.

وكره حبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامث، وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضان، فلعلّ رمضان اسم من أسماء الله تعالى.

قال أبو إسحاق: إنما أتى من قبل قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] فقد قال الناس يوم التروية، ويوم عرفة ولم يقولوا عرفة.

(رأي النظام في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم في التأويل)

كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا في كل مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبي، والسدي، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم، في سبيل واحدة. فكيف أثق بتفسيرهم⁽¹⁾ وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ [الحج: 18]: إن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها، بل إنما عني الجبّة وكل ما سجد الناس عليه: من يد ورجل، وجبّة وأنف وثقفة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]: إنّه ليس يعني الجمال والثوق، وإنما يعني السحاب.

وإذا سئلوا عن قوله: ﴿وَطَلَحَ مَنُصُورٌ﴾ [الواقعة: 29] قالوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليل على أنّ شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيروه، قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183].

وقالوا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: 125] قالوا: يعني أنّه حشره بلا حجة.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1]: الويل واد في جهنم. ثم قعدوا يصنفون ذلك الوادي. ومعنى الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهلية قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم!

(1) في الأصل: «بتفسير».

وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] قالوا: الفلق: وادٍ في جهنم، ثم قعدوا يصفونه. وقال آخرون: الفلق: المِقْطَرَةُ⁽¹⁾ بلغة اليمن.

وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلَيْلًا﴾ [الإنسان: 18] قالوا: أخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض. قالوا: وإنما هي: سَلٌ سبيلًا إليها يا محمد. فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمى، وعلى أي شيء وقع قوله تسمى؟ تسمى ماذا، وما ذلك الشيء؟ وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَاجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: 21] قالوا الجلود كناية عن الفروج. كأنه كان لا يرى أن كلام الجلد من أعجب العجب!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الْطَعَامَ﴾ [المائدة: 75]: إن هذا إنما كان كناية عن الغائط. كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله من الذلة والعجز والفاقة، وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء - ما يُكْتَفَى به في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتى يدعي على الكلام ويدعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4]: إنه إنما عنى قلبه.

ومن أعجب التأويل قول اللحياني: (الجبار) من الرجال يكون على وجوه: يكون جباراً في الضخم والقوة، فتأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22] قال: ويكون جباراً على معنى قتالا، وتأول في ذلك: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 130]، وقوله لموسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 19] أي قتالاً بغير حق. والجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، وتأول قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 14]⁽²⁾، وتأول في ذلك قول عيسى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32] أي لم يجعلني متكبراً عن عبادته، قال الجبار: المسلط القاهر، وقال: وهو قوله ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: 45] أي مسلط فتقهرهم على الإسلام. والجبار: الله.

وتأول أيضاً (الخوف) على وجوه، ولو وجدته في ألف مكان لقال: والخوف على ألف وجه، وكذلك الجبار. وهذا كله يرجع إلى معنى واحد؛ إلا أنه لا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل.

(تكلف بعض القضاة في أحكامهم)

وقال رجل لعبيد الله بن الحسن القاضي⁽³⁾: إن أبي أوصى بثُلث ماله في الحصون. قال: اذهب فاشتر به خيلاً، فقال الرجل: إنه إنما ذكر الحصون! قال: أما سمعت قول الأسعر الجعفي:

(1) في القاموس: المقطرة: المجمرة، وخشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين.

(2) في الأصل: «ولم أك» وليس في الكتاب آية بهذا الرسم.

(3) هو عبيد الله بن الحسن بن حصين العنبري، قاض من الفقهاء العلماء بالحديث، من أهل البصرة، وتوفي بها سنة 168

ولقد علمت على تجنّبي الردى⁽¹⁾ أن الحصون الخيل لا مدر القرى
فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنه ما قيل للمدن والحصون حصون إلا
على التشبيه بالخيل.

وخبرني الثوثيراني قال: قلت للحسن القاضي: أوصي جدّي بثلاث ماله لأولاده، وأنا
من أولاده. قال: ليس لك شيء. قلت: ولم؟ قال: أوّما سمعت قول الشاعر⁽²⁾:

بنونا بنوا أبناءنا وبناتنا بنوهُنَّ أبناء الرجال الأبعد

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شراً.

وقالوا في قوله: مَا سَاءَكَ وَنَاءَكَ: [نَاءَكَ]: أبعدك. قالوا: وساءك⁽³⁾ أبرصك. قال:
لقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ عَيْنٍ سَوِيٍّ﴾ [القصص: 32]. وبئس التكلف. وقال ابن قميّة⁽⁴⁾:

وحَمَال أُنْقَال إذا هي أَعْرَضَتْ على الأَصْل لا يَسْطِيعُهَا الْمُتَكَلَّفُ

وقال الله وهو يخبر عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86]. وليس يُؤْتَى القوم إلا
من الطمع، ومن شدّة إعجابهم بالغريب من التأويل.

(رأي في أبي حنيفة)

وسئل حنّص بن غياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكن، وأجهل
الناس بما كان⁽⁵⁾! وقالوا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8] قالوا:
النعيم: الماء الحارّ في الشتاء، والبارد في الصيف.

(الصّرورة)

ومن الأسماء المحدثّة التي قامت مقام الأسماء الجاهليّة، قولهم في الإسلام لمن لم
يحجّ: صرورة. وأنت إذا قرأت أشعار الجاهليّة وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف
هذا الموضع. قال ابن مقروم الضّبي⁽⁶⁾:

(1) في ط: «الورى» وهو تحريف ما في ش.

(2) هذا البيت الآتي مع كثرة الاستشهاد به في كتب العربية وفي كتب الفروض، لم يعرف له قائل، كما صرح بذلك
العيني، والسيوطي في شرح شواهد المغني 287. لكن وجدت البغدادى في الخزانة 1: 402 قد نقل عن الكرمانى
أن قائله هو الفرزدق.

(3) ط: «ماساءك وناءك» وتصحيحه من س. وقد زدت الكلمة التي بين معكفين ليستقيم الكلام. وفي ط: «برصك»
وصوابه في ش.

(4) ط: «ابن قمّة» وصوابه: «ابن قميّة» والبيت في البيان 2: 18.

(5) انظر 3: 10.

(6) هو: ربيعة بن مقروم بن قيس الضّبي، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وهو من شعراء الحماسة، وشهد وقعة
الفادسية سنة 16 وتوفي نحو سنة 20.

لو أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ عَبْدَ إِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَبَتِّلٍ
لَدُنَا^(١) لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَلَهُمْ مِنْ تَأْمُورِهِ بِتَنْزُلٍ
والصُرورة عندهم إذا كان أرفع الناس في مراتب العبادة، وهو اليوم اسم للذي لم يحجَّ
إمّا لعجزٍ، وإمّا لتضييعٍ، وإمّا لإنكار^(٢). فهما مختلفان كما ترى.

(أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ)

فإذا كانت العرب يشتقون كلاماً من كلامهم وأسماء من أسمائهم، واللغة عارية في أيديهم ممّن خلقهم ومكّنهم وألهمهم وعلمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعةً. وكما أن له أن يبتدئ الأسماء؛ فكذلك له أن يبتدئها ممّا أحبّ. قد سمّي كتابه المنزل قرآناً، وهذا الاسم لم يكن حتى كان، وجعل السجود للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلا وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلا بالجراحة التي^(٣) كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعقباً. فواحدة أن يسمّى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجحد، والجحد ليس بإشراك إلا أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير^(٤) [به] إشراكاً.

(ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه)

وقال طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ^(٥):

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مَقَامَةٍ وَلَمْ تَرَنَاراً تَمَّ حَوْلَ مَجْرَمٍ
وإنما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.

وذكروا أن الطَّيِّبَ إِذَا أَسَنَّ وَنَبَّتْ لِقَرُونِهِ شُعْبُ نَبَحٍ، وهو قول أبي دُوَادَ^(٦):

وَقَصْرَى شَنِجِ الْأَنْسَا نَبَّاحٍ مِنَ الشَّعْبِ

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم:

(١) هي في شعر شبيه بهذا للنابعة «لرنا».

(٢) في الأصل: «وأما الإنكار».

(٣) في الأصل: «حتى».

(٤) كلمة يحتاج إليها القول.

(٥) البيت في الشعراء لابن قتيبة 288 منسوب إلى ابن مقبل. وفي ثمار القلوب 462:

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ بَنُوحَ حَمَامَةٍ

(٦) في الأصل: «ابن داود» وإنما هو أبو دواد كما في اللسان (نبح). والقصرى: أول الأضلاع أو آخرها. وكان البيت محرفاً على الوجه الآتي فصحته منه:

وَقَصْرَى سَحِ الْأَنْشَا نَبَّاحٍ مِنَ الشَّعْبِ

وَيَنْبَحُ بَيْنَ الشَّعْبِ نَبْحاً كَأَنَّهُ نُبَاحُ سَلُوقٍ أَبْصَرَتْ مَا يُرِيبُهَا
وَبَيَّضَهَا الْهُزْلُ الْمَسْوُودُ غَيْرَهَا كما ابْيَضَّ عَنْ حَمَضِ الْمَرَا حَمِ نِيْبَهَا^(١)
لأن الطَّبِيَّ إِذَا هُزِلَ ابْيَضَّ، وَالبَعِيرُ يَشْيِبُ وَجْهُهُ مِنْ أَكْلِ الْحَمَضِ وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ
لِجَأٍ^(٢):

شَابَتْ وَلَمَّا تَدُنْ مِنْ ذَكَائِهَا^(٣)

كما قال الآخر:

أَكَلْنَ حَمِضاً فَالْوُجُوهُ شَيْبُ شَرِبْنَ حَتَّى نَزَحَ الْقَلِيبُ
وَقَدْ تَصِيرُ النَّاقَةُ الْحَمراء إِذَا أَتَمَّتْ حَبَشِيَّةً. وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:
حَمراء لَا حَبَشِيَّةَ الْإِتِمَامِ
وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ بِقَوْلِ الْعَبْدِيِّ^(٤):

وَدَوِئْتُهَا حَتَّى شَتَّتْ حَبَشِيَّةً كَأَنَّ عَلَيْهَا سُندُساً وَسَدُوساً
وَالدَّوَاءُ: اللَّبَنُ، فَلِذَلِكَ تَصِيرُ الْفَرَسُ إِذَا أَلَقَتْ شَعْرَهَا وَطَرَتْ، تَسْتَدِيلُ هَذَا اللَّوْنُ.
وَقَالَ خَالِدُ بْنُ الصَّفْعَبِ النَّهْدِيُّ^(٥):

هَبَطْنَا بَعْدَ عَهْدِكَ بَطْنُ خَبْتٍ تَظَلُّ حَمَامُهُ مِثْلَ الْخُصُومِ
كَأَنَّ عَرِيْنَ أَيْكَتِهِ تَلَاقَى بِهِ جَمْعَانِ مِنْ نَبْطٍ وَرُومِ^(٦)
نُبَاحُ الْهَدْهَدِ الْحَوْلِيِّ فِيهِ كَنَبْحِ الْكَلْبِ فِي الْأَنْسِ الْمُقِيمِ^(٧)
وَيَقَالُ إِنَّ الْهَدْهَدَ يَنْبَحُ. وَرَبَّمَا جَعَلُوا الْهَدْهَدَ، (الَّذِي يَنْبَحُ)، الْحَمَامَ الذَّكَرَ. قَالَ الشَّاعِرُ
- وَهُوَ يَصِفُ الْحَمَامَ الذَّكَرَ كَيْفَ يَصْنَعُ فِيهَا:
وَإِذَا اسْتَتَرْنَ أَرْنَ فِيهَا هُدْهَدُ مِثْلُ الْمَدَاكِ خَضَبَتَهُ بِجَسَادِ^(٨)
وَقَالَ طُفَيْلُ فِي الثُّبُوحِ وَالْمَجَاعَاتِ^(٩):

(١) انظر رواية البيهقي في المعاني الكبير ص 695.

(٢) هو عمر بن لجأ من بني تميم بن عبد مناة بن أد بن طابخة، وكان قد لجع الهجاء بينه وبين جرير لتنافس حدث بينهما في الشعر، فكانت خصومتهم أدبية في أول الأمر ثم استحالَت إلى خصومة الفخر بالنسب، والقبيلة، ابن سلام 362 وابن قتيبة 262.

(٣) الذكاء: علو السن. وفي الأصل: «من ركابها». وانظر المعاني الكبير.

(٤) هو يزيد بن خذاق. الاقتضاب 4 والمفضليات 143 وانظر أدب الكاتب 317.

(٥) قصيد هذا الشعر رواها ابن الشجري في حماسته وفسرها (289-291).

(٦) في الأصل: «عريك» و«تلاع» و«قبط» وتصحيحه من الحماسة.

(٧) هذه في ط. وليست في س.

(٨) ط: «وإذا استترن». والمداك: حجر يسحق عليه الطيب. والجساد: الزعفران.

(٩) في الأصل: «الجماعات».

وَأَشَعَتْ تَزْهَاهُ النَّبُوحُ مُدْفَعٍ عَنْ الزَّادِ مِمَّا جَلَّفَ الدَّهْرُ مُحْتَلٍ⁽¹⁾
وقال الجعدي⁽²⁾ :

فَلَمَّا دَنَوْنَا لَصَوْتِ النَّبَاحِ وَلَا نُبْصِرُ الْحَيَّ إِلَّا التَّمَاسَا
وقال ابن عبدل :

أَلَيْتُ إِذْ أَلَيْتُ مَجْتَهِدًا وَرَفَعْتُ صَوْتًا مَابَهُ بَحْحُ
لَا يُدْرِكُ الشَّعْرَاءُ مَنْزَلَتِي فِي الشَّعْرِ إِنْ سَكَّتُوا وَإِنْ نَبَحُوا
وقال عمرو بن كلثوم :

وَقَدْ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَيِّ مِنَّا وَشَذَبْنَا قَتَادَةَ مَنْ يَلِينَا

وقال بعض العلماء : كلاب الحي شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وقال آخرون : إن كلاب الحي كل عقور ، وكل ذي عيون أربع⁽³⁾ . وأما قوله⁽⁴⁾ :

لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أَبِي رِمَاحَ بَنِي مَقِيدَةِ الْحِمَارِ⁽⁵⁾
وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى أَبِي رِمَاحَ الْجَنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ⁽⁶⁾

فالتَّوَاعِينُ⁽⁷⁾ هي عند العرب رماح الجن . وفي الحديث : « إِنَّ الطَّاعُونَ وَخَزَ مِنْ الشَّيْطَانِ » . وقال أبو سلمى⁽⁸⁾ :

لَا بَدَّ لِلسُّودِّ مِنْ أَرْمَاحٍ وَمَنْ سَفِيهِ دَائِمِ النَّبَاحِ
وَمَنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ

وقال الأعشى :

مِثْلَ أَيَّامٍ لَنَا نَعْرِفُهَا هَرَّ كَلْبُ النَّاسِ فِيهَا وَنَبَحَ
رُزْنُ الْأَحْلَامِ فِي مَجْلِسِهِمْ كُلَّمَا كَلَّبَ مِنَ النَّاسِ نَبَحَ

وقال :

سَيَنْبَحُ كَلْبِي جَاهِدًا مِنْ وَرَائِكُمْ وَأَغْنِي غَنَائِي عَنْكُمْ أَنْ أُؤَنِّبَا
وقال أبو ذؤيب :

(1) المحتل : السيئ الحال ، ورواية اللسان : « ممن حرف الدهر » . وفي الأصل : « خلف الدهر » ، صوابه بالجيم كما في المخصص 2 : 136 .

(2) هو النابغة الجعدي . وانظر الأغاني (4 : 119) (3) كذا .

(4) الشعر في الحيوان (6 : 139) منسوب إلى « الأسدي » يقوله للحارث الغساني وفي آكام المرجان 16 إلى « الأزدي » وفي ثمار القلوب 53 إلى امرأة .

(5) بنو مقيدة الحمير : العقارب ، لأنها أكثر ما تكون في الحرة . اللسان (رمح ، حمر) .

(6) ط : « رماح الحي » . وتصحيحه من س ، والمراجع المتقدمة في التنبيه السابق .

(7) في الأصل : « الطواعين » . (8) الرجز في البيان 3 : 335 وسيعاد في 3 : 44 .

ولا هَرَهَا كَلْبِي لِيَبْعَدَ تَعْرِهَا⁽¹⁾ وَلَوْ نَبَحْتَنِي بِالشُّكَاةِ كَلَابُهَا
 كَلَابُهَا: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم:
 وَإِنِّي وَالشُّكَاةَ لَأَلِ لَأُمٍ كَذَاتِ الضُّعْنِ تَمْشِي فِي الرَّفَاقِ
 وقال أبو زُبَيْد⁽²⁾:
 أَلَمْ تَرْنِي سَكَنْتُ لَأَيًّا كَلَابَهُمْ وَكَفَكَفْتَ عَنْكُمْ أَكَلْبِي وَهِيَ عَقْرُ
 (هجاء ضروب من الحيوان)

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنكم تتبعتم على الكلب كل شيء هُجِّي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراء قد هَجَّوْا الأصنافَ كُلَّهَا، فلم يُفْلِتْ منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا هَمَجٌ ولا حشرة، ولا رفيع من الناس ولا وضع، إلا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخموم، فكفكف بالخموم دَقَّةً ولُؤْماً وقِلَّةً ونذالة. وقال أُمَيَّةُ بن أبي عائذ لإياس بن سهم:

فأُبْلِغْ إِيَّاساً أَنَّ عَرَضَ ابْنِ أُخْتِكُمْ رِدَاؤُكَ فَاصْطَنُ حَسَنَهُ أَوْ تَبَدَّلْ⁽³⁾
 فَإِنْ تَكُ ذَا طَوْلِ فَإِنِّي ابْنُ أُخْتِكُمْ وَكُلُّ ابْنِ أُخْتٍ مِنْ نَدَى الْخَالِ مَغْتَلِي⁽⁴⁾
 فَكُنْ أَسْداً أَوْ ثَعْلَباً أَوْ شَبِيهَهُ فَمَهُمَا تَكُنْ أُنْسَبُ إِلَيْكَ وَأُشْكَلُ
 فَمَا ثَعْلَبٌ إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ ثُعَالَةٍ⁽⁵⁾ وَإِنَّ ابْنَ أُخْتِ اللَّيْثِ رِيْبَالٌ أَشْبِلُ
 وَلَنْ تَجِدَ الْأَسَادَ أَخْوَالَ ثَعْلَبٍ إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَا تَلَوْدُ بِمَدْخَلِ
 فهذا من الثعلب. وقال مزرد بن ضرار⁽⁶⁾:

وَإِنَّ كِنَازَ اللَّحْمِ مِنْ بَكَرَاتِكُمْ تَهَرُّ عَلَيْهَا⁽⁷⁾ أُمُكُمُ وَتَكَالِبُ
 وَلَيْتَ الَّذِي أَلْقَى فَنَاؤُكَ رَحْلَهُ لَتَقْرِيه بِالثِّ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفكف به نذالة. قال ابن هرمة:

(1) تعر، كمنع: صاح. وفي ط: «تعرها» محرفة.

(2) هو أبو زبيد الطائي، واسمه حرملة بن المنذر، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وكان لسنًا فصيحًا بليغ الوصف: وصف الأسد بحضرة عثمان وصفًا بلغ فيه الغاية. الأغاني 11: 23-25 وقد ترجم له البغدادي في الخزائن 4: 143 والسجستاني في المعمرين 98 ليدن، وابن حجر في الإصابة 480 قسم الكنى وزبيد بهيئة التصغير.

(3) في الأصل: فاصبر خشية وتبدلاً، وتصحيحه من عيون الأخبار 3: 89.

(4) في الأصل: «مغتل» والصواب «مغلتي» كما في أشعار الهذليين أو «معتلي» كما في عيون الأخبار. واعتلى واغتلى: ارتفع.

(5) في عيون الأخبار: «ثعالب».

(6) في ط: «مزر بن ضرار» وإنما هو «مزرد بن ضرار» أخو الشماخ.

(7) في الأصل: «علينا».

فما عادت بذِي يَمَن رُؤوساً ولا ضَرَّت لفرقتها نِزاراً
كعنزِ السَّوءِ تنطَحُ من خلاها⁽¹⁾ وتَرَأْمُ من يُحْدُ لها الشَّقَّاراً

وهذا قول الشاعر في العنز . وقال ابن أحرر :

إنا وجدنا بني سَهْمٍ وجامِلهم كالعنزِ تَغْطِف رَوقِها فترتَضِعُ
وقال الفرزدق :

على حينٍ لم أتركْ على الأرضِ حَيةً ولا نابحاً إلا استقرَّ عَقُورها
وكان نُفيعٌ إذ هجاني لأَهْلِهِ كباحثةٍ عن مُدِيَةٍ تستثيرُها

فهذا قولهم في العنز . ولا نعلم في الأرض أقلَّ شراً ولا أكثر خيراً من شاة . وقال الخَرِيمِيُّ⁽²⁾ :

يا للرجال لقومٍ قد مَلِلْتُهُم أرى جِوارَهُم إحدى البليَّاتِ
ذئبٌ رضيعٌ وخنزيرٌ تُعارِضُها عَقاربٌ وُجِنَتْ وَجناً بِحَيَّاتٍ⁽³⁾
ما ظنُّكم بأناسٍ خَيْرُ كسبهم مُصَرَّحِ السُّحْتِ سَمَوهُ الأماناتِ

فهذا قولهم في العقارب والحَيَّاتِ والضُّباعِ والخنازير . وقال حماد عَجْرَدٍ في بَشَّار :

قد كان في حُبِّي غزالةٌ شاغلٌ للقردِ عن شَتْمِي وفي ثُوبانٍ
أو في سَمِيعَةٍ أُخْتِها وشرادها لمجونها مع سِفْلةِ المُجَانِ
أو بيت ضيقِ عرسه وركوبها شرَّ البِغَاءِ بأوكَسِ الأثْمانِ⁽⁴⁾

هذا قول حماد في القرد . وقال حمَّاد في بَشَّار بن بُرد أيضاً :

ولكنْ مَعَاذَ اللَّهِ لستُ بقاذِفٍ بريئاً لسَوَّاقٍ لِقَومٍ نوائِحِ
وما قلتُ في الأعمى لَجْهَلٍ وأمه ولكنْ بأمرٍ بيِّنٍ لي واضِحِ
سأعْرِضُ صفحاً عن حُصَيْنٍ لأمِّه ولست عن القردِ ابنِ بَرْدٍ بصافِحِ
وقال الآخر :

لما أتيت ابْنِي يَزِيدَ بَنِ خُثْعَمٍ أرى القردَ والخنزيرَ مُحْتَبِيانِ
أمامَ بيوتِ القومِ من آلِ خُثْعَمٍ وراءَ قَبِيحَاتِ الوجوهِ بَطانِ
وقال العتَّابي :

(1) ط : «فلاها» وتصحيحه من س . والشعر سبق في ص 168 .

(2) في الأصل : «الخزيمي» وهو «الخريمي» كما سبق التنبيه في ص 164 .

(3) أصل الوجن : الدق ، ومنه مبيجة القصار ، وجعله الشاعر هنا للخلط .

(4) في الشعر تحريف .

اسْجُدْ لِقَرْدِ السَّوِّءِ فِي زَمَانِهِ وَإِنْ تَلَقَّاكَ بِخَنْزَوَانِهِ⁽¹⁾
لا سِيَّما ما دام في سلطانه

وقال أبو الشمقمق:

إِنْ رِيَّاحِ اللَّوْمِ مِنْ شَحِّهِ⁽²⁾ لَا يَطْمَعُ الْخَنْزِيرُ فِي سَلْحِهِ
كَفَاهُ قُفْلٌ ضَلَّ مِفْتَاحَهُ قَدْ يَسُّ الْحَدَّادُ مِنْ فَتْحِهِ
وقال خلف بن خليفة⁽³⁾:

فَسَبْحَانَ مَنْ رَزَقَهُ وَاسِعَ يَعْصِمُ بِهِ الْقِرْدَ وَالْقِرْدَةَ

وهذا كثير . ولعمري لو جُمع كلُّه لكان مثل هيجاء الناس للكلب، وكذلك لو جمع جميع ما مُدِح به الأسدُ فما دونه، والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حمد هذه الأشياء، لما كانت كلها في مقدارٍ مديح الكلب . فهذه حُجَّتُنَا في مرتبة الكلب على جميع السباع والبهائم .

ولما قال معبدٌ في قتل الكلب، وتلا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَابَيْنَا فَأَمْلَخْنَا مِنْهَا فَأَنبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنُكَلِّمَهُ أَهْلًا إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَكَلَّمُوا كَلِمَاتٍ لَّكَ لَبَّيْكَ إِنَّ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوَارِ الْذِينِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ ﴾ [الأعراف: 175 - 176] قال أبو إسحاق: وإن كنت إنما جعلت الكلب شرَّ الخلق بهذه العلة، فقد قال على نسق هذا الكلام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يُسْمِعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: 179] فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام . وأدنى ذلك أن تُشْرِكَ بين الجميع في الدَّمِ فإنَّك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفَها في تنبُّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبَّعت ما عليها .

(الشرف والخمول في قبائل العرب)

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرة⁽⁴⁾ والفُرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير

(1) الخنزوان بفتح الخاء: القرد، وذكر الخنازير؛ وبضمها: الكبير . وانظر اللسان (قرأ ص 36) والمعرب الجواليقي

(2) في ط: «شمه» وهو تحريف صوابه في س .

(3) شاعر إسلامي مجيد محسن مقل، كان في زمن جرير والفرزدق، وكان يقال له الأقطع لأنه قطع يده في سرقة، وهو من شعراء الحماسة .

(4) الذرة: النسل . وفي الأصل: «الدرء» محرفة .

السادات في العشائر، وكثير الرؤساء [في] الأرحاء^(١) وكان الآخر قليل الذرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير، حملوا أو دخلوا في غمار العرب، وعَرَقُوا في معظم الناس^(٢)، وكانوا من المغمورين ومن المنسيين، فسلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك، وسلموا من أن يُضْرَبَ بهم المثل في قِلَّةٍ ونذالة إذا لم يكن شرٌّ، وكان محلهم من القلوب محل من لا يَغِيْظُ الشعراء^(٣)، ولا يحسدوهم الأكفاء؛ وكانوا كما قال حميد بن ثور:

وقولا إذا جاوزتما أرضَ عامرٍ وجاوزتما الحيين نهداً وخشعماً
نزيعان من جرم بن ريان إنهم أبوا أن يُريقوا في الهزاهز محجماً^(٤)

وإذا تقادم الميلاء ولم يكن الذرء وكان فيهم خير كثير وشر كثير، ومثالب ومناقب، لم يَسَلَمُوا من أن يُهَجَّوا ويُضْرَبَ بهم المثل، ولعل أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء، فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شرٍّ، أمثل حالاً في العامة، ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص، ولا سيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم، كما لقيت غني أو باهلة. ولو أن عبساً أقامت في بني عامر ضِعْفَ ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكن قيس بن زهير لما رأى دلائل الشر قال لأصحابه: الذل في بني غطفان خير من العز في بني عامر!

وقد يكون القوم حُلُولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتد ذلك عليهم وتعاطمهم، بأكثر من قدره، فدعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم. فإذا صاروا إلى آخرين نهكهم وحملوا عليهم، فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدعُوهم ذلك إلى الندم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرجوع، حميةً واتقاءً^(٥)، ومخافة أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام^(٦) في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومن شدة الصولة عليهم.

(بكل واد بنو سعد)

وقد خرج الأضبط بن قريع السعدي من بني سعد، فجاور ناساً، فلما رأى مذهبهم وظلمهم ونهكهم^(٧)، قال: «بكل واد بنو سعد!»، فأرسلها مثلاً. وقد كان عباس بن ربيعة الرعلي سيد بني سليم، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضيم، فلما حاول مفارقتهم [إلى] بني غنم عزَّ عليه^(٨) فقال في كلمة له:

(١) الأرحاء: جمع رحي، وهي القبيلة المستقلة. وفي الأصل «وكثير الرؤساء والأرجاء». وقد صححت المصحف: واجتلبت الكلمة التي بين معكفين ليستقيم الكلام.

(٢) في ط: «غرفوا» وفي م: «عرقوا»، وصوابهما ما أثبت من ش.

(٣) أي يغيظهم الشعراء. وفي الأصل: «من لا يغيظ الشعراء».

(٤) ط: «نزيعان من جرم بن ريان» ش: «نزيعان من جرم بن ريان».

(٥) لعلها: «حمية وإبقاء» (٦) في الأصل: «ولا المقام»

(٧) في الأصل: «وتهكهم» وهو تحريف. (٨) في الأصل: «فلما حاول منافرتهم بني غنم أعز منه».

وَأُمُّكُمْ تُزَجِّي التَّوَامَ لِبَعْلِهَا وَأُمُّ أَحْيَكُمْ كَرْزَةُ الرَّحْمِ عَاقِرُ
وزعموا أَنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر⁽¹⁾، وخبر عن هذه القصّة في يوم من أيامه،
فدمعت عينه، فحلف شُبَيْل بن عَزْرَةَ⁽²⁾ بالطلاق: إِنَّهُ لَعَرِيٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لَغِيَّةٍ أَوْ لَرِشْدَةٍ!

(قبائل في شطرها خير كثير) (وفي الشطر الآخر شرف وضعة)

فمن القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف
وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرة وثعلبة. ومثل عبس وعبد الله بن
غطفان، ثم غني⁽³⁾ وباهلة، واليعسوب والطفافة فالشرف والخطر في عبس وذبيان، والمبتلي
والملقى والمحروم والمظلوم. مثل⁽⁴⁾ باهلة وغني، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء،
وحَتَّى كَانَتْهُمْ آلَةُ⁽⁵⁾ لمدارج الأقدام، ينكب فيها كل ساع، ويعثر بها كل ماش. وربما ذكروا
اليعسوب والطفافة، وهاربة البقعة⁽⁶⁾ وأشجع الخنثى ببعض الذكر. وذلك مشهور في
خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورهم. وجلّ معظم البلاء لم يقع [إلا]⁽⁷⁾ بغني وباهلة،
وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب، حتى صار من لا خير فيه ولا شرّ عنده أحسن
حالا ممّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر⁽⁸⁾:

اضرب نَدَى طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ مَبْتَدَأً بِيُخْلِ أَشْعَثَ وَاسْتَثْبِتْ وَكُنْ حَكَمًا⁽⁹⁾
تُخْرِجُ خُزَاعَةَ مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَلَا تَعُدِّلْ لَهَا لَوْمًا وَلَا كَرَمًا⁽¹⁰⁾
وقد ظرف في شعره فظلم خُزَاعَةَ ظُلْمًا عَبْقَرِيًّا. وقال في مثل ذلك الأشعر الرّقبان⁽¹¹⁾
الأسدي:

- (1) في الأصل: «وزعم أن أبا عمرو أنشده هذا الشعر» وليس بشيء.
(2) في ط: «عروة» وتصحيحه من س: وانظر التنبيه رقم 1 ص 220.
(3) في الأصل: «يحيى» وإنما هو «غني» وسيكرر الحديث عن غني وباهلة.
(4) في الأصل: «ومثل» والوجه حذف الواو.
(5) كذا.
(6) هاربة البقعة هي هاربة بن ذبيان، انظر القاموس (هرب) ومعجم البلدان (الهاربة) مع المعارف لابن قتيبة (نسب
ذبيان بن بغض) ص 37.
(7) حرف يصلح به الكلام. (8) هو دعبيل بن علي الخزاعي كما في الأغاني 44: 18، 48، وزهر الآداب 4: 206.
(9) في ط: «بذي طلحة»، وتصحيحه من س، ومن الأغاني: والرواية فيها:

بِلَوْمٍ (مطلب) فِينَا وَكُنْ حَكَمًا

والمطلب الذي يعنيه هو ابن عبد الله بن مالك، كان واليًا على مصر. وقد كان ولي دعبلاً على أسوان، فلما
سمعه يهجو بهذا الشعر المتقدم عزله عنها.

- (10) في الأصل: «ولا تغركها» وليس بشيء وصوابه في الأغاني.
(11) في ط: «وقال في ذلك الشعر الرّقبان» وفي س: «وقال في مثل ذلك الشعر الرّقبان» والوجه ما أثبت. والأشعر
لقب للرّقبان، وهو شاعر جاهلي. والشعر في نوادر أبي زيد 73 وعيون الأخبار 2: 195، 3: 268 وأمالى القالي
211: 2. وانظر اللسان وتاج العروس (ضرر، مسخ).

بحسبك في القوم أن يعلموا بأنك فيهم غنيٌّ مُضِرٌّ
وأنت مليخ كلحم الحوَارِ فلا أنت حلوٌ ولا أنت مُرٌّ

وكما قال الشاعر في علباء بن حبيب حيث يقول:

أرى العلباء كالعلباء لا حلوٌ ولا مُرٌّ
شَيْخٌ من بني الجارو د لا خيـر ولا شرٌّ
فهذا ونحوه من أشد الهجاء.

والخمول اسمٌ لجميع أصناف النقص كلها أو عامتها، ولكنّه كالسرّ عند العلماء. وليس ينفعك العامة إذا ضرتك الخاصة. ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وعُكل، وتيم ومزينة. ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور، وقد سلّم ثور إلا من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلا العلماء، ثم حلت البليّة وركد الشرّ، والتحف الهجاء على عُكل وتيم، وقد شعثوا بين مزينة شبيئاً، ولكنهم حبّهم إلى المسلمين قاطبةً ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلّ حظّ تيم فيه. وقد نالوا من ضيعة، مع مافي ضيعة من الخصال الشريفة؛ لأنّ الأب متى نقص ولده في العدد عن ولد أخيه⁽¹⁾ فقد ركبهم الآخرون بكلّ عظيمة، حتى يروا تسليم المرباع إليهم حظاً، والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ وحتىّ ربّما كانوا كالعضاريط والعُسفاء، والأتباع، وفي الأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بداً؛ كأنهم متى امتنعوا خذلّوهم، فاستباحوهم، فرأوا أن النعمة أربح لهم.

وقد أعان غيلان⁽²⁾ على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهليّة، أتباعٌ في الإسلام. فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمهم حكم من درج، وحكم أبيهم كحكم من لم يُعقّب. وإن هم حالقوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

(الحلف عند العرب)

والحلف⁽³⁾ ضربان: فأحدهما كانضمام عبس وضبّة، وأسد وغطفان فإنّ هؤلاء أقوياء لم يُنْهَكُوا كما نُهِكَتْ باهلة وغنيّ، لحاجة القوم إليهم، ولخشونة مسهم إن تذكروا⁽⁴⁾ على حال؛ فقد لقيت ضبّة من سعدٍ، وعبس من عامر، وأسد من عيينة بن حصن ما⁽⁵⁾ لقوا. وقد رأيت مشقّة ذلك على النابغة، وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان. وعيينة بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنّ النابغة كان أحزم وأعقل.

(1) في الأصل: «متى نصر ولده في العدد على ولد أخيه»، وأصلحته كما ترى.

(2) لعلها: «عال غيلان» بمعنى جار وجاوز الحد. فإن غيلان هذا هو غيلان بن خرشة. انظر حديثه مع الأحنف في البيان 2: 88 و3: 98.

(3) ط: «الخلف» وصوابه في ش.

(4) كذا.

(5) في الأصل: «مما».

وقد سلمت ثور وابتليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خثيم⁽¹⁾ وسُفيان الثوري، لما علمت العامة أنَّ في العرب قبيلة يقال لها ثور. ولشريف واحد ممن قبلت⁽²⁾ تيم أكثر من ثور وما ولد. وكذلك بلعنبر، قد ابتليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُعراء، ومن الزُهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرُجال إسلاميين وجاهليين.

وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلا الخمش⁽³⁾ والثُنف. ورب قوم قد رضوا بخمولهم مع السلامة على العامة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ الله تعالى على قمم رءوسهم حجارة الكذف، بأبيات يسيرها شاعر، وسوط عذاب يسير به الراكب والمثل، كما قال الشاعر:

إِنْ مَنَافًا فَفَحَّةٌ لِدَارِمٍ⁽⁴⁾ كَمَا الظِّلِيمُ فَفَحَّةُ البَرَاكِمْ
وقال الشاعر⁽⁵⁾:

وَجَدْنَا الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المَطَايَا كَمَا الحَبِطَاتُ شَرُّ بني تَمِيمٍ
فما الميسم في جلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

(أثر الشعر في نباهة القبيلة)

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال، مثل نُمير، يصير أهله إلى ما صارت إليه نُمير وغير نُمير، فما ظنُّك بالظُلُم وبمناف وبالحَبِطَات، وقد بلغ مضرَّة جرير عليهم حيث قال:

فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمِير فَلَ كَعْبًا بَلِغْتَ وَلَا كَلَابًا
إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قومًا آخرين:
وَسَوْفَ يَزِيدُكُمْ ضَعَةً هِجَائِي كَمَا وَضَعَ الهِجَاءُ بَنِي نُمِيرٍ
وحتَّى قال أبو الرُّدَيْنِي:
أَتَوَعِدُنِي لِتَقْتُلَنِي نُمِيرٌ مَتَى قَتَلْتُ نُمِيرَ مَنْ هَجَاها

(1) في الأصل: «خثيم». وانظر الاشتقاق 112، 113 وتقريب التهذيب.

(2) في الأصل: «قتلت»، وجعلتها «قبلت» من قبلت القابلة الولد: أخرجه.

(3) الخمش بمعنى الخدش. وفي الأصل: «الخمس».

(4) في الأصل: «إن منا فحقة لدارم».

(5) البيت من أبيات ثلاثة لزياد الأعجم أوردها العيني، ونقلها عنه البغدادي في خزنة الأدب 4: 280، وهي - وفي البيت الأوسط إقواء:

وأعلم أنني وأبا حميد	كما النشوان والرجل الحليم
أريد حباءه ويريد قتلي	وأعلم أنه الرجل اللئيم
فإن الحمر من شر المطايا	كما الحبطات شر بني تميم

(بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك)

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء، وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب⁽¹⁾، وكما بكى علقمة بن علاثة، وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيت لخدش⁽²⁾ بن زهير. وما زال يهجو من غير أن يكون [رآه، ولو]⁽³⁾ كان رآه ورأى جماله وبهائه ونبله [و]⁽⁴⁾ الذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته [و] من إجلاله والرقّة عليه - أمسك. ألا ترى أن النبيت وغسان بن مالك بن عمرو بن تميم⁽⁵⁾، ليس يعرفهم بالعجز والقلة إلا دَغفل بن حنظلة⁽⁶⁾، وإلا النخار العذري وإلا الكيس النمري⁽⁷⁾، وإلا صُحار العبدي، وإلا ابن شربة وأبو السطاح⁽⁸⁾ وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من موارثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصة. والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.

(ما تبثلى به القبائل فيصيبها بالخمول)

وبليّة أخرى: أن يكون القبيل متقادماً الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهياً أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكل من رآهم أو سمع بهم، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم. ومن شؤم الإخوة أن شرفهم صَعَة إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد الله بن دارم وجريز بن دارم. فلو أن الفقيم لم يناسب عبد الله بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.

ولقد ضعضت قريش - لما جاءت به من الخصال الشريفة التامة؛ من أركان كنانة - سنّام الأرض وجبلها⁽⁹⁾ وعينها التي تبصر بها، وأنفها التي بها تعطس، فما ظنك بمن أبصر بني زيد بن عبد الله بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثم رأى بني فقيم بن جريز بن دارم؟! وكذلك كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال؛ في الجود والإفضال، أو في الفُروسة⁽¹⁰⁾ أو في البيان، فإن كان الآخر وسطاً من الرجال، قصدوا بحسن

(1) الذي أبكاه هو محرز بن المكعب العنبري، وانظر الحديث في البيان 4: 41-42.

(2) في الأصل: «لخراش». (3) زيادة يتطلبها الكلام وليس بالأصل.

(4) ليس بالأصل. (5) في الأصل: «نمير» وانظر الاشتقاق 142.

(6) في الأصل: «من حنظلة» وقد جمع ابن النديم تراجم النسابين في فهرسته 131.

(7) في الأصل: «النميري» وتصحيحه من المعارف لابن قتيبة 233 والفهرست 132.

(8) في الأصل: «ابن أبي السطاح» وانظر البيان (1: 362) وما سيأتي في 3: 117.

(9) كذا.

(10) الفروسة والفروسية: الحذق بركوب الخيل.

مآثره في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين. وكذلك عترة بن أسد في ربيعة. ولو كان سودد ربيعة مرة في عترة ومرة في ضبيعة أضجم، لكان خيراً لهم اليوم، ولود كثير من هؤلاء القبائل التي سلمت على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شطر ما للعتريين من الشرف، ولو أن الناس وازنوا بين خصال [هذه⁽¹⁾] القبائل خيرها وشرها لكانوا سواء⁽²⁾.

وقال صاحب الكلب: ذكرت عيوب الكلب فقلت: الكلب إذا كان في الدار محق أجور أهل الدار حتى يأتي على أقصاها، لأن الأجور إذا أخذ منها كل يوم وزن قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث على ذلك أن يأتي على آخرها. وقلت: في الكلب أشد الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه الثوم ليلاً والقائلة نهاراً، وأن يسمع الحديث. ثم الذي على سامع الثباح من المؤنة من الصوت الشديد. ولو لم يكن في الكلب ما يؤدي بشدة صوته إلا بإدامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك ممّا ينقص العيش، ويمنع من الكلام والحديث.

(شعر في النباح والاستنباح)

وقال أروطة بن سُهَيْة في بعض افتخاره:

وإني لَقَوَامٌ إِلَى الضَّيْفِ مَوْهِنَا إِذَا أَغْدَفَ السَّتْرَ الْبَخِيلِ الْمَوَاكِلُ⁽³⁾
دَعَا فَأَجَابَتْهُ كِلَابٌ كَثِيرَةٌ عَلَى ثِقَةٍ مَنِّي بِمَا أَنَا فَاعِلٌ
وَمَا دُونَ ضَيْفِي، مِنْ تَلَادٍ تَحْوِرُهُ يَدُ الضَّيْفِ، إِلَّا أَنْ تُصَانَ الْحَلَائِلُ
وقال ابن هرمة:

ومستنبح نبهتُ كلبِي لصوتهِ وقلت له: قُمْ فِي الْيَفَاعِ فَجَاوِبِ
فَجَاءَ خَفِيَّ الصَّوْتِ قَدْ مَسَّهُ الضُّوْى بِضَرْبَةِ مَسْنُونِ الْغِرَارِينِ قَاضِبِ
فَرَحَّبْتُ وَاسْتَبَشَرْتُ حَتَّى بَسَطْتُهُ⁽⁴⁾ وتلك التي ألقى بها كلَّ آتِبِ
وقال آخر:

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعُمُ كَلْبَهُ دَعِ الْكَلْبَ يُنْبِحْ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَابِحٌ⁽⁵⁾
وقال مزرد بن ضرار:

(1) ليست بالأصل.

(2) في الأصل: «سعداء» وليس بشيء.

(3) ط: «إلى الضعيف»، «إذا أغدق». وتصحيح البيت من ش. وعيون الأخبار (3: 239).

(4) ط: «بسطة» وصوابه من ش.

(5) قال المرتضى في أماليه 3: 114: «يكعم كلبه: يشد فاه خوفاً من أن ينبح، فيدل عليه». والبيت للراعي كما في العمدة 2: 151 يهجو به الحطيئة، وانظر ما سيأتي في نهاية هذا الجزء من الحيوان.

نشأت غلاماً أنقى الدّم بالقري
فإن أب سارِ أسمع الكلب صوتَه
وقال بشار بن بُرد:

سقى الله القباب بتلّ عبدى
وأياماً لنا قُصرت وطالت
وقال رجل من بني عبد الله بن عطفان⁽²⁾:

إذا أنت لم تستبقي ودّ صحابة
وإنّي لأستبقي امرأ السوء غداة
أخاف كلاب الأبعدين ونبحها
وقال أحيحة بن الجلاح⁽⁵⁾:

ما أحسن الحيد من مُليكة والد
يا ليتني ليلة إذا هجع الـ
بّات إذ زانها ترائبها
نّاس ونام الكلاب صاحبها

وقلت: وفي الكلب قدرة⁽⁶⁾ في نفسه، وإقداره أهله لكثرة سُلّاحه وبوله، على أنّه لا يرضى بالسُلّاح على السطوح، حتّى يحفر ببرائه وينقّب بأظافره، وفي ذلك التخريب. ولو لم يكن إلّا أنّه يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النوم ومن إفساد حرّ المتاع، مالا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضّ الصبيان وتفزع الولدان، وشقّ الثياب، والتعرّض للزّوار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجمه وتهيجه بالعبث، ويكون سبباً لعقرهم والوثوب عليهم⁽⁷⁾.

وقلت: وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحرّم والأزواج، والسّراريّ والحظيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكره أيرّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقبّع وإما قائم، وليس معه ما يواريه، وربما أشطّ⁽⁸⁾ وأنعظ بحضرتهنّ، ولعلهنّ يكنّ مغيبات⁽⁹⁾ أو محتاجات إلى ما يحتاج إليه النساء عند غيبة فحلهنّ، وإذا عجز عن أن يعمهنّ.

(1) في الأصل: «أثار القباب»، صوابه من ديوان بشار 1: 249.

(2) نسب في حماسة البحري 394 إلى النعمان بن حنظلة العبدي.

(3) الدخن: الحقد وسوء الخلق، ومعناه قريب من الدخل.

(4) العريض، كسكيت: الذي يتعرض للناس بالشر.

(5) انظر الشعر في الخزانة 3: 321.

(6) في الأصل: «قدرة».

(7) جواب لو محذوف، وذلك من دأب الجاحظ.

(8) أشطّ الرجل: أنعظ. وفي الأصل: «انتشط».

(9) مغيبات: غاب عنهن أزواجهن.

(وفد قرحان)

وقد رمى ضابئ بن الحرث البرجمي أم أناس من العرب، أن الكلب الذي كان يسمي قرحان⁽¹⁾، كان يأتي أمهم، حتى استعدوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه. ولولا أن المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز ويخاف مثله، لما بلغ منه عثمان ما بلغ، حتى مات في حبسه⁽²⁾. وفي ذلك يقول ضابئ بن الحارث:

تَجَشَّمْ نَحْوِي وَفَدُ قُرْحَانَ شَقَّةً تَظَلُّ بِهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ
فَزَوْدَتْهُمْ كَلْبًا فَرَاخُوا كَأَنَّمَا حَبَاهُمْ بَتَاجِ الْهَرَمَزَانِ أَمِيرُ⁽³⁾
فَأَمَّكُمْ لَا تَتْرَكُوها وَكَلْبَكُمْ فَإِنَّ عَقُوقَ الْوَالِدَاتِ كَبِيرُ
إِذَا عَثْنَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ دُخْنَةً يَبِيتُ لَهُ فَوْقَ السَّرِيرِ هَرِيرُ⁽⁴⁾

(قصص تتعلق بالكلاب)

وزعم اليعقوبي أنه أبصر رجلاً يكوم كلبه من كلاب الرعاء، ومراً بذلك الزب العظيم في ثفرها - والثفر منها ومن السبع، كالجر من المرأة والطيبية من الأنان والحجر، والحياء من الناقة والشاة - فزعم أنها لم تعقد عليه، ولا ندري أمكنته أم اغتصبها نفسها. وأما الناس ففي ملح أحاديثهم: أن رجلاً أشرف على رجل وقد ناك كلبه فعقدت عليه، فبقى أسيراً مستخزياً⁽⁵⁾ يدور معها حيث دارت. قال: فصاح به الرجل: اضرب جنيها. فأطلقتته، فرفع رأسه إليه، فقال: أخزاه الله أي نياك كلبات هو!

وخبرني من لا أرد خبره، أنه أشرف من سطح له قصير الحائط، فإذا هو بسواد في ظل القمر في أصل حائط، وإذا أنين كلبه، فرأى رأس إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظل⁽⁶⁾ القمر، فتأمل في ذلك⁽⁷⁾ فإذا هو بحارس نيك كلبه. قال: فرجمته وأعلمته أنني قد رأيته، فصبّحني من الغد يقرع الباب علي فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننت أنك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري. قال: جُعِلْتُ فداك، أسألك أن تستر عليّ، ستر الله عليك، وأنا أتوب على يدك! قال: قلت ويلك، فما اشتهيت من كلبة؟! قال: جُعِلْتُ فداك، كل رجل حارس ليس له زوجة ولا نجل⁽⁸⁾، فهو نيك إناء

(1) انظر قصة «قرحان» في الخزانة 4: 80 بولاق والنقائض 219 ليدن ومعاهد التنصيص 12: 66 والشعراء 309.

(2) كتب مصصح الطبعة الأولى من الحيوان: «اتفق أهل الأخبار أن ضابئاً كسر ضلع عثمان يوم الدار وأن الحجاج قتل ضابئاً لما ولي العراق».

(3) في الخزانة والنقائض: «بتاج الهرمزان»، وفي الأصل: «بتاج المرزبان»، والتاج لا يكون إلا لملك وما المرزبان إلا رئيس من الرؤساء. وفي الطبري 5: 137: «بيت المرزبان».

(4) عثنت: دخنت، وفي الأصل: «عابت» وصوابه في الخزانة والنقائض.

(5) ط: «مستخزياً» وصوابه في ش. (6) في الأصل: «ظلمة» والوجه ما أثبت.

(7) في الأصل: «فتأمل إنسان في ذلك».

(8) كذا.

الكلاب^(١) إذ كنَّ عظامَ الأجسام. قال: فقلت: فما يخاف أن تعضَّه؟ قال: لو رامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتت معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته. وعلى أنَّه إن أراد [أن]^(٢) يوعبه كلَّه لم تستقرَّ له. قال: ونسيتُ أن أسأله: فهل تعقد على أيور الناس كما تعقد على أيور الكلاب؟ فلقيته بعد ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلها لا تعقد عليه، لأنَّه لا يُدخلُ فيها إلى أصله، ولعلَّ ذلك أيضاً إنَّما هو شيء يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام. قال: فقلت: فطبيب هو؟ قال: قد نكت عامة إنَّاث الحيوانات فوجدنَّهنَّ كلَّهنَّ أطيب من النساء. قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلا لشدة الحرارة. قال: فطال الحديث حتى النساء فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلبك وقرب الفراغ؟ قال: فربَّما التزمتُ الكلبة وأهويت إلى تقبيلها، ثم قال: أما إنَّ الكلاب أطيب شيء أفواهاً، وأعذب شيء ريقاً؛ ولكن لا يمكن أن أنيكها من قدام، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثَّيتُ رأسها إلى أن أقبلها، لم آمن أن تظنَّ بي أنني أريدُ غير ذلك فتكدم في ووجهي. قال: فقلت: فإنِّي أسألك بالذي يسترُّ عليك، هل نَزعت عن هذا العمل مُنذ أعطيتني صفقة يدك بالتوبة؟ قال: ربَّما حنَّت إلى ذلك فأحتبس^(٣) بعهدك. قال: وقلت: وإنَّك لتحنُّ إليها؟ قال: والله إنني لأحنُّ إليها، ولقد تزوجتُ بعدك امرأتين، ولي منهنَّما رجال ونساء، ومن تعود شيئاً لم يكذب صبر عنه! قال: فقلت له: هل تعرف اليوم في الحراس من ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محمويه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمَامِي فَإِنَّ فارساً كان حارساً وكان قيمَ حَمَام، وكان حَلَقِيّاً، فزعم أنَّه ناك الكلاب خمسين سنة، وشاخ وهزل وقبح وتسنَّج، حتَّى كان لا يُنيكه أحد. قال: فلم يزل يحتال لكلب عنده حتى ناكه. قال: وكان معه بخير حتَّى قتله اللصوص، ثمَّ أشرف على فارس^(٤)، هذا المحتسب الأحدث، وهو ينيك كلبه فرماه بحجر فدمَّعه^(٥).

قال: فالكلاب كما ترى تُتهم بالنساء، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيء أحق بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها. ونحن من السباع العادية الوحشية في راحة، إلا في الفَرط^(٦) فإنَّ لها غراماً على بعض الماشية، وجناية على شرار العامة^(٧) وكذلك البهائم. وما عسى أن يبلغ من وطءٍ بغير ونطح كبش، أو خممش سنَّور أو رَمَح حمار، ولعلَّ ذلك يكون في الدهر المرَّة والمرتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينال إلا عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتمل. فالكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس في دورهم وأهاليهم!!

قال صاحب الكلب: إن كنت إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلى قَشْرِ طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقَدْر المأكول والمشروب تقصدون، فالسنَّور أكثر في ذلك. وقد رويتم عن النبي ﷺ في ذلك أنَّه قال: «هُنَّ مِنَ الطَّوَافِ عَلَيْكُمْ». فإذا كان ذلك

(١) ط: «إنَّاث الكلاب». (٢) الزيادة من ش. (٣) لعلها: «فأخيس».

(٤) في الأصل: «فاس» وصوابه ما أثبت. (٥) دمغه: أصاب دماغه.

(٦) الفرط: الندرة. وفي ط: «الفرق». (٧) كذا.

في السنانير مغتفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثر، وهي بالاعتقاد أحق. وفي إطلاق ذلك في السنور دليل على أنه في الكلاب أجوز. وأمّا ما ذكرتم من إنعاضه، فلعمري إنه ما ينبغي للغيور أن يُقيم الفرس ولا البرذون والبغل والحمار والتيس في المواضع التي تراها النساء. والكلب في ذلك أحسن حالاً. وقد كره ناس إدخال منازلهم الحمام والديكة والدجاج والبط خاصة؛ لأن له عند السفاد قضيماً يظهر، وكذلك التيس من الطباء، فضلاً عن ثيوس الصفايا. فهذا المعنى الذي ذكرتم يجري في وجوه كثيرة وعلى أن للحمام خاصة من الاستشارة⁽²⁾، والكسَم بالذنب، والتقبيل الذي ليس للناس⁽³⁾ مثله، ثم التقبيل والتغزل والتنفس⁽⁴⁾، والابتهاج بما يكون منه بعد الفراغ، وركوب الأنثى للذكر و[عدم]⁽⁵⁾ إمكانها لغير ذكرها، ما يكون أهيج للنساء ممّا ذكرتم⁽⁶⁾. فلم أفردتم الكلب بالذكر دون هذه الأمور، التي إذا عاينت المرأة غرمولاً واحداً منها، حقرت بعلها أو سيدها، ولم يزل ظل ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبّئها ساعة الغفلة، ويحدث لها التمني لما لا تقدر عليه، والاحتقار لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجل وأعظم إلى ما هو أخس وأصغر؟!

فإن كنتم تذهبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان⁽⁷⁾ عند العيث والتعرض، والتحكك والتهيج⁽⁸⁾ والتحريش، فلو أن الذي يأتي صبيانكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصناف العيث - والصبيان أقسى الخلق وأقلهم رحمة - أنزلوه بالأحنف بن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وجصن بن حذيفة، لخرجوا⁽⁹⁾ إلى أقبح ممّا يخرج إليه الكلب. ومن ترك منهم الأخذ فوق يد ابنه، فهو أحق باللائمة. وبعد فما وجدنا كلباً وثب على صبيّ فعقره من تلقاء نفسه، وإنه ليردّد عليه وهو في المهد، وهو لحم على وضم، فلا يشمه ولا يدنو منه. وهو أكثر خلق الله تعالى تشمماً واسترواحاً؛ وما في الأرض كلب يلقى كلباً غريباً إلا شَمَّ كل واحد منهما است صاحبه، ولا في الأرض مجوسي يموت فيحزن على موته ويحمل إلى النأوس إلا بعد أن يدنى منه كلب يشمه، فإنه لا يخفى عليه في شمه عندهم، أحى هو أم ميت؛ للطافة حسّه، وأنه لا يأكل الأحياء⁽¹⁰⁾. فأما اليهود فإنهم يتعرفون ذلك من الميت، بأن يدهنوا استه. ولذلك قال الشاعر⁽¹¹⁾ وهو يرمى ناساً بدين اليهودية:

إذا مات منهم ميتٌ مسّحوا استه بدهنٍ وحفوا حوله بقرام

(1) ط: «الحمام» وصوابه في س.

(2) الاستشارة: إظهار الحسن. من استشارت الإبل: سمت وحسنت.

(3) في الأصل: «الناس». (4) في الأصل: «والتنفس».

(5) زيادة يقتضيها الكلام وليست في الأصل. (6) ط: «ما ذكرتم» وصوابه في ش.

(7) ش: «يعقره الصبيان» ط: «يعقرن الصبيان» والوجه ما أثبت.

(8) في الأصل: «والتهيج» والوجه: «التهيج». (9) ط: «يخرجوا» وصوابه من ش.

(10) ط: «الأحياء».

(11) هو سالم بن دارة يهجو طريف بن عمرو، كما في اللسان (حمم). وقبل البيت:

إني وإن خوفت بالسجين ذاكر لشتم بني الطماح أهل حمام

(جنایات الديك)

وقالوا: فإذا ذكرتم جنایات الكلاب، فواحدٌ من جنایات الدِّيكَة أعظمٌ من جنایات الكلاب؛ لأنَّ عبدَ الله بن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، ابن بنت رسول الله ﷺ، إنَّما مات من نقرٍ ديكٍ في دار عثمان، نقر عينه فكان سببَ موته. فقتلُ الديك لعثرة رسول الله ﷺ، أعظمٌ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونه من جنایات الكلاب. وقد نقر ديكٌ عينَ ابنِ حَسَكَة بن عَتَّاب^(١)، أو عينَ ابنِ أخته وقد نقر ديكٌ عينَ ابنِ الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعورٌ، ثمَّ ضربته الحُمرة فمات.

ووثبَ ديكٌ فطعن بصيصته عين^(٢) بنتِ ثُمَامَة بن أشرس، قال ثُمَامَة: فأتاني الصَّريخ، فوالله ما وصلتُ إليها حتى كمد وجهُها كلَّه واسودَّ الأنفُ والوجنتان وغارت العينان. وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثُمَامَة - عجباً من العجب: ذكر أنَّ رجلاً ذكر أنَّ ديكاً عند بَقَالٍ لهم، يقاتل به الكلاب، قال: فأتيت البَقَال الذي عنده فسألته عن الديك، فزعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك. فلم أبرحَ حتَّى اشتريتهُ؛ وكنتُ أصونه وجعلته في مَكَنَة، فخرجت يوماً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليه، فكان هذا جزائي منه!

قال: وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن عمر، حتَّى وطئ في ذؤابته ثمَّ أقبل ينقر دماغه وعينه. فقال رجل من قریش، لمن حضر ذلك من الخدم:

اطردوا الديك عن ذؤابة زيد طالما كان لا تطأه الدجاج^(٣)

(نفع الكلب)

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشج^(٤) وأخرى تأسو، بل ما يدفع الله بحراسته ويجلب من المنافع بصيده^(٥) أكثر وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول. والديك يفتق العيون وينقر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشج ولا يأسو؛ فشره صرف وخيره ممزوج. إلا أنَّ يزعموا أنَّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان. و[من^(٦)] عارض منافع الكلاب وحراستها أموال الناس من اللصوص، ومنع السباع من الماشية، وموضع نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌ وخطبه عظيم - بما يُدعى من حراسة الدِّيكَة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازن ولم يعرف المقايسة، ولا وقَّف قطُّ على معنى المقابلة^(٧) ودلَّ بذلك على أنَّ مبلغ رأيه لا يجوز رأي النساء.

(١) في الأصل: «عباد» صوابه في الاشتقاق 329 والبيان 4: 36

(٢) في الأصل: «في عين».

(٣) جاء هذا البيت في الأصل كلاماً منشوراً، وانظره في الكامل 710 لبيسك. وفي الأصل أيضاً «لا تطؤها» وتصحيحه من الكامل.

(٤) في ط: «تسبح» وهو تحريف ما في ش. (٥) ط: «بعده» وتصحيحه من ش، وم.

(٦) ليست بالأصل. (٧) في الأصل: «المقاتلة» وليس له وجه.

(العواء وما قيل من الشعر فيه)

ويكون العواء للكلب والذئب والفصيل . وقال النابغة ⁽¹⁾ :

ألم ألك جاركم فتركتموني ليكليبي في دياركم عواء
وقال الشاعر :

وإني امرؤ لا تقشعر ذؤابتني من الذئب يعوي والغراب المحجل
وقال الشاعر ⁽²⁾ :

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ليسقط عنه وهو بالشوب مُعصم
عوى في سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نؤم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى له مع إتيان المهبين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم
وقال ذو الرمة :

به الذئب محزوناً كأن عواءه عواء فصيل آخر الليل مُحثل
وقال آخر :

ومنهل طامسة أعلامه يعوي به الذئب وتزقو هائم
وقال عقيل بن علفة يهجو زبّان بن منظور .

لا بارك الله في قوم يسودهم ذئب عوى وهو مشدود على كور
لم يبق من مازن إلا شرارهم فوق الحصى حول زبّان بن منظور
وقال غيلان بن سلمة ⁽³⁾ :

ومعرّس حين العشاء به الحبس فالأنواء فالعقل ⁽⁴⁾
قد بئته وهناً وأزقني ذئب الفلاة كأنه جذل
فتركته يعوي بقفرتيه ولكل صاحب قفرة شكل
بتنوفة جرداء يجرعها لحب يلوح كأنه سحل ⁽⁵⁾

(1) كذا . والبيت للحطيئة مثبت في ديوانه بشرح السكري من قصيدة مطلعها :

ألا أبلغ بني عوف بن كعب وهل قوم على خلق سواء

(2) الأبيات في الحماسة 2: 260 ، والشعر لإبراهيم بن هرمة في البيان 3: 205 .

(3) كان من حكماء العرب في الجاهلية وحكامهم . انظر الإصابة 6918 والأغاني 12: 43 - 47 .

(4) كذا في الأصول .

(5) يجرعها : يقطعها ، وفي ط : «لحب» وصوابه بالحاء كما في ش ، وم .

وقال مغلس بن لقيط^(١):

عوى منهم ذئب فطرب عادياً
إذا هنَّ لم يلحسَن من ذي قرابة
وقال الأحيمر السعدي^(٤):

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وقال آخر^(٥):

وعاوى عوى والليل مستحلس الندى
وقد زحفت للغور تالية النجم^(٦)
وذلك أن الرجل إذا كان باغياً أو زائراً، أو ممن يلمس القرى، ولم ير بالليل نارا، عوى ونبح، لتجيبه الكلاب، فيتهدي بذلك إلى موضع الناس. وقال الشاعر:

ومستنبح أهل الثرى يلمس القرى
إلينا وممساه من الأرض نازح
وقال عمرو بن الأهتم:

ومستنبح بعد الهدوء دعوته
وقد حان من ساري الشتاء طروق
فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

(ما قالوا في أنس الكلب وإلفه)

وقال صاحب الكلب: ومما قالوا في أنس الكلب وإلفه، وحبه لأهله ولمن أحسن إليه قول ابن الطثرية^(٧):

يا أم عمرو أنجز الموعودا
ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحي
وارعى بذاك أمانة وعهودا
حتى تركت عقورهن رُقودا
يضربن بالأذنان من فرح بنا
متوسدات أذرعا وخدودا
وقال الآخر^(٨):

(١) مغلس بن لقيط: شاعر من شعراء الجاهلية، له ترجمة في الخزانة ٢: 419 بولاق.

(٢) ط: «مستشار».

(٣) في معجم المرزباني 391:

(٤) ط: «الأحمر» وصوابه في ش. وهو شاعر من لصوص العرب.
(٥) البيت لحميد الأرقط كما في البخلاء 200.

(٦) ط: «لغور» وصوابه في ش. وفي الأصل: «مستجلس الندى» وصوابه في البخلاء 200 استجلس الندى: تراك.

(٧) في الأصل: «وقال ابن الطثرية» والوجه ما أثبت. والشعر في البخلاء 203.

(٨) الشعر في البيان 3: 311 منسوب إلى بعض الحجازيين، وانظر البخلاء 202، وهو في الحماسة 2: 233 منسوب إلى مالك بن أسماء الفزاري، وهو شاعر إسلامي غزل، وأخته هند بنت أسماء زوج الحجاج، وهو ممن عرف بالجمال في العرب. ترجم له أبو الفرج في أغانيه 16: 40-46.

لو كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زَرْتُكُمْ
لَكُنْ أَتَيْتُ وَرِيحُ الْمِسْكِ يَفْعَمُنِي
فَأُنْكِرُ الْكَلْبَ رِيحِي حِينَ أَبْصُرُنِي
وَالْعَنْبَرُ الْوَرْدُ أَذْكِيهِ عَلَى النَّارِ^(١)
وَكَانَ يَعْرِفُ رِيحَ الزَّقِّ وَالْقَارِ

وقال أبو الطَّمَحان القيني في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشَّمْخِي^(٢):

سَأْمَدَحُ مَالِكًا فِي كُلِّ رَكْبٍ
فَمَا أَنَا وَالْبِكَارَةُ مِنْ مَخَاضٍ
وَقَدْ عَرَفْتُ كِلَابَهُمْ ثِيَابِي
نَمَتْ بِكَ مِنْ بَنِي شَمَخٍ زَنَادٌ
لَقِيْتُهُمْ وَأَتْرَكُ كُلَّ رَذْلٍ
عِظَامُ جِلَّةٍ سُدُسٍ وَبُزْلٍ
كَأَنِّي مِنْهُمْ وَنَسِيتُ أَهْلِي
لَهَا مَا شِئْتُ مِنْ فِرْعٍ وَأَصْلٍ

وقال الشاعر في أنس الكلاب وإلفها، يذكر رجلاً:

عَنِيفٌ بَتَسْوَاكِ الْعِشَارِ وَرَغِيهَا
سَنِيدٌ يَظُلُّ الْكَلْبَ يَمْضَغُ ثَوْبَهُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

بَاتَ الْحَوِيرُثُ وَالْكَلَابُ تَشَمُّهُ
وَسَرَتْ بِأَبْيَضٍ كَالْهَلَالِ عَلَى الطَّوَى
وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ:

رَأَيْتُنِي كِلَابُ الْحَيِّ حَتَّى أَلْفَنِي
وَمُدَّتْ نُسُوجَ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى رَحْلِي^(٣)
وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ:

أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ
بِیْضِ الْوَجْهِ نَقِيَّةٌ حُجْرَاتُهُمْ
يَغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ الشَّاعِرُ:

وَبَوَّاتُ^(٥) بَيْتِكَ فِي مَعْلَمٍ
رَحِيبِ الْمَبَاءَةِ وَالْمَسْرِحِ

(١) فعمه الطيب وفغمه: ملأ خياشيمه. وفي الأصل: ينعمني، وصوابه في البخلاء 202، وفي الحماسة 2: 233: «يفغمني» بالغين، وفيها «وعنبر الهند أذكيه».

(٢) هو قنبل خفاف بن ندبة، وله أخبار في الأغاني والاشتقاق 172.

(٣) في الأصل: «رأيت» والوجه «رأيتني» كما في البخلاء 202، وفي الديوان 491: «أتنتني». وفي ط: «على رحل» وصوابه في ش والديوان.

(٤) الحجزة: معقد الإزار. وفي الأصل: «حجراتهم» وليس بشيء.

(٥) في الأصل: «وبوات» تحريفه، وأصله من بواته في المنزل: أنزلته به.

- كُفِيَتْ الْعُفَاةَ طَلَابَ الْقِرَى وَنَبَحَ الْكِلَابَ لِمَسْتَنْبِحٍ (1)
تَرَى دَعَسَ آثَارِ تِلْكَ الْمَطِيِّ أَخَادِيدَ كَاللَّقَمِ الْأَفِيحِ
وَلَوْ كُنْتُ فِي نَفَقِ زَائِغٍ لَكُنْتُ عَلَى الشَّرْكِ الْأَوْضَحِ (2)
وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكنّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى
هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:
لَا الْغِيَايَاتُ مُنْتَوَاكَ وَلَكِنْ فِي ذُرَى مُشْرِفِ الْقُصُورِ ذَرَاكَ
وَقَالَ الْبَزَارُ الْحَلِّيُّ، فِي الْمَعْنَى الْأُولَى:
أَلِفَ النَّاسِ فَمَا يَنْبَحُهُمْ مِنْ أَسِيفٍ يَبْتَغِي الْخَيْرَ وَخُرَ (3)
وَقَالَ عِمْرَانُ بْنُ عَصَامٍ:
لَعَبْدُ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ غَامِرَةٍ (4)
فَبَابِكَ أَلَيْنُ أَبْوَابَهُمْ وَدَارُكَ أَهْلَهُ عَامِرَةٍ
وَكَلْبُكَ آنَسَ بِالْمَعْتَفِينَ مِنَ الْأُمِّ بَابِنْتِهَا الرَّاثِرَةِ
وَكُنْتُ حِينَ تَرَى السَّائِلِيْنَ مِنْ أُنْدَى مِنَ اللَّيْلِ الْمَاطِرَةِ
فَمِنْكَ الْعَطَاءُ وَمِنَّا الثَّنَاءُ بِكُلِّ مُحَبَّرَةٍ سَائِرَةِ
وَقَالَ هَلَالُ بْنُ خُثْعَمٍ (5):
إِنِّي لَعَفٌّ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي وَإِنِّي لَمَشْنُوءٌ إِلَيَّ اغْتِيَابُهَا
إِذَا غَابَ عَنْهَا بَعْلُهَا لَمْ أَكُنْ لَهَا زَعُوراً وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كِلَابُهَا
وَمَا أَنَا بِالْدَّارِي أَحَادِيثَ سِرِّهَا وَلَا عَالِمٌ مِنْ أَيِّ حَوْكِ ثِيَابُهَا (6)
وإن قَرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مَلُوهُ وَيَكْفِيكَ سَوَاءُ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
وَقَالَ حَاتِمُ الطَّائِي، وَهُوَ حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَيَكْنَى أَبَا سَفَّانَةَ، وَكَانَ أَسْرَهُ ثَوْبُ بْنُ
شَحْمَةَ الْعَنْبَرِيِّ مُجِيرَ الطَّيْرِ (7):

(1) في الأصل: كلاب الضرام «وقبح»، صوابه في الحيوان 5: 91، وانظر اللسان 2: 219 س 8.

(2) ط: «ولو كنت في نفق» والوجه ما في ش، وم.

(3) في الأصل: «فيما» ولا يستقيم بذلك معنى الوزن ووزنه، صوابه في البخلاء 202 مع نسبة الشعر فيه إلى المزار الحماني.

(4) الشعر في الأغاني 1: 129 منسوب إلى نصيب. وعبد العزيز هذا هو ابن مروان.

(5) كذا نسب الشعر في البخلاء 202، ويروى لقيس بن الخطيم. وقد رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار 3: 183 وكذا ابن الشجري في الحماسة 135 لبشار بن بشر.

(6) في الأصل: «حول» وأثبت ما في عيون الأخبار.

(7) في الأصل: «ثور» وانظر التنبيه رقم (1) ص 194.

إِذَا مَا بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كِلَابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الْغَرِيبِ عَقُورُهَا
فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ بَيْتِي مُوْطَأً جَوَادُ إِذَا مَا النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا
وَلَكِنْ كِلَابِي قَدْ أَقْرَتَ وَعُودَت قَلِيلٌ عَلَى مَنْ يَعْتَرِيهَا هَرِيرُهَا

(هَجَوِ النَّاسَ بِهَجْوِ كِلَابِهِمْ)

وقال صاحب الكلب: إن كثيراً من هجاء الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنما يراد به هجاء رجل، فيجعل الكلب وصلةً في الكلام ليبلغ ما يريد من شتمه. وهذا أيضاً مما يرتفق الناس به من أسباب الكلاب. ولذلك قال الشاعر⁽¹⁾:

مِنْ دُونِ سَيْبِكَ لَوْ لَيْلٍ مَظْلَمٍ وَخَفِيفِ نَافِجَةٍ وَكَلْبٍ مُوسَدٍ⁽²⁾
وَأَخَوْكَ مُحْتَمِلٍ عَلَيْكَ ضَغِينَةٍ وَمُسَيْفٍ قَوْمِكَ لَائِمٍ لَا يَحْمَدُ
وَالضَّيْفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أَسْوَدَ سَالِحٍ لَا بَلَّ أَحْبُّهُمَا إِلَيْكَ الْأَسْوَدُ
فهذا قول الشاعر. وقال الآخر:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ
فهو لم يرد مدح الكلب بالجبن، وإنما أراد نفسه حين قال:

وحفيف نافجة وكلب موسد⁽³⁾

فإن كان الكلب إنما أسرّه أهله، فإنما اللوم على من أسره. وإنما هذا الضرب كقوله⁽⁴⁾:

قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَضْيَافَ كَلْبُهُمْ قَالُوا لِأَمْهَمُ بُولِي عَلَى النَّارِ
ومعلوم أن هذا لا يكون، ولكن حقر أمرهم وصغرهم.
وقال ابن هرمة:

وَإِذَا تَنَوَّرَ طَارِقٌ مُسْتَنْبِحٌ نَبَحَتْ فَدَلَّتْهُ عَلَيَّ كِلَابِي⁽⁵⁾
وقال ابن مهية:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ شُعْبَى تَشَكَّى حَوَافِرُهَا الدَّوَابِرَ وَالنُّسُورَا
فَلَمَّا أَنْ طَلَعْنَ بَعِينَ جَعْدِي وَأَهْلُ الْجَوَفِ أَنْ قَتَلُوا غُرُورَا

(1) هو حسبل بن عرفة، شاعر جاهلي. النوادر لأبي زيد 75، وانظر الحيوان 3: 58 وديوان المعاني 2: 106.

(2) النافجة: الريح تجيء بقوة. وفي الأصل: «نافخة» وإنما الحفيف للريح. وتصحيحها من النوادر لأبي زيد. ويقال أوسد كلبه: أغراه بالصيد، فهو موسد.

(3) في الأصل: «نافخة»، وانظر التنبيه السابق.

(4) البيت للأخطل يهجو به جريراً. وفيه قالت بنو تميم: «ما هجينا بشعر هو أشد علينا من هذا البيت!». ديوان المعاني 1: 175.

(5) في الأصل: «كلاب».

ولم يكُ كلبُهم ليفيق حتَّى يُهارشَ كلبُهم كلباً عَقورا
ومعلوم أنَّ هذا لا يكون، إنما هو مثل . وقال أعرابي :

أخو ثقةٌ قدَّ يحسبُ المجدَّ فرصةً إلى أهله أو ذمَّةً لا تُخفَّرُ
حبیبٌ إلى كلبِ الكريمِ نباخه كربه إلى الكوماءِ والكلبُ أبصرُ
وقال ابن هرمة :

وفرحة من كلابِ الحيِّ يتبعُها شحمٌ يزفُّ به الداعي وترعيبُ
فهذا قول هؤلاء . وقال الآخر :

هَجَمْنَا عليه وهو يكعمُ كلبه دَعِ الكلبَ ينبَحُ إنَّما الكلبُ نابحٌ⁽¹⁾
وقال الآخر :

وتكعمُ كلبُ الحيِّ من خَشيةِ القرى ونازكٌ كالعذراءِ من دُونها سِثْرُ⁽²⁾
وقال أعشى بني تغلب :

إذا احتلَّت معاوية بن عمرو على الأطواء خنَّقتِ الكلابا
فالكلبُ مرَّةً مكعوم⁽³⁾، ومرَّةً مخنوق، ومرَّةً مُوسد ومحرَّش، ومرَّةً يجعله جباناً، ومرَّةً
وثأباً، كما قال الراعي في الحطيئة :

ألا قَبَّحَ اللهَ الحطيئةَ إنَّه على كلِّ ضيفٍ ضافه فهو صالحُ
وقعنا إليه وهو يخنُقُ كلبه دَعِ الكلبَ ينبَحُ إنَّما الكلبُ نابحُ
وقال أعشى بني تغلب :

بَكَيْتَ على زادِ خبيثٍ قُريتَه ألا كلُّ عَبَسِيٍّ على الزادِ نابحٌ⁽⁴⁾
وقال الفرزدق :

ولا تنزع الأضياف إلا إلى فتى إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا
(وقال الآخر :

دَعِ الكلبَ ينبَحُ إنَّما الكلبُ نابحُ
وقال الآخر :

ألا كلُّ كلبٍ لا أبَا لك نابحُ

(1) ط، س : « يطعم » وصوابه في م . وانظر التنبيه رقم 5 ص 251 .

(2) في الأصل : « وتطعم » صوابه في اللسان (كعم) .

(3) في الأصل : « مطعوم »، والوجه ما أثبت .

(4) البيت في العمدة 2 : 151 منسوب إلى الراعي . وقد رواه تالياً للبيت السابق ، برواية :

ألا كل عبس على الزاد نائح

وانظر البخلاء 203 .

وقال الفرزدق :

إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقداً⁽¹⁾

ومتى صار الكلب يأبى النباح؟! فهذا يدلُّ على أنَّهم يتشَقُّون بذكر الكلب، ويرْتَفِقُونَ به، لا على أنَّ هذا الأمر الذي ذكروه قد كان على الحقيقة: وقال الآخر، وهو جرير⁽²⁾:

ولو كنت في نَجْرانٍ أو بَعَمَايةٍ إذن لأتاني من ربيعة راكب⁽³⁾
يُشير الكلابَ آخرَ اللَّيلِ وطوهُ كَضَبُ العرَادِ خَطُوهُ متقارب⁽⁴⁾
فباتَ يُمنِّينَا الربيعَ وصَوْبَهُ وَيَنْظُرُ من لُقاعةٍ وهو كاذب⁽⁵⁾

فذكر تقاربَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنَّه مع ذلك قد أثار⁽⁶⁾ الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ على تيقُّظها ودقَّة حسِّها. وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقي، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة:

وأَجَحَرَ الكلبَ مُبَيِّضُ الصَّقِيعِ بِهِ وأَلْجَأَ الحَيَّ من تنفاحه الحَجَرُ⁽⁷⁾
وقال الحطيئة:

إذا أَجَحَرَ الكلبَ الصَّقِيعُ اتَّقَيْنَهُ بأئباجٍ لا خورٍ ولا قفِراتِ⁽⁸⁾
وقال ابن هرمة:

وسل الجارَ والمعصَّب والأضـ ياف وهنأ إذا تحيَّوا لدباً⁽⁹⁾
كيف يَلْقَوْنَنِي إذا نَبَحَ الكـ ب وراء الكُسُورِ نَبْحاً خَفِياً

(1) ما وضع بين قوسين هو تكرار لأعجاز أبيات سابقة، ولست أدري لم أعيدت.

(2) «وهو جرير»، الأرجح أن تكون مثل هذه الزيادة من أقلام الناسخين أو القارئين. والأبيات في ديوان جرير ص 42 طبع 1345.

(3) نجران: مخالف باليمن. وعماية: جبل بالبحرين. ورواية الديوان: «ولو كنت في غمدان».

(4) العراد: شجر صلب العود منتشر الأغصان. والعرب تقول: قيل للضب وردًا وردًا، فقال:

أصبح قلبي صردًا لا يشتهي أن يردا
إلا عرَادًا عرَادًا وصلينا بردا
وعنكثا ملتبدا

وفي الأصل: «كضب العرار» وهو تحريف، جاء على الصواب الذي أثبت في الديوان.

(5) اللقاعة: الكثير الكلام. ورواية الديوان: «يسطر من لقاعة»، وفي تاج العروس: «وتنظر من لقاعة».

(6) ط: «أثر» وصوابه في ش.

(7) يقول: إنه لا ينقطع عن إطعام الطعام في شدة البرد، حينما يضطر الكلب ما يتلبد على شعره من الجليد الأبيض إلى الدخول في الحجر، وحينما تكون الحجر ملجأً للحَي يتقون بها تنفاح الصقيع أي ضربه. . وقصيدة الأعشى هذه مشروحة في الخزنة 2: 178-186، وشرحها كذلك الشيخ حمزة فتح الله في المواهب.

(8) أجحره وجحره: أدخله في الحجر. وفي ط: «أحجر» وصوابه في ش، والبيت من قصيدة في ديوان الحطيئة 56.

(9) في ط: «أصل الجار»، وصوابه في ش، وم، والحيوان 2: 43. المعصب: الذي يتعصب بالخرق جوَّعًا، والرجل الفقير. وفي الأصل: «الجار المعصب» وتصحيحه من الحيوان (2: 43). وفي الأصل: «تجبا» بباء موحدة وهي على الصواب في الجزء الثاني.

وَمَشَى الْحَالِبُ الْمُبِيسُ إِلَى النَّا
لَمْ تَكُنْ خَارِجِيَّةً مِنْ تَرَاثٍ
وقال الأعشى :

وَتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ الْعَمَرِ
وَتَسْخَنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ
وقال الهذلي (2) :

وَلَيْلَةٌ يَصْطَلِي بِالْفَرثِ جَارِزُهَا
لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ
وقال الفرزدق (3) :

إِذَا احْمَرَّ أَفَاقُ السَّمَاءِ وَهَتَكَتْ
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا
وَهَتَكَتِ الْأَطْنَابُ كُلُّ ذِفْرَةٍ
وَبَاشَرَ رَاعِيهَا الصَّلَى بِلَبَانِهِ
وَقَاتَلَ كَلْبُ الْحَيِّ عَنْ نَارِ أَهْلِهِ
وَأَصْبَحَ مَبِيعُ الصَّقِيعِ كَأَنَّهُ
كُسُورَ بُيُوتِ الْحَيِّ نَكْبَاءُ حَرْجَفُ
يَزِفُ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُحْفُ (4)
لَهَا تَامِكٌ مِنْ عَاتِقِ النَّيِّ أَعْرَفُ (5)
وَكَفَّ لَحْرَ النَّارِ مَا يَتَحَرَّفُ
لِيَرِيضَ فِيهَا، وَالصَّلَا مَتَكَنَّفُ (6)
عَلَى سَرَوَاتِ النَّيْبِ قُطْنٌ مُنْدَفُ (7)

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني (8)

وأوله : باب احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

(1) ط : «فيها البعيرا» وصوابه في ش ، وم .

(2) انظر ما سيأتي من تعليق في 5 : 50 .

(3) من قصيدته الفائية المشهورة ، التي مطلعها :

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

(4) في الأصول : «قبله» وتصحيحه من الديوان 559 ، وفي ديوان جرير (والقصيدة فيه) : «بعده» .

(5) الذفرة : الناقة النجيبة . والتامك : السنام العظيم . والأعرف : المرتفع .

(6) يقول : صار كلب الحي لشدة البرد يدافع أهله عن النار ، ليقع في موضع يدفئه ، وقد أحاط القوم بالنار وتكنفوها ليظفروا بالدفء . وفي الأصل : «ليربض منها والصلا متكشف» وليس بشيء ، وتصحيحه من الديوان .

(7) يقول : قد وقع الثلج عن أسنمة هذه الإبل المسان فأضحى كأنه القطن قد ندف . ويروى : «موضوع الصقيع» كما في الديوان .

(8) في نهاية س «تم المصحف الأول وتتلوه المصحف الثاني من كتاب الحيوان» .

معارضات على نسخة الامبروزيانا

ص	س	
47	18	: وإن كان شاطناً، وهو الوجه .
47	1 - 2	: «طابن ولا يعدم الإنسى والجن طابنا». وهي توافق رواية ل، وهي الصواب. والطابن: الخداع الخبّ .
48	8	: «شوك العضاه» .
48	13	: قد ابتلى أيضاً بأن أخته» .
49	8	: «وعباس» .
49	8	: «فأمر به فرمى به من فوق القصر» .
	14	: «وطن سنمار به كل خيرة» .
49	5	: «بغير جرم» . (10): «وأقلّ رمادك» .
	17	: «يمسي ويصبح سالماً» .
50	8	: «ومساءة الجلساء» .
50	11 - 12	: «ويجعلونها متخيرة غير مسخرة» .
51	4	: «لا تضاف إلى النمو والحسن» .
51	7	: «والباذنجان» كما في ل. وجاء في لسان العرب [حرر 256]: «الأزهري عن شمر، يقال لهذا الطائر الذي يقال له بالعراق باذنجان، لأصغر ما يكون: جميل حُر» .
52	1	: «كالكلب والفهد» والذئب والأسد» .
	7	: «ما يكون سلاحه سُلّاحه»، كما في ل .
52	2	: «واليعاسيب والذبان والعقارب والجراد» .
	11	: «مشهوران بالحبّل» .
	16	: «والبنبد بدل «البنيب»» .
53	1	: «والبلبل»، وقد نّهت على خطئه في الحاشية .
	10	: «ويصرصر» بدل «ويصوصى»، وهو الصواب .
	10	: «ويزئر» بدل «يزأر»، وهما لغتان .
	11	: «وينبر» بدل «وينزب»، كما في ل .
	11	: «ويفتح» بدل «ويعج» كما اقترحت في الحواشي .
54	1 - 2	: «إذا وجد بعضها مع بعض سميت بأنبه النوعين ذكراً» .
	8	: «خلاف دعائها [عند المائدة] لولدها» .
	5 - 6	: «والحكمة يلوحان لمن استخبرهما وينطقان لمن استنطقهما كما يخبر الهُزال وكمود اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السمن والنضرة» .

ص	س	
56	6	: «المتقدم في الأمور» .
	10	: «ثم لم يوجد لهم» ، كما في ط ، ل .
	12	: «وصاحب الحسد والمشانفة ، والمتفقد لشأن العقابة» .
57	5	: «وعلى الاتعاض والانزجار» .
	6	: «وجعل الفكر تنشيء» .
	12	: «ما رأيت في أثنائه من مزح» .
	16	: «لأن يكون علةً للجد ، وأن البطالة وقار وزمانة» .
57	1	: «إلا بما لا يحتاج إليه ، قال أبو شمر : إذا كان لا يصل» .
	6 - 5	: «إلا من قد تجرد للعلم وفهم معناه على حسب ما يورث . الطول من الكد» ، مع إسقاط ما في أثناء الكلام .
	14	: «ونعم الجليس والقعدة» .
57	3 - 2	: «من غرائب فوائده ، وإن شئت ألهمتكم بوادره» .
	13	: «أو روضة تتقلب» .
58	13	: «ويترجم كلام الأحياء» .
	6	: «حين العناية تامة لم تنتقص ، والأذهان فارغة لم تقتسم» .
	7	: «فهو أقبل ما تكون للطابع» ، وهو الوجه .
	9 - 8	: «حين هذه الخصال لم يلبس جديدها ، ولم يفل غربها» . ولُبِس ، في معنى أخلق . وفي اللسان : «وثوب لبس ، إذا كثر لبسه ، وقيل قد لبس فأخلق» .
59	9 - 8	: «بعد الذي أبصرت من يسه» .
	5	: «أدبت عرسي» .
	8	: «في طلبها لبله» .
	12	: «ولا أحفل أخلاقاً» ، سقطت من النسخة .
59	12	: «أحسن موأاة» .
	8	: «والمذاهب القديمة» .
	19	: «لازمة لطبائهم» .
60	1	: «ويأخذ بأرماقهم أو يصلح بالهم» .
	3	: «معرفة ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون [إليه] من الارتفاق» .
	6 - 4	: «واختلال الأدنى إلى معونة الأقصى ، معان متضمنة ، وأسباب متصلة ، وحيال متقيدة» . والتكملة التي في س 7 لم ترد في النسخة .

ص	س	
61	4	: «مذالاً ميسراً»، وهذا يوجّه ما في ط . والمذال : المهان الممتهن .
	11 - 10	: «وبالتقليب والتنقيب ، وبالتوقيف وبالتثبت» .
	15	: «ومعرفنا لمواقع سد الخلّة ودفع الشبهة» .
	16	: «الأشباح المثل» .
61	4	: «وأسكن إليه وأضبُّ به» ، بالضاد المعجمة .
	14	: «تكمل بجنسه الذي» .
	17	: «والساكنة الثابتة التي لا تنبس ولا تفهم ، ولا تحس ولا تتحرك» .
62	4	: «والذائق [في ذلك] نصيباً» .
	10	: «هذه الآلة لكان» .
	2	: «مجرى البيان ؛ [وألحق البيان] بالقرآن» .
	11 - 10	: «لعواجل حاجاتهم وأواجلها» ، وهو الوجه .
63	5	: «فضل على انتهاء» .
63	6	: «إلى الحاجة بالتفاهم بالخطوط» .
	1	: «فالشأن الآن في منافع اليد» ، فقط .
	9	: «لبطل الطَّرب كلّ» .
	12	: «لكان [ذلك] من أعظم الحظوظ» .
64	3	: «فصل» ، بالصاد المهملة كما نهت في الحاشية .
	6	: «والكتاب هو الذي قيد على الناس» .
	7	: «خفة ثقله» .
64	1	: «والمستميح الذي لا يستزيدك» .
	12 - 11	: «إن افتقرت لم يحقرك» ، وبإسقاط «إليه» .
65	7	: «وأصحاب الكفايات» ، بدل «الفكاهات» .
	9 - 8	: «ليلهم هو الشيء الذي لا يرى له فيهم مع الليل أثر في ازدياد ولا في تجربة ولا في عقل ولا في مروءة» .
	15	: «ذهبت المكارم» ، موضع «ذهب» .
65	1	: «ولا اتكأت» ساقطة من النسخة .
	9	: «وانقطاع المادة من قبله» ، وهو الوجه .
	10	: «وكان الورق كثير العدد» ، ومع إسقاط باقي السطر .
	11	: «القيني» بدل «العتبي» في كل موضع ورد فيه هذا العلم ، كما هو الشأن في نسخة ل .
66	1	: «إلا [الشيء] الذي زهّدك فيه» .

ص	س	
	10	: «به هذا الظن [كله]» .
	11	: «كذا [وكذا]» ، في الموضوعين .
	12	: «أنفق قليلاً وأكسب كثيراً» .
	2	: «ولا بد من أن تصير كتبه» .
	3	: «ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق» .
14 - 13		: «وإني غرمت مالا عظيماً مع حبي للمال ، وبغضي للمغرم ؛ لأن سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم» .
67	5	: «أو كتب أرفاق ورياضات» .
	8	: «في التبيين» .
	14	: «داعية إلى العبادات ، وباعثاً على الخشوع» .
	17	: «وقد رأيتم» . وبذلك يتغير المعنى التاريخي .
	18	: «ملوكنا» .
68	8	: «ولا حكمة غريزية أو فلسفية» .
12 - 11		: «بعمود السيح ، والإخبار عن شلقون الهمامة ، وكله هذروي ، ودعوى خرافة ، وسخف وتكذب» .
68	1	: «على الناس الإطاعة» .
	2	: «الاستبصار والمحنة» .
	6 - 5	: «والدرهم الزائف الذي يغلط فيه الكثير» ، بإسقاط «لا» .
	8 - 7	: «يكون أظهر فساداً يحتاج من الترفيه والتمويه ، ومن الاحتشاد والتغليط» .
	10 - 9	: «من اليهودية بعيداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزئدهم في توكيدها ، واحتفالهم في إظهار تعظيمها» .
69	5	: «هو العالم المقنع» .
	8	: «وأحصر بالعي» . إلى نهاية البيت ساقط من النسخة .
	1	: «لشيء اعتراه» .
	25	: «أو إلى ثلاثة أشياء فلا ينزع» .
	14	: «اشتملوا» بدل «اجتمعوا» .
	15	: «فدمرنا عليهم» كما توقعت في الحاشية .
70	2 - 1	: «وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم بيض اللحى ، وهو يقرأ عليهم دفتر شعر ، فقال الذي كان سعى بهم» .
	3	: «عثرتم بها ، [قال] : فقلت» .

ص	س	
	7	: «ما أشد صبايته» .
	11 - 12	: «لقد ضيَّع درهمه من تجوّد» .
	13 - 14	: «وأجعله محطوطاً على ناظري» .
	17	: «الأسفاط والرفوف» . وكلاهما صحيح؛ فإن الرقوق جمع الرقّ بالفتح، وهو الصحيفة البيضاء، والجلد الرقيق يكتب فيه .
	18	: «قط أنخن ولا أنبل» . والشخانة: الحلم والرزانة والثقل في المجلس .
70	6	: «ولا أمتع من كتاب» بالتاء، كما توقعت في الحاشية .
	7	: «[قال] فقيل له: فقد جاء»، مع سقوط التكملة التي في نهاية السطر .
	3	: «إذا غزوا» .
	4	: «كما يعتري النادم من قرع السن» .
	6	: «إذا تذكرت مني» .
	7	: «الحزين في الأرض» .
	1	: «يخططن» .
71	5	: هذا البيت الثاني ساقط من النسخة .
	6	: «وقال الحزين الكندي» .
	11	: «ما تنقضي عبراتي» .
	14	: «في نواح»، و«لم تَعْلَلْ لهم»، أي لم تتعلّل بعلة .
	1	: «تتلقّط الحصى» .
	7	: «يمتدح فيها» .
	10	: «إذا تشابه آيها»، وهو الوجه .
	1	: «من ترشامه»، لعل صوابها «من ترسامه» تفعال من الرسم .
73	2	: عجزه في النسخة: «فهو الصواب به على استبهامه» .
	8	: لم يرد هذا البيت في النسخة في هذا الموضع، وإنما ورد بعد البيت التالي بالرواية المثبتة بعد ذلك البيت .
	11	: «حده لحسامه» .
	13	: «في الخط [والقلم]:» .
	1	: «يرقل عامداً» .
	2	: «مخلولف السن» .
	11	: «بآثره» بدل «بآثارها»، وهي رواية الديوان 257 .

ص	س	
	15	: «إذا استغزرت ذهن الجلي»، وهو تحريف سمعي مخالف لما في ل والديوان. انظر التحريفات السمعية تحقيق النصوص ونشرها لعبد السلام هارون ص 62.
74	6 - 4	: ساقط من النسخة. ويبدو أنه نص دخيل، فإنه الموضع الوحيد، الذي ذكر فيه الجاحظ البحتري في كل من الحيوان والبيان، وإن كان قد ورد ذكر البحتري في رسائل الجاحظ 2: 50 بتحقيق عبد السلام هارون.
	8	: «نقرأ» بدل «حفراً».
	9	: «هو الحفر» مكان «هو الناتئ».
	10	: «هو الناتئ» مكان «هو الحفر».
	12	: هذه التكملة ليست في النسخة.
75	4 - 3	: «وأمنعها للدروس، وأجدر أن يراها من مر».
	7	: «وكل إيغار» بدل «وكل إنفاق». والإيغار: أن يوغر الملك لرجل الأرض يجعلها له من غير خراج.
	9	: ذكر [حق] الحلف والهدنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً [له] من النسيان.
75	7 - 6	: «ولا بين العقود و[بين] الرقوم والخطوط فرق».
	10	: «وبين الحروف المجموعة [و] المصورة من».
	18	: «عرفوا معاني ضروب صور الإشارات».
76	2	: «وردع المجنون الوعيد والتهديد».
	8	: «أو بها مُسكة».
	11	: «والمسند والسيمون كيف كان، كذلك قال الهيثم».
	14	: «وقال أبو عبيدة: كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها، وحصر مناقبها».
	5 - 4	: «يقيد فضيلة اللسان، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلة السيد المرغوب إليه الممدوح به. قال: وذهبت العجم».
	6	: «مثل كردیناذ وبناء أردشير وبيضاء إصطخر».
	10	: «والأبلى الفرد، وفي الأبلق الفرد ومارد».
77	2	: «من القرون السابقة، والأمم البائدة».
	12	: «وكل قصر وصنيع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابنا مدن».
78	13 - 12	: «فإذا استظهرنا للشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، إذا استظهرنا له بغاية الاستظهار» مع سقوط «فماتني عام» بعدها.

ص	س	
79	2 - 3	: «موضع التعجب [منه]، وصار كالكلام المنثور» مع سقوط «والكلام المنثور» بعده.
	4	: «المنثور الذي حول عن موزون» مع سقوط كلمة «الشعر».
	12	: «لبطل ذلك المفخر»، وهو الوجه.
	13	: «لمعاشهم» بدل «لمعاشهم».
79	6 - 7	: «وابن بهريز ووهيلي» مع سقوط ما بين ذلك من كلمات.
80	1	: «بلغة واحدة استفرغت تلك [اللغة] القوة، [وإن تكلم بلغتين انقسمت القوة] عليهما».
80	4 - 5	: «أضر من الخطأ في [بعض] الصناعة والرياضة والفلسفة، وفي بعض المعيشة»، مع سقوط سائر ألفاظ النص.
	16 - 17	: «لم يجد المعين والرافد [بدأً من] التقصير».
81	1 - 2	: «من الخطأ، ولا ينقص منه، ثم يعارض به له من يترك».
83	12	: ساقط من النسخة.
83	1 - 2	: ساقطان كذلك من النسخة.
	4	: «وجه الدهر»، وهو الوجه.
	14	: «في سير البُخْتية»، كما في ل.
	15	: «وضروبا من المرفوع»، كما في ل.
84	22	: «فأمرتهم أن يسيروها تلك السيرة».
	4	: «حتى شدوا من معرفة ذلك شدوا».
	5	: «وكذلك جميع أمركم لا يخلو».
	9	: «على من أزرى على واضع الكتب».
	11	: «مئنتهم في تعريفهم».
84	6	: «ويرتجح قلمه».
	11	: «ويفنى العقل ويبقى أثره».
	12	: «ولولا مارسمت لنا الأوائل».
	16	: «ولو ألجئنا».
85	1 - 2	: «لقد قلت المعرفة، وقصرت الهمة، وانتقضت المنة».
	6	: «اللّه التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة».
	12	: «فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا».
85	2	: «وليس يجد الإنسان في كل حال إنساناً يدرسه». صواب ضبطه «يُدرسه»، يقال درسه الكتاب وأدرسه إياه، كما في اللسان (درس

ص	س	
		382)، وانظر رسائل الجاحظ 1: 77 بتحقيقنا فيه: «وَيَدْرُسُهُمْ مناقبهم».
7		: «ونازعت إلى حب الأدب، وأنفت من حالة الجهل».
15		: «فتظن أنه باب بعض العمال»، كما في ل.
86	4	: «يدع كتابه يغت ويختمر، ولا يثق بالرأي بالفطير».
6		: «وتوقف عند فصوله».
89	9	: «فرأيت» بدل «لرأيت»، وقبله في النسخة عبارة لا يدري صاتها، وهي: «الفترة المانعة من البلوغ في الفهم وتعرف ما يحتاج إلى التعرف منه».
89	3	: «ودربة العلماء».
	12	: «إلى النواويس فالماخور».
90	9	: «علماً بأولها». وس 12: «في العلم همته».
	13	: «خلاف قولك ما ماتوا ولا ذهبوا».
90	1	: «يكون منه إذا ما مات يُكْتَسَب».
91	1	: «فيعلمها أهل البصرة».
	3	: «التكملة التي تبدأ هنا من ل تشاركها فيها نسخة الأميروزيانا إلى نهاية س 7 عند «ولها عرش عظيم»، ثم تنفرد نسخة ل بالتكملة إلى ص 99 س 3 عند «وليرى أنه»، ثم يتفقان في مقدار التكملة إلى كلمة «يسرى» في ص 101 س 4، ثم يسقط الكلام من نسخة الأميروزيانا إلى نهاية س 6 من صفحة 121
92	8	: «وصاحب المال بعرض فساد».
	16	: «تسكن النفس ويثلج الصدر».
	17	: «والأمل فسيحاً»، وهو تصحيح لما أثبت من نسخة ل.
93	10	: «وقالوا: ومتى ورثته كتاباً».
93	1	: «ما بعد كلمة «حظاً» إلى كلمة «خطاً» ساقط من النسخة.
	4	: «طريق قد نهج له».
105	7	: «لن يعدم البانون»، وهي رواية جيدة وإن كان فيها الخرم.
	11	: كلمة «المرى» ليست في النسخة.
105	1	: كلمة «المخثنين» ساقطة من النسخة.
	2 - 3	: «كأنها تمررة فقال البيقطري»، مع إسقاط ما بين هذا الكلام.
	4 - 5	: «إلا بالخصاء دون الإحصاء».

ص	س	
	13	: «وسمى بالسنوط» بدل «ولقب».
106	1	: «وقال يوماً».
	2 - 3	: لا يحمل إلا التمر، وبعضه لا يحمل إلا المنصف، وبعضه لا يحمل إلا الخلال».
	6	: «والخصي» بدل «والخصيتين».
	11	: «وقد زعم لنا ناس».
	12	: «إنما ولدوا له بعد أن نزعت بيضته اليسرى»، وهو الوجه.
	18	: محالسة الأعراب» بالحاء المهملة.
107	1	: «ونضاضته»، بدل: «وخلاصته»، وفي اللسان: ونضاضة الرجل: آخر ولده. وفي السطر نفسه «محزز» بالحاء المهملة، و«ابن كرز» كما في ل.
	7	: «فقد يزعم أنهم».
	8	: «كأنهم يذهبون إلى أنه يستقصي».
	9	: «بفرط قوته».
	12	: «و[من] رقة الكبد والقلب».
107	2	: «وإن كان الخصي أسوأ وأبلغ منهم، وإن جمع».
	3	: «بطرسوس وبادية»، تحريف.
108	6	: «قد أرميت على المائة»، وأربى وأرمى بمعنى.
	7	: «وهي الكبيرة».
	9 - 10	: تركهن زهداً، وتخلّى منهن سنين ودهراً».
	12	: «هجراني لملاسة النساء».
	15	: «ولم يرهن متكشفات عاريات أن يكون إذا تقدم».
108	1	: «موت الخاطر».
	2	: «وفيما تحويه من النساء».
	8	: «من الخطار».
	9	: «والدواعي لا تطوره».
109	1	: «ولم تمتلئ عروقي».
	5	: «ولربما نزا فؤادي عند ضحك إحداهن».
	18	: «وقد كان عثمان بن مظعون».
109	3	: «فأما خضاء الجلب على وجه التجارة».
	4	: «ويمتلخ البيضتين إلا أن تقلص إحداهما من إفراط الفزع».

ص	س	
	5	: «لا يمكن ردها [إلى مكانها] إلا بعلاج طويل» .
	6	: «وظلم يربي [على الظلم الأول و] على كل ظلم» .
	7	: «إذا برأ وهو محبوب القضيبي ذو بيضة واحدة» .
	9	: «موضع الخاص من بيوتهم» .
	10	: «مقرباً [ومن لذلك الإنسال والتمتع] وخصب العيش منعماً» .
	11	: «ومن لذة الإنسال والتمتع بشم» .
	11 - 13	: «فلا يزال عند الفحول محقراً، وعند الخصيان مخرجا مطرداً» .
110	1	: «قتلة سريحة»، كما في ل .
	4	: «مجامع [جلد] الخصية» .
	6	: «وتتحشّف بدل «تنخسف»، وهو الوجه» .
	9 - 10	: «وبشدة التحزيق والعقد بالخييط الشديد التوتر الشديد القتل» .
	1 - 16	: «[و] قال أبو زيد: خصيت الدابة أخصيه خصاء، ووجأته أجؤه وجاء» والدابة . يذكر ويؤنث .
110	1	: «أما الخصاء فهو سل الخصيتين . والوجاء: أن توجأ العروق والخصيان» . يقال خُصِّي كما يقال خُصية .
	2 - 3	: «حتى تسقط الخصيتان والخصيان . الواحد خصية . ويقال ملست الخصيتين أملسهما» .
	8	: «وقديّاً غديّاً» . القديّ: الطيب الطعم والرائحة .
	11 - 12	: «وأكثر السفاد يورث الضعف والهزال» .
111	7	: «وخبرت عن جهله بإتيان النساء وعجزه» .
	14	: «وإذا كمنوا الكمائن» .
135	3	: «عادات» بدل «عادة»
	5	: «الهرمي» موضع «الهرمين» .
113	1	: «على طول الركوب» .
	18 - 19	: «من أهل التجربة المميزين، أنهم اعتبروا أعمار ضروب الناس» .
114	3	: «ولم يجدوا مع طول العمر فيهم» .
	6 - 7	: «قالوا: ولذلك لم نجد فيما يعايش الناس في دورهم [وضياعهم] من الخيول والحمير والإبل والبقر والغنم والدجاج والكلاب والحمّام والديكة» .
114	5	: «إلا ردياً قصير العنق» .

ص	س	
	7 - 8	: «تكلف المأكّل والمشرب، ثم بلغ إلى أن يصير جملاً [لم] يمكنه الضّراب».
	11	: «وهزّلاً» بدل «وهزّالا».
	15	: «[وهي الصرصرانية]» بزيادة كلمة «هي» على ما في ل.
115	7	: «[أنها] أطول الحمير أعماراً».
	9 - 10	: «فجاءت أولاده منها أعظم من سائر الحمير وأحسن، وخرجت أعمارها على أعمار الخيل وسائر الحمير».
	13	: «ولا يعرفون حماراً أهلياً». فعلها «أهليها أو وحشياً».
116	4 - 6	: «وهم يزعمون أن فيروز بن قباذ طلب حماراً أخدرياً فطاوله، فليج به الاعتزام» مع سقوط ما بين ذلك من ألفاظ، وكلمة «الاعتزام» هي الوجه في «الاغترام».
117	1	: سقطت كلمة «لدرست».
	4	: «و[من] تركهم التشاغل».
	5	: «حب إلى هذا».
	6 - 7	: «صيد أفاعي يبيعها للترياقات، وسخّر هذا لأن يكون من سواس الأسد»، مع سقوط ما بين ذلك من كلام وسقوط كلمة «والفهود»، وإظهار (أن) بعد لام التعليل كثيراً ما يستعمله الجاحظ انظر ص 266.
	13	: «وإنما نأبى التيسير للمعاصي» كما في ل.
117	7	: «وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك؛ لأن التيس مع شدة غلمته».
	10	: «فضلاً على أن يكون بينهما نتائج».
117	2	: «يلند» موضع «بلنك» في كل موضع، وهو تحريف.
	9	: «اشتر مرك».
	10	: «بشيئين متفاوتين»، وهو الصواب.
	13	: «للناقة من الحوش فيسفدها».
	16	: «فمنهم من جحد البتة أن تكون الزرافة». ومما لحظته أن «الزرافة» حيثما وردت في النسخة ضبطت بضم الزاي، وهي إحدى لغات فيها، وفي اللسان: «وهي الزرافة والزرافة، والفتح والتخفيف أفصحهما». ثم قال: «وقيل هي بفتح الزاي وضمها مخففة الفاء».
118	3	: «من شأن الورداني والراعي».

ص	س	
	5	: «بسماع الغرائب» .
5 - 6		: «ولو أعطوا مع هذا الاستهتار من الثبوت نصيباً والتوحي حظاً سلمت الكتب» .
119	9	: «يحيى بن لجيم»، و«فيخرج [من بينهما] ولد» .
120	1	: «عبد الرحمن بن [أم] الحكم» . وهو خطأ انظر له حواشي 169 وكذا ص 284 .
	8	: «أراد هو التباعد به» بدل «بعينه» .
	14	: «[هو] آدم السنانير وتلك السنورة [أن تكون] حواء السنانير، قال أبو عبيدة لكيسان [وضحك منه]: أو لم تعلم» .
120	7	: «ولا يقبض عليه بفكه» ، بدل «بكفه» ، وهو الصواب .
	9	: «عظما كان أم غيره» ، [و] مصمما كان أم أجوف» .
	11	: «في شدة شفرتة وناره» .
	14	: «وليس على ذلك [تأويل] قول أمير المؤمنين المأمون» ، تحريف .
121	1	: «الخمارة» بدل «الخمارين» .
	2	: «لبعض من [نكره] ذكره» .
	4	: «بعده في النسخة» يعني عبد الرحمن بن يزيد!
	9	: «من خلوة النساء» [من جميع الأجناس، قال]: قلت لا والله لا أعرفه، قال: بلى أعلم أنه لا يكون» .
	15	: «زناها وسحقها» .
121	2	: «بضروب» موضع «ضروباً» .
	4	: «في تركيبه و[في] إنسالة» .
	7	: «لها عظيم» .
	13	: «المجاش» موضع «المجانيق» ، كما في ل .
122	1	: «دفعت» بدل «اندفعت» و«فأطبخوا واشتوا و[ملأوا، و] ملأوا وادّخروا» .
	15 - 14	: «قليل الإناث، ولا يكدر أيضاً يجمعن البيض» .
123	13 - 12	: «وإذ قالوا في الزرافة ما قالوا فلا تأمنهم» .
	16	: الذي دعا إلى القول في الزرافة تركيب اسمه ، [فجعلوا تركيب الاسم] دليلاً على تركيب» .
123	1	: «كاوماش، كأنه قال: ضأن بقري» .
	2	: «فيه شبه الكباش وكثيراً من مشابه الثور، ليس أن» .

ص	س	
	11	: «من أعناق الشياطين، فجهلوا المثل والمجاز، [وحملوا الكلام] على غير».
	13	: «تغنت شياطيني وحن جنونها».
124	4	: «إذا كانت داهية شيطاناً».
	8	: «من أسطع جسر». وانظر 4: 134.
124	14	: «إلى تلك الجزيرة» بدل «الجزيرة».
125	1	: «فإن لجّ خبلته».
	2	: «وأما الذين زعموا».
	5	: «وعلم أنها [كانت] تكون في الأنهار ومناقع المياه، من الذكر والأنثى»، وكلمة «مناقع»، هي الصواب في «منايع».
	7	: «إنما هو شيء يخلق تلك الساعة من طباع المطر والهواء والزمان».
126	2	: «وهو الذي يخلق» بدل «يتخلق».
	12	: «وجدوا طول أعمار الناس».
	13	: «وإن في الأعراب لأعماراً» بإسقاط كلمة «أطول» بعدها.
127	8 - 2	: «وبذل» بدل «ويزال».
	5	: «الموقوفين على النبيذ».
	8 - 7	: «من كان يشرب النبيذ حياً، وعامة من كان لا يشرب النبيذ قد مات»، وإسقاط كلمة «عامتهم».
	9	: «فقد كانا من المعمّرين».
	10	: «ونميّز الصدق فيه من الكذب».
	16	: «إيثار المُخْفِس»، مطابقاً لما أثبت من تصحيح.
127	1	: «ما بعد كلمة «للنساء» إلى نهاية السطر ساقط من النسخة.
	2	: «ويرون الماء غير الدافق ولا الغليظ»، و«الدافق» تصحيح «الرائق».
	9	: «والحيي الشريف».
	12	: «وإن كان يقايس هذا الأديب الكريم».
128	2	: «وقد كانت إبل الصدقة موسومة».
	8	: «والنقض لمرائر القوى»، وهو الصواب. والمرائر جمع مريرة، وهي القوة من قوى الحبل، تُمرّ وتُقتل.
	13	: «ومن جنس البط».
128	4	: «فتؤدّي، وتصاب في الهواشة فترد».
	6	: «أن نعمّها بالحرّق بالنار».

ص	س	
	7 - 8	: «من ألف بغير بغير، ثم عسى أن يحتاج إلى ذلك في جميع عمره إلى شربة واحدة».
129	3	: «لا تملك الشيء»، كما في ل.
	11 - 12	: «فإن [كان] ذلك في سبيل العلاج بعد أن يكون ذلك المتكلف يعرف وجه العلاج، فالمذهب في ذلك معروف». وهو الصواب.
129	3	: «وليس كل مؤذ ولا كل أذى».
	17	: «ثم زاده على قيمته».
130	1 - 2	: «المعروفين بابتياح متاع اللصوص».
	2	: «من شهد السعانيين»، وهو تصحيح ما ورد في ل: «السعانيين».
	3	: «والسعانيين: عيد من أعياد النصارى».
	7	: «وأصحاب المخارجات» كما في ط.
	9	: «وخلطاء مترافدون»، وهو الوجه.
	18	: «قد قبل من المقوقس [الخصي] كما قبل مارية، و[أنه] استخدمه».
130	3	: «أجمل منه وأشرف وأخدم لم يزد».
	6 - 7	: «لا يحل اطراده ونفيه».
	9	: «ولا يزيل عنه ملكه إلا مثل ما وجب به له ملكه».
	6	: «تديراً أو حكمة».
131	6	: «مطرداً» مكان «مطروداً».
	7 - 8	: «فالفاجر لا يكون المبغي عليه»؛ وهو الوجه.
	21	: بدل عبارة «وهو يباشر بمشقة»: «ولكن ذلك الماء لا يخرج منه إلا بعد جهد شديد وعلاج طويل».
131	1	: «شيء يكون منه إنسان»، وهو الوجه.
	7	: «وتعظيم البعولة».
	9	: «مرة فوق ومرة أسفل، وأسمحت النفس بمكنونها، وأظهرت النفس ما عندها».
112	5	: «الصاحب السوء».
	11	: «ومتى ألقى إلى الفتيات شيء من أمور النساء»، وهو الوجه.
	12 - 13	: «و[عند] قلة التشاغل، وكذلك متى ألقى إلى الفتيات شيء من أمور الغلمان».
	15 - 16	: «التكملة المقتبسة من ل ليست في النسخة».
132	1	: «داعية إلى الميراثية»!!

- ص س
- 2 - 4 : «سقطت هذه التكملة ، وجاء بدلها : «وقال الشاعر فيما يشبه هذا المعنى :
- لا تحقرن من الأشرار ذا صغر فالذئب ليس بمأمون على الغنم
ولا عجوزاً على أهل فتنسدها ولا خصياً على مال ولا حرم
- 9 : «فصادف قلبي فارغاً فتمكنا» .
- 133 1 - 2 : «لامرأة [و] قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها ثم قال : قد والله يا مولاتي وسيدتي ، أسهرت ليلي» .
- 14 : «أشد لها إشغالاً» .
- 15 : «ملهى في النساء» .
- 16 : «وقال سعيد بن سلم» ، وهو الصواب كما في 5 : 161 .
- 134 1 : «غير متكشف» .
- 6 - 7 : «لم يكن عليه من فقد ما رآه في النوم أو مثله له الأمانى مئونة» .
- 134 4 : «ولقد رأيت» ، مع سقوط التكملة التي بعد هذا الكلام ، وسقوط قوله «وَيْتَمَشَى مَعَ الشُّطَارِ» .
- 10 - 11 : «فلما أبصر ذلك بزق وثفل وسقط في يده ، وهجم عليه أمرٌ لو كان رآه» .
- 13 : «ممن كان يخلفه» .
- 14 : «قد حرق» بدل «[حزين]» ، مع سقوط التكملة الثانية في هذا السطر .
- 135 1 : سقطت التكملتان في النسخة .
- 6 : «الماشى المعيب» .
- 9 : «من الشنو والبغضة» .
- 12 : «وتلقحه الجنائيات» ، وهو الأوفق .
- 14 - 15 : «إذا بدا لأحدهم في النزوع وفي ترك الطريقة الأولى» ، وهو الوجه .
- 135 1 : «فخرج لهم حب التشفي شدة الاعتزام على قتالهم» .
- 2 : «أن يحج [البيت]» .
- 9 : «من تعظيمه للدين ، و[من] الاحتراق فيه» .
- 11 : «ولرضى منهم بالمسالمة» .
- 136 1 : «لآل جعفر» موضع «لآل سليمان» .
- 3 : التكملة ساقطة من النسخة .
- 5 : «أليس زان خصي» .
- 12 : «فلا سنان ينك ولا يدعني أنيك» .

ص	س	
136	1	: «يهجو امرأته» ساقطة من النسخة .
	7	: «ولا والله لا والله لا أفلح أو أخصى
	10	: «بلغتني ركب النساء»، وهو الوجه .
	11	: «حين تلقى» .
	12	: «عجل بالخصاء» .
137	3	: «عثرة وجدود» .
	11	: «أترى أن المثلة تحل له حرم الله» .
138	3	: الذي في النسخة يوافق ما أثبت في الحاشية عن نسخة ل .
	14	: «عن نافع [بن عمر]»، صوابه : «[مولى ابن عمر]» .
139	7	: «ولا يخص ويعم بالقصود» .
	13 - 11	: «أبو جزي» بدل «أبو جرير» .
	5	: «وعمر و يونس عن الحسن» .
140	2 - 1	: «إلا بعرض لها، ويزعمون أنه ليس شيء له عدو كعدو السمع» .
	6 - 5	: «عن عرض بذي سبيب»، وهو الوجه . والسبيب : شعر الذنب والعرف والناصية» . ويقال خرجوا يضربون الناس عن عرض، أي عن شق وناصية لا يبالون من ضربوا . اللسان (عرض 38 - 39) .
	8	: «وقال ابن كنانة [وهو] يصف فرساً» .
	15	: «التكملة كذلك في النسخة، مع إسقاط «خلف بن حيان الأحمر» .
141	6	: «كأن شبا طرفه» .
	11	: «في دبسم الغيري»، تحريف . وانظر الأغاني 3 : 27 حيث روى البيت برواية «من نجل زارع» .
141	6	: سقط الكلام من أول السطر إلا كلمة «وزعموا» فإن بدلها «وزعم» .
	7	: «لا يلقن ولا يالف»، وهو الوجه .
142	3	: «وسنداوة تصأى به وحضاجر» . تصأى : تصيح . ويقال أيضاً صأى يَصْنِي . وهذا يوجه رواية ط «تصبي به»، إذ صوابها «تَصْنِي به» .
	15	: «ذكروا [ذلك] عن عمرو بن يربوع، وكما روى أبو زيد» .
142	4	: «وأنشد» فقط، أي بإسقاط باقي العبارة .
	5	: «منون قالوا سراة الجن» .
	14	: «ولم تقل جيء» .
	15	: «أو ملك الأعجم» .
143	2	: «عمرا وقابوس» .

ص	س	
	4	: «جرهما من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، [قالوا]:
	12	: «ومن هذا النسل ومن هذا الضرب من النجل».
143	1	: «وأبوه غيري».
	3	: ينادي [رجلاً ويقول]: يا ذا القرنين، فقال: فرغتم».
	10	: «على جهة العشق».
144	5	: «تركب من الناس والنسناش».
	6	: «والدوال» بإسقاط «باي» كما في ط.
	16	: «يَهَنَّا» بدل «مهنا».
144	1	: «من ولد مَهْنَةٍ ومُهْنَةٍ».
	6	: «ذكرت [لك] كثيراً».
	8	: «وزعم ابن ميثم».
145	2	: حتى «[إنه] ربما وثب على صاحبه».
	7	: «حاجب بن ذبيان».
	8	: «إذا أسلم الحبل».
	10	: «حين فارقه الهزل»، وهو الصواب، والهزل بالضم، الهزال.
146	6	: «فيهزل أهل البيت».
	7	: «وذلك عند السواف» بإسقاط «أنه».
	8	: التكملة التي في آخر السطر ليست في النسخة.
	10	: كثير الجناية على إلفه، وإنما قبلوه حين قبلوه على أن ينذرهم موضع السارق».
	11	: «وتركوا طراده».
146	4	: «إلا وخطمه في الأرض [أبدأ] يتشمم».
	13	: «وفي أموالهم». وهذا تحريف قرآني. انظر تحقيق النصوص ونشرها من تأليف عبد السلام هارون ص 45 وهي الآية 24 من المعارج.
		وفي الآية 19 من الذاريات: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾. فمن هنا وقع اللبس.
147	1	: «وليس من أحرارها [وكواسبها]، ولا من عتاقها وجوارحها».
	12	: «ثم كان مما لا يزاوج».
	13	: «وحرم هذا النسب».
147	13	: «ولا ينازع إلى دجاجه وطروقه».
148	1	: «ولو لم يُخلق».

ص	س	
	7 - 8	: «أو سقط على حائط الدار لم يعرف كيف الرجوع» .
	9	: «يسيراً، ولا يتذكر ولا يهتدي» .
	12	: «وذاهلة طامحة»، موضع «طامحة وذاهلة» .
	14 - 15	: لا يعرف التي سفد، ولا يقصد إلى ولد، ولا يحضن بيضه» .
148	9 - 10	: ساقط من النسخة .
149	2	: «إذا اصطيدت أو قتلت» .
	3	: «وأنشدوا قول الكميت» .
	4	: «لدى الجبل» .
	11	: «عام جاحد» .
150	4	: «وقد حي بكفّي» .
	18	: «صغار ومن ديك تنوس غباغه» كما في ل .
150	1	: «وقال شماخ بن أبي شداد» كما في 7: 85 .
	3	: «فتجعل في حبالك» كما في ل .
	5	: «سقطت كلمة» فإن» .
	11	: «والأجناس» بدل «والخشاش» .
	17	: «وألستهم لا تنطق» .
	18	: «من الفتق بالأعظم [فالأعظم]»، وهو الوجه .
151	1	: «وقلت وهذا باب» .
	2	: «من طرق المراء» .
	6	: «ولكل طعام أكل» .
	8	: «[و] قد زعم ناس أن كل إنسان ففيه» .
	11	: «في البدن، وكما ينمي العرق» .
	12	: «من الحركة» .
	14 - 15	: «ولا بد لكل ذي قوي من أن تظهر قوته»، وهو الوجه .
	16	: «لا بد للمصدر من النفث»، وبإسقاط الواو من أوله .
152	4	: «وشغف بعض النفوس بالتنجيم» .
	6 - 7	: «قنجد واحداً يلهج بشهوة القتال حتى يكتب مع الجند، وآخر يختار أن يكون خبازاً أو مرقاً، وآخر يطلب الملك» .
152	3	: «وأن يسخو على الطعام» . يقال سَخِيَ يَسْخِي، وَسْخُو يسْخُو، وَسْخَا يسْخُو، لغات ثلاث .
153	4	: «والمكروه بالمحسوب» .

ص	س	
	6	: «ومتى بطل التخثير ذهب التمييز» .
	13	: «ومن جهل اليأس جهل الأمر» .
	15	: «وإلى الغباوة والبلادة أو حال النجوم» .
153	1	: «الشمس أو القمر أو النار أو الثلج» .
	4	: «ولأهل التمييز والروية» .
	5	: «والسبع من لطمع الدم» .
	10	: «والملمس اللين» .
154	3	: «منافعها هنيئة» .
	11	: «بأحق من الثاني في الحق الذي جوزت فيه» .
	13	: «والأسباب المتقيدة» .
	15	: «بأدل عليه من الخنزير» . و«إن اختلفا من جهة» .
	16	: «لم يختلفا من جهة البرهان والدلالة» .
154	1	: «أعز عليه من الحدأة، وأن الغزال أحب إليه» .
	3 - 4	: «فجعل بعضها إنسياً وبعضها وحشياً» .
	10 - 11	: «وإن أتى بالغيث» .
	13	: «ولا اختلاف بين أصحابنا»، وهو الصواب .
155	5	: «وما نعرف» .
	7	: «وأنه صالح لصاحب السل» .
	9	: «شيء من الحلواء إلا وهو ضار بالأسنان غيره» .
	11	: «وليسهل مخرج» .
	12	: «ومن الزيتون على زيته والاصطبغ به»، أي الاتئدام به، والصبغ والصبغ: ما يصطبغ به من الإدام، وفي قوله تعالى: ﴿وَصَبِغْ لَكَ لَبِينَ﴾ .
	13	: «والوقود بشجرتهما و[على] ما أشبه ذلك» .
162	5	: «بقلتها وإطرادها» .
	7	: «وتقرز المسلمين من دنوها»، مع سقوط التكملة التي بعدها .
	14	: «وأخذنا في ذكر أسمائها وأنسابها وأعرافها، وتفدية الرجال لها» .
163	4	: «حفظها وإتقانها» .
	5	: «وإهانة اللثام» .
	6	: «وذكر [طول ذمائها]»، وهو الوجه .
	6	: «وشدة مُنْهَها ومعاقده الذمار» !

ص	س	
	9 - 8	: «ذكورتها والذكورة من غير جنسها» .
	11	: «وفهمها وخدمتها» .
	14	: «وإخبار المتطيرين عنها، وعن أسبابها ومنتهى أعمارها وعدد أجزائها»، و«أسبابها» تحريف، و«أجزائها» صوابها «أجرائها» بالراء المهملة .
163	1	: «وسياستها، والتي لا تلقن منها» .
	6	: «فمن يك عنه» .
	7	: «تظل الكلاب العاويات» .
	8	: «من ولد محارب بن خصفة» ساقط من النسخة .
	13 - 12	: «وقال الخريمي، وهو إسحاق بن قوهي في قتلى حرب بغداد» .
164	5	: «ويكنى أبا محمد [في يوسف الشاعر]» .
	7	: «حلقّي بلقيّ كامن» .
	11	: «فقال الحسن: أيا عجيبي ممن يلغ» .
	13 - 12	: «فقام وكيع فجعل يتخلج في مشيته كما يتخلج المجنون، فقال الحسن: لله في كل عضو منه نعمة، اللهم» .
165	3	: «وكصنان عرقها» .
	6	: «وضرب بالكلب في ذلك مثلاً فقال» .
	9	: «إنها امرأة حسناء» .
	10	: «بذي لسانها» .
	17	: «وقال [في] مثل ذلك» .
165	1	: «بغير البيد» .
	3	: «مثل الفرخ أعظمه» .
	6	: «فإذا اشتد بطنه ليسمن قيل: قد ضرب بطنه» .
	7	: «والعقّي هو الققّة» مع إسقاط كلمة «الغيبية» بعدها، وقد أورد الخبر في اللسان (ققق) وقال: «الققّة: العقّي الذي يخرج من بطن الصبيّ حين يولد» .
	9 - 8	: «إن أخي وضع يده في ققّة، إني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقه» ، مع إسقاط ما بين ذلك من كلام .
	14	: «ويشعر ببوله في جوف أنفه، ويسدّد تلقاء خيشومه» .
166	2	: «وتستقلونه بهذا وأشباهه» .
	4 - 3	: «من اللحم الغض الغريض» .

ص	س	
	11 - 12	: «لهو أشد من الأسد، ولهو أجرى من الليث الغادي» .
166	1	: «وبأن أنفه في أسلوب» .
	7	: «نماه لمجد أبّ أصيد» .
	8	: «لم يبعد من طبائع كثير من الناس» .
	10	: «وليس بين [مسلوخ] النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق» ، وكلمة «مسلوخ» صوابها «مملوح» . وفي معجم استينجاس 1427 أن النمكسود هو المملح .
167	3	: «فسمّك بالقحر» .
	4	: «ويَمْذِي في لبان» .
	7	: «ولو أني أشاء قد ارفأنت * نعامته ويفهم ما أقول» ، وهو الوجه ، ارفأنت : سكنت .
	8	: «فما نعلم صنيع العنز» .
	9	: «وقال ابن أحمر» فقط .
167	1	: «ابن هرمة» مع إسقاط «الفهري» .
168	6	: «وحشيها وإنسيها» .
	7	: «حيضاً بيّناً» ، وهو الوجه .
	10	: «لأن الإبل والشاء» ، وهو الأولى مما اقترحته من تصحيح .
	12	: «ما قد قَبَّ ظاهره» . وقَبَّ بمعنى ييس .
	14	: «الاستمراء والقضم» ، حتى تتلمس الديدان» .
	15	: «القذر» بدل «العذرة» .
	16	: «قال عبد الرحمن بن الحكم» مطابقاً لما أثبتته من ل على الصواب . وانظر ص 275 .
169	13	: «والعُنُق الحمر» ، والأعُنُق والعُنُق كلاهما جمع للعناق ، وهي الأنثى من المعز ، ومثلها «العُنوق» .
	13 - 14	: «طبعها وشهوتها» ، مع إسقاط «قوتها» ، والمعنى شهوة الدجاج لخبث الأطعمة .
	17	: «سباطة» بدل «سيوطاً» .
169	1	: «القريس النشوط والشبوط» .
	8	: «لأذناها [محسباً] كما في ل .
	10	: «قال أبو كلة: آدم العميان» بإسقاط صدر الكلام وكلمة «هو» .
	13	: «لبعض البدع» .

ص	س	
170	1	: «هلك فيه فتیان منذ كانت الدنيا» .
	3	: «يلتقم العذرة، وزهما لا يستطيع أكله»، وفيه تحريف ونقص .
	5	: «لا يطيب مالحاً ولا ممقوراً» .
	11	: «وقد بلغ من شهرة الرخمة بذلك - واسمها الأنوق - حتى سموا كل شيءٍ يعرض من الحيوان للعذرة بأنوق» . وهو الوجه، فإن الرخمة إنما سميت بالأنوق لأنها تختار أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة؛ ولم تسم بالأنوق لشهوتها للعذرة .
	14	: «رزق الأنوقين قرباً وجعل» .
		وهذه نهاية المقابلة على ما وجد في مخطوطة الأمبروزيانا من الجزء الأول من كتاب الحيوان .

استدراك وتذييل

ص	س
78	11
في العبارة شيء من الغموض لوجازة ألفاظها، فلتوضيحها يقال: إن امرأ القيس، وهو من أقدم شعراء العرب، قد ذكر «عدسًا»، و«عدس» هو والد «زرارة»، وزرارة كان قريب العهد من مولد الرسول؛ إذ أنه مات يوم أواراة الثاني، وكان ذلك في أيام عمرو بن هند اللخمي، الذي ولد الرسول في أيامه. فنخلص مما تقدم إلى أن أقدم شعر عربي لا يبعد عهده عن الإسلام كثيرًا. انظر مجمع الأمثال 2: 358 وكامل ابن الأثير 1: 355 والعمدة 2: 168 ومعجم البلدان (أواراة).	
122	11
(مطر الضفادع). تصديقًا لما أورده الجاحظ منذ أكثر من ألف سنة. عثرت في صحيفة (الأخبار) العدد 2189 بتاريخ الأربعاء 9 من المحرم سنة 1379 و 15 من يولييه سنة 1959 ما نصه: «دهش السكان في ضواحي أنقرة عندما تساقطت عليهم الضفادع خلال نزول المطر. فسّر إخصائيو الأرصاد الجوية هذه الظاهرة بأنه يحدث في بعض الأحيان أن تقترب السحب إلى درجة كبيرة من الأرض ويصاحبها رياح قادرة على رفع بعض الحيوانات إلى ارتفاع قد يبلغ خمسة آلاف متر».	

كتبه

عبد السلام محمد هارون

أبواب الكتاب

- 3 مقدمة الكتاب
- 16 باب ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبل الخصاء
- 38 ذكر ما جاء في خصاء الدواب
- 161 باب ممّا قدمنا ذكره، وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق
- 162 باب ما ذكر صاحب الديك من ذمّ الكلاب وتعداد أصناف معايها
- 192 باب ذكر من هجى بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس